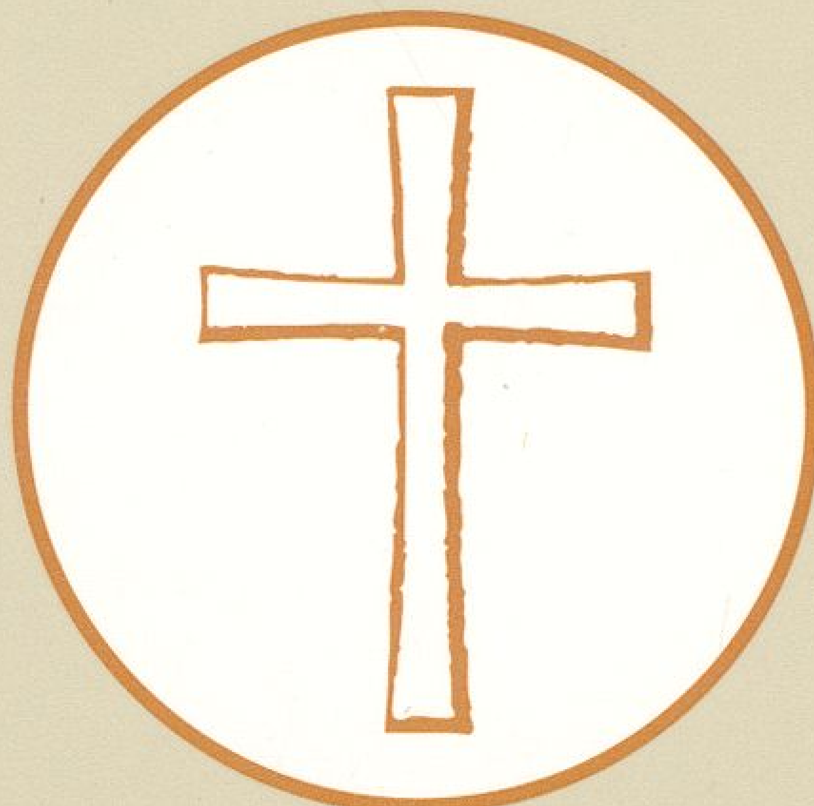
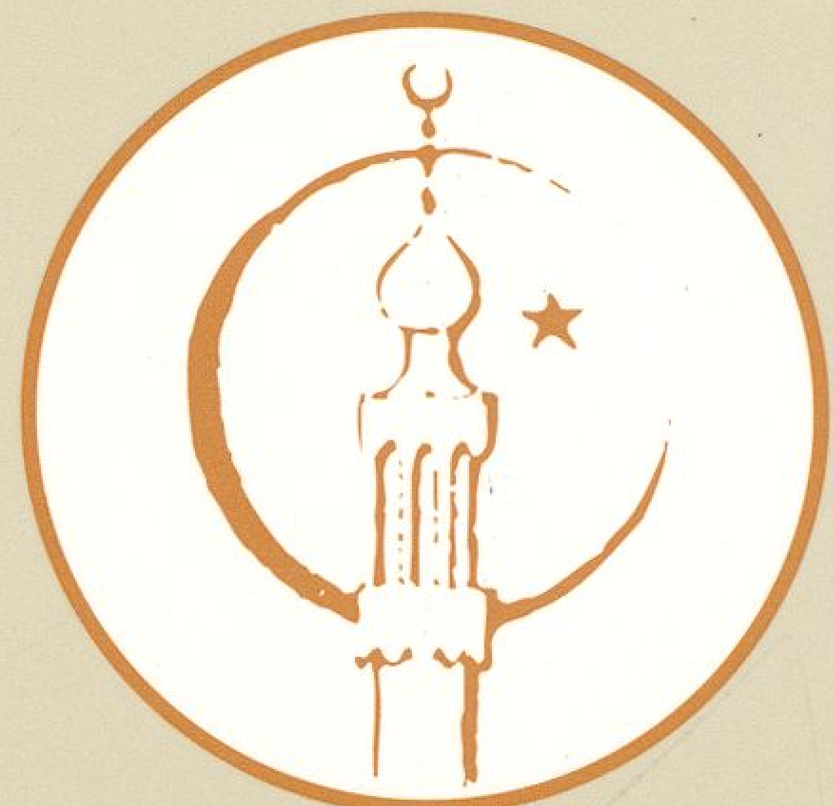
أديان مقارنة

غسّان سليم سالم

محاور الالتقاء ومحاور الافتراق بين المسيحية والإسلام






دار الطليعة - بيروت

محاور الالتقاء ومحاور الافتراق

بين

المسيحية والإسلام

لدار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت ـ لبنان
ص.ب ١١١٨١٣
الرمز البريدي ٩٠ ٢٠٧٢ ١١٠
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠ ـ ١ ـ ٩٦١

الطبعة الأولى
نيسان (ابريل) ٢٠٠٤

غسّان سليم سالم

محاور الالتقاء ومحاور الافتراق

بين

المسيحية والإسلام

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

تصدير

مما لا شكّ فيه، إن أي إسهام في عملية التغذية وحركة الدعم لتيّار الفهم والتفهّم بين سائر المؤمنين بالله الكائن الخالق، الديّان، يُعتبر عملاً إيجابياً خيِّراً، وجهداً بنّاءً مُباركاً.

فكل مسعى أو جهد هدفه ومآله التمهيد لمسار التعاون والتفاهم بين القائلين بإله إبراهيم، خليل الرحمن، عملٌ خيِّرٌ نافع.

إن المؤمنين، كلُّ المؤمنين، أكانوا يهوداً أم مسيحيين أو مسلمين، عليهم أن يبذلوا جملة من المساعي والاهتمامات في سبيل الوصول إلى إحياء تلك «الورشة القديمة ـ الحديثة»، وتنشيطها. ورشة المشاركة والحوار بين كل مؤمن ومؤمن آخر من هؤلاء الذين اهتدوا إلى وجود الصانع الأزلي.

وهذا الإسهام المطلوب والمسعى المرجو اللذين نتحدّث عنهما، لا بدّ لهما، مهما كان حجمها محدوداً، ورقعة اتساعهما ضيِّقة، من أن يأتيا ـ إذا ما قاما على المثابرة وطول الأناة ـ بثمار يانعة ناضجة خيِّرة.

لقد كان للمجهود الذي بُذل حتى الآن، والإنجازات التي تحققت خير عميم مُفيد. فكل ما أنجزه المهتمّون المعنيّون، سواء أكان في مجالات الدراسة والبحث أم في حيِّز اللقاءات والأنشطة، هو تراكم إيجابي وتطوُّر مرغوب فيه، يلفّان ويغمران ساحة الحوار بين الأديان والثقافات. وجدير بالتنويه أن كل ذلك سيؤدّي حتماً ـ حتى ولو كان مدى الانتشار نسبياً وقوة الأثر محدودة ـ إلى فجر جديد، ويوم صاح، يكون فيه الإيمان بالله الكائن، الخالق، الديّان جامعاً مشتركاً، وصلة بين الثقافات والحضارات والشعوب.

في اعتقادنا وتقديرنا أن الحوار والالتقاء بين كل من آمن بالله واليوم الآخر سوف يؤدّي ـ بكل تأكيد ـ إلى أن يُصبح الإيمان أكثر عمقاً وأقوى ازدهاراً وأكثر كثافة وضياء، سواء بين الناس والشعوب والأمم من جهة، أو بين الدول والمؤسسات العامة والخاصة، الحكومية وغير الحكومية من جهة أخرى.

غنيّ عن القول ـ وكلنا يعرف تماماً تلك الحقيقة المُرَّة ـ أنه، وحتى يومنا هذا، لا يزال أكثر من نصف سكان الأرض، لا يعرفون من هو إله إبراهيم ولا يؤمنون بالإله

الكائن الأعلى، الخالق، الديّان. هناك مليارات من بني البشر، لا يزالون يجهلون حقيقة الله الخالق، فهم لا يعترفون بوجوده ولا يؤمنون بدوره الأعلى في مصائر الوجود والأكوان والحيوات.

لا تقرّ هذه المليارات المنتشرة في قارات العالم الخمس لا بوجود:

- ربٌ خالق، كائن أعلى خارق عجيب.
- ويوم آخر، فيه ثواب وعقاب.
- وجنّات النعيم وجهنم النار.

إنه واقع حاضر أليم، واقع مؤسف ماثل أمام جميع الناس وأمام جمهرة المؤمنين.

ويتفق القائلون بالإيمان، من الموحِّدين أبناء الأديان الإبراهيمية، على أنه ليس من المعقول أن يستمر هذا العدد الهائل من أبناء الأرض في جهلهم لعقيدة الإيمان بإله إبراهيم، فيبقون بالتالي بعيدين كل البُعد عن الكتاب المقدس (La bible/The Holy Bible) أو القرآن الكريم.

فكم هو مؤسف ومؤلم إذاً، أن يظلّ جزء كبير من العالم الإنسانيّ غريباً عن رسالة الأنبياء ودعوة الرسل، لا يعرف شيئاً عن:

- عقائد التوحيد الإلهي السماوي.
- المفاهيم والمبادئ والمعتقدات الكتابية والقرآنية التي تدعو إليها الأديان المعروفة بالسماويّة.
- الأركان والفرائض والعبادات سواء أكانت يهودية ـ موسوية أم مسيحية أم إسلامية.

دراستنا الصغيرة هذه، التي نضعها بين يديك، أيها القارئ الكريم، تسعى وتهدف لأن تكون حرف الألف في مشروع المسار الطويل، الذي لا بد من اجتيازه بتأنٍ ووعي وحذر، كي ما نصل إلى تمام حرف الياء، خاتمة المطاف وقمّة المسعى في عملية التعرُّف والفهم المشترك لماهية المسيحية والإسلام.

ما يجمعهما؟

وما يفرّقهما؟

فالمساهمة لازمة ضرورية، حتى ولو كانت موجزة مقتضبة.

والبحث مفيد ممتع حتى ولو كان مختصراً بعيداً عن الكمال.

ونحن، حين نضع أمام قرّائنا محتويات الكتاب هذا، مادته ومضمونه، نرجو منهم أن يتحفزوا للعمل والإسهام ـ كل على قدر طاقته ومثلما يبغي ويريد ـ في تنشيط تيّار الحوار واللقاء والتقرّب والتعرّف على ما في المسيحية والإسلام من فكر وثقافة وعقائد وأعمال وأخلاق.

المقدمة

الإنسان والتديُّن

يُعتبر الإنسان، دون سائر المخلوقات الحيّة التي تملأ وجه الأرض، الكائن الروحي ـ المادي الوحيد المميّز والمصطفى، لأنه ينفرد عن باقي الموجودات الأرضية بأسرها بالخصال الآتية:

ـ الإيمان بالله، إله خالق، كائن، ديّان.

ـ الإيمان برسالات الأنبياء ودعوات الرسل الهابطة عليه من لدن الله ومن عرشه السماوي.

ـ المعرفة التامّة الساكنة فيه والتي تقول له بأنه مخلوق عاقل مُتديِّن مُتعبِّد.

ـ الاعتقاد والاقتناع بأن عليه بذل الجهد تلو الجهد للعيش حسب شريعة الله الخالق الديّان.

ذلك ما يقول به وما يعتقده صفٌ كبير من الباحثين والمعنيين وأصحاب الاختصاص.

غير أن هناك فريقاً ثانياً وصفاً آخر من الباحثين، يقول ويعتقد، بل يؤكد، بأن ظاهرة الإيمان والتديُّن عند الإنسان، هي ظاهرة خاصة مكتسبة بفعل التطوُّر والنمو في الحضارة والرقي، في الثقافة والاجتماع. إنها ظاهرة حصل عليها الإنسان فسكنت فيه وامتزجت بمركّبات كيانه حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حقيقته وذاته العميقة.

ويضيف هؤلاء بأن الإنسان سواء أكان فرداً أم جماعة أقبل على الإيمان والتديُّن بعد زمن طويل من نشوئه ووجوده ككائن عاقل على كوكب الأرض. لقد تبنّى ملكة العبادة بفعل تطوُّره النفسي والثقافي ـ الحضاري خلال العصور والأزمنة الطويلة التي مرّ بها، في انتقاله من الإنسان البدائي إلى الإنسان المُتمدِّن المُتحضِّر. إذاً ـ يقول هذا الفريق الثاني من المتخصّصين ـ أنَّ التديُّن ملكة تراثية اقتناها الكائن البشري عقلاً وفؤاداً، خلال الطريق الذي سلكه ابتداءً من نقطة الصفر... وحتى إنسان القرن الحادي والعشرين الذي نعيش الآن في أول عشرية منه.

هذا ما تقوله المدرسة غير المؤمنة، القائمة على النظريات الآتية:

ـ التديُّن، ظاهرة وممارسة متأخّرة، طرأت كعامل ثقافي طارئ حديثٍ ـ نسبيّاً ـ تَكَوَّنَ في تاريخ النمو الفكري والتطوُّر الشعوري الكامن في ذاتية الإنسان.

ـ الإيمان، شعور جديد في عُمر البشر لم يكن مركوزاً في السليقة البشرية ولا في الفطرة الإنسانية إنما اكتسبه الإنسان اكتساباً وتعلُّماً واقتناءً.

ـ ممارسة الشعائر والطقوس والعبادات، دخيلة على عالم الجنس البشري. وهي لم تظهر على مسرح التاريخ سوى في حقبة متأخّرة من حقبات ما قبل التاريخ.

لقد عرفها ومارسها من قبلُ، إنسانُ المغاور والكهوف؛ أي ليس في فترة بعيدة، بل قبل بضعة آلاف من السنوات سبقت زمن التاريخ الجليّ، زمن الكتابة والتدوين والقراءة وزمن السجلات والوثائق والمدوّنات والمحفورات.

لنعُد الآن سوية ـ بعد هذه العجالة اللازمة ـ إلى المدرسة الأولى، تلك المدرسة التي تقول بأن:

ـ الإيمان والتديُّن هما ظاهرتان فطريتان مركوزتان في ذات الإنسان روحاً ونفساً وجسداً.

ـ العبادة والتعبُّد ملكة كامنة في السليقة البشرية، لا يستطيع الإنسان إلا أن يُمارس طقوسها، فرداً كان أم جماعة.

ـ دفن الإنسان لموتاه دليل قاطع ساطع على أنّه يؤمن بألوهة ما، وأنّه واثق من وجود اليوم الآخر والبعث والقيامة.

تقول نظرية المدرسة الباحثة الأولى هذه، ونعني بها المدرسة المؤمنة، بأن الكائن البشري:

ـ مخلوق حي وعاقل، مُفكّر وذو شعور وأحاسيس.

ـ مخلوق ذو فطرة، مُتديِّن ومُتعبِّد لله الذي قام بخلقه وتكوينه في جبلته القائمة على الضمير والعقل والفكر والإحساس والشعور.

لكل ذلك، تُعتبر هذه المدرسة أن الإنسان مفطور على البحث عن الخالق المكوِّن، ومطبوع على خشيته والتديُّن والتبعُّد له. فما من إنسان يحيا ويعيش إلا:

ـ في إطار من القلق الكياني العميق، خوفاً من المستقبل وخشية على المصير.

ـ في جوّ عام من الحيرة والتساؤل: من أنا؟ كيف أتيت؟ من أين؟ وإلى أين؟

ـ في حرارة التوق إلى رؤية الله ووعي وجوده والإحساس العميق بقدرته المطلقة اللامتناهية.

يقول الباحثون من أنصار الإيمان باللّه، إن التديُّن وُلد مع ولادة الإنسان ونما مع

نمو مداركه وتطوُّر شخصيته في معارج الحياة والمجتمع ومراحل التاريخ.

عندما انتقل الإنسان ـ في مرحلة زمنية متأخّرة نسبياً ـ من حياة الإنسان الفرد ـ مع ما في هذه الوضعية من نظرة فردية ومشاعر وأحاسيس شخصية ـ إلى حياة الإنسان ـ الجماعة ضمن إطار تركيبة الزوجين الاثنين، الذكر والأنثى، بدأت معالم الحياة المجتمعية بالتكوُّن ثم النمو... إلى أن أصبحت حياة أُسرية ـ عائلية. وكبرت بعد ذلك الخليّة ـ الأسرة وتطوّرت مع تقدُّم الزمن وتطوُّر الإنسان إلى أن تحوَّلت من عائلة ـ أسرة إلى عائلة ـ عشيرة مؤلفة من عدة أُسر... فإلى قبيلة مؤلفة من عدة عشائر... فإلى شعوب وأمم وجماعات... تناسلت وتكاثرت حتى دخلت ـ مع ظهور الكتابة والقراءة ـ زمن التاريخ الواضح الجليّ، بعصوره الحضارية المتنوعة وبخصائصه الدينية والثقافية المتعددة.

هكذا رافق الإيمان والتديُّن الإنسان فرداً ومجتمعاً، منذ بدء وعيه لإنسانيته ولذاته العاقلة العارفة، فآمن بالله وتعبَّد له. تديَّن فأقام الشعائر والطقوس والعبادات.

خلاصة القول، إن الإنسان ـ في نظر المدرسة المؤمنة من الباحثين في شأن الدِّين ـ هو مخلوق مطبوع على التديُّن، بالفطرة والسّليقة، آمن بالله وتعبّد له طيلة حقبات الزمن والتاريخ.

أولاً ـ التديُّن في حقبة ما قبل التاريخ

أفادت المكتشفات الأثرية والحفريّات العديدة التي حقّقها وقام بها علماء الآثار والتاريخ البشري، ودلّت الدراسات والأبحاث الخاصة بالأماكن القديمة والمواقع المميّزة التي ترقى إلى أزمان موغلة في القدم، بأن إنسان ما قبل التاريخ، ترك آثاراً ومعالم وشواهد تُعطي فكرة لا بأس بها وأدلّة قيِّمة جلّي عن وضعه الديني. لقد أنارت مجهودات العلماء المعنيين بهذا المجال ـ ولا تزال تُنير ـ جوانب عديدة من حياة الإنسان البدائي الروحية ـ الدينية. ويؤكد العلم اليوم بأن إنسان ما قبل التاريخ هو:

ـ إنسان مُتديِّن عابد.

ـ مُمارس لشعائر العبادة والخضوع.

ـ مُتأمِّل مؤمن، يُناجي ربّه الأعلى ويسترضيه.

دليل العلم على ذلك ومثاله الأبرز هو إنسان المغاور البدائي والكهوف، الذي عاش على مدى فترة زمنية طويلة جداً في ملاجئ الطبيعة مثل: مغاور لاسكو ونيو روفينياك في فرنسا، كهوف عدلون التي تقع على الساحل الجنوبي من لبنان، في قضاء

صور، ومغارة «كسار عقيل» في أنطلياس، وتقع على ساحل المتن من لبنان، شمالي بيروت. . . ، وغيرها من الأماكن الطبيعية الكثيرة المتنوعة، التي اكتشفها علماء الحفريات والآثار والتنقيب في أماكن متنوعة وممتدّة على مساحات القارات الخمس، آسيا، أميركا، إفريقيا، أوروبا وأوقيانيا.

لقد ترك إنسان تلك المواقع كثيراً من البيّنات التي تُخبرنا عن وجوده وحياته في ذلك الزمن الغابر السحيق، الموغل في القدم، مثل:

- الرسوم والتصاوير التي حققها على جدران المغاور والكهوف أو المواقع الأخرى التي سكن وعاش فيها.
- الأدوات والمعدّات واللوازم التي ابتكرها ليستعملها في قضاء حاجات حياته.
- المنحوتات والمُجَسَّمات والأنصاب المصنوعة من حجارة أو خشب أو تراب.
- المقابر والتُرب حيث كان يدفن موتاه فيها.

وتوحي هذه المخلّفات والمتروكات كلها بأن ذلك الإنسان كان كائناً مُتديّناً عابداً، مُقيماً للشعائر والواجبات الإيمانية الروحية.

ثانياً ـ التديُّن في زمن التاريخ

أ ـ حقبة العصور القديمة:

تبدأ هذه الحقبة اصطلاحاً، من بدء التاريخ، أي عندما اكتشف الإنسان الكتابة والقراءة. وهو اكتشاف يُعتبر حدثاً مركزياً هاماً، أتاح للنّاس أن يُدوِّنوا ويُسجّلوا ما يتعرَّضون له من:

- حوادث وأحداث ومناسبات سعيدة أو مُحزنة تعيسة.
- أفكار ومشاعر وروايات وتخيُّلات.

وتنتهي الحقبة هذه بسقوط مدينة روما، عاصمة الإمبراطورية الغربية الرومانية عام ٤٧٦ للميلاد، وتدميرها على يد جحافل الشعوب والجيوش البربرية من جرمان وفرنجة وقوط.

ب ـ حقبة العصور الوسطى:

تبدأ الحقبة التاريخية هذه، بسقوط روما العاصمة، وتستمر طويلاً، أي حوالى ألف عام تقريباً حتّى تنتهي بسقوط مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣ للميلاد.

تميَّزت حقبة العصور الوسطى هذه، بظاهرتين هامتين وحدثين جليلين:

ـ **الظاهرة الأولى:** هي انتشار الدِّين المسيحي شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً:

فمن فلسطين في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، إلى إقليم آسيا الصغرى واليونان، فالحوض الغربي لذلك البحر، ومن روما في جنوب أوروبا إلى الجزر البريطانية وأقطار إسكندنافيا، فروسيا وبلاد الصقالبة والصرب. . .

ـ **الظاهرة الثانية:** هي ظهور الإسلام في شبه جزيرة العرب وانتشاره ـ على حساب المسيحية وديارها ـ شرقاً وغرباً من آسيا إلى الشرقين الأدنى والأوسط. . . إلى إفريقيا فأوروبا ـ الأندلس وصقلية وغيرها من الجزر ـ في العالم الغربي.

ج ـ حقبة العصر الحديث:

تُعتبر مرحلة العصر الحديث، الثالثة القريبة في تاريخ البشرية والإنسان.

ويبدأ العصر الحديث من سقوط مدينة القسطنطينية وزوال إمبراطوريتها البيزنطية عام ١٤٥٣، حيث زالت من الوجود نهائياً واختفت عن ساحة التاريخ دولة الروم في الشرق المسيحي ـ الهليني، اليوناني ـ البيزنطي، لتحل محلها دولة السلطنة العثمانية المسلمة مع الخلافة التي أعاد إحياء موقعها سلاطين بني عثمان، من الأتراك الطورانيين. . .

ينتهي هذا العصر الذي نحن بصدده عام ١٩١٨ للميلاد أي مع انتهاء الحرب العالمية الأولى ـ الحرب الكبرى كما يُسمِّيها الناس أو الحرب الكونيّة ـ واستسلام ألمانيا وحلفائها ومنها تركيا العثمانية، دون قيد أو شرط!

د ـ حقبة التاريخ المعاصر:

تتناول هذه الحقبةُ الرابعةُ تاريخَ العالم والدول والشعوب، من الزمن الممتد بين نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ وحتى يومنا هذا.

الزمن المعاصر هو زمننا، هو العصر الذي نحن فيه نعيش ونعمل.

ثالثاً ـ التديُّن في علم الاجتماع والتاريخ

منذ أن بدأ العاملون المعنيون بالأمر باكتشاف مخلفات الإنسان من:

ـ آثار وبقايا وحفريات،

ـ صُوَر ورسوم ولوحات ومنحوتات،

أخذ العلماء المتخصِّصون بدراسة كل ما وُجد أو وقعت علية أيديهم من هذه الأوابد الهامة والبقايا الثمينة:

ـ سواء داخل المغاور والكهوف التي كان الإنسان القديم يركن إليها.

ـ أو خارج تلك المواقع، عندما خرج ابن آدم من جوف الأرض وبطنها إلى الطبيعة، ليبدأ مُغامرة العمران وملحمة الحضارة.

فعلاً! لقد بدأ العمران البشري مرحلة التمدُّن والحضارة عندما رأى العلماء أن الإنسان بدأ يعمد إلى إنشاء مؤسسات رئيسة ثلاث:

١) بناء «المنزل ـ المسكن» ليقطن فيه، هو وعائلته، بعيداً عن البرد والصقيع والحرّ والقيظ وأخطار الحيوانات المفترسة، ليتجنَّبَ المصاعب والعثرات فيعيش عيشة الحضر.

٢) إقامة المعبد والمصلّى ليُلبِّي حاجاته إلى التديُّن والعبادة وإلى الاحتفال بشعائره الدينية في مكان رحب مُخصَّص ومُكرَّس لذلك.

٣) تأسيس المرافق العامة من موانئ وساحات وسدود وأراض زراعية ومعابر ومشاغل وحِرَف وفنون... وملاعب هوايات.

لقد نمت ـ كما سبق وأسلفنا ـ في عالم التاريخ البشري منذ بدء المدنيّة وحتى اليوم، ثقافة الإيمان والتديُّن والعبادة، عند الإنسان دون غيره من مخلوقات الأرض. وأخذت سليقة البحث تتحدّى للتعرُّف إلى الله، تُرافقها بالتوازي الفطرة البشرية المتحركة والتي تُحفِّز الإنسان إلى التديُّن والتعبُّد... حتى أصبح الدِّين ظاهرة هامَّة في حياة الفرد والمجتمع، ظاهرة مُلاصقة للوجود البشري، مُلازمة لحياة الناس المجتمعية وضرورية لكل شعب من الشعوب أو أُمَّة من الأُمم.

تطوَّرت العبادة وتنوَّعت عبر حقبات التاريخ الذي ذكرنا، فتعدَّدت معها ممارسات الإنسان الدينية من:

ـ عقائد ومبادئ ومعتقدات،

ـ شعائر وفرائض وعبادات،

ـ سلّم قيم ومناقب وأخلاق،

ـ معاملات وتعاطٍ مع الأهل والجيران، القريب والبعيد، الصديق والعدو...

.... إلى أن بلغت أعلى درجات رقيّها ونموّها مع الإيمان بإله واحد خالق ديّان. فالتوحيد هو أقوى درجات التدِّين وأنقى مراتب الإيمان اللذين توصَّلَ إليهما إنسان التاريخ الجليّ، العاقل الواعي.

أ ـ التديُّن في زمن ما قبل التوحيد، أو خارج إطار التوحيد:

قلنا إن عبادة الإنسان تطوَّرت وتنوَّعت من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان.

لقد تعدَّدت الأصول وتنوَّعت التقاليد سواء في المحتوى الإيماني أم في أُطر التعبير عنه. . . فأصبحت كل حضارة من حضارات العالم وكل مدنية من المدنيات وكل ثقافة من الثقافات لها دينها الذي يُميِّزه عن سواه:

- إلهه أو آلهته الخاصة به.
- معابده وهياكله المحددة والمميَّزة شكلاً ومحتوى، مبنى ومعنى.
- عقائده ومبادئه.
- أدبه الديني وتراثه الخاص، على ما فيه من ملاحم وقصص وتأمُّل ووعظ وإرشاد.
- كهنته وسدنته.

غير أنه تجدر الإشارة في هذا الموقع، إلى شعوب منطقة الشرق الأدنى وأممها، وشعوب الشرق الأوسط وحضاراته على تعدُّدها. فلقد كانت حقبة العصر القديم التاريخية الفترة الزمنية التي عرفت هذه الشعوب فيها نشوء الأديان والمعتقدات الغيبية الماورائية. كما كان الشرق الأدنى والأوسط الإقليمين اللذين انطلقت منهما مجموعة من العقائد والحضارات والفكر الديني مثل:

- حضارة سومر وأكاد، وبابل وأور ونينوى وأديانها.
- مدنية وادي النيل ودينها.
- عمران فينيقيا وبلاد كنعان ودين الإله إيل فيها.
- بلاد ما بين النهرين ومرتفعات إيران وفارس. . . إلخ.

وهذه كلها، أنتجت فكراً دينياً مُتطوِّراً ولو لم يصل في نموّه ورقيّه إلى عقيدة التوحيد والوحدانية الخالصة.

لقد كانت هذه المدنيات سبّاقة في ميدان التطلع الديني والفكر الماورائي، غير أنها بقيت بعيدة عن عالم التوحيد الذي بدأ مع الكتاب المقدّس (La bible / the Holy Bible) وشخصياته النبوية من:

- آدم فنوح فسام. . .
- إلى إبراهيم فإسماعيل فإسحق فيعقوب. . .
- وإلى موسى فداود فيوحنا/ يحيى. . .
- إلى المسيح فمحمّد. . .

منطلقاً، حاملاً معه الوحدانية والتوحيد:

- من أور الكلدانيين موطن إبراهيم الأول وموطن عشيرته.

إلى جبل الطور في سيناء حيث سلّم الله إلى موسى الشريعة والوصايا العشر.

- ومن بيت لحم في فلسطين وبيت المقدس في أورشليم حيث وُلد المسيح وبشّر وكرز.

إلى مكّة ويثرب (المدينة في الحجاز) من شبه جزيرة العرب حيث ظهر الإسلام وعمّ وانتشر في جميع الأنحاء والأمصار.

ب ـ أنواع الأديان:

ونصل الآن إلى المقولة العلمية والمعلومة الثابتة التي تقوم على تصنيف الأديان والمعتقدات وتوزيعها على عائلتين دينيتين كبيرتين.

من المتّفق عليه عند الباحثين المختصين والعلماء المعنيين بأنّ الأديان كلها، قديمها وحديثها، شرقيّها وغربيّها تدخل في أُسرتين اثنتين:

ـ فأما الأديان الموحّدة، السماوية الكتابية، وهي الأُسرة التي تُشكِّل موضوع بحثنا في هذا الكتاب.

ـ أو الأديان الأخرى الباقية، وهي لا تعنينا هنا نظراً لكونها ليست موضوع بحثنا هذا. إنها كثيرة عديدة، نذكر هنا أهمها وهي:

ـ الهندوسية.

ـ البوذية.

ـ الكونفوشيوسية.

ـ الطاوية.

ـ الأديان الأرواحية المنتشرة في كثير من بلدان القارات الثلاث آسيا وإفريقيا وأوقيانيا، بالإضافة إلى بعض الجزر والأرخبيلات التي تقع، جغرافياً، في نطاق القارة الأميركية بأقسامها الثلاثة: أميركا الشمالية، أميركا الوسطى، وأميركا الجنوبية.

الباب الأول

ركائز البحث: الينابيع

تقديم الباب الأول

نعتقد أنه علينا أن نعتمد، لإنجاز البحث الذي قرَّرنا القيام به، على ركائز أساسية تُعتبر المراجع اللازمة والمصادر الضرورية التي لا يمكن بناء البحث دون الارتكاز على دعائمها؛ هذه المصادر والمراجع هي في الواقع ينابيع المادة الأولى الحتمية التي ينطلق من رحابها كلُّ باحث ودارس نذر نفسه لدراسة موضوع المسيحية والإسلام.

لذلك رأينا من الضروري أن نُضمِّن تقديم هذا الباب الأول، عرضاً موجزاً لمراجع المسيحية وينابيعها، ولمراجع الإسلام وينابيعه، نستعرض فيه ماهية الركائز والدعائم العقيدية التي تقوم عليها كل واحدة من الديانتين اللتين تُعتبر كلٌّ منهما صاحبة كتاب سماويّ، موحىً به ومنزل.

إن مصدر المعرفة في المسيحية والإسلام ونبع الحقائق والعقائد فيهما هو ـ بلا شك ـ الوحي الإلهي والإلهام الربّاني الآتي من عند الله ولدنّه، باتجاه الإنسان لهدايته وتعليمه وتنمية حسّ التديُّن عنده، للانتقال به من مخلوق متفرّج على الوجود والكون، إلى كائن واعٍ مُتفهِّم لسر الحياة وجوهر العوالم، مُتحرِّك وفاعل ومُساهم في خطة خلاص الجنس البشري.

لقد قامت المسيحية وتقوم على ركائز ثلاث تُعتبر الدعائم التي بُني عليها الإيمان المسيحي. إنها ينابيع الإيمان التي لا تستقيم العقيدة بدونها، وهي:

ـ الكتاب المقدّس (The Holy Bible/La bible).

ـ تعاليم الرسل والتلاميذ (أي الحواريين) والآباء الذين نذروا أنفسهم لمهمة شرح الكتاب المقدّس، وإيصال الحقائق التي يحتويها إلى جميع الناس في كل الأقطار.

ـ التعليم المسيحي الذي وضعته الكنيسة الجامعة والذي يحتوي على:

* جميع الحقائق الإيمانية والعقائد.
* جميع الفروض والواجبات.
* جميع الشرائع والقواعد وأصول العلاقات المجتمعية والمعاملات.

ولقد اعتمدت الكنيسة، في وَضْعِها للتعليم المسيحي، على الينبوعين الأولين أي: الكتاب المقدّس وتعاليم الرسل والتلاميذ ـ الحواريين والآباء ـ المعلمين.

هذا في المسيحية، أمّا في الإسلام، فالأمر لا يختلف كثيراً، إذ إن الدِّين الإبراهيمي ـ المحمدي قام ويقوم على دعائم وينابيع رئيسة وأُسس ثلاث:

١) القرآن المجيد.

٢) السنّة النبوية المحمدية.

٣) تعاليم الأئمة والفقهاء وأصحاب المذاهب الذين كان دأبهم أجمعين العمل على استنباط القواعد الشرعية والحقائق الإيمانية والأحكام انطلاقاً من الينبوعين ـ الأساس.

لذلك وجب علينا ـ كما أعلنّا أعلاه ـ إنشاء هذا الباب الأول من البحث، مخصصين إياه لمعلومات نُوزِّعها على فصلين اثنين:

١) الفصل الأول: ينابيع المسيحية.

٢) الفصل الثاني: ينابيع الإسلام.

آملين أن نتمكّن من إيفاء هذا الموضوع الأساسي حقّه من البحث والتحليل والشرح والإيضاح ضمن إطار حدوده، مُحاولين الوصول إلى أقصى ما نستطيع من:

ـ الموضوعية العلمية الواجبة.

ـ الصدق والأمانة اللازمة.

ـ الحياد المطلق.

تلك الخصائص التي يتطلبها كل عمل جدِّي أو بحثٍ دقيقٍ أو دراسةٍ رصينةٍ.

الفصل الأول

ينابيع المسيحية

ينابيع المسيحية كما أسفلنا ثلاثة رئيسة، عليها تقوم الديانة ومنها تستمد عقائدها ومبادئها الأساسية.

أولاً ـ الكتاب المقدّس The Holy Bible/La Bible

يؤمن المسيحيون بأن الكتاب المقدّس هو كتاب أوحى به الله مضموناً ومحتوى، وأن جميع ما ورد فيه من موضوعات وإعلانات، هي حقائق ذات صفة إلهية.

لقد أوحى الروح القدس، من لدّن الله وعلمه، إلى كتبة من البشر المختارين والمؤلّفين المعيّنين المصطفين، بأن يُدوِّنوا الحقائق التي احتواها الكتاب ـ الموسوعة. وألهم روح الحق القدّوس وأوحى الله إلى تلك النخبة المختارة من الأنبياء والرسل بأن يُدوِّنوا ـ كل واحد منهم بأسلوبه الشخصي المميَّز الخاص به ـ حقائق المعرفة والإيمان التي شاء الخالق المولى إيصالها كرسالة إلهية، إلى بني البشر.

فالغرض الأول الرئيس من قيام الكتاب المقدّس هو:

- إعلان كلمة الله وإرادته ومشيئته وما يريد من الناس أن يكونوا عليه وكيف؟
- هداية أبناء آدم إلى النور الحقيقي: نور الله الساطع.
- الإعداد والتحضير والإخبار عن قدوم المسيح وظهوره بالجسد، لحماً ودماً وعظماً.
- البشارة التي قام بها المسيح أثناء وجوده على الأرض.
- وضع أُسس الحياة التي تُرضي الله والكرازة بالصّراط المستقيم بين شعوب الأرض وكل الأمم.
- تأسيس الكنيسة، جماعة المؤمنين المسيحيين وجسد المسيح الخارق، السرّي، العجيب.

ـ محتوى الكتاب المقدّس ومضمونه:

يتألّف الكتاب المقدّس من جزأين كبيرين، يُطلق عليهما المؤمنون المسيحيون التسمية الآتية:

١) أسفار أو كُتب العهد القديم؛ العهد القديم إيجازاً.

٢) أسفار أو كُتب العهد الجديد؛ العهد الجديد إيجازاً أيضاً.

١ ـ العهد القديم:

يتناول العهد القديم جميع الإعلانات والحقائق الإلهية التي شاء الله أن يُطلع الناس عليها. لذلك قام بتكليم مخلوقه الإنسان فيها، منذ بدء الخليقة مع:

* آدم وحواء، وأبنائهما قايين وهابيل وشيت...
* نوح وسام وأولاده...
* إبراهيم وإسماعيل وإسحق...
* يعقوب المسمّى أيضاً بإسرائيل والأسباط الاثني عشر...
* لاوي وموسى وهارون أخيه...
* شاوول وداوود وسليمان ملوك إسرائيل، الثلاثة الكبار.
* يوحنا المعمدان أو يحيى النبي...
* جميع الأنبياء... حتى مجيء المسيح!

ويتألّف العهد القديم في الكتاب المقدّس بدوره، من عددٍ كبيرٍ من الأسفار أو الكُتب التي أوحى بها الله، وتتوزّع على أربع مجموعات كتابية حسب الترتيب التالي:

* مجموعة أسفار الشريعة وهي خمسة كُتب، جاءت كما يأتي:

ـ أسفار التكوين والخروج واللاويين (أو الأحبار) والعدد والتثنية (أو تثنية الاشتراع).

* مجموعة الأسفار التاريخية التي تحتوي على:

ـ أسفار يشوع والقضاة وراعوث.

ـ سفري صموئيل الأول والثاني.

ـ سفري الملوك الأول والثاني.

ـ سفري أخبار الأيام الأول والثاني.

ـ أسفار عزرا ونحميا وأستير.

* مجموعة الأسفار الأدبية وتتألّف من:

ـ أسفار أيوب والمزامير والأمثال.

ـ سفري الجامعة ونشيد الإنشاد (أو نشيد الأناشيد).

* مجموعة الأسفار النبوية وتحتوي على:
- أسفار الأنبياء الكبار، وهم الذين دوّنوا، بوحي من الروح القُدس، أسفاراً طويلة، زاخرة وكثيفة مثل: نبوءتي أشعيا وأرميا، مراثي أرميا ونبوءة حزقيال، نبوءة دانيال.
- أسفار الأنبياء الصغار، وهم الذين دوّنوا - بوحي من الروح القُدس أيضاً - أسفاراً قليلة الصفحات موجزة الفصول غير أنها - كسابقاتها - عميقة المعنى، كبيرة المرامي وعظيمة الغايات: نبوءات هوشع ويوئيل وعاموس؛ نبوءات عوبديا ويونان وميخا؛ نبوءات ناحوم وحبقوق ووصفنيا؛ نبوءات حجّي وزكريا وملاخي.

هكذا يكون مجموع أسفار العهد القديم تسعة وثلاثين كتاباً كاملاً لا غير.

٢ ـ العهد الجديد:

يتناول العهد الجديد في أسفاره العديدة ولادة المسيح يسوع أي عيسى ابن مريم وبشارته ودعوته. كما يُخبرنا عن جميع أحداث الرسالة، والحوادث التي جرت في ذلك الزمان ابتداءً من الميلاد العجيب... حتى الموت فالقيامة... فالصعود إلى السماء... وتأسيس الكنيسة الأولى: كنيسة الرسل والتلاميذ الحواريين!!

يتألّف العهد الجديد من سبعة وعشرين سِفراً هي الآتية أسماؤها:

* متّى ومرقس ولوقا ويوحنا.
* كتاب أعمال الرسل.
* الرسائل التي دوّنها بولس الرسول وهي الآتية:
- رسالة بولس الرسول إلى المؤمنين (الجُدد) في مدينة روما.
- الرسالتان الأولى والثانية إلى المؤمنين من أهل مدينة كورنثوس.
- الرسالة الموجّهة إلى المؤمنين من أهل مدينة غلاطية.
- الرسالة إلى المؤمنين من أهل مدينة أفسس.
- الرسالة إلى المؤمنين في فيليبي.
- الرسالة إلى المؤمنين في كولوسي.
- الرسالتان الأولى والثانية إلى مؤمني تسالونيكي.
- الرسالتان الأولى والثانية إلى تيموثاوس.
- الرسالة إلى تيطوس.
- الرسالة إلى فيلمون.
- الرسالة الموجّهة إلى العبرانيين.
* الرسائل العامّة وتتألّف من الأسفار الآتية:
- رسالة يعقوب.

- رسالتا بطرس الأولى والثانية.
- رسائل يوحنا الأولى والثانية والثالثة.
- رسالة يهوذا.
* وأخيراً كتاب الرؤيا أو سفر رؤيا يوحنا.

- موضوع الكتاب المقدّس:

الكتاب المقدّس هو - إذاً - الكتاب الذي يحتوي على كلمة الله، التي أوحى بها الروح القدس إلى أنبيائه ورُسُله المختارين، الذين انتقاهم الخالق ليُبلِّغوا الرسالة والدعوة.

ولقد قام هؤلاء بتدوين ما كان يوحَى إليهم ناقلين إياه إلى كل الناس في جميع الأرض. فموضوع الكتاب المقدّس، الأساس والدّعامة هو: إعلان مقاصد الله وتعاليمه وخُططه كما أراد أن يوصلها إلى خلقه.

يشتمل موضوع الكتاب على ما يأتي:
- قصّة خلق الكون والعالم وعملية تكوين الوجود التي قام الله بها، من العدم.
- قصّة تاريخ عملية تعامل الله المُحب مع خلقه من البشر الذين هم صنائعه وكائنات إرادته وقدرته اللامحدودتين.
- الشريعة والناموس اللذين وضعهما الله لحُسن سير الأمور في هذا العالم الذي يُحب.
- وصايا الله العشر التي أوحى بها إلى نبيه ورسوله موسى كليم الرحمن.
- قواعد السلوك الإنساني روحياً واجتماعياً وأخلاقياً.
- تاريخ الشعب الذي يأتي منه الخلاص بالمسيح يسوع، أي الشعب العبراني، الإسرائيلي، اليهودي.
- الأدعية والابتهالات والصلوات... الحكمة والآداب الاجتماعية والعظات...
- سلم المناقب والقيم التي يرغب الله في أن يسير الإنسان على نمطها ومعاييرها...

باختصار، **الكتاب المقدّس** هو الكتاب الذي يقول فيه بولس الرسول ما يأتي:

«... وتعلّم الكُتب المقدّسة منذ نعومة أظفارك، فهي قادرة على أن تجعلك حكيماً، فتبلغ الخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع. فكل الكتاب هو من وحي الله، يُفيد في التعليم والتفنيد والتقويم والتأديب في البر، ليكون رجل الله كاملاً مُعدّاً لكل عملٍ صالح».

(الرسالة الثانية إلى تيموثاوس - الفصل الثالث - الأعداد ١٥ و١٦ و١٧).

دُوِّن العهد القديم من الكتاب المقدّس باللغة العبرانية، وهي لغة الشعب

الإسرائيلي أي الشعب العبراني، الذي هو ذريّة إبراهيم وإسحق ويعقوب والأسباط الاثني عشر، وشعب موسى وهارون وداوود الملك ـ النبي الذي من نَسْلِهِ جاء خلاص اليهود وكل الأغيار من يونانيين ورومان وفُرس وغيرهم. وهو لسان ساميٌّ تماماً، كاللسان الآرامي ـ السرياني وكاللسان القريشي ـ العربي.

أما **العهد الجديد** فلقد دُوِّنَ باللغة اليونانية القديمة، التي كانت اللغة العالمية السائدة في ذلك الوقت. إنها الهيلينية المقدونية، بنت اللغة اليونانية الكلاسيكية، ولقد كانت مُنتشرة في أنحاء الإمبراطورية الإسكندرية المقدونية، ودامت حتى العصر المسيحي، أيام الرومان والبيزنطيين.

تُرجم الكتاب عدّة مرّات من اللغتين الأصليتين المذكورتين أعلاه إلى أكثر من ألفي لُغة شرقاً وغرباً ونُسخ عدّة مرّات. من بين هذه الألسنة التي تُرجم إليها، واحدة تهمّنا بشكل خاص في خضم بحثنا هذا، ألا وهي اللسان العربي. هناك أكثر من ترجمة واحدة للكتاب إلى العربية، سنكتفي بالإشارة إلى اثنتين مُميِّزتين، نعتبرهما الحدثين الأعظمي شأناً والأكثري انتشاراً، في العالم العربي وديار الشرقين الأدنى والأوسط:

أولاً ـ الترجمة الإنجيلية المعروفة بترجمة الدكتور كورنيليوس فاندايك الذي هو أحد كبار المرسلين الأجانب المستشرقين، الذين عملوا ضمن إطار الجامعة الأميركية في بيروت... ولقد نُشرت هذه الترجمة وطُبعت بإشراف الشيخ إبراهيم اليازجي، عام ١٨٦٥ ميلادي.

ثانياً ـ الترجمة الكاثوليكية المعروفة باليسوعية، إذ قامت بها لجنة علمية أشرف على تأليفها وإنشائها آباء الرهبانية اليسوعية الشهيرة في العالم أجمع، ثم قاموا بطبعها في المطبعة الكاثوليكية التابعة لجامعة القديس يوسف في بيروت، عام ١٨٨٠.

الكتاب المقدّس، ينبوع المسيحية:

يتساءل بعض الباحثين المعنيين قائلين:

ألم يُحرِّر المسيح بمجيئه، الإيمان والناس من عبء الناموس، ناموس التوراة، وشرائع العهد القديم اليهودية، وقيودها؟

ثم، ما علاقة المسيحيين، أبناء النعمة الإلهية وأبناء العهد الجديد، بما ورد في العهد القديم من مبادئ وتعاليم؟

أليست أسفار العهد القديم كُتباً خاصة باليهود، ترعى وتُخبر عن علاقة الله بالشعب العبراني، أي بني إسرائيل فقط؟

يُجيب المفكرون المسيحيون وعُلماء اللاهوت عن هذه التساؤلات القيِّمة بما يأتي:

١ ـ علينا أن نُدرك أولاً أن الوحي الإلهي الذي دوَّنه وسجَّله أبناء العهد القديم من اليهود هو وحي لا يختصّ بفئة مُعيَّنة من الناس أو بشعبٍ دون غيره من شعوب الأرض. فالعهد القديم ليس ملكاً أو وقفاً على أُمّة العبرانيين أو بني إسرائيل أو جماعة اليهود، دون غيرهم من الشعوب والأمم.

٢ ـ علينا أن نُدرك ثانياً أن المسيح قد حرَّر الناس فعلاً وحقاً من طقوس العهد القديم وشعائره وتقاليده، عهد مرحلة ما قبل المسيح، لكنّه أعلمنا بأنه لم يأتِ ليُهدِّم الناموس ويَنقض الشريعة، إنما جاء ليُتمِّم ويُكمِّل.

٣ ـ إن العهد القديم يُعتبر الأساس اللازم والمدخل الوحيد الذي يُفسح لنا في المجال كي نلج، بمعرفة وفهم، إلى قلب العهد الجديد وعالمه المسيحاني.

جدير بالذكر، أن نُشير هَهُنا إلى أن العهد الجديد هو الجُعبة الثمينة التي تحتوي كل ما ورد من النبوءات الخاصَّة بالمسيح، تلك التي اكتملت وتمَّت في شخصه وأقنومه وحده.

٤ ـ ما يعنينا في موضوع الكتاب هو كونه كلمة الله الحي وليس الشعب أو الأُمَّة التي تتوجَّه إليها تلك الكلمة الإلهية بمحتواها الربَّاني النبوي المقدّس. فمحور المحتوى الذي ينبض به العهد القديم هو رسالة الخالق إلى شعوب الأرض، قديمها وحديثها، لا الجماعة التي تتوجَّه إليها الخطابات الإلهية مباشرة.

ويُتابع العلماء وأحبار الكنيسة حججهم، فيردّون على المعترضين الذين يتساءلون عن علاقة المسيحية بالعهد القديم، قائلين:

الله، إلهنا، هو الذي اختار ودعا إبراهيم. هو الذي كلَّمَ موسى وسلَّمه الوصايا العشر. هو ـ أيضاً ـ الذي أوحى إلى جميع الأنبياء وليس العكس... واستمرّ في إرسال المبعوثين الذين ثابروا على حَمْلِ رسالته... إلى أن وصلوا إلى ذروة الأمر ونهاية المطاف، إلى العهد المسيحاني الذي توجَّه بإرسال الابن ـ الكلمة يسوع المسيح المتجسِّد! ذلك الذي قال عنه الكتاب:

«... فلمّا تمَّ الزمان، أرسل الله ابنه مولوداً لامرأة، مولوداً في حُكم الشريعة ليفتدي الذين هم في حُكم الشريعة، فنحظى بالتبنّي. والدليل على كونكم أبناء، أن الله أرسل روح ابنه إلى قلوبنا، الروح الذي يُنادي: «يا أبتِ». فلستَ بعدُ عبداً بل ابناً، وإذا كُنتَ ابناً فأنتَ وارث بفضلِ الله». (**رسالة بولس الرسول إلى المؤمنين من أبناء مدينة غلاطية** ـ الفصل الرابع ـ الأعداد ٤ و٥ و٦ و٧).

الكتاب المقدّس، ينبوع الإلهيات:

يؤمن المسيحيون بأن الله أعلن للعالم الحقائق الكونية الكبرى في كتابه الإلهي، الكتاب المقدّس. غير أن الوحي لم يُنزَّل تنزيلاً مباشراً حرفياً كما يعتقد البعض. فالتنزيل الكتابي تمّ في موضوع الكتاب المقدّس على الشكل الآتي:

ـ لقد أوحى الروح القدس وأوعز بطريقة عجيبية خارقة إلى الأنبياء والرسل المختارين الذين اصطفاهم، بالحقائق التي يُريد الله إعلانها للبشر، فدفع هؤلاء المختارين إلى تدوين تلك الحقائق بوحي منه وتدخُّل سرِّي عجيب خارق.

ـ ثم ألهمَ هؤلاء الكتَّاب بأن يُدوِّنوا ـ كلٌّ بأسلوبه الشخصي الخاص ـ مجموعة الأسفار والكُتب التي تؤلِّف موسوعة الكتاب المقدّس وأن يُسجِّلوا ما أراد الله منهم أن يُسجِّلوه وحياً وإلهاماً ربانياً، دون أي مساس بأسلوب كل واحد من هؤلاء الكُتَّاب الملهمين ولُغته، أنبياء كانوا أم رُسُلاً.

الكتاب إذاً، في رأي المسيحيين وإيمانهم، هو الينبوع الأول الكبير لجميع:

* الحقائق الإلهية والمعتقدات الإيمانية.
* تعاليم الربّ الذي أوحى إلى الإنسان والمجتمع البشري.

يتميَّز الكتاب بالخصائص التي أراد الله إبرازها من خلال صفحات أسفاره القديمة السابقة للمسيح، والجديدة التي دُوِّنت بعد مجيء المخلّص وصعوده إلى السماء، وهي الآتية:

ـ الكتاب المقدّس، كلمة الله:

ليس من حق العقل البشري ولا من المنطق، أن يرفض فكرُ الإنسان، الإعلانات الآتية من الله، عبر دِفَتي الكتاب، بحجّة أن ما يتضمَّنه يُعَدّ أموراً خارقة إعجازية ليس بمستطاع العقل أن يُدركها.

فالعقل البشري يفهم ويتقبَّل كثيراً من الأمور التي تدخل سُنّة البديهيات مثل: أن يلد الكائن الحي كائناً حياً نظيره، أو أن النباتات تنمو يوماً بعد يوم لتستمر في التطوُّر... حتى نهاية مطافها.

غير أننا لا نفهم ـ بعقولنا المحدودة ـ كيف يتم ذلك؟ وبأي طريقة خارقة.

وإذا كان الإيمان بالإلهيات غير مقبول لأنه يتخطَّى إمكانات العقل البشري، فإن فكر الإنسان عاجز ـ بالرغم من التقدُّم العلمي الهائل الذي تمَّ في السنوات الأخيرة ـ عن فهم جميع خوارق الكون وأعاجيب الوجود مثلاً...

يأتي هنا دور الوحي الإلهي الذي يُعلن للناس حقائق كثيرة لا يفهمها العلم ولا يجد لها تفسيراً. فالكتاب المقدّس هو بحق ـ في إيمان المسيحيين ـ خزَّان تلك

الحقائق الخارقة؛ ذلك أن الفرق بين صحة ما يُعلنه الله من أمور وما يُعلنه الإنسان من الأمور هو تماماً كالفرق بين الله اللامحدود والإنسان المحدود.

ـ الكتاب المقدّس، كتاب واضح:

الكتاب المقدّس كتاب واضح كل الوضوح وشفّاف كل الشفافية، ودقيق تمام الدقّة. تشهد لذلك، على ما يقول المؤمنون المسيحيون، الوقائع الآتية:

* شهادة الله نفسه إذ يقول: «لأن فمي يتكلم بالصدق وشفتاي تمقتان الإثم، كل أقوال فمي عادلة خالية من كل التواء واعوجاج...».

(العهد القديم ـ سفر الأمثال ـ الإصحاح الثامن ـ العددان ٧ و٨).

* شهادة المسيحيين عبر الأجيال إذ يربط فيما بينهم جميعاً رأي إجماعي ووحدة جوهرية في القول والإقرار بوضوح كتاب الله التام وكلمته، إن على مستوى رسالة الوحي وأهدافه، أو على محور خطة الخلاص التي أعدّها الله لبني البشر، أو على أساس محبّة الله المطلقة للإنسان.

غير أن قول المسيحيين هذا ـ بوضوح الكتاب المقدّس ـ لا ينفي، إطلاقاً، أنه يحتوي على الكثير من الموضوعات والإعلانات التي تفوق طاقة الإدراك أو التصوُّر أو المعرفة البشرية. فكتاب الله الذي يفوق:

* في جوهره وذاته، كل شيء وكل موجود أو مخلوق.
* في صفاته وأقانيمه الثلاثة، كل إدراك.
* في أعماله وصنائعه، كل تصوُّر.

ليس كمثله أي كتاب من كُتب الإنسان.

الله الذي ليس كمثله شيء في الإسلام والمسيحية، أوحى إذاً إلى أنبيائه ورُسُله وقدّيسيه بكتابٍ ليس كمثله كتاب آخر، شبيه!

الكتاب المقدّس، كتاب شامل:

الكتاب المقدّس هو ـ أيضاً ـ كتاب شامل بمعنى أنه يضم في أسفاره جميع الحقائق التي شاء الله أن يُعرِّف الإنسان بها من مثل:

* قضية الخلق والتكوين وصنع الوجود من العدم.
* مسألة خلق الإنسان، ذكراً وأنثى.
* مأساة السقوط «الآدمي ـ الحوّائي» في العصيان.
* خطة خلاص الإنسان من سرطان الخطيئة.

* تجسُّد الأقنوم الإلهي الابن ـ الكلمة وتأنُّسه.
* تأسيس كنيسة المسيح أو جماعة المؤمنين.

الكتاب المقدّس، جولة في رحاب الوحي:

سنبدأ ـ أيها القارئ الكريم، سويّة ـ برحلة سريعة في رحاب الوحي الإلهي المدوّن بكل أمانة في أسفار العهدين القديم والجديد.

ولكن، اسمح لنا بأن نُدَشِنَ رحلتنا هذه بإيضاح نراه لازماً:

إن تعبير: «سفر» الذي يتحوّل في صيغة الجمع إلى: أسفار، هو في الحقيقة تعبير ساميّ الأصل، نجده في اللغتين «الآرامية ـ السريانية» و«العبرانية». تعني كلمة سفر: كتاب، ولقد دخلت اللغة العربية وأصبحت جزءاً من مفردات لغة قُريش، تُستعمل ـ أكثر ما تُستعمل ـ عند الكتابة والحديث عن مدوّنات أو صحف أو كتب دينية ونبوية.

□ جولة في العهد القديم:

يبدأ العهد القديم رسالته بالإعلان الأول الآتي:

«في البدء خلق الله السماوات والأرض...!». ويعني هذا بكل وضوح، أن الله موجود فعلاً. وأن وجوده لا يحتاج ـ في قناعة الإنسان البديهية وفي كيانه الفطري وفي سليقته البشرية ـ إلى أي شكلٍ من أشكال البراهين.

بناءً عليه، فإن الخليقة بأسرها تقع كاملة تحت سلطان الخالق الأزلي، الذي كوَّن الإنسان وأقامه فسلَّطه ورأسه على سائر مخلوقات الأرض، حتى غدا الكائن الأسمى بين جميع ما كوَّن الله وخلق، يتمتَّع بميِّزتي:

ـ الحُرِّيَّة والإرادة والسعادة.
ـ والعلاقة المباشرة المميَّزة والحميمة مع الصانع، الديّان.

لم تدُم الحال طويلاً على هذا المنوال الرائع بين الله والإنسان. لقد دخل عنصرا العصيان والتمرُّد اللذان أدّيا إلى تشويه تلك العلاقة الفريدة والتشويش عليها!... وكان أن حلَّت الكارثة الكونية الكبرى! تمرد الإنسان على خالقه وطُرِدَ من جنّة عدن عقاباً له وقصاصاً.

لقد نتج عن عصيان المخلوق أن غيَّر الله أُسس الوضع ومعالم الصورة اللذين رتَّبهما في الأصل وأرادهما لمخلوقاته. إذ دخل:

ـ الموت والفساد والعداء.
ـ والشهوة والطمع والحروب.
ـ وغيرها من عديد الآثام وكثير الشرور.

دخل كل هذا إلى عالم البشر والأرض، فحلّ المرض والسوء والمنكر في حنايا الدُنيا ومركزها الوسطي، وانفصم حبل العلاقة الحميمة بين الخالق المكوِّن والمخلوق المكوَّن. . . فعجز الإنسان على مرّ العصور - بالرغم من كل ما قام به من مجهود وبذله من مساعٍ - عن استرداد علاقته المميَّزة السابقة بخالقه، إلى أن تدخَّل الله - حُباً منه ورأفةً ورحمةً بالإنسان - فأنقذ المخلوق عبر عملية خلاص كبرى نفَّذها خلال سياق التاريخ البشري الطويل.

حدَّد الله للإنسان العاصي، خطة الغفران ومنهج الهداية عبر نمط جديد من أنماط العلاقات أقامها بمشيئته المُحِبَّة وأبْرَزَها واضحةً ظاهرةً في جميع الأسفار المقدّسة. ويعتقد المسيحيون أن بدء تنفيذ خطة الخلاص التي وضعها الخالق، كان باختيار إبراهيم الكلداني أبي الأنبياء من بين جميع رجالات الأرض ليجعل منه خليلاً له أي خليلاً لله.

لذلك ترك إبراهيمُ المطيعُ كامل الطاعة، أرضَ أجداده ووالديه، وتخلّى عن كل شيء، عندما ناداه خالقه طالباً منه أن يتبع الخطة التي رسمها الله له. فَعَل إبراهيمُ كما أُمِرَ دون أي تردُّد أو تساؤل أو اعتراض حتى سار على درب الطاعة إلى الاستعداد لذبح ابنه تنفيذاً منه لأمر الخالق. . . إذا ما طُلب منه ذلك.

بعد غياب إبراهيم، جدَّد الله عهده الخلاصي ووعده مع: إسحق ابن الخليل إبراهيم ويعقوب ابن إسحق حفيد إبراهيم. . . إلى أن وصل العهد إلى موسى الذي أُعطِيَ الناموس (أو «الهاتوراه» وهو تعبير عبراني يعني بالعربية الشريعة) قانوناً ومرجعاً لشعب الخلاص، شعب العهد القديم.

- سفر التكوين بكلمة موجزة:

هو أول الكتب، يُخبرنا - بأسلوب أدبي - عن مسائل هامة وحقائق عظمى مثل:

* عملية الخلق والتكوين.
* تاريخ شعب الخلاص من آدم إلى إبراهيم.
* تاريخ العبرانيين من إبراهيم إلى يوسف الصديق ابن يعقوب وحفيد إسحق. . . ووصوله إلى مصر.
* نشوء الفنون والحِرَفْ بين الناس والصناعات.
* ظهور اللغات واللهجات المتعددة والمختلفة. . .

ينتهي سفر التكوين بخبر بيع يوسف الصدّيق من قبل إخوته إلى إحدى القوافل المتوجِّهة نحو مصر، ثم انتقال يعقوب وعشيرته إلى وادي النيل بعد أن استدعاه ابنه يوسف. . . إنقاذاً له ولأولاده من الموت جوعاً. . .

ـ **سفر الخروج:**

يعرض كتاب الخروج للمواضيع الآتية:

* سيرة موسى الذي اختاره الله نبياً ورسولاً وقائداً ثم كلّفه بإخراج شعب العبرانيين من ديار مصر، أرض العبودية والذل حيث عانى بنو إسرائيل الأمرَّين من ظُلم المصريين لهم وسوء معاملتهم واستبدادهم بهم.
* تأسيس عيد الفصح أو عيد العبور من العبودية والذلّ إلى الحرية والكرامة، وهو أهم أعياد شعب العهد القديم، إذ أصبح محطّة هامة في تاريخ بني إسرائيل الذين جعلوا منه تذكاراً حياً لانتقالهم (أو عبورهم) من حال الهوان إلى حال التحرُّر.
* اجتياز العبرانيين بقيادة موسى البحر الأحمر إلى سيناء، بفعل مُعجزة إلهية خارقة جعلت لهم وسط اليمّ ممراً من اليابسة، أتاح للجماعة الكبرى الخارجة من بلاد الفرعون أن تنتقل إلى بريّة سيناء على أقدامها دون أي حاجة أو اضطرار إلى سُفُن أو قوارب أو وسائل نقل بحري. تجدر الملاحظة هنا إلى أن البحر الأحمر عاد فأطبق ـ بعد العبور الشهير ـ على المصريين من جيش فرعون فأغرقهم وأهلكهم، لأنهم كانوا في صدد الانقضاض على شعب موسى وشعب أخيه هارون وإبادتهما.
* ظهور الله لموسى على جبل حوريب في طور سيناء وإعطاؤه لوحي الوصايا العشر الحجريين.
* بناء خيمة الاجتماع التي هي المعبد الأول المتنقّل مع الشعب والمخصّص لشعائر العبادة والفرائض.
* تجديد العهد بين الخالق وشعبه، ذلك العهد الذي كان الله قد قطعه قبلاً مع إبراهيم وإسحق ويعقوب / إسرائيل.

ـ **سفر «اللاويين» أو سفر الأحبار:**

يُعالج هذا الكتاب القضايا الخاصّة بعبادة الشعب، مثل:

* تنظيم شعائر العبادة وكيفية إقامتها في خيمة الاجتماع الكبرى، المعبد الأول لشعب بني إسرائيل المتنقّل ـ المحمول.
* فرائض تقديم الذبائح الكفّارية طلباً للغفران ومحواً للذنوب والمعاصي.
* تنظيم الكهنوت ومهمّاته برئاسة هارون أخي موسى، الكاهن الأكبر لشعب إسرائيل ورئيس أحبار الإله الواحد: يهوه.

ـ **سفر العدد:**

يُخبرنا سفر العدد عن مراحل حياة الشعب في بريّة سيناء وترحاله، بما في ذلك من:

* عذاب وألم ومجاعات وعطش.
* تشرُّد وتيه وضياع دام فترة أربعين عاماً.
* دروس قاسية في الخضوع والإذعان إلى وصايا الله، وفي طاعة موسى وقيادته للإسرائيليين.
* خيانة ومكر وتوبة...

إلى أن تمّت الغلبة للرب الإله ولكليمه موسى النبي القائد الذي أمّن الاستمرار والبقاء للشعب المُنهك، الخائف.

- سفر التثنية:

هو الكتاب الخامس والأخير في المجموعة الأولى من أسفار العهد القديم، التي تؤلّف ما يُسمّى بكُتب الشريعة والناموس (أي كُتب الهاتوراه العبرانية).

يحتوي سفر التثنية على:

* مجموعة هامّة من تعاليم الوحي الإلهي التي وردت في خُطب موسى المُوجَّهة إلى الشعب العبراني.
* مجموعة من التشريعات والقوانين الهادفة إلى ضبط كثير من المسائل الحياتية المعيشية.
* خلافة يشوع بن نون لموسى في قيادة الشعب.
* وفاة موسى!
* الاستعداد للدخول إلى أرض الموعد أو أرض الميعاد.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن هذه الأسفار الخمسة الأولى المسمّاة بأسفار الشريعة أو الناموس أو التوراة، قد دوّنها موسى النبي بوحي من الروح القُدس وبإلهام إلهي في الفترة التاريخية المتوسطة من حقبة التاريخ القديم أي بين عامي ١٤٢٠ و١٢٢٠ قبل المسيح، دون أن نكون على يقين من تاريخ مُعيَّن دقيق لعملية التدوين هذه.

- سفر يشوع، بداية مجموعة الأسفار التاريخية:

تبدأ مع هذا الكتاب المجموعة الثانية من مجموعات أسفار العهد القديم الذي نطلق عليها اسم: مجموعة الأسفار التاريخية.

ويروي لنا سفر يشوع كيفية تسلُّم يشوع بن نون قيادة الأُمّة خلفاً للنبي موسى وهو يحتوي على حدثين هامَّين:

* دخول العبرانيين جيشاً وشعباً أرض كنعان، بعد اجتياز نهر الأردن، بدءاً باحتلال مدينة أريحا أول مدينة يدخلها بنو إسرائيل في فلسطين.
* موت يشوع بعد أن أصبح طاعناً في السّن، ودفنه في أرض فلسطين.

هذا بالإضافة إلى تقسيم الأرض الجديدة المحتلة على أسباط الشعب الاثني عشر، والمباشرة بتأسيس المجتمع العبراني المستقر حديثاً، في بلاد فلسطين.

ـ سفر القُضاة:

يُعالج كتاب القُضاة مسألة إنشاء أول سلطة حكومية ـ إدارية ـ تيوقراطية ـ سياسية لتُشرف على شؤون الشعب المستقر حديثاً.

أُعطيت هذه السلطة الأولى وتولاها حكام سموا «بالقُضاة»، فأشرفوا على تصريف أمور الناس وشؤونهم، كما تولوا الدفاع عن حدود الوطن الجديد الذي تُهدِّده ـ من كل جانب ـ شعوب المنطقة المعادية وجيوشُها الجرَّارة. وبدأ نظام حُكم القضاة من تاريخ وفاة يشوع بن نون واستمر إلى أن أقيم نظام الحُكم الملكي مع شاول ملك إسرائيل الأول والذي ينتسب إلى سبط بنيامين.

ـ سفر راعوث:

سفر راعوث هو الكتاب الثامن من كُتب العهد القديم، والثالث في مجموعة الكُتب التاريخية.

يقوم محور السفر هذا على تعليم أساس هو: غزارة البركات السماوية التي يمنحها الله جميع المؤمنين الذين يسلكون الطريق القويم، حسب تعاليم الرب ووصاياه، حتى في الظروف الصعبة والأزمات العصيبة.

إنه ـ أي السفر ـ مغناة جميلة، تشرح كيف أن القيم الإنسانية الأساس من:

* إيمان ومحبة.
* ثقة وطاعة لله.
* معروف وصلاح.

وهي مناقب تستوطن قلب الإنسان كثمار يانعة لروح الله القدّوس، تسري وتنتقل من جيلٍ إلى جيلٍ، كنورٍ ساطعٍ يستهدي به كل مخلوقٍ يبحث عن معنى الحياة الأصيل.

ـ سفر صموئيل الأول:

تُرجِّح الدراسات الكتابية أن هذا السفر، قد تم تدوينه بوحي من الروح القدس في القرن العاشر قبل الميلاد.

يُخبرنا النبي صموئيل في سفره هذا عن المعارك والحروب التي جرت بين جيوش الفلسطينيين Philistins/Philistines أعداء الشعب الإسرائيلي ومنافسيه وجيوش الإسرائيليين بقيادة شاول أول ملك على إسرائيل.

ظهر النبي صموئيل وباشر تعاليمه ونبوءاته في أواخر عهد القُضاة، حين قام ـ

إنفاذاً لمشيئة الله - بتأسيس النظام الملكي وتتويج شاول بعد مسحه بالزيت المقدّس ملكاً أولاً على الشعب.

كما يُخبرنا الكتاب الشيء الكثير عن حياة شاول والشعب الذي عاش في عهده، وعن وفاة الملك الأول ثم تتويج داود ملكاً إذ مسحه الله مكان شاول كعاهلٍ ثانٍ.

- سفر صموئيل الثاني:

يُغطّي هذا الكتاب ويعرض أحداثَ نحوِ من أربعين سنة، هي فترة ولاية الملك داود على مملكة إسرائيل.

يبدأ بحدث موت شاول في إحدى معاركه مع شعب الفلسطينيين القديم، ثم يروي لنا ما جرى من حوادث في بداية عهد داود، إلى نبوءات حُكم ذلك الملك - النبي... وكيف استخدمه المولى مُسيِّراً ظروف حياته لتنفيذ مشروع الخلاص. فداود هو شخصية عظيمة كبرى من شخصيات العهد القديم. إنه - بالرغم من خطاياه العديدة - مُدَوِّنُ سفر المزامير والتائب - المثال والنبي الوقور.

- سفرا الملوك، الأول والثاني:

يؤلِّف سفرا الملوك الأول والثاني تأريخاً شيقاً لحقبة طويلة من سنوات العصر القديم، تقدر بحوالى ثلاث مئة وخمسين عاماً من عُمر الشعب اليهودي، أو أُمَّة بني إسرائيل، دوَّنها بوحي من الله، نبي من أنبياء الرب، حوالى القرن السادس قبل الميلاد.

إن الشأن الذي يهدف إليه كتابا الملوك، الأول والثاني، تبيان كيف أن المشيئة الإلهية تتوجَّه إلى الناس بوضوح وشفافية. إذ يُخاطب الله الملأ من خلال حوادث الماضي وأحداثه وعبر اختبار القوم المعاصرين وتجاربهم الإيمانية، العبادية، ليُبرهن للجميع:

* أن قدرة الله اللامحدودة ظاهرة وبارزة في مجرى الحوادث والأحداث.
* أنها - أي قدرة الله - هي التي ترعى حياة الأُمم والشعوب.
* وهي ترسم خط مسار الجماعات والأفراد.

وفي النهاية، فإن الله لا يُدين أحداً من الناس ظُلماً، قبل إفهامه وتحذيره وإنذاره بخطورة أعماله وضرورة تغيير قواعد سلوكه وما يجب عليه أن يفعل.

- سفرا أخبار الأيام، الأول والثاني:

نُتابع جولتنا في رحاب العهد القديم، في فسيح عالم المجموعة التاريخية منه، إلى أن نصل إلى هذين الكتابين المثقلين بالأحداث الجسام والمكملين لسفري الملوك، السابقين.

يتناول سفرا أخبار الأيام مواضيع هامَّة، نعرض لها بإيجاز واختصار:

* تاريخ الأُسرة وتحديد السبط الذي ينحدر منه الملك داود النبي، الذي هو سبط يهوذا ابن يعقوب / إسرائيل.
* سيرة ملك إسرائيل الأول، الملك شاول.
* ولاية سليمان ابن داود الملك الثالث في سلسلة ملوك إسرائيل، سيرته ووفاته.
* انقسام المملكة إلى مملكتين صغيرتين اثنتين هما:
* مملكة الشمال أو مملكة إسرائيل وعاصمتها مدينة السامرة.
* مملكة الجنوب، ولقد سُمِّيت أيضاً، مملكة يهوذا وعاصمتها أورشليم/القدس.

ـ سفر عزرا:

هو السفر الخامس عشر في كتب العهد القديم، والسفر العاشر في المجموعة الثانية، مجموعة الكتب التاريخية.

يُعالج سفر عزرا موضوع عودة الشعب اليهودي من السبي البابلي الطويل، المُذل إلى مدينة القدس الخربة المهدّمة. كما يُخبرنا عن مشروع إعادة إعمار هيكل الربّ الذي بناه سليمان الملك ـ النبي، والذي دمَّره ـ مع ما دمّر من مرافق المدينة المقدسة ومعالمها ـ نبوخذنصّر ملك بابل والبابليون أثناء غزوهم ليهوذا ومملكته الصغيرة، عام ٥٨٦ قبل الميلاد.

ـ سفر نحميا:

يُعتبر كتاب نحميا الكتاب السادس عشر من كُتب العهد القديم، وهو متابعة وإكمال لمضمون الكتاب الذي سبقه.

يعرض الكتاب لحياة الأُمَّة، بعد العودة من السبي البابلي. وتدور النقطة الرئيسة فيه حول موضوع إعادة بناء السور في المدينة المقدّسة لحمايتها من غزوٍ آخرٍ جديدٍ.

ـ سفر أستير:

سُمِّي الكتاب بهذا الاسم تيمُّناً باسم الزوجة اليهودية الملكة التي تزوَّجها الملك الفارسي أحشاويروش.

أنقذت أستير، تلك الملكة الصالحة، جميع أبناء شعبها اليهود الذين فضَّلوا البقاء في مملكة بلاد ما بين النهرين وعدم العودة إلى فلسطين، وحافظت على حياتهم وممتلكاتهم. لقد أحبطت مؤامرة دبَّرها هامان الشرير مستشار الملك، ضد اليهود، وكشفت ـ بمهارة ـ خطته الجهنمية الهادفة إلى القضاء على اليهود وإبادتهم.

تنتهي بهذا السفر المجموعة الثانية، مجموعة الأسفار التاريخية، لتبدأ مع الكتاب الذي يلي المجموعة الثالثة من الكتب والتي يُطلق عليها تسمية مجموعة الأسفار الأدبية.

ـ **سفر أيوب، جولة في الشعر الديني المقدّس:**

هو الكتاب الأول في المجموعة الثالثة، مجموعة الكُتب الأدبية التي تضم خمسة كُتب هي:

أيوب والمزامير والأمثال والجامعة ونشيد الإنشاد (أو نشيد الأناشيد).

يُعتبر كتاب أيوب قصيدة طويلة من عيون الشعر العالمي، فهي من أجمل ما كُتب في التراث الشعري السامي الشرقي المعروف.

يطرح الكاتب المدوّن، الموحى إليه، في سفر أيوب، مشكلة مأساة أيوب، الرجل البار الصديق. فَلُبُّ الكتاب وعموده الفقري يدوران حول تساؤلات أيوب، وقضايا الألم والمرض والعذاب.

لقد عانى أيوب طوال حياته وتألّم كثيراً من شدّة المصائب والكوارث التي تعرّض لها، فتحمَّلها بصبرٍ وأناةٍ دون أن يفقد إيمانه ورجاءه بالخالق ـ الرحمن.

ـ **سفر المزامير:**

المزامير هي قصائد وأشعار دينية فيها:

* التسبيح والتعظيم وإكرام الله الخالق، الديّان.
* النجوى والابتهال والدعاء.
* التذلُّل والتصاغر والانمحاء أمام حضرة الله.
* التقرُّب من الله والرغبة في رحمته وغفرانه...

يصعدها المؤمن المُتعبِّد إلى العُلى، ويُعبِّر بها المُتديِّن العارف عما يُخالج نفسه المؤمنة وروحه التوّاقة إلى الاتصال بالله، عن:

* رغبة متينة، عميقة وضاغطة، للتقرُّب إلى الرحمن.
* رهبة، سبب نشوئها الشعور الحميم بمخافة الله.
* عرض لمخاوف المؤمن، أملاً منه في الحصول على نعم المولى وإكراماته وهدايته.
* توبة، وطلب مغفرة، ورحمة.

ـ **سفر الأمثال:**

يُعتبر سفر الأمثال عرضاً وافياً وإعلاناً واضحاً لبرنامج من:

* التوجيه والإرشاد.
* التعليم والتربية.

يهدف إلى إسعاف المؤمن ومساعدته في فهم أمور الحياة وبناء عيشة ناجحة وعملية، قائمة على:

* الحكمة والموعظة الحسنة.

* سُلّم القيم الأخلاقية الواجبة على كل إنسان مُتعبِّد. إذ عليه أن يتحلى بها ويُمارسها في جميع مراحل حياته وأمور عيشه سواءً في إطاره الفردي الشخصي، أو في مجاله العائلي ـ الأسري، أو في عالمه المجتمعي العام.

ـ سفر الجامعة:

هو كتاب فلسفي ـ ديني يُعالج مسائل هامّة سواءً وقعت في نطاق علم اللاهوت أو في نطاق الفلسفة. ويعرض لها أمثولة للمؤمن ودرساً ثميناً، أهداه إيّاهُ ربُّ السماوات والأرض، الذي يُعلن لجميع الناس، المبادئ والحكم الآتية:

* الحكمة البشرية عبث بطال.
* اللذّة والغنى، كما السلطة والنفوذ والشهرة، وَهْمٌ وسراب.
* الموت حتميٌّ، لا ريبَ فيه، وهو كأس مفروضة على كل المخلوقات.
* الإنسان كائن ضعيف، وإلى زوال.
* المثول أمام الله حق، فيه خشية وورع...

ـ سفر نشيد الإنشاد أو نشيد الأناشيد:

يُعتبر هذا الكتاب المدهش، آخر كتاب في المجموعة الثالثة من الأسفار أو الكتب الأدبية. وهو نشيد طويلٌ من الشِعر، وقصيدة قصصية يقول عنها الناقدون إنها رائعة من روائع الأدب الرمزي العالمي!...

نشيد الإنشاد، تصوير بهيّ لقصة الحُب الإنساني الذي قدَّسه الله وكرّسه وباركه!

لقد أطاع المحبوبان، اللذان مارسا في النشيد ـ حُبّهما المتوهِّج، الرب طاعة كاملة تامّة، سواء لوصاياه العشر وشريعته، أو لأوامره ونواهيه...

ويرمز الكتاب، أولاً وأخيراً، إلى حقيقة وجودية عظيمة حجمها بحجم الكون والعوالم وهي أن: الله محبّة!

ـ مجموعة أسفار الأنبياء:

تتألّف هذه المجموعة الرابعة من أسفار العهد القديم، مِمّا يُعرَف بكُتب الأنبياء.

تنقسم أسفار الأنبياء هذه قسمين: أسفار الأنبياء الكبار وأسفار الأنبياء الصغار.

ـ أسفار الأنبياء الكبار:

يضم هذا القسم النبوءات الآتية:

* سفر نبوءة أشعياء أو أشعيا.
* سفر نبوءة أرمياء أو أرميا.
* مراثي أرمياء.
* سفر نبوءة حزقيال.

* سفر نبوءة دانيال.

هذه هي كُتب الأنبياء الكبار الخمس، وقد سُمُّوا بهذه التسمية لأنهم دوَّنوا ـ ودائماً بوحي من الروح القدس وإلهام من الباري ـ أسفاراً غزيرة المادة وكثيفة، طويلة البنيان والأمثلة، مثل:

* النبوءات العديدة العائدة إلى موضوع مجيء المسيح وولادته.
* النبوءات الخاصة بعبادة الأوثان والأنصاب والأصنام.
* الإنذار بسقوط مدينة القدس / أورشليم ودمارها على يد نبوخذنصّر الملك، إمبراطور بابل.
* المناحة والبكاء والعويل تفجُّعاً على سقوط بيت المقدس عام ٥٨٦ قبل الميلاد.
* النبوءات التي تتعلق بتجديد العهد والميثاق بين بني إسرائيل والقادر الصانع ـ المسوّي... إلخ.

ـ أسفار الأنبياء الصغار:

يضم هذا القسم الثاني من مجموعة أسفار الأنبياء، النبوءات الآتية:

* سفر نبوءة هوشع.
* سفر يوئيل.
* عاموس.
* عوبديا.
* يونان.
* نبوءة ميخا.
* ناحوم.
* حبقوق.
* صفنيا.
* حجي.
* زكريا.
* سفر نبوءة ملاخي.

أطلق على هؤلاء الأنبياء الاثني عشر تسمية الأنبياء الصغار، نظراً لكون الأسفار التي دوَّنوها ـ ودائماً بوحي من الله وإلهام من الروح القدس ـ قصيرة، لا يتعدَّى كل واحد منها عدداً محدوداً من الفصول والصفحات والموضوعات.

تحتوي أسفار الأنبياء الصغار على نبوءات كثيرة، تُغطِّي موضوعات هامَّة مثل:

ـ علاقة الخالق بالشعب.

ـ مجيء المسيح وقُرب ظهوره وولادته بالجسد.
ـ رسالة تُدين الظُلم والاستبداد وأنظمة الحُكم الشريرة القائمة على القسوة.
ـ نبوءات عن دمار مدينة أورشليم / القدس وخراب هيكل الإله الرب.
ـ تساؤل نبوي فحواه: تُرى هل سمح الربّ بانتشار الشرور في مملكة يهوذا الصغيرة... إلخ.

□ **جولة في العهد الجديد:**

يُعتبر **العهد الجديد**، في نظر المسيحيين، تكملة ـ تتمة وخاتمة ـ للعهد القديم. إنه الإنجاز المحقق لنبوءات العهد القديم كلها.

تُعلِّم الكنيسة المسيحية وتقول بأن العهد الجديد لا يكتمل ـ إيمانياً ـ إلا إذا عاشه المؤمن على ضوء الحقائق الكونية الأساسية التي دوَّنها الوحي في العهد القديم.

ولكن، ما هو هذا العهد الجديد يا ترى؟ ومِمَّ يتألَّف؟

يقول علماء الكتاب المقدَّس واللاهوت إن العهد الجديد هو مجموع الأسفار الموحى بها والتي تم تدوينها لتُغطِّي وتشرح فترة زمنية مُعيَّنة من تاريخ الخلاص الإلهي، أي التاريخ المسيحي.

يبدأ العهد الجديد مع نبوءة يوحنا المعمدان/ يحيى ثم ولادة المسيح في بيت لحم من أعمال اليهودية في فلسطين، إلى نشأته في مدينة الناصرة من أعمال الجليل، وينتهي:
ـ بموت المسيح وقيامته وصعوده إلى السماء.
ـ بتأسيس الكنيسة المسيحية في اليوم الخمسين بعد القيامة، أي يوم العُنصرة.

العهد الجديد إذاً، هو مجموع ما دُوِّنَ ـ بالوحي ـ عن دعوة المسيح وبشارته، رسالته وكرازته حتى يوم صعوده إلى السماء، وهو يحتوي على:

* كتاب الإنجيل ببشاراته الأربع.
* كتاب أعمال الرُسُل.
* رسائل بولس الرسول.
* الرسائل العامَّة.
* كتاب الرؤيا.

الإنجيل:

وُلدت كلمة، إنجيل، من تحريف عربي لكلمة يونانية قديمة، تلك التي كانت لغة العالم الأولى في ذلك الوقت، هي: إيفانجيليون أي:البُشرى السارَّة.

ويتألَّف الإنجيل من أسفار أربعة، هي البشارات الأربع التي تُعَرَف بأسماء الرُسُل والتلاميذ الذين دوَّنوها بوحي إلهي، وهم:

* متّى الحواري الرسول، وهو أحد الاثني عشر.
* مرقص التلميذ، وهو واحد من السبعين تلميذاً.
* لوقا، وهو أيضاً واحد من السبعين.
* يوحنا وهو واحد من الرسل الاثني عشر. يوحنا هذا هو غير يوحنا المعمدان الذي جاء قبل المسيح وأخذ يُعلِّم كنبي ويُمهِّد الطريق لقدوم البشارة الكُبرى، الذي هو النبي يحيى ابن النبي زكريا والسيِّدة أليصابات.

يعتقد المسيحيون بأن الإنجيل ـ بأسفاره الأربعة ـ هو محتوى واحد ومضمون وحيد ومحور رئيس لا غير، ويُعالج موضوعاً قُطباً ـ مركزاً هو:

ـ حياة المسيح وتعاليمه.
ـ آلامه وموته الكفّاريّ على الصليب.
ـ قيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماء.

سفر أعمال الرُسُل:

هو مرجع قيِّم وثمين، يُخبرنا عن بداية البشارة والكرازة بالرسالة الجديدة والإيمان الحيّ.

يبدأ الكتاب بحدثٍ مركزي هام، هو صعود المسيح القائم من بين الأموات إلى السماء، بعد أن قال لرُسُله الحواريين إن الروح القُدس سيحلّ عليهم... وهكذا كان، ففي اليوم الخمسين الذي يلي يوم القيامة تحقَّق الوعد.. وأصبح الرُسُل مُمتلئين من روح الله القدّوس!

تأسَّست الكنيسة الأولى إذاً بحلول الروح القدس وبدأت تنتشر مُعلِّمة هادية إلى الإيمان الجديد:

* الإيمان بالمسيح القائم الغالب، مُعلِّماً وهادياً.
* الاعتراف به وسيطاً وحيداً حيّاً بين الله والناس.
* بث الدعوة الجديدة وما فيها من رجاء وأمل روحيين بين اليهود من جهة، وبين الأُمم الوثنية كاليونان والرومان والآراميين والمصريين وغيرهم من جهة أخرى.

الرسائل البولسية:

تتألَّف هذه المجموعة من ثلاث عشرة رسالة، هي الآتية:

* الرسالة إلى المؤمنين المسيحيين من أعضاء كنيسة مدينة روما.
* الرسالة الأولى إلى المسيحيين من أعضاء كنيسة مدينة كورنثوس.
* الرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس.
* الرسالة إلى مؤمني مدينة غلاطية.

* الرسالة إلى مؤمني مدينة أفسس.
* الرسالة إلى مؤمني فيليبي.
* الرسالة إلى مؤمني كولوسي.
* الرسالة الأولى إلى مؤمني تسالونيكي.
* الرسالة الثانية إلى مؤمني تسالونيكي.
* الرسالة الأولى إلى تيموثاوس.
* الرسالة الثانية إلى تيموثاوس.
* الرسالة إلى تيطوس.
* الرسالة إلى فيلمون.

رسائل الرسول بولس ملأى بكل المعارف المسيحية من: تاريخ ديني وكنسي مسيحي ـ فلسفة ولاهوت ـ قوانين وأنظمة ومبادئ مسيحية لقيادة الكنيسة الجديدة وتنظيم شؤونها وشجونها وحُسن سير الأمور فيها.

وإذا كان الإنجيل هو الكتاب ـ الموسوعة الخاصة ببشارة المسيح وتعاليم الله فيه، فإن الرسائل البولسية هي المرجع الجامع لشرح الإنجيل هذا وإيضاح مبادئه. إنها الدليل المُوسَّع لما ورد في البشارة الإنجيلية من مسائل وقضايا ومعتقدات.

الرسالة إلى العبرانيين:

هذه الرسالة هي سفر مُقدَّس مُوجَّه ـ بشكل خاص ـ إلى اليهود الذين اهتدوا إلى الإيمان بالمسيح. تعرَّض هؤلاء المسيحيون الذين هم من أصل يهودي إلى الضغط والاضطهاد لكي يتخلُّوا عن إيمانهم بالإنجيل ويعودوا إلى يهوديتهم. ولقد وُجِّهت إليهم هذه الرسالة المُدوَّنة بوحي إلهي، لتقوية إيمانهم وتعميق ثقافتهم المسيحية. تُركِّز الرسالة على القضايا الآتية:

* المسيح هو المخلص الوحيد، المُتفوِّق على الكل.
* هو ابن الله ـ الكلمة وابن الإنسان في آن، وهو الكاهن الأعلى.
* المسيح هو الذبيحة الكاملة التامَّة، التي بها وحدها تم خلاص الجنس البشري من المعصية والإثم.
* هو محط أنظار الأنبياء كلهم، منذ آدم. . . إلى يوحنّا المعمدان (أو النبي يحيى).

الرسائل العامَّة:

نصل هَهُنا إلى مجموعة جديدة من أسفار العهد الجديد، هي مجموعة الرسائل العامَّة المؤلفة من:

* رسالة الحواري يعقوب الذي يُعرِّف عن نفسه هكذا: «عبد اللّه والربّ يسوع المسيح يعقوب...».
* رسالتي الحواري سمعان بطرس الرسول الأولى والثانية.
* رسائل الحواري يوحنا الرسول الأولى والثانية والثالثة.
* رسالة التلميذ يهوذا.

تُعالج مجموعة الرسائل العامَّة قضايا اعترضت مسيرة المؤمنين المسيحيين في أول عهدهم في الإيمان الجديد، مثل المسائل التي تتعلّق بحياة الأفراد والأسر والجماعات التي تكوَّنت على قاعدة الإيمان الجديد. وتطرح الرسائل بالإضافة إلى ذلك، مواضيع لاهوتية وإدارية، تعليمية وأخلاقية نشأت خلال مسار الكنائس المحلية، وفي أثناء نشوء وتكوُّن الكنيسة الجامعة، كما تتضمَّن توجيهات إلى رجال الدِّين من الآباء والأساقفة والكهنة والشمامسة الذين يُوجِّهون كنيسة المسيح، وجماعات المؤمنين من أعضائها، على ضوء مبادئ الإنجيل.

سفر الرؤيا أو رؤيا يوحنا:

هو كتاب نبوي كجميع أسفار الكتاب المقدّس: إنه إعلان رؤيوي أوحى به الروح القدس إلى يوحنا الرسول في أواخر القرن الأول للميلاد، عندما كان الحواري يوحنّا المذكور يقضي أيامه الأخيرة في جزيرة باطموس.

لقد قام يوحنّا بتدوين كتابه الموحى به، في فترة النفي القسري الذي أصدرته بحقّه السلطات الإمبراطورية الرومانية في ذلك العصر.

في باطموس، التي هي إحدى جزر اليونان، وفي مرحلة حالكة من مراحل الاضطهادات التي نظمها ومارسها الرومان ضد المسيحيين، قام يوحنّا مُعلناً سفره الهام ووجَّهه إلى جماعات المؤمنين في الكنيسة الطرية العود، التي كانت تعيش فترة قمع وقسوة واضطهاد.

دُوِّنَ الكتاب بأسلوب رمزي يبدأ بتصوير مشهد بهيّ باهر، هو ظهور المخلص في قمة المجد. يلي ذلك تدوين الرسائل التي أمرَ المسيح بإبلاغها إلى:

* الكنائس السبعة المحلية، المنتشرة في إقليم آسيا الصغرى (الواقع حالياً ضمن إطار وحدود الجمهورية التركية).
* الكنيسة الجامعة العالمية.

ليقول لأبنائها ما سيحدُث في آخر الأزمنة من وقائع... إلى أن يعود المسيح في مجيئه الثاني المُمجَّد.

ثانياً ـ تعاليم الرُسُل ـ الحواريين والآباء

يُعتبر تعليم الرُسُل الينبوع الثاني من مصادر الدِّين المسيحي، وهو الدعامة الثانية التي تأتي بعد الكتاب من حيث أهميتها كركيزة تقوم عليها الكنيسة.

يشتمل تعليم الرُسُل والآباء وعلماء اللاهوت على جميع ما قام به:

١ ـ رُسُل المسيح الاثنا عشر، وهم الحواريون الذين انتقاهم واختارهم المخلص ليكونوا عُمُدَ الكنيسة الجديدة.

٢ ـ التلاميذ السبعون، الذين اختارهم المسيح ليعملوا ويخدموا مع الرُسُل.

٣ ـ الآباء الذين تتلمذوا وتعلّموا على يد الرُسُل والتلاميذ، إذ عاشوا معهم واستمعوا إليهم وشاركوا في العبادات والكرازات ونشر الدعوة.

٤ ـ علماء اللاهوت الذين أعلنوا ـ باكراً ـ إيمانهم بالدِّين الجديد. لقد علّم هؤلاء جميعاً وكتبوا، مُستندين في إيمانهم وفكرهم إلى ما ينقله إليهم الرُسُل والتلاميذ، من حقائق إيمانية. ولقد أدّت كتاباتهم وبشاراتهم إلى قيام أدب ديني مسيحي غزير، يُعتبر ـ حتى الآن ـ مرجعاً هاماً، من مراجع البحث، ومصدراً رئيساً من مصادر اللاهوت والفكر المسيحي.

أ ـ تعليم الكنيسة في فترة الاضطهاد:

لقد كان من الصعب جداً على المؤمنين الجُدد، المسيحيين المعمّدين، أن يتمكنوا من ممارسة دينهم وشعائره فعلاً وقولاً وفكراً بشكل علني صريح، في فترة الاضطهاد والقمع والترويع التي استمرت طويلاً.

ولقد تعرّض المسيحيون خلال هذه المرحلة التاريخية الحالكة، إلى أسوأ أنواع القتل والقمع والتشريد والإبادة والدمار. فكثُر شهداؤهم حتى أصبحوا يُعَدُّون بالمئات والألوف، وتفاقم عدد مُشرَّديهم وفقرائهم.

استمر هذا الوضع المأساوي الرهيب مُهيمناً على الساحة قروناً كان المسيحيون خلالها يُثابرون على الإيمان والعبادة في الخفاء والسر، سواءً أكان ذلك في المغاور والكهوف أم في الدياميس والسراديب.

ولم تتغيّر الأمور وتتحسّن الأوضاع، إلا بعد صدور الأمر الإمبراطوري الروماني الذي سُمّي ـ تاريخياً ـ بمرسوم ميلانو أو ببراءة ميلانو الذي نُشِرَ عام ٣١٣ للميلاد، والذي أعطى المسيحيين حريّة العبادة والممارسة الدينية. حدث ذلك في عهد الملك قسطنطين الأول الكبير، الإمبراطور الروماني الذائع الصيت.

ولقد برز إلى الوجود في تلك الفترة ـ بالرغم من قساوة الاضطهاد وعتو القمع

وفداحة الإبادة ـ أدب مسيحي تاريخي ولاهوتي قَيِّم ومُفيد. أدب يُعتبر الينبوع المسيحي الثاني، بعد **الكتاب المقدّس**، حيث راح الآباء المعنيون، بالإنشاء والتدوين والشرح، ينكبّون على الغوص إلى أعماق الحقائق المسيحية وإلى استنباط الأحكام والقواعد والأمثلة.

غير أنه ـ بالرغم من أهمية هذا الأدب الذي أشرنا إليه ـ بقي الفكر المسيحي في ذلك الوقت، بدائياً عفوياً، إذ اكتفى المسيحيون بالحد الأدنى من الظهور على مسرح الحياة العامّة، دينية كانت أم فلسفية أم فكرية أم ثقافية. لقد انحصر الحضور المسيحي في تلك الحقبة من تاريخ الكنيسة الأولى وضاق الفكر، ليحل محل كل هذا الشهادة المدويّة وحُبّ الموت، إذ قضى الكثير من المسيحيين في الساحات الرومانية ومسارح الألعاب، شهداء من أجل إيمانهم الجديد.

ب ـ تعليم الكنيسة في فترة المجامع وما بعد الاضطهاد:

تغيُّر الوضع واستجدّت ظروف إيجابية جديدة، أزاحت عن كاهل المسيحيين كابوس الاضطهاد وعبء القمع الدموي القاسي. ولقد توفَّر ذلك ـ كما ذكرنا ـ بفضل مرسوم ميلانو التالي نصّه:

«نحن قسطنطين أوغسطوس وليكينيوس أوغوسطوس، بعد تبادل الرأي (في مدينة ميلانو) تبيَّن لنا، أن مصلحة الدولة تقضي بتنظيم أمور العبادة ومنح المسيحيين وجميع الرومانيين، حق اتباع الدِّين الذي يؤثرون، وذلك ليرضى الإله أياً كان عنا وعن جميع الخاضعين لنا. وبعد التبصُّر في هذا الأمر، قرَّرنا عدم التعرُّض لحرية المعتقد. وهكذا فإننا لا نمنع أحداً من الناس، عن اتباع دين المسيحيين أو أي دين آخر، يختاره هو لنفسه، آملين أن ننال بذلك، رضى الإله الأعلى وبركته». (نقلاً عن كتاب الدكتور أسد رستم، **كنيسة مدينة الله أنطاكيا العظمى** ـ الجزء الأول ـ الصفحة ١٨١).

بعد صدور هذه البراءة، أُعيدت الأملاك والأوقاف، التي كانت السلطات قد صادرتها، إلى أصحابها المسيحيين، كما دُفِعَت للكنيسة التعويضات المستحقة عن كل خسارة أو ضرر.

خرج المسيحيون بشعائرهم وعباداتهم عندها، من المغاور والكهوف والدياميس، التي كانوا يلجأون إليها لممارسة فرائض الدِّين الجديد، وأصبحوا مثلَ جميع رعايا الإمبراطور أحراراً في القول والكتابة والعمل والتفكير على النحو الذي يُلْزِمُهم دينُهم.

عقدت أبّان هذه الفترة من عُمر الكنيسة والمسيحيين، مؤتمرات عالمية بحثت في شؤون الدِّين الجديد وشجونه وقضاياه واشترك فيها عدد غفير من:

ـ الآباء المعلمين، كبار علماء اللاهوت أو أقمار الكنيسة المحلية والجامعة.

ـ الأحبار والأساقفة من كل أنحاء العالم حيث المسيحيّون المؤمنون.
ـ عُلماء اللاهوت والفلسفة وروّاد الفكر الكتابي ـ الإنجيلي.
ـ العديد من الرهبان الباحثين المتخصّصين.

دُعيت هذه المؤتمرات بالمجامع المسكونية، وقد عُقد منها المجامع الآتية:

١) المجمع المسكوني الأوّل، مُجمَّع نيقية:

انعقد هذا المؤتمر العالمي في مدينة نيقية الواقعة في إقليم آسيا الصغرى، من أعمال الإمبراطورية الرومانية، عام ٣٢٥ للميلاد. ولقد اشترك فيه ما ينيف عن ثلاث مئة حبر وأسقف، بحثوا وناقشوا في الأمور المطروحة أمامهم، على جدول أعمال المؤتمر.

قرَّر المشاركون في المؤتمر ـ بعد المداولة الطويلة ـ وثيقةً هامةً اعتبرت شرعة الإيمان المسيحي العام، هي، قانون الإيمان النيقاوي.

٢) المجمع المسكوني الثاني، مجمع القسطنطينية الأول:

انعقد هذا المؤتمر الثاني في مدينة القسطنطينية (أي مدينة إستنبول الحالية) عام ٣٨١ للميلاد. وبلغ عدد المشتركين فيه أكثر من مئة وثمانية وأربعين مُساهماً من أعاظم رجال الكنيسة، جاؤوا من مختلف الأقطار والأمصار ليبحثوا ويتداولوا. ولقد خرجوا في نهاية «المؤتمر ـ المجمع» بالمقررات الهامّة العميقة، أبرزها:

* تنظيم الكنائس المحلية من أسقفيات وبطركيات.
* إثبات قانون الإيمان، بعد إيضاح كل ما يتعلق بالروح القدس ودوره في العقائد والعبادات... فأصبح يُدعى قانون الإيمان النيقاوي ـ القسطنطيني.

٣) المجمع المسكوني الثالث، مجمع أفسس:

انعقد هذا المؤتمر في مدينة أفسس الواقعة في آسيا الصغرى. وقد خرج بعد أبحاثه ومداولاته بالقرار الهام الآتي:

عدم الاعتراف بتعليم نسطور، أسقف مدينة القسطنطينية، واعتباره خارجاً عن خط الإيمان المستقيم، غير مُنسجم مع تعليم الكتاب المقدّس ومخالفاً لمبادئ الحواريين الرُسُل الإيمانية، مُنشقاً عن تقليد الآباء والمعلمين ويتنافى مع:

* وحدة الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح، الابن ـ الكلمة.
* وحدة الأقنوم الابن ـ الكلمة، الذي هو شخص واحد لاهوتاً وناسوتاً.

انعقد مجمع أفسس إذن، في الثاني والعشرين من شهر حزيران (يونيو) في عام ٤٣١ للميلاد، برئاسة الأسقف كيرللس مطران مدينة الإسكندرية المصرية، ويعتبره

المؤرخون وأصحاب الشأن في مثل هذه المواضيع من أهم المؤتمرات العقائدية التي جرت في تاريخ الكنيسة.

٤) المجمع المسكوني الرابع، مجمع خلقيدونية:

انعقد في مدينة خلقيدونية على الضفة الشرقية لمضيق البوسفور وقبالة مدينة القسطنطينية العظمى (إستنبول الحالية).

بدأ المؤتمر أعماله في اليوم الثامن من شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ٤٥١ للميلاد، إذ لبّى الدعوة للاشتراك فيه، ما يزيد على خمس مئة، بين أسقف وحبر وعالم، تدارسوا المواضيع التي كانت على جدول الأعمال وبحثوا فيها...

أما أهم قرار صدر عن المشتركين في المؤتمر فهو، ولا ريب، القرار الآتي: تأكيد العقيدة المتعلقة بالأقنوم الابن ـ الكلمة والتي فحواها ما يلي:

«ابن واحد، هو ذاته ربّنا يسوع المسيح.

هو ذاته كامل في اللاهوت وهو ذاته كامل في الناسوت.

وهو ذاته، الله حقاً وإنسان حقاً.

صار إنساناً بنفس عاقلة وبجسد.

له ولأقنوم الآب عين الجوهر بحسب اللاهوت.

وله جوهرنا ذاته بحسب الناسوت.

شبيه بنا في كل شيء ما خلا الخطيئة.

مولود من الآب قبل كل الدهور بصفة لاهوته.

لكنه في الأيام الأخيرة ـ من أجلنا ومن أجل خلاصنا ـ وُلد من مريم العذراء أُم الله (أي الثيوتوكس)، وهو تعبير يوناني يعني، باللغة اليونانية القديمة: (والدة الله) بصفة ناسوته. هو ذاته مسيح واحد، ابن، ربّ.

نعترف به قائماً بطبيعتين.

دون أي تشويش أو تغيير.

بلا انقسام ولا انفصال.

واختلاف الطبيعتين (فيه) لم يُمحَ (أي الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية) على الإطلاق، بالاتحاد، بل على العكس تبقى خواص الطبيعتين سالمة، وتلتقي في أقنوم واحد».

(راجع كتاب ب. ث. كاملو، **تاريخ المجامع المسكونية** ـ الجزء الثاني ـ الصفحتين ٢٢٤ و٢٢٥).

٥) المجمع المسكوني الخامس، مجمع القسطنطينية الثاني:

عُقد مجمع القسطنطينية الثاني عام ٥٥٣ للميلاد. ومن أهم القرارات التي

اتخذها في نهاية أبحاثه وجلساته ما يأتي:

* تأكيد لإدانة تعاليم نسطور غير السليمة.

* إدانة تعاليم أريجانوس واعتبارها لا تلتقي مع العقيدة المستقيمة، عقيدة الكنيسة العالمية الجامعة.

٦) **المجمع المسكوني السادس، مجمع القسطنطينية الثالث:**

انعقد المؤتمر هذا فيما بين عامي ٦٨٠ و٦٨١ للميلاد في مدينة القسطنطينية. ولقد أدان النظرية المونوتيلية فيه، وهي «نظرية ـ عقيدة» تقول: بوجود مشيئة واحدة هي المشيئة الإلهية، في شخص المسيح، الأقنوم الابن ـ الكلمة، المتأنّس أي الذي تجسّد وصار إنساناً. إذ اعتُبِرَت المونوتيلية هذه تعليماً مُنافياً لجوهر الدِّين وغير مُنسجم مع روحية الكتاب المقدّس وتعاليم الرُسُل.

٧) **المجمع المسكوني السابع، مجمع نيقية الثاني:**

انعقد المؤتمر المذكور عام ٧٨٧ للميلاد في مدينة نيقية. ومن أهم مقرراته ما يأتي:

* شجب التعاليم والممارسات التي دعت وتدعو إلى محاربة تكريم الأيقونات.

* اعتبار تكريم الأيقونات وسيلة صحيحة من وسائل العبادة، نظراً إلى ما ترمز إليه من شخصيات مُقدَّسة أو مُكرَّمة ومن معنى عبادي سليم.

٨) **المجمع المسكوني الثامن، مجمع القسطنطينية الرابع:**

دشّن المؤتمر أعماله في اليوم الخامس من شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ٨٦٩ للميلاد.

توالت جلساته وتتابعت حتى الجلسة الختامية التي انعقدت في اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط (فبراير) عام ٨٧٠ للميلاد وقد صدرت عنه المقررات الآتية:

* تنظيم الكنائس البطركية الرسولية الخمس الكبرى:

ـ روما وسائر العالم الغربي اللاتيني.

ـ القسطنطنية وكنيسة الشرق اليوناني الهلّيني.

ـ الإسكندرية ومصر وإفريقيا.

ـ إنطاكيا وسائر المشرق (أي بلدان الشرق الأدنى والأوسط).

ـ أورشليم / القدس وسائر الديار المقدّسة.

* تنظيم علاقة كل كنيسة من هذه الكنائس بالكنائس الأخرى.

ثالثاً ـ تعاليم كنيسة المسيح

سوف نكتفي ـ نظراً لضيق المجال وضرورة الإيجاز ـ بعرض ما ورد في الكتاب ـ الموسوعة: **التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية** وإعطاء فكرة واضحة ـ قدر المستطاع ـ عن محتواه ومضمونه، على سبيل النموذج لا الحصر لما هو التعليم المسيحي، ولماذا اعتبرناه ينبوعاً ثالثاً وركيزة ثابتة من ركائز الدِّين ودعائمه؟

أ) ما هو كتاب: التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية؟

هو كتاب ضخم ووثيقة غنية واسعة، تتألَّف ـ في طبعتها الأولى التي صدرت باللغة الفرنسية ـ من ست مئة وخمس وتسعين صفحة من قياس الورق ذي القطع الكبير.

تحتوي الوثيقة المذكورة جميع عقائد الإيمان المسيحي الكاثوليكي التي تنطلق وتقوم على الدعائم الآتية والينابيع المذكورة:

* الكتاب المقدّس.
* تعليم الرُسُل والآباء.
* مقررات المجامع المسكونية.
* رسائل البابوات المتعددة، المتنوعة والجامعة للمواضيع والعقائد المسيحية والأركان والعبادات والمعاملات.

إن الميِّزة الرئيسة لهذا الكتاب هو كونه يحتوي على كل الينابيع والمصادر والركائز والدعائم التي يقوم عليها الإيمان والدِّين والممارسة الروحية الواجبة، بالإضافة إلى سُلَّم المناقب والأخلاق التي يؤمن بها المسيحيون ولا سيما الكاثوليك منهم.

ب) محتويات الكتاب:

يتألَّف كتاب التعليم المسيحي المذكور من القسمين الهامَّين:

* المقدمة الطويلة الوافية، الشاملة.
* جسم الكتاب ويحتوي على أجزاء طويلة يُعالج كل جزءٍ منها موضوعاً رئيساً من مواضيع الإيمان والدِّين.

ـ مقدمة الكتاب:

تتناول مُقدِّمة الكتاب بالبحث، النقاط الآتية:

* حياة الإنسان، معرفته ومحبّته لله خالقه.
* الإيمان بالله الواحد، نشر هذا الإيمان الوحداني وبثّه بين الناس.
* هدف التعليم المسيحي.

* مقوّمات التعليم المسيحي.
* توجيهات عملية لحُسن استخدام كتاب التعليم المسيحي والاستفادة من مضمونه.

ـ القسم الأول من الكتاب:

يُعالج القسم الأول من الكتاب الموضوع المحوري ومركز الدائرة في العقيدة المسيحية وفي كل من الدينين الموحّدين الآخرين، الدِّين الموسوي اليهودي ودين الإسلام المحمّدي ألا وهو موضوع الإيمان بإله واحد أحد:

أنا أؤمن بإله واحد.

ونحن نؤمن بإله واحد.

يقول لنا الكتاب: إن الإنسان قادر ويستطيع، بفطرته وجبلته وسليقته البشرية ـ أن يتعرَّف على الله الكائن الموجود من خلال الكون المخلوق، ويُمكنه بالتالي ـ عبر حواسه وعقله ـ أن يؤمن بالصانع، المُكوِّن، الحيّ:

* لقد أظهر الله نفسه وأعلن للإنسان من هو بواسطة رسالات الأنبياء.
* لقد أوحى الله إلى مختاريه كتابه المقدّس الذي هو إعلان فريد واضح لوجود الربّ.
* أما جواب الإنسان على الدعوة الإلهية فلقد كان: إما بالإيمان، أو بعدم الإيمان، أو بالإيمان دون الطاعة والتقيُّد بالقانون الإلهي.

ـ القسم الثاني: إعلان الإيمان ومقوماته:

يطرح هذا القسم تعريف الإيمان بالله الواحد، حسب المعتقد المسيحي.

لقد تولّى شرح الإيمان حسب ما تُعلِّمُهُ الكنيسة بمقوماته وأُسسه وجوانبه، أي الإيمان:

* بإله أقنوم آب.
* بإله أقنوم ابن.
* بإله أقنوم روح قُدس.
* بكنيسة واحدة جامعة مُقدَّسة رسولية هي جماعة المؤمنين كافة وجسد المسيح الخارق السرِّي.

ـ القسم الثالث: العبادة والشعائر:

ما معنى فصح المسيح؟

هو العبور من العهد القديم، عهد الشريعة والناموس، إلى العهد الجديد، عهد الخلاص بالمسيح وذبيحته التي غفرت خطيئة العالم.

ما هو معنى القُدُسات، أو الأسرار ـ الخوارق السبعة؟

هي علامات وأفعال قُدُسات وفرائض لا يكتمل الإيمان دون ممارستها:

* العماد أو المعمودية، معمودية الماء.
* التثبيت أو دمغ الإيمان في الروح والنفس والقلب وَوَسْمِهِ في ذات المرء أو المرأة.
* القُربان أو إقامة ذبيحة المسيح الكفّارية، تحت شكلي الخبز والخمر.
* الاعتراف بالذنوب والمعاصي والحصول على الغفران بعد التوبة النصوحة.
* الزواج وبناء الأسرة فالعائلة فالمجتمع.
* الكهنوت الذي يقوم على سيامة البطاركة والأساقفة والكهنة والشمامسة، لتولّي شؤون العبادة والشعائر والفرائض.
* مسحة المرضى التي تهدف إلى وضع المريض بين يدي الله خالقه ومُكوِّنه من العدم.

ـ القسم الرابع: الحياة مع المسيح:

في هذا القسم من الكتاب، تطرح الكنيسة الكاثوليكية المعضلات الآتية:

* لماذا خُلق الإنسان؟
* ما معنى الحياة الإنسانية؟
* ما هي كرامة الإنسان وحرية الاختيار لدى الكائن البشري؟
* ما هو الضمير؟ ومن أين جاء هذا الضمير؟
* ما هي القيم والأخلاق والمناقب المسيحية؟ ما هو موقعها في حياة الإنسان المؤمن؟
* ما هي الفضائل الإنسانية؟ من أين جاءت وكيف تُمارس؟

. . . كلها قضايا يُعالجها القسم الرابع. . . . إلى أن يصل بنا إلى:

* الخطيئة: ما هي الذنوب والمعاصي والآثام؟ ما هو الحلال والحرام؟
* العدالة الاجتماعية: المجتمع البشري أو الجماعة الإنسانية، مُساهمة الفرد في حياة الجماعة.
* عقيدة الخلاص: خطة الله الخلاصية، الشريعة أو الشرع.
* النعمة أو الأنعام الإلهي المجّاني. . .
* التبرير ومغفرة الخطايا.
* الكنيسة: جسد المسيح الإعجازي، الخارق.
* الكنيسة، جماعة المؤمنين، أُم ومُعلِّمة.

ـ القسم الخامس: وصايا الله العشر:

* الوصية الأولى: أنا هو الربّ إلهك. . . لا يكُن لك آلهة أخرى سواي.
* الثانية: لا تنطق باسم الربّ إلهك باطلاً. . .
* الثالثة: أذكر يوم السبت لتقديسه، ستة أيام تعمل، . . . أمّا اليوم السابع فتجعله سبتاً للربّ إلهك. . .

* الرابعة: أَكرِمْ أباك وأُمّك، لكي يطول عُمرك في الأرض...
* الخامسة: لا تقتل.
* السادسة: لا تزنِ.
* السابعة: لا تسرق.
* الثامنة: لا تشهد زوراً على جارك...
* التاسعة: لا تشتهِ بيت جارك، ولا زوجته...
* العاشرة: لا تشتهِ شيئاً ممَّا لجارك...

- **القسم السادس: الصلاة:**

الصلاة في التعليم المسيحي هي إحدى وسائل الاتصال المُميَّزة بين الله والإنسان. إنها الرابطة التي تشدّ المخلوق بالخالق. هي - أيضاً - نداء القلب الصميم، الحار، الصاعد من الأرض إلى أسماع السماء.

والصلاة واجبٌ رئيس من واجبات الإيمان عند المسيحيين، تتوجَّه في أُطر مُعيَّنة وأوقات محددة، لتصل الإنسان بخالقه. إنها مُناجاة وأدعية وسؤالٌ حارٌ وشكرٌ وامتنان!

الفصل الثاني

ينابيع الإسلام

مقدمة: الركائز والدعائم

يقوم الإسلام على دعائم ثابتة تُعتبر الينابيع التي يرتوي منها الدِّين والمسلمون، وهي كالآتي:

١ ـ القرآن، كتاب الله الموحى به من السماء.

٢ ـ السنّة النبوية المحمّدية التي تُكمل الكتاب المجيد وتُساعد على تطبيقه.

٣ ـ إجماع الأمّة المستند على تعاليم القرآن من جهة وآياته وأحكامه، وأحاديث السنّة النبوية، من جهة أخرى، التي ينطلق منها العارفون وعلماء الدين والفقهاء الشارحون ليُكملوا ما لم يرد تفصيلاً أو جزئياً؛ لا في القرآن الذي هو الينبوع الأساس الأول ولا في السنّة والأحاديث الشريفة.

أولاً ـ القرآن المجيد

يُعتبر الكتاب الكريم ـ في نظر المؤمنين بدين الإسلام ـ كلام الله، أنزله الحق وأوحى به، مبنى ومعنى، كلاماً وفكراً ـ إلى عبده ورسوله محمد بن عبد اللّه الهاشمي، القريشي، العربي. ولقد تولّى نقل كتاب القرآن ـ من رحاب الله إلى أرض العرب، ومن أُم الكتاب ـ أي من اللوح المحفوظ ـ إلى النبي الهاشمي القريشي، الملاك جبريل، الروح الأمين وخادم المولى المطيع، نوراً للناس ورحمةً وسراجاً مُنيراً.

أ ـ نزول القرآن:

تم نزول الوحي القرآني على محمد الرسول ـ كلاماً ومعنى ومبنى ـ مُنجمّاً، أي حسب مقتضيات الحال والظروف، وحسب ضرورة الأحداث والمسائل المطروحة.

لقد أُوحيَ بالقرآن إذاً، آية آية، وسورة سورة... وظلّ الوحي يأتي إلى الرسول طيلة حوالى اثنين وعشرين عاماً منها:
- اثنتا عشرة سنة في مدينة مكّة الحجازية، أي منذ عام ٦١٠ للميلاد (في اليوم الواقع فيه ١٧ رمضان، وفي غار حراء، وهو كهف - مغارة جبلية يقع بالقرب من مكّة) إلى عام ٦٢٢ للميلاد (في يوم الإثنين الواقع فيه ١٢ ربيع الأول)؛ وهو عام هجرة النبي من مكّة إلى يثرب في الحجاز أيضاً؛ تلك الهجرة - الحدث التي كان لها أكبر الأثر والأهمية بالنسبة إلى مستقبل الإسلام والمسلمين. تجدر الملاحظة هَهُنا إلى أن تاريخ الهجرة النبوية، اعتمد في ما بعد بداية للتقويم الإسلامي - الهجري وذلك في عهد خلافة عمر بن الخطّاب، أمير المؤمنين والخليفة الراشدي الثاني.
- عشر سنوات في يثرب التي أصبحت تُدعى - بعد الهجرة النبوية - مدينة الرسول، من عام ٦٢٢ إلى يوم وفاة الرسول في ١٢ ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة الموافق ليوم ٨ حزيران (يونيو) من عام ٦٣٢ للميلاد.

إن أول وحي جاء إلى الرسول، هو الوحي الذي أنزل عليه عندما كان يتحنّث ويتأمّل وسط غار حراء، الكهف القريب من مكة، كما أسلفنا، وهو القول القرآني التالي:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم
إقْرأْ بِاسْمِ رَبّكَ الّذِي خَلَقَ
خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ
إقْرَأْ وَرَبُّك الأكْرَمُ
الّذِي عَلَّمَ بالقَلَمْ
عَلّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

(سورة **العلق** - السورة السادسة والتسعون - من الآية ١ إلى الآية ٥).

أما آخر ما أُنزل على النبي من القرآن فهو:

«اليَومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ ديناً...»
(سورة **المائدة** - السورة الخامسة - الآية ٣).

وكان كل ما أُنزل شيء من آيات القرآن على محمد، تلاه مباشرة على من كان حاضراً معه من صحابته وتابعيه وأهل بيته، فيحفظه البعض منهم عن ظهر قلب، ويكتبه البعض الآخر على ما كان متوافراً - في حينه وزمانه - من سعف النخل ومن رقاع من الجلود، أو على عظام حيوانات مسطّحة وعلى حجارة رقيقة عريضة.

بعد وفاة محمّد وقيام حروب الارتداد (أو الردّة) ما بين المسلمين ومن ارتدّ من

قبائل العرب عن الدِّين الجديد فعاد إلى الجاهلية، قُتِلَ جمعٌ كبير من الصحابة وحَفَظَةِ القرآن... فخَشيَ عمر بن الخطّاب على كتاب الله من الضياع، وقام فأشار على خليفة رسول الله الأول أبي بكر الصديق، بأن يجمع المستندات المدوّنة، وبأن يقوم بتسجيل وكتابة ما كان قد حفظ من كلام الله في صدور الرجال ولم يكتب قبل ذلك.

بعد تفكير مُتأنٍ في موضوع تلك الخاطرة، عهد الخليفة الأول، بعد اقتناعه بوجاهة الرأي العُمري الذي صدر عن ابن الخطّاب، إلى زيد بن ثابت الأنصاري - شاعر النبي وأحد كبار الصحابة من كتبة الوحي القرآني - بأن يتولّى ذلك الموضوع الهام ويُشرف عليه.

ولقد قام بعد ذلك زيد، فانصرف بدوره ومِلْءِ قواه إلى:

- جمع مجمل الآيات التي كانت مُدوَّنة.
- كتابة الآيات التي كانت محفوظة عن ظهر قلب في صدور الرجال.

وسلّم عمله هذا بعد إنجازه، إلى الخليفة أبي بكر، الذي قام بحفظ ما أنجزه في بيته. ولمَّا تُوفي الصدّيق أبي بكر وخلفه في المسؤولية عمر بن الخطاب، أميراً للمؤمنين وخليفة لرسول الله، قام بحفظ ذلك الإرث الغالي عنده، في منزله... إلى أن قُتل هو بدوره، فانتقل المصحف المكتوب إلى بيت أُم المؤمنين حفصة بنت عمر وإحدى أزواج محمّد.

وفي عهد الخليفة الراشدي الثالث، عثمان بن عفّان، انتشر حفظة القرآن في الأقطار والأمصار المفتوحة، بما فيها من حواضر وقصبات ومُدُن. ولقد كان عند البعض الكثير من هؤلاء الحفّاظ، نسخ للقرآن ومصاحف رتّبها كل واحد منهم على طريقته الخاصّة، فاختلفوا في قراءة الكثير من الآيات... إلى أن بلغ الأمر الخليفة الثالث عثمان، فاهتم بالمسألة وقام بطلب ما هو محفوظ من المصحف الذي عند حفصة أُم المؤمنين، ثم عهد إلى لجنة متخصصة - أعضاؤها من كبار رجال الصحابة الثُقاة - مؤلفة من:

- زيد بن ثابت، شاعر الرسول والصحابي الأنصاري، من أهل يثرب - المدينة، وأحد كتبة الوحي الرئيسيين.
- عبد اللّه بن الزبير، وهو صحابي جليل أيضاً.
- سعيد بن العاص، من صحابة الرسول المقرّبين.
- عبد الرحمن بن الحرث بن هشام.

وطلب منهم العمل على نسخ القرآن، انطلاقاً مما كان موجوداً عند حفصة أم المؤمنين وإحدى أزواج النبي. ثم أصدر إليهم توجيهاته قائلاً:

«إن اختلفتم أنتم وزيد في شيء (منه)، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما أُنزل بلسانهم (أي بلسان قريش)».

قامت اللجنة بمهمتها خيرُ قيام، وكان أن توصَّل أعضاؤها إلى وضع مصحف واحد مُوحَّد، قاموا بكتابته على أربع نسخ، أرسل الخليفة الراشدي عثمان بن عفّان، نسخة منها إلى كل من الحواضر واحتفظ هو بنسختين أبقاهما في المدينة، واحدة منها في عهدته والثانية وُضعت بتصرُّف أهل المدينة.

بعد ذلك، أمر عثمان بإحراق وإتلاف ما كان موجوداً قبل ذلك من صُحُف ومصاحف ومستندات قرآنية أخرى.

ب ـ أقسام القرآن:

يتألف القرآن من فصول عديدة تُعرَف بالسُّوَر، وهي سُوَر القرآن. وتُقسم كل منها إلى مقاطع تُسمَّى الآيات. وسُوَر القرآن مُرتَّبة في المصحف العثماني ترتيباً فريداً من نوعه وأصوله. فالسُّوَر الطوال تقع في أول الكتاب والسُّوَر القصار وُضعت في آخر المصحف، هذا ما عدا سورة الفاتحة، فإنها، بالرغم من كونها من قصار السُّوَر في القرآن، فلقد وُضعت في صدر الكتاب وأوله.

يحتوي القرآن ويضمّ مئة وأربع عشرة سورة منها: ثمان وثمانون سورة مكيّة، سُمِّيت كذلك لأنها أُنزلت في مدينة مكّة، قبل هجرة النبي والمسلمين منها إلى المدينة، وستّ وعشرون سورة مدنية، ولقد سُمِّيت بهذه التسمية لأنها أُنزلت في مدينة يثرب، مدينة الرسول، بعد هجرة النبي والمسلمين إليها.

كما يبلغ مجموع الآيات القرآنية ستَّة آلاف ومئتين وسبعاً وخمسين آيةً.

١ ـ السُّوَر المكيّة:

إنها ـ كما قلنا سابقاً ـ سُوَر الطور المكّي، التي أُنزلت قبل الهجرة، في مدينة مكّة، وهي التالية، حسب تسلسل المصحف القرآني:

السورة	رقمها التسلسلي	عدد آياتها
١ ـ الفاتحة	١	٧ آيات
٢ ـ الأنعام	٦	١٦٥ آية
٣ ـ الأعراف	١٠	٢٠٦ آيات
٤ ـ يونس	١١	١٠٩ آية
٥ ـ هود	١١	١٢٣ آية
٦ ـ يوسف	١٢	١١١ آية

٧ ـ إبراهيم	١٤	٥٢ آية
٨ ـ الحجر	١٥	٩٩ آية
٩ ـ النحل	١٦	١٢٨ آية
١٠ ـ الإسراء	١٧	١١١ آية
١١ ـ الكهف	١٨	١١٠ آيات
١٢ ـ مريم	١٩	٩٨ آية
١٣ ـ طه	٢٠	١٢٥ آية
١٤ ـ الأنبياء	٢١	١١٢ آية
١٥ ـ المؤمنون	٢٣	١١٨ آية
١٦ ـ الفرقان	٢٥	٧٧ آية
١٧ ـ الشعراء	٢٦	٢٢٧ آية
١٨ ـ النمل	٢٧	٩٢ آية
١٩ ـ القصص	٢٨	٨٨ آية
٢٠ ـ العنكبوت	٢٩	٦٩ آية
٢١ ـ الروم	٣٠	٦٠ آية
٢٢ ـ لقمان	٣١	٣٤ آية
٢٣ ـ السجدة	٣٢	٣٠ آية
٢٤ ـ سبأ	٣٤	٥٤ آية
٢٥ ـ فاطر	٣٥	٤٥ آية
٢٦ ـ يس	٣٦	٨٣ آية
٢٧ ـ الصافات	٣٧	١٨٢ آية
٢٨ ـ ص	٣٨	٨٨ آية
٢٩ ـ الزمر	٣٩	٧٥ آية
٣٠ ـ غافر	٤٠	٨٥ آية
٣١ ـ فصّلت	٤١	٥٤ آية
٣٢ ـ الشورى	٤٢	٥٣ آية
٣٣ ـ الزخرف	٤٣	٨٩ آية
٣٤ ـ الدّخان	٤٤	٥٩ آية
٣٥ ـ الجاثية	٤٥	٣٧ آية

٦٥ ـ البلد	٩٠	٢٠ آية
٦٦ ـ الشمس	٩١	١٥ آية
٦٧ ـ الليل	٩٢	١٤ آية
٦٨ ـ الضحى	٩٣	١١ آية
٦٩ ـ الشرح	٩٤	٨ آيات
٧٠ ـ التين	٩٥	٨ آيات
٧١ ـ العلق	٩٦	١٩ آية
٧٢ ـ القدر	٩٧	٥ آيات
٧٣ ـ العاديات	١٠٠	٩ آيات
٧٤ ـ القارعة	١٠١	١١ آية
٧٥ ـ التكاثر	١٠٢	٨ آيات
٧٦ ـ العصر	١٠٣	٣ آيات
٧٧ ـ الهمزة	١٠٤	٩ آيات
٧٨ ـ الفيل	١٠٥	٥ آيات
٧٩ ـ قريش	١٠٦	٤ آيات
٨٠ ـ الماعون	١٠٧	٧ آيات
٨١ ـ الكوثر	١٠٨	٣ آيات
٨٢ ـ الكافرون	١٠٩	٦ آيات
٨٣ ـ المسد	١١١	٥ آيات
٨٤ ـ الإخلاص	١١٢	٤ آيات
٨٥ ـ الفلق	١١٣	٥ آيات
٨٦ ـ الناس (وهي آخر سور القرآن)	١١٤	٦ آيات

وإذا ما دقَّقنا ملياً في أسماء سُوَر القرآن التي تتوالى أمام ناظرينا، نجد أن منها ما يحمل أسماء:

ـ لبعض المواضيع الفيزيائية والفلكية والأحداث الكونية، مثل:

النور ـ الرعد ـ الدخان ـ النجم ـ القمر ـ المعارج.

التكوير ـ الانفطار ـ الانشقاق ـ البروج ـ الليل.

الزلزلة ـ الضحى ـ الفلق ـ التكاثر ـ العصر ـ الفجر.

ـ لبعض المخلوقات الحيَّة من إنسان وحيوان، مثل:

الإنسان ـ الناس ـ الشعراء ـ الأنبياء ـ النساء ـ المؤمنون ـ الأحزاب.
البقرة ـ النحل ـ النمل ـ العنكبوت ـ العلق ـ الفيل.
* لبعض الشخصيات التي لعبت أدواراً هامَّة، تاريخية ودينية مُعيَّنة من مثل الأنبياء والحُكماء:
يونس ـ هود ـ يوسف ـ إبراهيم ـ مريم ـ لقمان ـ محمّد ـ نوح ـ طه ـ يس ـ وسبأ.
* لبعض الأحداث، مثل:
الفتح ـ الكهف ـ الإسراء ـ التغابن ـ المجادلة ـ والنبأ.
* لبعض الفاكهة والمعادن مثل:
الحديد ـ والتين.
* لبعض القبائل والشعوب، مثل:
آل عمران ـ قريش والروم.

٢ ـ السُّوَر المدنية:

السُّوَر المدنية هي سُوَر القرآن التي أُنزلت في مدينة يثرب التي أصبحت تُدعى ـ عند المسلمين ـ مدينة الرسول، في الفترة الزمنية التي تلت الهجرة، والتي تُدعى أيضاً، الطور المدني، تمييزاً لها عن الطور المكّي الذي يُمثِّلُ المرحلة الأولى من مراحل النزول القرآني.

يبلغ عدد سُوَرِ الطور المدني أو السُّوَر المدنية ثماني وعشرين سورة هي الآتية:

السورة	رقمها التسلسلي	عدد آياتها
١ ـ البقرة (وهي أطول سور القرآن)	٢	٢٨٦ آية
٢ ـ آل عمران	٣	٢٠٠ آية
٣ ـ النساء	٤	١٧٦ آية
٥ ـ الأنفال	٨	٧٥ آية
٦ ـ التوبة	٩	١٢٢ آية
٧ ـ الرعد	١٣	٤٣ آية
٨ ـ الحج	٢٢	٧٨ آية
٩ ـ النور	٢٤	٦٤ آية
١٠ ـ الأحزاب	٢٣	٧٢ آية
١١ ـ محمّد	٤٧	٣٨ آية
١٢ ـ الفتح	٤٨	٢٩ آية
١٣ ـ الحجرات	٤٩	١٨ آية

١٤ ـ الرحمن	٥٥	٧٨ آية
١٥ ـ الحديد	٥٧	٢٩ آية
١٦ ـ المجادلة	٥٨	٢٩ آية
١٧ ـ الحشر	٥٩	٢٤ آية
١٨ ـ الممتحنة	٦٠	١٣ آية
١٩ ـ الصف	٦١	١٤ آية
٢٠ ـ الجمعة	٦٢	١١ آية
٢١ ـ المنافقون	٦٣	١١ آية
٢٢ ـ التغابن	٦٤	١٨ آية
٢٣ ـ الطلاق	٦٥	١٨ آية
٢٤ ـ التحريم	٦٦	١٢ آية
٢٥ ـ الإنسان	٧٦	٣١ آية
٢٦ ـ البيّنة	٩٨	٨ آيات
٢٧ ـ الزلزلة	٩٩	٨ آيات
٢٨ ـ النصر	١١٠	٣ آيات

ج ـ أغراض القرآن:

يتوجَّه القرآن في طوره المكّي، مُخاطباً شعباً مُشركاً غير مُوحِّد. وتدعو آيات القرآن المكّية سكان مكّة من أهل قبيلة قريش، إلى ترك عبادة الأوثان والأنصاب والأصنام، واتّباع عبادة الواحد الأحد، الذي لا خالق سواه ولا شريك له في المُلك. كما تدعو إلى الإيمان:

ـ بالكتاب السماوي المنزّل.

ـ بنُبوة محمّد ورسالته التوحيدية.

ويُظهر القرآن للناس، أفراداً وجماعات، عظمة الخالق والخلق وبهاء المصنوعات، حاثاً إياهم على التأمُّل بعجائب الكون كالشمس والقمر، والنجوم والكواكب، داعياً إلى التأمُّل بعجائب خلق الإنسان والحيوان والطير. فالرياح والنهار والليل، والعواصف والحر والبرد، كلها ظواهر تشهد لعظمة الخالق الوحيد، الله. ويتناول الكتاب في آياته المكّية، مسألتي:

ـ الحياة الدُنيا.

ـ الحياة الآخرة.

بالإضافة إلى مبدأ الثواب والعقاب، كما يسترسل في الأخبار عن الأنبياء والمُرسلين، وعن الشعوب القديمة التي سبقت واندثرت، وكيف كان جزاء المؤمنين منها خيراً وجزاء الكافرين منها عذاباً وتعاسة.

لم يمتنع القرآن عن الحديث والإعلان عن صناديد قريش المشركين، فيُسفِّه آراءهم، ويرد على الذين كانوا يُجادلون النبي منهم، مُحقِّراً أصنامهم وأوثانهم، شارحاً، مُبيِّناً لهم، إنها لا تضر ولا تنفع، ولا تُجدي خيراً أو كسباً... إلى أن يصل إلى وصف الجنّة، فيفيض كلامه روعة في تصويرها، وما أُعِدَّ للذين آمنوا، من نعيمٍ خالدٍ لا يفنى، وما هيّأ الله للذين كفروا من عذاب أبديّ رهيب!

أمَّا السُّوَر المدنية، سُوَر الطَوْر المدني، فيتوجّه القرآن فيها إلى شعب مُسلم يُقِرُّ ويؤمن بالتوحيد وبكتاب الله المنزّل. لذلك يُخاطب هؤلاء المؤمنين، هادياً ومُعلِّماً شرائع الله وطُرق عبادته:

- كتلاوة الشهادتين.
- فريضة الصلاة.
- الزكاة.
- صوم شهر رمضان من كل عام هجري قمري.
- حج بيت الله الحرام في مكّة وضواحيها، لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

داعياً جميع من آمن وأسلم إلى احترام كلام الله وشرعه وقوانينه ونواهيه:

- إنّ في الزواج والطلاق والميراث وحجاب المرأة...
- أو في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اجتناب الحرام وممارسة الحلال.

ولقد كان يعيش في ذلك العصر وفي المدينة، جمع لا يُستهان به من اليهود، الذين لم يقبلوا بالدعوة الإسلامية ولم يدخلوا فيها. فما كان منهم إلاَّ أنْ تكتَّلوا، مُكوِّنين جبهة تمادت في معارضة الدِّين الجديد، وما كان من القرآن إلاَّ أنْ تعرَّض لهم وقارعهم الحجّة بالحجّة. كذلك فلقد كان يعيش - أيضاً - في المدينة، عدد لا بأس به من «المنافقين»، الذين كانوا يبطنون الكفر ويُظهرون الإيمان، فتناولهم القرآن في سياق آياته، مُندِّداً، مُهدِّداً إياهم بسوء المصير...

هذا، ويُكثر القرآن، سواء في السُّوَر المدنية أو في السُّوَر المكّية، من ذكر الأنبياء السابقين لمحمّد، فيُعطي الكثير من أخبارهم، وما أنزل الله عليهم، داعياً الناس إلى الإيمان:

- بالله الخالق، الديّان، الكائن الأزلي.
- باليوم الآخر والثواب والعقاب.

د ـ إنشاء القرآن:

يُجمِعُ العارفون على القول بأنّ الكتاب المجيد مَثَلٌ أعلى في جمال اللغة والفصاحة العربية! وتكمن بلاغة القرآن في:

ـ إيجاز أسلوبه.

ـ قوة تعبيره.

ـ ائتلاف ألفاظه.

ـ انسجام تعابيره.

ـ رقّته وسهولة أسلوبه.

ـ بُعده عن كل غريب مُستهجن.

فلمقاطعه رنّة أخّاذة، ظنّها عرب الجاهلية، بادئ ذي بدء، شعراً... إلى أن جاءت الآية التي تقول: «وما علّمناه الشِّعْرَ وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآن مُبين».

يُرافق الإنشاء القرآني الأغراض التي يطرحها الكتاب، سواء في الشدّة أو في اللين. فهو في مواضيع الوعد والوعيد ـ مثلاً ـ قصير الآيات، فيه تكرار هدفه زيادة التهويل وسجع قويّ الرنين. مثالنا على ذلك، السُّوَر المكّية، خاصة تلك القصيرة منها، كسورة القارعة التي تقول:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

القَارِعَةُ

مَا القَارِعَةُ

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ

يَوْمَ يَكُوْنُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ

وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنفُوشِ

فَأَمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ

فَهَوَ في عِيْشَةٍ رَاضيةٍ

وأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُمّهُ هَاوِيةٌ

وما أدْرَاكَ مَاهِيَهْ

نارٌ حَامِيَةٌ».

(سورة **القارعة** ـ السورة ١٠١).

أمّا في غير المواقف العاطفية ومواضيعها، فالقرآن طويل الآيات، قليل السجع، خفيف الرنّة عند مقطع الكلام. وأكثر ما يكون هذا الأسلوب في السُّوَر المدنية منه، حيث يقوم الوحي بالتشريع وتحديد الفرائض، بعيداً عن الآيات التي تعتمد الوعد والوعيد والتحذير والتنديد: ففي سورة **البقرة**، يشرّع القرآن صيام شهر رمضان كالآتي:

«يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أيّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مريضاً أو عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وعلى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِيْنٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعلَمُونَ».

(سورة البقرة ـ السورة الثانية ـ الآيتان ١٨٣ و١٨٤).

هـ ـ تأثير القرآن على اللغة:

كان تأثير القرآن، ولا يزال، على اللغة العربية كبيراً جداً. فهو الذي ساعد على انتشارها شرقاً وغرباً، بانتشار دين الإسلام في البقاع والأمصار والأقطار. وهو الذي وحّد اللهجات وهذّب عباراتها ورقّق ألفاظها وأغنى معانيها وصُوَرَها. ولقد سحر الناس ـ مُسلمين وغير مُسلمين ـ ببيان القرآن وتأثّروا بأسلوبه فرقّت الألفاظ ولطّفت المعاني. كذلك برز التأثير القرآني في اللغة العربية شعراً ونثراً على السواء، خاصة ما كان له علاقة بالإنشاء الخطابي. ومن فضل القرآن على اللغة الفصحى، أن علمي الصرف والنحو وُضعا انطلاقاً منه وخوفاً على اللحن في قراءته. كما أنّ علم المعاني وُضع لسبر غور معانيه ومعرفة أسراره، وأن شعر العرب في عصري الجاهلية وصدر الإسلام، جمع ليُستعان به على تفسير آيات الكتاب.

وخلاصة القول، إنه لولا القرآن لتلاشت اللغة العربية بفعل غارات التتار والأتراك وباقي الأعاجم، بعدما انهارت الخلافة العباسية عام ١٢٥٨ للميلاد، بسقوط بغداد عاصمتها واحتلالها من قبل هولاكو وجيشه المغولي. ولقد وقف القرآن سدّاً منيعاً في وجه الغُزاة، يُدافع عن عربية قريش، فلم يجرؤ هؤلاء على التعرُّض لها بسوء لذلك ظلت لغة الدولة الإسلامية الرسمية وبقيت لغة الدِّين والدواوين والمراسلات والفكر والأدب.

و ـ جوهر القرآن:

يعود جوهر القرآن وخصائصه المميِّزة ـ في نظر المؤمنين المسلمين ـ إلى مصدره وأصله الإلهي. ويؤكّد القرآن، نفسه، ذلك المصدر والأصل، عندما يقول لنا

صراحة، بأنه وحي ربّاني أُنزل من السماء على النبي تنزيلاً ووحياً مباشراً.
يقول القرآن:
«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ».
(سورة **الأعراف** ـ السورة السابعة ـ الآيتان ١ و٢).
«أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَينَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهم أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الذينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الكافِرونَ إنَّ هَذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ».
(سورة **يونس** ـ ١٠ ـ الآية ٢).
وورد فيه أيضاً:
«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيْمٍ خَبِيْرٍ».
(سورة **هود** ـ السورة الحادية عشرة ـ الآية ١).
«إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».
(سورة **يوسف** ـ ١٢ ـ الآية ٢).
«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
الٓمٓر تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ وَالذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ».
(سورة **الرعد** ـ ١٣ ـ الآية ١).
«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لله الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً».
(سورة **الكهف** ـ ١٨ ـ الآية ١).
«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
طه. مَا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى. إلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى».
(سورة **طه** ـ ٢٠ ـ الآيات ١ و٢ و٣).
ويُتابع القرآن تأكيده لِنفسه، بأنّه كتاب أنزلَهُ ربُّ العالمين، فيقول، أيضاً:
«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِيْنَ نَذِيْراً».

(سورة **الفرقان** ـ ٢٥ ـ الآية ١).

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ. تنزيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العالمينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

(سورة **السجدة** ـ ٣٢ ـ الآيات ١ و٢ و٣).

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ. إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ».

(سورة **الزمر** ـ ٣٩ ـ الآيتان ١ و٢).

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ».

(سورة **فصّلت** ـ ٤١ ـ الآيتان ١ و٢).

كذلك فالقرآن يؤكد أنه:

* **أُم الكتاب**.
* **اللوح المحفوظ**.
* **والكتاب المكنون**.

الموجود في السماء، والذي هو الصك الأصلي ـ إذا جاز لنا التعبير ـ لجميع المصاحف التي بين أيدينا.

يقول القرآن في هذا المجال:

«إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ. في كِتَابٍ مَكْنُونٍ».

(سورة **الواقعة** ـ ٥٦ ـ الآيتان ٧٧ و٧٨).

«بَلْ هُوَ قُرآنٌ مَجِيدٌ. في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ».

(سورة **البروج** ـ سورة ٨ ـ الآيتان ٢١ و٢٢).

«وَإِنَّهُ في أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ»...

(سورة **الزخرف** ـ ٤٣ ـ الآية ٤).

ثانياً ـ السُنّة النبوية

هي الينبوع الثاني الذي يستقي منه الإسلام معتقداته ومبادئه، شرعه وعباداته

وأركانه. عليها يستند الدين ويقوم وهي دعامة المعرفة فيه بعد القرآن.

غير أنه، قبل الولوج إلى قلب هذا الموضوع والدخول في استعراض شؤونه، علينا أن نشرح ـ ولو بإيجاز ـ حقيقة السُنَّة النبوية الشريفة: ما مضمونها؟ ومِمَّ تتألف؟

أ ـ تعريف السنّة النبوية:

يتفق علماء المسلمين والفقهاء، بإجماع الرأي، على القول بأن السنّة النبوية هي:

ـ مجموع ما قام به الرسول من أعمال وأفعال وما وضع من قواعد سلوك وما جاء به من حلول لمعضلات نشأت ومسائل نبتت، طيلة فترة حياته، من يوم مبعثه في ١٧ رمضان من العام ٦١٠ للميلاد إلى يوم وفاته في ١٢ ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، ذلك اليوم الموافق للثامن من حزيران (يونيو) من عام ٦٣٢ للميلاد.

ـ مجموع ما نطق به من أحاديث، عندما كان يتحدث في مختلف شؤون الحياة. تلك التي نقلت عن الرسول عبر رواة موثوق بهم ومصادر لا يشك في صحة قولها ودقة أخبارها أمثال:

* العديد من رجال الصحابة المقرّبين إلى النبي.
* أمهات المؤمنين من أزواج الرسول.

والأحاديث النبوية نوعان:

* أحاديث قدسية، وهي التي كان ينقلها النبي عن «لسان المولى» عندما كان يخاطبه عبر جبريل الملاك أو الروح الأمين، ليعرض له شؤوناً هامة وقواعد رئيسة، أرادها الله تكملة للوحي وإيضاحاً لبعض آياته.
* أحاديث عادية كانت تصدر مباشرة عن النبي بالذات، دون أي علاقة أو رابطة لا مع الباري، المولى، لا مباشرة ولا عبر الروح الأمين، ملاك الله جبريل ولا مع أي مرجع سماوي آخر.

١ ـ أفعال الرسول:

ورد في القرآن ما يأتي:

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيراً».

و«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُوْلُهُ أَمْراً أَنْ يَكُوْنَ لَهُمُ الخِيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيْناً».

و«يَا أَيُّها النَبِيُّ إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً. وَدَاعِياً إلى الله بإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً».

(سورة الأحزاب ـ ٣٣ ـ الآيات ٢١ و٣٦ و٤٥ و٤٦).

النبي إذن، هو:

* المثال الأول لكل المسلمين.
* القدوة الحسنة والأسوة الصالحة.
* القائد الذي يُطَاعُ بعد الله في كل شيء وشأن.
* السراج المنير الذي يُنير الأمّة في شؤونها وشجونها.

والنبي معصوم عصمة تامة، قاطعة جازمة من الله، فعلى المسلمين التمثل به والسير على منواله في كل شيء.

يقول الكتاب في هذا المضمار:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

«إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً. وَيَنْصُرَكَ الله نَصْراً عَزِيْزاً».

و«لِتُؤْمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوْهُ وتُوَقِّرُوْهُ وتُسَبِّحُوْهُ بُكْرَةً وَأَصِيْلاً. إنَّ الذِينَ يُبَايِعُوْنَكَ إنَّما يُبَايِعُوْنَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيْهِ أَجْراً عَظِيْماً».

و«لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِيْنَ إذْ يُبَايِعُوْنَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِيْنَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيْباً».

(سورة الفتح ـ ٤٨ ـ الآيات ١ و٢ و٣ و٩ و١٠ و١٨).

النبيُّ إذاً ـ وكما أسلفنا ـ هو المثال والقدوة. وحياته هي المعيار والمنارة التي على كل مسلم أن يستنير بها وبجميع ما مرّت به من:

* حوادث وأحداث جسام، سلماً وحرباً.
* تصرفات فردية وشخصية سواء على مستوى الحياة الخاصة ورحابها أو مسالك الحياة العامة ومجرياتها.
* سلوك أُسَرِيّ وعائلي مع الأزواج والأولاد والأقارب.
* معاطاة مع أفراد الجماعة المؤمنة وأعضاء الأمة الجديدة فرداً، فرداً.
* قرارات ومواقف وإجراءات مع أهل الكتاب سواء أكانوا يهوداً أم نصارى.
* تعامل مع المشركين والكفار من قريش أو غيرها من قبائل العرب...

وعلى كل مسلم، يبغي أن يصل إلى أرقى درجة ممكنة من درجات الكمال، أن يحذو حذو الرسول، وأن ينسج على منواله ويحيا على مثاله ويعمل مقتدياً به وساعياً مسعاه. فإذا كان القرآن هو كتاب الله الذي لا يخطئ ولا يمكن له أن يخطئ، فإن النبي هو المخلوق الإنساني الأول والكائن البشري الأوحد، الذي امتاز - على كل أبناء عصره - بكونه قد عاش على نمط تعاليم القرآن، حرفاً حرفاً.

لذلك، عندما نقول إن السنّة النبوية هي:

* الينبوع الثاني، بعد القرآن ومعه، للعقيدة والدين.
* المحور الثاني المكمل للمحور الأول في قيام الإيمان الإسلامي والدعوة ونموّهما وإنشائهما.
* الدعامة الصلبة والركيزة المتينة في نشوء أمة الإسلام.

إنما نريد أن نعبّر عن الحقيقة الفعلية الآتية: إن حياة الرسول بمجملها - ومن أولها، يوم مبعثه نبياً - رسولاً إلى يوم انتقاله «إلى الرفيق الأعلى» - إنما هي القرآن حياً، جسداً. وروحاً! حياة الرسول إذاً، مثال حيّ للإسلام وقدوة مثلى للمسلمين.

لقد تعمقت كتب السيرة وهي كثيرة، وأفاضت فملأت آلاف الصفحات، لإخبارنا عن حياة محمد وأعماله في جميع المجالات، وفي شؤون الأمة والجماعة والعائلة والأسرة. لذلك تعتبر هذه الكتب ينبوعاً ثميناً - وثميناً جداً - بالإضافة إلى كونها مصدراً غنياً لكل مسلم مؤمن. إنها النور الذي يستضيء بضوئه كل المسلمين، والذي يستنير بنوره كل الباحثين الذين يرغبون في الكشف عن مصادر الإسلام وينابيع الإيمان الجديد! السنّةُ هي بعد القرآن ومع القرآن السند المتين، وسيرة النبي ما هي سوى البرهان العملي، والشارح الأول لمحتوى الوحي الوارد في الكتاب المجيد.

ونظراً لكون محمد هو النبي الموحى إليه فلقد أصبح بالتالي المثال الحي في:

* فكره النيّر، وعقله الفذ، وذكائه المتوقّد،
* فؤاده الرقيق وقلبه المفعم بالمشاعر، وعواطفه الصادقة الأمينة،
* تصرفاته التي لا غبار عليها، ومسالكه وأعماله التي كان هدفُها الأول إرضاءَ الله وتحقيقَ مُرَاده، لتعليم الكتاب.

ويجب علينا أن نذكّر القارئ الكريم في هذا المعرض، إلى ما قاله القرآن في نبيه، عندما خاطبه في محكم التنزيل، قائلاً:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ن

وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُوْنَ

مَا أَنتَ بِنِعمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ
وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ
وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيْمٍ
فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ
بِأَيِّكُمُ المَفْتُونُ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيْلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِيْنَ».
(سورة **القلم** ـ ٦٨ ـ الآيات من ١ إلى ٧).

إن هذا الخطاب القرآني ما هو سوى دليل قاطع من عدة خطابات قرآنية وجمهرة من الأدلّة القاطعة على أن محمّداً هو الرائد الأول والقائد الأعظم والنبي المصطفى والرسول القدوة والمثل الأعلى لجميع المسلمين.

٢ ـ جدول تاريخي لحياة الرسول:

نظراً لكون حياة محمّد ـ تُعْتَبَرُ، كما أسلفنا، كينبوع ثانٍ لرسالة الإسلام وكمصدر ومرجع مكمّل للقرآن وكدعامة وركيزة رئيسة لاكتمال الدين، يجدر بنا أن نذكر لمحة موجزة عن المحطات الكبرى التي مرّت بها حياة الرسول على هذه الأرض:

مولد الرسول:

ولد النبي، في مدينة مكّة من الحجاز في شبه جزيرة العرب، يوم الإثنين الواقع فيه ١٢ ربيع الأول من «عام الفيل» الموافق لليوم الواقع فيه ٢٠ نيسان (أبريل) من عام ٥٧٠ للميلاد. ويتفق أكثر الباحثين والعلماء على القول بصحة هذا التاريخ واعتماده رسمياً كتاريخ مؤكد لمولد الرسول.

نزول الوحي القرآني:

لقد بدأ الوحي القرآني بالنزول على النبيّ، وهو مُخْتَلٍ للتأمل والتَحَنُّث في غار حِرَاء، وهو كهف ـ مغارة لا يبعد كثيراً عن مدينة مكّة. حدث ذلك الشأن الهام في اليوم الواقع فيه السابع عشر من شهر رمضان عام ٦١٠ للميلاد. ولقد كان عُمْرُ محمد وقتها أربعين عاماً.

هجرة الرسول:

هاجر النبي و«صاحبه» أبي بكر الصديق من مكة إلى مدينة يثرب التي تقع أيضاً في الحجاز، ووصلاها يوم الإثنين الواقع فيه الثاني عشر من شهر ربيع الأول من العام الهجري الأول، وهو بدء التقويم الإسلامي الذي اعتُمد فيما بعد ـ أثناء ولاية وخلافة

أمير المؤمنين عُمَرُ بنُ الخطّاب، الخليفةُ الراشدي الثاني، أساساً للتاريخ الإسلامي، كما يذكر جميع العلماء والباحثين والفقهاء والمؤرخين، في العالمين العربي والإسلامي.

يوافق يوم بدء الهجرة الهام هذا ـ يوم وصول محمد إلى مدينة يثرب ـ السادس عشر من شهر تموز (يوليو) من عام ٦٢٢ للميلاد.

موقعة بدر، أول انتصارات المسلمين:

تعتبر موقعة بدر أو معركة بدر، أوّل صراع مسلّح يقع:

* بين المسلمين من أهل مكة ومن قبيلة قريش ـ وهم المهاجرون الذين تركوا مكة مع الرسول وقبله وبعده فرحلوا إلى يثرب (مدينة الرسول) هرباً من الأذى ـ ومن الأنصار ـ وهم أهل مدينة الرسول (يثرب)، الذين نصروا النبي وأسلموا وبايعوه النبوة والزعامة والقيادة، وبين المشركين من قبيلة قريش وأهالي مكة، الذين مكثوا واستمروا على دين العرب والجاهلية.

حدث الصّدام الأول الكبير إذاً، بين جيش المسلمين بقيادة محمد وجيش قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب من بني أمية من قريش وأبي جهل بن هشام والأسود ابن عبد الأسد المخزومي... وغيرهم.

ولقد استمر القتال من يوم الجمعة الواقع فيه السابع عشر من شهر رمضان من العام الثاني للهجرة ـ الموافق الثالث عشر من شهر آذار (مارس) من عام ٦٢٤ للميلاد ـ إلى ٢٢ رمضان أو ١٨ آذار (مارس) حيث سجّل المسلمون ـ في النهاية ـ أوّل نصر عظيم مبين، كان له أثر عظيم في غلبة الإسلام على الجاهلية والشرك.

فتح مدينة مكة:

فتح الرسول والمسلمون مَكَّة، دون قتالٍ، يوم ١٧ رمضان من العام الثامن للهجرة (٦٣٠ للميلاد)، حيث دخل محمد تحيطه جماهير المسلمين المدينة وطهّر الكعبة والبيت العتيق من:

* الأصنام والأنصاب والأوثان
* التماثيل والأحجار التي كانت تُعبد، ومِنَ التعاويذ،
* والصور والرسوم والمجسمات.

وفاة محمّد:

توفي الرسول في مدينة يثرب وقد أصبحت تدعى المدينة أو مدينة الرسول، يوم الإثنين الواقع فيه ١٢ ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة، الموافق اليوم الثامن من حزيران (يونيو) عام ٦٣٢ للميلاد. وحدثت الوفاة ومحمّد في الحادية والستين من

عمره فقط. . . وبعد أن تم غسل النبي ودفنه طبقاً لأصول الشرع الإسلامي، تولى منصب قيادة الأمة، «صاحب الرسول» أبو بكر الصديق الذي بايعه المسلمون خليفة للنبي. . . فقام بممارسة صلاحيات القيادة والزعامة والرئاسة، انطلاقاً من المدينة التي كانت قد أصبحت ـ منذ تاريخ الهجرة ـ عاصمة الدولة الإسلامية الحديثة الناشئة.

٣ ـ الأحاديث النبوية:

يأمر القرآن المسلمين بطاعة الرسول، طاعة حقة، مخلصة صريحة وشفافة. ولقد ورد هذا الأمر بالطاعة، مراراً وتكراراً، في رحاب الكتاب وبين طياته، في سوره وعبر آياته.

يقول الوحي الإلهي: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لله وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيْعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ».

طاعة الرسول إذاً، هي من طاعة الله وواجب على كل مسلم أن يتقيّد وينفذ كل ما يأتي به محمد ويقوله ويعلمه:

«وَأَطِيْعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيْحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ الله مَعَ الصَّابِرِيْنَ».

(سورة **الأنفال** ـ ٨ ـ الآيتان ١ و٤٦).

وورد أيضاً في القرآن:

«قُلْ أَطِيْعُوا اللّهَ والرَّسُوْلَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِيْنَ».

(سورة **آل عمران** ـ ٣ ـ الآية ٣٢).

أمّا في سُورة النساء، فَيُشدِّدُ القَوْلَ كالآتي:

«وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُوْلَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُوْدَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيْها وَلَهُ عَذَابٌ مُهِيْنٌ».

(سورة **النساء** ـ ٤ ـ الآية ١٤).

إلى أن يصل إلى تلك الآية المعبّرة بشكل واضح، عن أهمية الطاعة الواجبة على كل مؤمن مسلم:

* طاعة الله في كل شيء.
* وطاعة الرسول في كل شيء أيضاً، لأنها من طاعة الله.

«وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُوْلُهُ أَمْراً أَنْ يَكُوْنَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيْناً».

(سورة **الأحزاب** ـ ٣٣ ـ الآية ٣٦).

من هنا، واستناداً إلى ذلك السيل من الآيات، اعتبرت السنّة، المصدر الثاني الرئيس في عقيدة الإسلام.

. . . ويقول الكتاب أيضاً وأيضاً:

«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِم حَفِيظاً».

(سورة النساء ـ ٤ ـ الآية ٨٠).

ما هي الأحاديث النبوية؟

الأحاديث النبوية، هي كل الأقوال ومجمل الكلام الذي نطق به الرسول حول:

* أي موضوع من موضوعات الحياة،
* أي موقف من مواقف الدين والدنيا،
* أي معضلة اعترضت سبيل الإسلام والمسلمين،

منذ بدء الدعوة المحمّدية حتى وفاة صاحبها.

وأحاديث السنة منقولة من سلف أول إلى خلف وخلف، . . . حتى وصلت إلى مجموعات الأحاديث المصنفة، المدروسة والمدقق فيها؛ في مواضيعها وأحكامها، وفي تعاليمها وانسجام هذه التعاليم مع محتوى القرآن ومضمونه.

مواضيع الأحاديث:

تغطّي الأحاديث النبوية ـ سواء كانت أحاديث قدسية أم أحاديث غير قدسية ـ موضوعات شتى وقضايا متنوعة مثل:

* المعتقدات والمبادئ والإيمان إذ تقوم بإكمال الكتاب في خطوطه العريضة، شرحاً وإيضاحاً وتتمة.
* الشرع وما يعود إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
* العبادات وأركان الدين.
* المعاملات وعلاقة الناس بعضهم بالبعض الآخر، والسلوك العام داخل المجتمع الإسلامي.

صحة الأحاديث:

يصنف العلماء الأحاديث النبوية إلى:

* أحاديث صحيحة، ثابتة وأكيدة، وهي تلك الأحاديث التي ثبت بشكل قاطع حازم أكيد، أن أصلها تاريخي لا شك فيه، كونها صادرة عن النبي فعلاً وحقاً.
* أحاديث حسنة، وهب الفئة الثانية التي لا يوجد أي إثبات جازم وقاطع يفيد ببطلانها أو عدم صحّتها.
* أحاديث ضعيفة، وهي الفئة الثالثة التي هناك شك جدّي في صحة صدورها عن النبي.

ويهمنا نحن ـ في مضمارنا هذا ـ درس الأحاديث الصحيحة والأحاديث الحسنة التي يجب أن تتأمن في نصها الشروط الآتية:

الشروط اللازمة في شخصية راوي الأحاديث:

يجب ـ قطعاً ـ أن يكون الراوي:

* ذا إيمان وتقوى وسلوك لا غبار عليها.
* موضوع ثقة أكيدة لا تحفظ لأحد من الناس عليه.
* أميناً في نقله لكلام الرسول.
* راوياً، ناقلاً لأكثر من حديث واحد.

الشروط اللازمة في الحديث المعني:

يجب أنْ تتوفَّرَ في كل حديث نبوي معني الشروط اللازمة الآتية:

* أن يكون مسنداً إسناداً كاملاً، حلقاته متصلة، بعضها بالبعض الآخر ـ دونما انقطاع. . . حتى تصل إلى المصدر الأول الذي هو الرسول بعينه، دون أي نقص أو شك أو التباس في حلقات الإسناد.
* أن يكون مرتبطاً صراحة ومباشرة بالنبي، في نهاية الإسناد.
* أن يتوافق فحوى الحديث ومحتواه مع الظرفين: الزماني والمكاني الذي قيل الحديث فيهما.

عائلات الأحاديث:

يصنف المعنيون المختصون في أمر دراسة السُنَّة النبوية، الأحاديث الصحيحة والحسنة في ثلاث عائلات أو فئات هي:

الفئة الأولى: يدخل في هذه الفئة، كل الأحاديث التي نقلت ضمن إطار متسلسل من المراجع المتصلة بعضها بالبعض الآخر، أي الأحاديث ذات الإسناد غير المنقطع والمتصل بالرسول.

الفئة الثانية: تشمل هذه الفئة كل الأحاديث المنقولة في زمن متأخر عن زمن المصدر الذي تستند إليه؛ وهي ـ ولو جاءت متأخرة في الزمن ـ منقولة ضمن إطار من المراجع المتسلسلة والمتصلة حلقاتها الواحدة بالأخرى، وبإسناد لا انقطاع فيه.

الفئة الثالثة: ينتسب إلى هذه الفئة الأخيرة، مجموعة الأحاديث النبوية التي لم يتم نقلها إلا على لسان رواة منفردين، أو بأقلامهم.

ثالثاً ـ إجماع الأمة

يؤمن المسلمون ويقولون بأن إجماع الأمة هو الينبوع الثالث من ينابيع الإسلام

وعلومه ومعارفه. وهم متفقون على أن اتفاق العلماء والفقهاء والمختصين على أي رأي أو حلٍ أو مشورة هو «الدعامة ـ الركيزة» الثالثة التي تأتي مكملة ومتممة:

* للوحي القرآني وكلام الله من جهة.
* للسنّة النبوية والأحاديث من جهة أخرى.

أ ـ معنى الإجماع:

ما الإجماع يا ترى، وما معناه؟

الإجماع أو إجماع الأمة أو إجماع العلماء والفقهاء، هو اتفاق رأي القادة المعنيين والأئمة المشهود لهم حول:

* موضوع معين من موضوعات الدين.
* قرار شرعي يجب أن يتخذ علاجاً لمسألة طارئة.
* حل عملي لمعضلة تعاني منها الأمة أو الجماعة أو العائلة أو الأسرة.

فإن أجمعت آراء أهل العلم والاختصاص على رأي معين، أو قرار محدد، يضفي إجماع هؤلاء العارفين، صفة الإلزام على ذلك القرار الذي نحن بصدده، فيصبح رأي المعنيين هؤلاء مرجعاً من مراجع الدين يعمل به ويطبق على كل الإشكالات المشابهة في الحالتين التاليتين:

١) غياب النص القرآني:

ومعنى هذا أنه إذا لم يكن هناك من آية كتابية أو حكم قرآني يرعى الحالة التي نحن بصددها، على المرجع المختص المكلف ـ شرعاً ـ بإيجاد الحل، أن يلجأ إلى ينبوع آخر من ينابيع العقيدة والشريعة.

هذا من جهة، أما من جهة أخرى فإنه إذا لم يكن هناك حل تفصيلي لأي موضوع من الموضوعات، وجب البحث في المصدر الثاني الذي يقوم عليه.

ذلك، أنه ـ في كثير من الحالات ـ يكتفي الوحي الإلهي بإطلاق المبادئ العامة وبإرساء القواعد العريضة في المسائل التي يطرحها الكتاب المجيد، وعلى العارفين ـ في هذه الأحوال ـ استنباط الحلول من خطوط القرآن العريضة، وقواعده المبدئية العامة.

٢) غياب الحديث النبوي:

ترى ما العمل في مثل هذه الحال؟ لا بد عند تعذر وجود العلاج التفصيلي للمسألة المطروحة أو المعضلة القائمة، سواء في الكتاب أو السنّة، من اللجوء إلى إجماع الأمة لمعالجة الأمر.

إجماع الأمة إذاً، هو المصدر الثالث من مصادر الدين، شرط أن ينطلق إلى إيجاد الفتاوى والحلول من:

* مبادئ القرآن، كما رأينا وأسلفنا.
* مبادئ السنة النبوية، كما أعلنّا أعلاه.

يقول القرآن في هذا الصدد ما يأتي:

«يا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا
أَطِيْعُوا اللّهَ
وَأَطِيْعُوا الرَّسُوْلَ
وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ
فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوْهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً».

«وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَو الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوْهُ
إِلَى الرَّسُوْلِ وإلى أُولي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِيْنَ يَسْتَنْبِطُوْنَهُ مِنْهُمْ...».
(سورة النساء ـ ٤ ـ الآيتان ٥٩ و٨٣).

كذلك، ثمة حديث نبوي صحيح، شهير، ذائع الصيت يقول:
«يَدُ الله مَعَ الجَمَاعَةِ» (رواه الترمذي في كتاب: **سنن الترمذي**).

كل هذا، يؤكد ما نقول في هذا المجال من أن الإجماع هو المرجع الثالث الهام من مراجع الإسلام، يَعْتَمِدُ عليه المسلمون في كثير من:

* شؤون دينهم، شرعاً وفرائضَ
* وجوانبِ دنياهم، معاملات وَسُلَّمَ قِيَم وأخلاقٍ ومَنَاقِبَ.

ولقد نشأ من جراء توالي الحقبات والسنين ـ في هذا الينبوع الثالث ـ مدارس فقهية دينية تناولت بالحل كثيراً من العقبات التي اعترضت مسيرة الأمة، خاصة في الأيام التي تلت المفاصل الكبرى في عمر الأمة مثل:

* وفاة الرسول.
* مقتل الإمام علي آخر الخلفاء الراشدين الأربعة، عام ٦٦١ للميلاد وقيام المُلك الأموي.
* زوال الخلافة الأموية أو العهد الأموي الذي بدأ عام ٦٦١ وانتهى عام ٧٥٠ للميلاد، عند قيام الخلافة العباسية وتحوّل العاصمة إلى العراق.

ب ـ المذاهب الفقهية:

برزت إلى الوجود، على الساحة الإسلامية، مذاهب فقه وشرع، سعت وعملت بجد وكد لإيجاد الفتاوى والحلول ولمعالجة كل ما طرأ على جدول أعمال الأمة الجديدة، الحديثة العهد. وأول ما يميِّز تلك المذاهب ويبرزها أمام الحضور، هو دأب

أساطينها على استنباط الحلول واستخراج الفتاوى في كثير من مناحي الحاجات والضرورات، كل ذلك استناداً إلى نصوص القرآن والسُنّة النبوية.

١) مذاهب أهل السنّة والجماعة:

المذاهب عند أهل السنّة والجماعة أربعة كبرى هي:

* المذهب الحنفي، ولقد سمي كذلك، نسبة إلى مؤسسة الإمام، العالِم، الفقيه أبي حنيفة النعمان، الذي ولد عام ٦٩٧ على الأرجح وتوفي عام ٧٦٧ للميلاد.

* المذهب المالكي، الذي اكتسب تسميته هذه، من اسم مؤسسة الإمام مالك بن أَنَس العالم، الفقيه الذائع الصيت، الذي ولد عام ٧٠٨ للميلاد وتوفي عام ٧٩٥، في بداية العصر العباسي.

* المذهب الشافعي، نسبة إلى الإمام الشافعي، الذي ولد عام ٧٦٧ وتوفي عام ٨٢٠ للميلاد. ولقد علّم الشافعي وأفتى - كجميع أئمة المذاهب الباقية - مستنداً إلى ما سبقه من تراث زاهر ساهم في نشوئه وإغنائه صحابيون علماء وفقهاء أجلاء كبار.

* المذهب الحنبلي، وهو المذهب الرابع في مذاهب أهل السنّة والجماعة، أسسه الإمام أحمد بن حنبل، الذي ولد عام ٧٨٠ وتوفي عام ٨٥٥ للميلاد.

تلك هي المذاهب الأربعة التي عرفها أهل السنّة والجماعة، وهي كما قلنا مذاهب فقهية، تختلف في ما بينها على كثير من التفاصيل والنظريات، وتلتقي على مستوى العقائد والمبادئ العامة والعبادات والأركان والأُسُس.

٢) المذهب الجعفري:

يعرف هذا المذهب بالمذهب الشيعي، الإمامي الاثني عشري، الجعفري. ولقد سمي جعفرياً، نسبة إلى الإمام جعفر الصادق الذي هو الإمام السادس في سلسلة الأئمة المعصومين، الذين تؤمن الشيعة الإمامية، الاثني عشرية، بهم وبدورهم وعصمتهم، إذ إنهم، في رأيها، يقومون مقام الموجهين الأول لقضايا الإسلام، بعد وفاة النبي.

ولد الإمام جعفر الصادق عام ٨٣ للهجرة النبوية، وتوفي عام ١٤٨، وهو يعتبر الينبوع الفقهي الرئيس لفرقة هامة من الفرق الإسلامية، هي:

فرقة الشيعة، الإمامية الاثني عشرية، المعروفة والمشهورة، عبر التاريخ الإسلامي الطويل، بولائها وتشيّعها للإمام علي بن أبي طالب، الخليفة الراشدي الرابع، والإمام الأول المعصوم الذي قتل في مسجد الكوفة، عام ٤٠ للهجرة، الذي يبدأ فيه العصر الأموي أو عصر الخلفاء الأمويين...!

نختم هذا الفصل الثاني من الباب الأول من بحثنا، بتزويد القارئ الكريم بلائحة مبسطة، هينة، موجزة بأسماء الأئمة المعصومين الذين يعتبرون مرجعية الدين، لدى الشيعة: بعد القرآن، وبعد السنّة النبويّة، وهم الأئمة الآتية أسماؤهم:

الإمام الأول: علي بن أبي طالب، الخليفة الراشدي الرابع (السنّة الثالثة والعشرون قبل الهجرة ـ ٤٠هـ) الملقب بالمرتضى وقد توفيَ قتلاً.

الإمام الثاني: الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالزكيّ (عام ٢ ـ ٥٠هـ).

الإمام الثالث: الحسين بن علي بن أبي طالب، أخو الإمام الثاني، بطل كربلاء وسيّد الشهداء (٣٣ ـ ٦١هـ).

الإمام الرابع: علي بن الحسين بن علي، الملقب بزين العابدين أو بالإمام السّجّاد (٣٨ ـ ٩٥هـ).

الإمام الخامس: هو الإمام محمد بن علي بن الحسين، الملقب بالإمام الباقر (٥٧ ـ ١١٤هـ).

الإمام السادس: جعفر بن محمد الباقر بن علي، زين العابدين، الملقب بالإمام الصادق (٨٣ ـ ١٤٨هـ).

الإمام السابع: هو موسى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر، الملقب بالإمام الكاظم (١٢٨ ـ ١٨٣هـ).

الإمام الثامن: علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، الملقب بالإمام الرضا (١٤٨ ـ ٢٠٣هـ).

الإمام التاسع: هو الإمام محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم، الملقب بالإمام الجواد ـ التقي (١٩٥ ـ ٢٢٠هـ).

الإمام العاشر: علي بن محمد الجواد ـ التقي بن علي الرضا، الملقب بالإمام الهادي (٢١٢ ـ ٢٥٤هـ).

الإمام الحادي عشر: هو الإمام الحسن بن علي الهادي بن محمد الجواد ـ التقي، الملقب بالإمام الحسن العسكري (٢٣٢ ـ ٢٦٠هـ).

الإمام الثاني عشر: محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي، الملقب بالإمام المهدي المنتظر، الذي سيعود من غيبته الطويلة الكبرى ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً، بعد أن امتلأت فساداً وجوراً (٢٥٦هـ. . .؟).

(راجع كتاب: **عقائد الامامية**، تأليف الشيخ محمّد رضا المظفّر، منشورات دار الصفوة، بيروت، لبنان، الطبعة التاسعة، ١٤١٣ هـ/١٩٩٢م، ص ص ٩٩ ـ ١٠٠).

الباب الثاني

محاور الالتقاء

تقديم الباب الثاني

يعتبر الباحثون في علم الأديان، أن الرسالات الثلاث: الموسوية ـ اليهودية والمسيحية ـ النصرانية والإسلام هي، في الواقع، متصلة بعضها بالبعض الآخر:

* زمنياً وتاريخياً وتسلسلياً.
* جغرافياً ومناطقياً وإقليمياً.
* عقيدةً ومبادئ وتعاليم.

إنها تلتقي في كثير من الشؤون والمجالات، والمبادئ والتعاليم. ويؤكّد معظم الباحثين أنها حلقات ثلاث في عقدٍ واحدٍ فريد.

من أجل ذلك، وفي سبيل الموضوعية العلمية، لا يستطيع الباحث الجدّي أن يَلِجَ عالم المسيحية والإسلام، دون الانطلاق ـ ولو بإيجاز ـ من الدين اليهودي ـ الموسوي ـ الإسرائيلي.

إن الولوج إلى دائرة: الكتاب المقدس من جهة، والقرآن المجيد من جهة أخرى لا يمكن أن يكون متكاملاً وصلباً، متيناً وعميقاً، إذا لم يتطرق الباحث فيه إلى التوحيد الإبراهيمي ـ الإسرائيلي الذي بدأ ـ زمنياً وتاريخياً ـ مع خليل الرحمن إبراهيم المطيع لله ومع ابنيه إسماعيل وإسحق ثم مع حفيده يعقوب والأسباط أبناء يعقوب. ذلك إن عقد التوحيد الفريد القيّم: بدأ حلقةً، حلقة، ودُرَّةً، دُرَّةً... إلى أن انتهى برسالة القرآن ودعوة محمّد، الرسول العربي

١ ـ الموسوية ـ اليهودية ـ الإسرائيلية:

ينتسب أبناء هذا الدين ـ استناداً إلى ما يقوله علماؤهم وأحبارهم ـ إلى:

- إسحق بن إبراهيم،
- يعقوب/إسرائيل بن إسحق،
- الأسباط الاثني عشر أبناء يعقوب/إسرائيل،
- سبط يهوذا الذي هو أحد الاثني عشر. وهم ـ حسب أعمارهم، من الأكبر حتى الأصغر: رأوبين وشمعون وجاد ويهوذا ويساكر وزبولون ويوسف ومنسّى وبنيامين ودان وأشير ونفتالي.

ـ سبط لاوي، وهو الثالث عشر الذي لا يحسب مع باقي الأسباط، إذ انحدر منه:
ـ موسى وهارون ومريم أختهما،
ـ الأحبار والكهنة اللاويّون المسؤولون عن خدمات العبادات والشعائر والفرائض والمحرّمات.

ورد في سفر العدد ما يأتي:

«وأمّا اللاويّون المتسبون لسبط آبائهم فلم يُحصَوا بينَهم، إذ قال الرب لموسى: أمّا سبط لاوي فلا تحسبه ولا تحصه بين بني إسرائيل، بل أعهد بمسكن الشهادة وأمتعته كلها وسائر ما له إلى اللاويين...» (**الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر العدد**، وهو السفر الرابع، الفصل الأول، الأعداد ٤٧ و٤٨ و٤٩).

الموسوية، دين التوحيد:

يقول علماء اليهود وأحبارهم:

شعب بني إسرائيل هو الرائد الأول في عالم الدعوة إلى التوحيد وعليه فإنه ـ بدءاً من آدم ـ ... إلى نوح... إلى إبراهيم... إلى إسحق ويعقوب والأسباط... إلى موسى... حتى جاء المسيح عيسى بن مريم/يسوع ـ لم ينقطع الشعب العبراني عن:

* الإيمان بإله واحد أحد، كائن، خالق، ديّان.
* توحيد ذلك الإله الأزلي، السرمدي الذي لا شريك له.

ورد في سفر الخروج، وهو ثاني أسفار **العهد القديم** من الكتاب المقدس ما يلي:

«أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبوديتك، لا يكن لك آلهة أخرى سواي» (**سفر الخروج**، الإصحاح العشرون، العددان ٣ و٤).

التوحيد إذاً ـ على ما يقوله مفكرو اليهود ـ بدأ مع «شعب الكتاب المقدس»، الشعب العبراني، شعب الصحف التالية:

ـ الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى.
ـ توراة موسى.
ـ زبور داود.

فمن آدم وحواء إلى أخنوخ ـ إدريس... ونوح وسام، إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب، إلى الأسباط الاثني عشر، إلى يوحنا المعمدان / يحيى... لم تنقطع سلسلة التوحيد وعبادة الإله الحق أبداً، هذا، على الرغم من مروق الكثيرين

وعقوق العديدين وخروج أعداد لا بأس بها عن خط الإيمان القويم ومحور التوحيد. . . للوقوع في الشرك والوثنية.

ولقد ارتكب أناس من المؤمنين كثيراً من آثام الاعتداء على تعاليم التوحيد، فوقعوا في الصنمية والوثنية، غير أنه بالرغم من كل هذا، لم ينقطع خط الإيمان المستقيم، بل استمر وتنامى. . . حتى وصل إلى:

* المسيحية مع بشارة الإنجيل.
* الإسلام المحمدي مع بشارة القرآن.

بعد هذا التمهيد السريع، الذي أردناه مقدمة للباب الثاني من كتابنا، نستطيع أن نقول، من دون أي حرج أو مكابرة، إن المسيحية والإسلام يشكلان، مع اليهودية الموسوية، إرثاً توحيدياً، عالمياً، ومخزوناً سامياً، شرقياً فريداً في العالم كله؛ يقوم - أول ما يقوم - على إعلان إيماني مطلق بإله كائن، حيّ خالق، لا نعرفه من البشرية، جميعها إلا من قال وشهد منها بما يأتي:

* أنا مؤمن موسوي - يهودي موحِّد.
* أو مسيحي - نصراني موحِّد.
* أو مسلم محمّدي موحِّد.

المحور الأول: الإيمان بالله

مقدمة

موضوعنا الرئيس في هذا الباب الثاني، هو إيضاح محاور الالتقاء بين الدينين العظيمين، وهي كثيرة وكثيرة جداً. لذلك سنترك البحث في ما يربط الموسوية بالمسيحية وبالإسلام، لنحصر همَّ الدّراسة هذه في موضوع المسيحية والإسلام دون سواهما من أديان التوحيد.

تقوم الديانتان الكبيرتان على مبدأ إيماني أساسي واحد مشترك هو:

الإيمان الصادق المتين بوجود إله واحد،

إله كائن حيّ أعلى، أزلي سرمدي،

خالق ديّان،

كُلّي القدرة، فائق الإدراك،

إله «ليس كمثله شيء».

إله هو الله الذي على المؤمنين به، مسيحيين ومسلمين، أن:

يعبدوه عبادة تامة،

يعملوا بأوامره ويحترموا نواهيه،

ذلك هو المحور الأول، والمدماك الأساس الذي تلتقي عليه وفيه المسيحية والإسلام. إذ إن السبب الوحيد، الوجيه الأول لقيام الرسالات الدينية، هي - في الأساس - الإقرار بوجود الله وعبادته!

أولاً - الله في المسيحية

تقول المسيحية، ويعلن المسيحيون المؤمنون ما يأتي:

«نؤمن بإله واحد...

خالق السماء والأرض...

كل ما يُرى وما لا يرى...»

(راجع قانون الإيمان المسيحي، النيقاوي - القسطنطيني، وقد دوّنا مطلعه هذا انطلاقاً من ترجمته العربية المعتمدة في جميع الكنائس المسيحية).

تقوم العبادات والفرائض في المسيحية، وكذلك الأحكام والشعائر والمعاملات،

التي يجب أن تسود بين المؤمنين على شرع وقانون دينين معينين، ينطلقان وينبثقان من المبدأ - الدعامة: وجود الله العادل، بعدل لامتناه مطلق، مع كل ما يصدر عنه من:

* وحي وإلهام ونِعَم.
* شريعة وحق قانوني وقواعد.
* صلوات وأدعية وابتهالات، . . .

ذلك هو الأساس والينبوع الأول في قيام المسيحية ووجودها، نموها وتطورها وانتشارها. فالمسيحية لا تقوم ولا معنى لها إلا إذا أعلنت واستندت إلى ذلك المبدأ الذي ذكرناه سالفاً:

* إعلانات الله المتكررة الموجهة إلى الإنسان، منبئة إيّاه بوجود الخالق، المولى.
* توق الإنسان الفطري والسليقي إلى الإيمان بوجود الله، الكائن الحي، الأعلى.

أ) الإيمان بالله في المسيحية:

ينطلق الإيمان بالله في المعتقد المسيحي من:

* الكتاب المقدس.
* قانون الإيمان المسيحي؛ الوثيقة - الشهادة الإيمانية، التي يتلوها المسيحيون المؤمنون مرة - على الأقل - في كل مناسبة دينية أو شعيرة روحية، خاصة في صلاة «القداس» التي يشترك فيها الناس، جماعات أو أفراداً. . .

و«نؤمن بإله واحد. . .» هو المقطع - المطلع لقانون الإيمان النيقاوي - القسطنطيني الذي وضع - بصيغته الكاملة - في المؤتمرين - المجمعين: مجمع نيقية المسكوني؛ عام ٣٢٥م. ومجمع القسطنطينية المسكوني؛ عام ٣٨١م والذي أصبح وثيقة الإيمان الرئيسة، وشهادة الدين الأولى، في كل الكنائس المسيحية، شرقاً وغرباً.

ورد في **الكتاب المقدس** ما يأتي:

«أنا هو الرب إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر ديار عبوديتك لا يكن لك آلهة أخرى سواي» (**سفر الخروج**، الإصحاح العشرون، العددان ٢ و٣).

كما ورد النص المعبّر التالي:

«فنحت (موسى) لوحين من حجر مماثلين للأولين، وبكّر في الصباح وصعد إلى جبل سيناء حسب أمر الرب. فنزل بهيئة سحاب، ووقف معه هناك، حيث أعلن له اسمه: الرب. وعبر من أمام موسى منادياً:

أنا الرّب،

الرّب إله رؤوف، رحيم، بطيء الغضب وكثير الإحساس والوفاء».

(سفر الخروج، الفصل ٣٤، الأعداد ٤ و٥ و٦ وقد نقلناها بشيء من التصرّف).

وكتب بولس الرسول، إلى المؤمنين الجدد، الحديثي العهد في المسيحية من أهالي مدينة أفسس ما يأتي:

«ولكم رب واحد،
وإيمان واحد،
ومعمودية واحدة،
وإله وآب واحد للجميع،
وهو فوق الجميع وبالجميع وفي الجميع».

(رسالة بولس إلى المؤمنين في كنيسة مدينة أفسس - الإصحاح الرابع - العددان ٥ و٦).

أما في الرسالة الأولى إلى المؤمنين الجدد من أعضاء كنيسة مدينة كورنثوس فيقول بولس:

«نحن نعلم أن الصنم ليس بإله موجود في الكون،
وأنه لا وجود إلا لإله واحد...
فليس عندنا نحن إلا إله واحد،
هو الآب الذي منه كل شيء ونحن له،
ورب واحد هو يسوع المسيح الذي به كل شيء ونحن به».

(رسالة بولس الأولى إلى المؤمنين في كنيسة مدينة كورنثوس، الإصحاح ٨، الأعداد ٤ و٥ و٦).

والآن، اسمح لنا أيها القارئ الكريم بعودة سريعة، موجزة إلى الوراء، إلى سفر المزامير الذي هو زبور داود المنزل، لنقرأ ما يقول لنا ذلك الكتاب الموحى به:

«فإنك عظيم وصانع عجائب،
أنت الله وحدك».

(سفر المزامير، المزمور ٨٦، العدد ١٠).

«عظيم هو الرب،
وله جزيل التسبيح،
ولا استقصاء لعظمته».

(سفر المزامير، المزمور ١٤٥، العدد ٣).

وإذا ما عدنا إلى العهد الجديد، إلى آخر أسفار الكتاب: سفر الرؤيا، نرى أن الوحي الإلهي يقول لنا، بشكل مباشر ما يأتي:

«أنا الألف والياء (البداية والنهاية)،
هذا يقوله الرب الإله،
الكائن، والذي كان والذي سيأتي،
القدير على كل شيء».
(**سفر الرؤيا من العهد الجديد**، الفصل الأول، العدد ٨).
تقول الرسالة إلى العبرانيين، إذ يدوّن الوحي الرباني فيها:
«وعن طريق الإيمان،
ندرك أن الكون كله قد برز إلى الوجود
بكلمة أمر من الله.
حتى أن عالمنا المنظور،
قد تكوّن من أمور غير منظورة».
(**العهد الجديد، الرسالة إلى العبرانيين**، الإصحاح ١١، العدد ٣).
وتجدر الإشارة هنا، في مجال بحثنا لموضوع الإيمان بالله، إلى أن الكتاب المقدّس، يبدأ رسالته وإعلانه الإلهي بتأكيد عقيدة وجود الله، الذي هو خالق كل شيء، فيقول:
«في البدء خلق الله السماواتِ والأرضَ. . .
أمر الله: ليكن نور،
فصار نور. . .
وسمّى الله النور نهاراً،
أما الظلام فسماه ليلاً. . .
ثم أمر الله: ليكن جلد يحجز بين مياه ومياه. . .».
(**العهد القديم، سفر التكوين**، الإصحاح ١ ـ الأعداد ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ و٧).
أما سفر نحميا، وهو السفر السادس عشر من كتب العهد القديم، فلقد دوّن ما يأتي:
«قوموا وباركوا الرب إلهكم،
من الأزل إلى الأبد،
وليتبارك اسمك المجيد المتعالي،
فوق كل بركة وتسبيح،
أنت وحدك هو الرب،
أنت صانع السماوات وسماء السماوات،
وكل كواكبها،

والأرض وجميع ما عليها،
والبحار وكل ما فيها.
أنت تحييها،
وكل جند السماء يسجدون لك.
أنت هو الرب الإله،
الذي اخترت إبرام
وأخرجته من أور الكلدانيين،
ودعوته إبراهيم».
(سفر نحميا، الإصحاح التاسع، العددان ٦ و٧).

أما في سفر أعمال الرسل، ويأتي تسلسلياً بعد الإنجيل الذي دوّن بشارته يوحنا الحواري ـ الرسول، فلقد سجل ما يعتبر من روائع النصوص الأدبية الدينية التي أوحى بها الله كالمقطع التالي:

«إنه الله الذي خلق الكون وكل ما فيه،
وهو الذي لا يسكن في مَعَابِدَ بَنَتْها أَيْدِي البشر،
لأنه رب السماوات والأرض...
فإنه ليس بعيداً عن كل واحد منا،
لأننا به نحيا ونتحرّك ونوجد،
فيجب أن لا ننظر إلى الألوهية،
كأنها صنم من ذهب أو فضة أو حجر،
يستطيع إنسان أن ينحته أو يصوغه كما يتخيل!».
(راجع الفصل السابع عشر من سفر أعمال الرسل من العهد الجديد).

والكتاب المقدس يؤكد ـ قبل أي شيء آخر ـ بأن الله موجود وعلى كل إنسان أن يؤمن به:

* إلهاً لا يعادله أي كائن آخر مما هو موجود في الكون والوجود والعالم.
* إلهاً يظهر ويعلن قدرته وكماله وسلطانه، فيبرزها بمطلقها ماثلة أمام الخليقة كلها، ساطعة في وجه كل الكائنات.
* إلهاً خالقاً ومكوناً، صانعاً، وليس ببعيد عن الكون الذي أبدعه من العدم.

الله هذا، هو إله الكتاب المقدس وإله المسيحيين الذي عليهم أن يعبدوه ويعيشوا حسب تعاليمه ووصاياه.

لقد دوّن سمعان ـ بطرس، وهو أحد الرُسُل ـ الحواريين الإثني عشر، عن خبر المسيح، هذا المقطع الهام الذي يعبّر عن:

* وجود الله.
* الإيمان به أباً محباً.
* تسبيحه خالقاً مكوناً للإنسان:

قال سمعان ـ بطرس، بعد أنْ ألهَمَهُ الروح القدس، إذ سجّل بوحي إلهي ما يأتي:

«إن الله، بقدرته الإلهية،
قد زوّدنا بكل ما نحتاج إليه،
في الحياة الروحية المتّصفة بالتقوى.
ذلك أنه عرّفنا بالمسيح،
الذي دعانا إلى مجده وفضيلته،
اللذين بهما أعطانا الله بركاته العظمى الثمينة،
التي وعد بها...
... فمن أجل ذلك،
عليكم أن تبذلوا كل اجتهاد ونشاط
في ممارسة إيمانكم حتى يؤدّي بكم إلى الفضيلة.

(راجع كامل الفصل الأول من **رسالة بطرس الثانية ـ العهد الجديد ـ الكتاب المقدّس**).

ب) ماهية الله في المسيحية:

في كتيّب صغير، عنوانه حلو المذاق، مؤنس ومحفّز، وهو: **بحثك عن الله!** كتب المؤلف ريتشارد بانيت ما يأتي:

[في وقت ما من أوقات الحياة، قد يتساءل معظم الناس: ماذا يشبه الله؟

ومع أن الله أعدّ لهم جواباً عن السؤال، إلا أن هناك الكثيرين منهم، من الذين يفضلون الاعتماد على تصورهم البشري، بدل أن يعتمدوا ويقرأوا ما كتبه الله عن نفسه في كتابه (**أي الكتاب المقدس**) هؤلاء لا يدركون أن الله قد قال: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، فيتسلّط على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى الأرض مع كل زاحف عليها. لقد خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهما (**سفر التكوين/** ١، ٢٦ و٢٧)، وكأن هؤلاء الناس يريدون أن يقولوا: لنعمل الله على صورتنا. وكذلك، بهذا، أبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى».

ويتابع الكاتب بانيت، فيقول: «مهما بلغ اجتهاد الإنسان، فهو لا يستطيع اكتشاف الله الحي ومعرفته بحكمته الذاتية، لأن العالم لم يعرف الله بالخبرة الإنسانية. فلو كان ممكناً أن نتعرف على الله بإمكاناتنا نحن البشر وطاقاتنا المحدودة، فإن الله

يكون أصغر من عقل الإنسان. . . لكن الحال غير ذلك. إن الحكمة الروحية متاحة للجميع ولأي إنسان بنفس القدر؛ لامرأة مسنّة أمية لا تقرأ ولا تكتب، تتوكأ على عكازها، كما لأستاذ جامعي يحمل أرفع الشهادات والدرجات العلمية الأكاديمية. فالحكمة الروحية لا تكتسب في المدرسة، إنها متاحة لمن يتّضعون بما فيه الكفاية، حتى يعرفوا احتياجاتهم ولزوم مساعدة الله لهم في بحثهم عنه. . .».

ورد في رسالة يعقوب، وهي من مجموعة الرسائل العامة في العهد الجديد من الكتاب المقدس ما يأتي:

«وإن كان أحد منكم بحاجة إلى الحكمة، فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء ولا يعيّر. وإنما عليه أن يطلب ذلك بإيمان، دون أي تردد أو شك. فإن المتردد كموجة البحر تتلاعب بها الرياح فتقذفها وتردّها. فلا يتوهم المتردد أنه ينال شيئاً من الرب».

(**رسالة يعقوب، الإصحاح ١، الأعداد ٥ و٦ و٧**).

وهذا النوع من الحكمة ليس دنيوياً بل سماوي. إنها الحكمة التي لم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر. . . وليس الكتاب المقدس مجرّدَ كتاب ديني؛ لكنه «سجل ـ وثيقة» يعلن فيه الله ذاته إلى مخلوقه الإنسان! الله وحده يعطيك الحكمة الروحية التي أنت محتاج إليها، لتفهم من هو الله، وما هي الأشياء التي يريد أن يجريها في حياتك. فإن سألته ذلك، فهو قريب منك، يجيب دعوة الداعي ودعوتك أنت، فيعلن لك ذاته، من خلال كلمته المقدسة. . . سألني صديق صغير السن: لماذا لم يسمح الله لموسى أن يرى وجهه؟ فأجبته بأن سألت إن كان يستطيع هو، أن يتذكر صلاة موسى. . . لكنه لم يستطع أن يتذكر. فقلت له: إن موسى قال الله: أرني مجدك، أي أنه طلب من الله أن يريه: ماذا يشبه الله؟ وهذا السؤال يشكل مشكلة بحدّ ذاتها، لأن مجد الله أبعد جداً من أن يقدر موسى على استيعابه وفهمه. مجد الله لا يرى. مجد الله وقداسته ونوره أشبه بنار آكلة. لقد حذر الله الإنسان قائلاً له: «لأن الإنسان الذي يراني لا يعيش» (خروج ٣٣ ـ ٢٠). لم يعرف موسى ولم يتعرف تماماً على عظمة الله ومجده. لكن الله المحب، الرؤوف، الرحيم أعن له نفسه، على قدر ما يستطيع موسى أن يتحمل. ولو أن الله أظهر كل مجده لموسى، لكان النبي الكليم فنيّ تماماً من: هول حضور الله، ولمعان مجد الله.

. . . عند خط الاستواء، تمكّن أصدقائي الأفارقة من صغار السن أن يفهموا، تلك الفكرة المهمّة، التي تقول بأن الله لا يُرى! فهموا ذلك، لأنهم لم يقدروا أن يحملقوا ويركزوا أبصارهم باتجاه قرص الشمس ونوره الساطع. لقد أشاحوا

بأبصارهم، ثم غطوا عيونهم بأيديهم من هول ضياء الشمس وحرارتها].

(هذا الفصل مأخوذ بتصرف من كتاب: **بحثك عن الله** ـ تأليف ريتشارد بانيت ـ منشورات بعثة الكرمل الإنجيلية ـ أنطلياس ـ لبنان).

في نهاية المطاف، نرى أنه يَحْسُنُ أن نختم بحثنا بعودة إلى كتاب مُهمٌ أشرنا إليه سابقاً وهو: **التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية**:

يُعلِّم، ذلك الكتاب القيم، في موضوع الإيمان بالله العقيدة الآتية:

«أنا أؤمن، ونحن نؤمن!

عندما نعلن شهادتنا الإيمانية، نبدأ بالقول: أنا أؤمن أو نحن نؤمن! فما معنى كلمة: إيمان أو ما معنى فعل: آمن؟

الإيمان هو استجابة الإنسان لدعوة الله الموجهة إليه، عندما يتجلّى له، أي للمخلوق، لينير طريقه في سعيه الحثيث، الطويل للوصول إلى معنى عميق لمغزى الحياة الإنسانية».

باختصار ـ يخبرنا كتاب **التعليم المسيحي** ـ حول موضوع الإيمان بالله ـ ما يأتي:

[لقد أودع المسيح قبل صعوده إلى السماء، الرسل/الحواريين «وديعة الإيمان» وطلب إليهم أن ينقلوها بدورهم، سواء بالنشر أو بالتبشير أو بالتدوين والتسجيل، إلى جميع الأجيال والشعوب... حتى مجيئه الثاني، الممجّد والمكرّم، في آخر الدهر والزمان!

فما «وديعة الإيمان» هذه؟

إن «التقليد الرسولي» والكتاب هما المستندان الشرعيان الوحيدان اللذان يحفظان لنا كلام الله، الموحى به والملهم، الذي ترى فيه الكنيسة وتعلن:

إن عقيدة وجود الله، الكائن الأعلى، الخالق، الديّان الذي هو ينبوع كل غنى ومصدر كل إرث، وركيزة كل توق إلى الكمال في الكنيسة، جماعة المؤمنين وجسد المسيح الخارق، السّري، الإعجازي.

إن الكنيسة، في عقيدتها وتعليمها، وحياتها وعباداتها، تُعتبر الحارس الأول الأمين، الذي يعمل بجد وتفانٍ للحفاظ على:

* الكتاب المقدس.

* التقليد الرسولي ـ الآبائي.

ونقلهما إلى جميع الناس والأجيال والعصور وديعةً إيمانية خالدة أبدية، لا لبس فيها ولا غموض.

* إن شعب الله الذي هو الكنيسة وجماعة المؤمنين كلّهم، لم يتوقف أو يتلكأ أو يتأخر عن الاستماع والتعمق بالوحي الإلهي والإلهام، بأكثر ما يمكن أن يكون من الجدية والرصانة والصدق، كما عاش حسب محتوى «وديعة الإيمان» وبموجبها، ملء حياة شعب مكرّسٍ لله، كياناً وحياة وشعائر.

إن مُهِمَّة شرح كلام الله وتفسيره تقع على عاتق الكنيسة، ولقد عهد بها إلى:

- البابا والكنيسة الجامعة.
- وإلى البطارك والكنائس الرسولية الخمس.
- وإلى الأساقفة والرعايا، أي الكنائس المحلّيّة].

(راجع القسم الأول من الكتاب: **التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية**، الطبعة الفرنسية، بيروت، ١٩٩٤، ولقد عرّبنا المقطع المدوّن أعلاه منه، بشيء من التصرف).

ثانياً ـ الله في الإسلام

تعلن سورة **الفاتحة**، أول سور القرآن المجيد ما يلي:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمين.
الرَّحمٰن الرَّحيمِ
مَالِكِ يَومِ الدِّينِ
إيَّاكَ نَعبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعينُ
اْهدِنا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ
صِرَاطَ الَّذِينَ أنعَمْتَ عليهم غَيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ولاَ الضَّالِّينَ».

فإله المسلمين هو، استناداً إلى الكتاب المبين:

* رب العالمين.
* إله يوم الدين.
* رب به المستعان.
* إله له العبادة المطلقة.
* رب يهدي إلى الخير والمعرفة.
* رب العزة والملك. . .

وهو على كل شيء قدير، يهدي من يشاء ويضل من يشاء:
* إله الدنيا والآخرة.
* رب المشرقين ورب المغربين.
* له الأسماء الحسنى.

وأول شهادة يعلنها ويشهدها المسلم، تعبيراً منه عن إسلامه وإيمانه الديني هي:
* أشد أن لا إله إلا الله..
* وأشهد أن محمداً رسول الله.

ويقول الكتاب، أيضاً، ما يأتي:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.
الٓمٓ، اللَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوْمُ.
نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيْلَ.
مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ واللَّهُ عَزِيْزٌ ذُو انْتِقَامٍ.
إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيءٌ فِي الأرضِ ولاَ فِي السَّمَاءِ.
هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ...
... شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُو العِلْمِ قَائِماً بالقِسْطِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ».

(سورة **آل عمران** ـ ٣ ـ الآيات ١ إلى ٦ و١٨).

أما في سورة **النساء**، فيقول:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كثيراً وَنِسَاءً...» (سورة **النساء** ـ ٤ ـ الآية ١).

وفي سورة **الفرقان**، وردت الآيات الآتية:

«أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيْلاً...».

«... أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلاً».

«... وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوْراً.
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً...».

«. . . فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِيْنَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيْراً».

«وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً».

«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ المَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً. . .».

«. . . الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيْراً» (سورة **الفرقان** ـ ٢٥ ـ من الآية ٤٣ إلى الآية ٥٩).

الله في الإسلام هو ـ إذاً ـ كما في المسيحية:

* إلٰهٌ خالق، ديّان.
* لا إلٰه إلا هو.
* رب العالمين.
* الصانع المكوّن، الذي سوّى ـ في جملة ما سوّى ـ الإنسان رجلاً وامرأة، وكوّن منهما:

ـ قبائل وشعوباً وأمماً.

ـ حضارات وثقافات ولغات، لتتعارف وتتآلف فيما بينها.

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيْمٌ خَبِيْرٌ» (سورة **الحجرات** ـ ٤٩ ـ الآية ١٣).

أ) الإيمان بالله في الإسلام:

الإيمان بالله معتقد رئيس في الإسلام، كما هو في المسيحية. ولا يُعَدُّ المسلم مسلماً، إلا إذا قال عن إيمان وشهد عن اعتقاد واعتناق مكينين شهادة:

أشهد أن لا إلٰه إلا الله!

ويتبين لنا ـ بشكل واضح وجلي، عند قراءة آي الذكر الحكيم، أَنَّ القرآن مليء بالآيات التي تخبر عن الخالق الأزلي، والمولى السرمدي. فالكتاب إذاً، قاطع، جازم في براهينه على وجود القادر الخالد، الديَّان، وهو واضح جليٌّ في دعوة الناس إلى الإيمان بهذا الواحد الأحد، الفرد الصمد:

يقول القرآن، في سورة ق:

«بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

قٓ والقُرآنِ المَجِيْدِ.

بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ.
أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.
قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ.
بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ.
أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ.
وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.
تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ...

... وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ...

... وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ...

... إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا المَصِيرُ».
(سورة ق ـ ٥٠ ـ الآيات ١ ـ ٨ و٣٨ و٤٣).

يُستدل من هذا الاستعراض السريع لبعض آيات الكتاب، حول موضوع وجود الله وعقيدة الإيمان به، أن الإسلام يعرّف الله ويعطيه تحديداً دقيقاً واضحاً. فإن الله في إيمان المسلمين هو:

* الكائن الأعلى الحي.
* خالق الكون الأزلي.
* رب العالمين الأبدي.
* صانع الوجود والمهيمن على نظام ذلك الوجود.
* المولى المتفرد المتميز عن كل ما عداه من مخلوقات وموجودات وكائنات، تلك التي هي صنع «يديه» وإرادته ورغبته، والتي بقاؤها يكون رهن مشيئته وقوله وإذنه.
* السيد المطلق السلطان.

لقد أبدع الله كل الكائنات والأشياء المنظورة وغير المنظورة في الدارين: دار الحياة الدنيا، على هذه الأرض ـ الحياة الملموسة والمحسوسة، ودار الآخرة التي تبدأ بعد الموت، والبعث، من يوم الحشر والنشور والحساب إلى الأبد واللانهاية.

فالإنسان المسلم، مدعوّ إلى أن يرفع بصره نحو الأعالي وينظر إلى الشمس

والقمر والكواكب والنجوم، والمجرّات الفضائية والمجموعات الكونية، فيدرك - آنذاك - عظمة الخالق اللامحدودة وروعة مصنوعاته التي لا تحصى. عندها يتملّك الإنسانَ المسلم اليقينُ، وتأخذه الروعة، فيجد نفسه منساباً، وبصدق، إلى الإنشاد، هاتفاً، مرتلاً، مرنماً كداود الملك - النبي الذي خرّ ساجداً أمام عظمة المولى، وهو يسبح قائلاً:

«السَّمَاوَات تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللّهِ والفَلَكُ يُخْبِرُ بِأَعْمَالِ يديه» (من **زبور داود** - المزمور التاسع عشر - عدد ١ - سفر المزامير في الكتاب المقدس).

ب) ماهية الله في الإسلام:

يُعلِّم الإسلام ويؤمن المسلمون، أيضاً، بأن الله ليس ربّاً عظيماً فقط، بل هو رب فائق العظمة والجلال. فالله هو:

* إله واحد، عادل وفائق العدل.
* إله واحد قدّوس وفائق القداسة.
* إله واحد رحمن رحيم، فائق الرحمة.
* لطيف فائق اللطف.
* خبير فائق الخبرة.
* خير فائق الخير.
* متعال علوّاً عظيماً لا حد له، عن كل إثم، أو قباحة، أو شر أو خبث. . .

١) الله هو الكائن الحيّ الأعلى:

هو المبدع الذي لا جسم له ولا جسد.

إنه الصانع الذي لا مادة فيه ولا أشياء. لا يحد لا بحدود الزمان ولا بحدود المكان، أو الزوايا والجهات.

الله موجود، ماثل، حاضر، مهيمن على كل شيء يُرى أو لا يُرى، في أية ناحية من النواحي وفي أي مكان من الأمكنة أو أي برهة من البرهات وأي ذرّة من الذرات سواء في الأمكنة أو الأزمنة والأبعاد.

تقول آية الكرسي، في سورة البقرة ما يأتي:

«اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوْمُ
لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ
وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا
وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ»
(سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآية ٢٥٥).

يَتَحَدَّثُ القرآنُ في كثيرٍ مِنَ الأحيان والمواضع والمواقف عن: «يد الله»، و«عين الله»، و«حركات الله»، . . . مستخدماً ألفاظاً وتعابيرَ تنطبق على البشر والمخلوقات، وتشير إلى معانٍ ومفاهيم إنسانية، عقليةً كانت أم عاطفية، جسمية أم نفسية. . .

غير أن كل ذلك ليس سوى تعابيرَ رمزيةٍ، صوريةٍ، ومجازيةٍ، الهدفُ منها تقريبُ ماهية الخالق إلى الفهم، من قبل مخلوقاته المحدودة القدرات والذكاء والحواس! ولا يقر الإيمان الإسلامي، في الواقع، بشيء من هذه «المنسوبات» التي ترد في كتب الأدب والفلسفة والدين، منسوبة إلى الله الخالق الذي يفوق إدراكه عقول مخلوقاته، وحواسهم؛ حتى وإن كان، في الوقت عينه، قريباً جداً من الناس، يشعرون بوجوده غير بعيد عنهم، ويوقنون بالفطرة والسليقة والجبلة والبصيرة أن الرحمن يراهم، يسمعهم، ويعرف كل شيء عنهم.

٢) الله هو الخالق:

ورد في كتاب **قصص الأنبياء**، في موضوع الخلق، البحث الآتي، ننقله إلى القارئ الكريم نظراً لفائدته العميمة:

[اعلم، أرشدنا الله وإياك، أن الله سبحانه وتعالى خالق العالم بأسره، العلوي والسفلي والعرش والكرسي، وهو الأول أي الأزلي الذي لا بداية له ولوجوده، كان في الأزل وحده، ولم يكن شيء من العوالم الكثيفة كالعرش والشمس والقمر والإنسان، ولا من العوالم اللطيفة كالنور والظلام والأرواح. هو موجود لا كالموجودات، ليس كخلقه حجمٌ لطيفٌ ولا حجمٌ كثيفٌ لقوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. . .» (سورة **الشورى** ـ ٤٢ ـ مِنَ الآية ١١).

وذلك لأنه لو كان جسماً كثيفاً لكان له أمثال، ولو كان جسماً لطيفاً لكان له أمثال. وقد دلت هذه الآية على ذلك، وعلى أنه (أي الله) لا يتصف بصفات العالمين كالحركة والسكون والتحول من حال إلى حال، والتحيّز في جهة أو مكان، والجلوس والاستقرار في جهة؛ ذلك لأن الجلوس صفة مشتركة بين الإنسان والملائكة والجن والطيور. فهو سبحانه وتعالى الموجود الأزلي الذي لا ابتداء لوجوده، وما بسواه،

حادث مخلوق، خلقه الله بقدرته، فأبرزه من العدم إلى الوجود:

قال الله، تبارك وتعالى:

«اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» (سورة **الزمر** ـ ٣٩ ـ الآية ٦٢).

«... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» (سورة **الفرقان** ـ ٢٥ ـ من الآية ٢).

«الحمدُ للَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ...» (سورة **الأنعام** ـ ٦ ـ من الآية ١).

فَإِنَّ الله سبحانَهُ، أَخْبَرَ في هذه الآية بأنه لم يكن في الأزل لا نور ولا ظلام؛ فوجب الإيمان بأنه مضى وقت لم يكن فيه لا نور ولا ظلام، فيجب الإيمان بذلك، مع أن وهم الإنسان لا يستطيع أن يتصوره، فكيف يستطيع أن يتصور الله؟ العقل الذي يعجز عن أن يتصور بعض المخلوقات، كيف يستطيع أن يتصور الخالق؟ فهو، كما قال أئمة الهدى: «مهما تصورت ببالك، فالله خلاف ذلك».

(قال ذلك الإمام أحمد بن حنبل، والإمام ذو النون الحصري، والشافعي، وغيرهم).

أما الماء والعرش، فهما أول خلق الله، وأولهما وجوداً الماء، فهو أصل لغيره من المخلوقات. والله تعالى خلقه بقدرته من غير أصل. فبداية العالم إذاً تمّت من غير مادة، ولا يحيل العقل السليم ذلك، إن الدليل الشرعي الذي استند إليه العلماء في أن أصل العالم هو الماء، وهو أول المخلوقات، رسول الله الصادق المصدوق الذي رواه ابن حبان وابن ماجه من حديث أبي هريرة أن النبي قال: «كُلُّ شيءٍ خُلِقَ مِنَ الماء».

ولفظ ابن حبان أن أبا هريرة قال: قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني فانبئني عن كل شيء، قال: «إن الله تعالى خلق كل شيء من الماء». وفي لفظ: «كل شيء من الماء».

وروى السدي، بأسانيد متعددة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله قال: «إن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء»...

وثاني المخلوقات بعد الماء، هو:

العرش، وهو أكبر الأجرام التي خلقها الله،

ثم القلم الأعلى.

اللوح المحفوظ.

ثم السماوات والأرض.

... قال رسول الله: «كَانَ اللَّهُ ولم يكنْ شَيءٌ غيرُهُ، وكان عرشه على الماء

وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض» (رواه البخاري وابن الجارود والبيهقي من حديث عمران بن الحصين)...

... إن الأزلية المطلقة ليست إلا لله الخالق، وإن الموجود الذي لا ابتداء لوجوده هو الله سبحانه وتعالى فقط، لا يشاركه في هذه الصفة شيء غيره من المخلوقات، لأن الألوهية لا تصح مع إثبات شيء غير الله مع الله تعالى في الأزل.

لقد أثبت الله في القرآن الأزلية له وحده ليفهمنا أن هذا العالم كله مخلوق، خلقه من العدم إلى الوجود.

قال الله تعالى: «هو الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ وهو بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (الآية ٣ من سورة **الحديد**)...

... لقد أجمع علماء المسلمين قاطبة على تكفير الذين قالوا بأزلية العالم كابن سينا والفارابي ومَنْ تَبِعَهم، وسواء في الكفر الذين قالوا: إن العالم قديم أزلي بمادته وصورته (أي تركيبه)، فكلا الفريقين كافران...

... قال الله تعالى: «وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ» (سورة **الحاقة** ـ ٦٩ ـ الآية ١٧).

يستحيل، عقلاً، أن يكون العرشُ مَقْعَداً لله! فكيف يكون الرب الذي هو خالق للعرش وغيره، محمولاً على سرير يحمله الملائكة على أكتافهم؟

كذلك، لا يصح تفسير قول الله تعالى: «الرحمن على العرش استوى» بجلس، لأن الجلوس صفة من صفات البشر والجن والملائكة والدواب، بل معنى قول الله تعالى: «استوى» هو: قهر لأن القهر صفة كمال لائق بالله تعالى، لذلك وصف الله نفسه فقال: «وهو الواحد القهار». فهذا العرش العظيم خلقه الله إظهاراً لعظيم قدرته ولم يتخذه مكاناً لذاته، لأن المكان هو من صفات الخلق. والله تنزّه عن المكان والزمان.

قال الإمام الطحاوي: «لا تحويه ـ أي الله ـ الجهات الست، كسائر المبتدعات».

وقال سيدنا علي: «إن الله خلق العرش إظهاراً لقدرته ولم يتخذه مكاناً لذاته».

فالملائكة الكرام الحافّون حول العرش والذين لا يعلم عددهم إلا الله، يسبّحون الله تعالى ويقدّسونه ويزدادون علماً بكمال قدرة الله، عندما يرون هذا العرش العظيم...].

(راجع كتاب: **قصص الأنبياء** ـ إعداد، قسم الأبحاث والدراسات الإسلامية في جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية ـ بيروت، دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع ـ

الطبعة الأولى، ١٩٩٧ ـ «البحث الخاص ببدء الخلق»، ص ٩ و١٠ ـ ولقد نقلناه بشيء من التصرّف نظراً لفائدته).

ج) صفاتُ الله في الإسلام:

إن الرموز والتشابيه والصور والتعابير التي ترد في كتابي المسيحية والإسلام، وفي ينابيعهما ومراجعهما الأخرى، ما هي، في الواقع، سوى أساليب ووسائل يركن إليها الدينان الكبيران، لتقريب فهم جلال الله وعزّته، وعظمته ورحمته من قبل مخلوقاته المتدينة. فالله الذي ليس كمثله شيء مما في الوجود، يجب أن يوصله الإسلام والمسيحية إلى أذهان الناس المحدودة وإلى عقولهم العاجزة عن النفاذ إلى جوهره وذاته اللامحدودة. فهو ـ أي الله ـ مطلق، لامتناهٍ ولا محدود ويتمتع بصفات وخصوصيات وميزات يعجز الناس عن سبر غور كنهها. فما هي؟ وكيف هي هذه الميزات؟

الله في المعتقد الإسلامي، ومثله في المعتقد المسيحي هو:

* الضابط لكل ما في الوجود والكون والحيوات.
* القادر على فعل أي شيء يريد.
* المتعامل مع خليقته الإنسان، بالمحبة والحنان والرأفة والرحمة.
* المظهر محبّته للناس:
- بتوفير المطر، وبالتالي رزق الأرض لهم.
- بتأمين نور الشمس اللازم، الحيوي.
* بتوزيع وقسمة اليوم إلى نهار وليل: نهار للعمل والكد والكسب، وليل للنوم والراحة والسكينة.
* بإنبات حسن المأكل والمشرب، وكل ما يحتاج إليه الناس، كباراً وصغاراً للاستمرار في العيش والحياة، على هذه الأرض الفانية...!

رحمة الله واسعة إذاً، غنية تغمر بخيراتها جميع المخلوقات. ولقد أعلن الرب وافر محبته بإرسال الأنبياء والرسل واحداً تلو الآخر؛ هم وكتبهم ومعجزاتهم والرسالات. إنه لم يتوانَ بعظمته وجلاله الفائقين عن تكليف مبعوثيه، محمِّلاً إياهم الصحف والكتب والأسفار الإلهية: بشارة للإنسان وهداية له نحو الحلال والمعروف، وإنذاراً للإنسان ونهياً له عن الحرام والمنكر.

يعبّر داود «النبي ـ الملك» عن روعة العناية الإلهية بالمخلوقات، فيقول في زبوره، إنفاذاً لأمْرِ الوحي الرباني:

«الرب راعيَّ فلست أحتاج إلى شيء. في مراعٍ خضراءَ يربضني، وإلى مياه عذبة

هادئة يقودني. ينعش نفسي ويرشدني إلى طريق البر إكراماً لاسمه القدوس. حتى إذا اجتزت وادي ظلام الموت، لا أخاف سوءًا، لأنك ترافقني. عصاك وعكازك هما معي يشددان عزيمتي. تبسط لي مأدبة على مرأى من أعدائي. مسحت بالزيت رأسي، وأفضت كأسي. إنما خير ورحمة يتبعانني طوال حياتي، ويكون بيت الرب مسكناً لي مدى الأيام» (زبور النبي داود ـ راجع **سفر المزامير** في الكتاب المقدس ـ المزمور ٢٣).

إنه لأمر بديهي، طبيعي، حتمي ومنطقي، أن يشمل الله برأفته ورحمته ومحبته، من يطيع أوامره، فيبتعد عن ارتكاب الآثام، متقيداً بنواهي الله!

ولكن، هل يعطف الله ويرحم من يَعْصِي أوامره ونواهيه من المخلوقات؟

الجواب عن هذا السؤال يوفره الإسلام في الإعلان الآتي:

* الله قدوس وكلي القداسة.
* خير وكلي الخير.
* عادل وكلي العدل.
* يحب الخير والمعروف والإحسان.
* ولا يقبل أي شكل من أشكال الشر والإثم والمنكر.

وعندما يقوم أي مخلوق من مخلوقات الله، بارتكاب المعصية، وبفعل الذنب والمنكر، يغضب الله عليه، لأنه خالف الشرع والتعاليم والوصايا، ويعاقبه شديد العقاب! هكذا، فإن الإنسان الآثم، المذنب، يخضع بفعل ذنبه لعقاب المولى الذي من صفاته الجوهرية أنه: شديد العقاب.

إننا عند قراءتنا لكتاب القرآن، لا بد لنا، من أن نعاين ونفهم، وبالتالي نخضع لما قرره الله من عقاب للظالمين؛ فنرى كيف أهلك الرحمن الرحيم، أفراداً وشعوباً وأمماً وقبائل انقلبوا على تعاليمه وخالفوا شرعه ولم يتقيدوا بما أمر من وصايا. أناس رفضوا أن يتوبوا التوبة النصوحة، فيندموا ويرجعوا عما ارتكبوه من رذائل ومنكرات.

هنا، وفي سبيل كل هذا، ندعوك ـ أيها القارئ الكريم ـ لمشاركتنا في تلاوة سورة الفجر في الكتاب المجيد:

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ.

إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ.

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلاَدِ.

وَثَمُودَ الَّذِيْنَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ.

وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. . .

. . . فَأَكْثَرُوا فِيْهَا الفَسَادَ.
فَصَبَّ عَلَيْهِم رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ.
إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ».
(سورة **الفجر** ـ ٨٩ ـ من الآية ٦ إلى الآية ١٤).

ثالثاً ـ إلٰه المسيحية والإسلام

لقد حان الوقت، لكي نؤكد معك وأمامك أيها القارئ الكريم مُسْلِماً كنت أم مسيحياً، العقيدة القائمة على أن إلٰه الدينين هو نفسه رب العالمين وإلٰه الأكوان وسيد الوجود، إنه إله:

كائن حي أعلى، وليس فكرةً أو مبدأ فلسفِيَّيْنِ، كما يقول ويعتقد الكثيرون من المفكرين والعلماء والدارسين، غير المؤمنين، الذين ليسوا، لا من المسيحية ولا من الإسلام بشيء:

كائن مطلق أزلي، سرمدي، أبدي، خالد وقديم.

كائن خالق ومكوِّن، موجود وحقيقي، وليس عقيدة مبهمة أو صورة رمزية في عالمي الفكر أو الخيال. كما أنه ليس شعوراً مبهماً ذائباً، مُندَمِجاً في الوجود والكون والعوالم والحيوات.

كائن ديان، يحاسب خلائقه والناس على أعمالهم، أحياء وأمواتاً، وليس هو بتخيل شعري أو وهم روحيّ أو فكرة غنوصيّة عرفانية أو مسلك سرّاني ملغز. . .

ذلك هو رب العالمين، سواء في المسيحية أو في الإسلام:

«هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ».

«هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيْزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ».

«هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ».

(سورة **الحشر** ـ ٥٩ ـ الآيات ٢٢ و٢٣ و٢٤).

غير أنه لا بد لنا من الإشارة ـ احتراماً لمبدَأي الأمانة العلمية ودقة البحث وتقيُّداً بمبدأ الحياد عند الدرس والتنقيب ـ إلى أن المسيحيين والمسلمين، يفترقون بعضهم عن البعض الآخر، ويتمايزون في فهمهم لبعض الأمور والنقاط التي هي في ومن

صلب عقيدة الإيمان بالوجود الإلهي الرباني. إنهم يختلفون مثلاً في نظرتهم وشرحهم:

* لجوهر الله وذاته الربَّانيّة.
* لصفات وميزات وعلاقة كل ذلك بالوجود والكون والأرض والإنسان.

إن عقيدة الله في المسيحية والإسلام هي واحدة، في الأساس والمبدأ، وهي متمايزة في التفاصيل، تختلف في بعض طروحاتها من دين إلى آخر. وهذا ما سنحاول بحثه في الباب الثاني من الكتاب وعنوانه: «محاور الافتراق».

إذ إننا سوف نحاول أن نلقي الضوء على النقطتين الهامتين:

١ ـ شرح عقيدة وجود الله، ما هو؟ ومن هو؟ وكيف هو؟

٢ ـ شرح الإيمان بذلك الإله الواحد الأحد.

رابعاً ـ إلٰه الفلسفات والأديان الأخرى

إذا انطلقنا من المعتقد القائل إنَّ الله كائن حيٌّ خالِدٌ أزليٌّ سرمديٌّ ديّانٌ قديمٌ خالِدٌ، يعاقب ويثيب، واعتبرناه في صلب إيمان الديانتين: المسيحية والإسلام، وإذا كان رب المؤمنين المسيحيين والمسلمين، رَبًّا موجوداً فعلاً وحقيقة، وهو الله صانع الوجود وسيد الحيوات والأكوان. فإن تلك العقيدة المحور لا تلتقي مع «إلٰه» كثيرٍ من الفلسفات والأديان والمذاهب التي تخرج عن إيمان المسيحية والإسلام.

لذلك، فلقد رأينا من واجبنا، أن نختم هذا الفصل، بإعطاء القارئ الكريم فكرة موجزة عن:

* عقيدة الله عند أحد الفلاسفة اللبنانيين، أخذنا تعليمه في مسألة وجود الله وتعريفه وتحديده والإيمان به مثلاً ونموذجاً لهذا الموضوع، ألا وهو الكاتب المفكر ميخائيل نعيمة:
* الفوارق والاختلافات في النظرة والتعليم والمعتقد بين إلٰه المسيحية والإسلام، وإلٰه البقية الباقية من الأديان والمذاهب والعقائد الأخرى.

أ) الله في فلسفة ميخائيل نعيمة:

يُؤْمِن ميخائيل نعيمة ويعلم، بأنه:

«سوف يأتي يوم يدرك فيه كل الناس، وحتى رجال العلم منهم، بأن هذا الكون والفضاء اللامتناهي، ممتلئ بالروح، ولا شيء فيه إلا الروح! الروح الأزلي، الأبدي، الروح الكلّي، الكامل، الشامل، الروح الذي لا تحدّه أية حدود. إنه هو وحده (أي الروح) الموجود... يتكثف الروح فيغدو مادة. وتشف المادة فتغدو روحاً.

الروح، في الحالين، هو الحقيقة الأزلية، الأبدية. إنه الينبوع. إنه المصدر. إنه الجوهر! وما الكثافة والمادة سوى الأعراض التي تستمد وجودها من الجوهر! عندما يتكثف الروح يتحول فيغدو مادة. الروح إذاً، هو الأوّل، بعده ومنه تأتي المادة بالتحول والتكثف!

هذا الروح هو الحياة. والحياة هي الوجود كلّه. فالروح إذاً، هو الحياة ولا فرق بين الاثنين».

الحياة، عند نعيمة وفي نظرته الفلسفية، والله الذي تقول به إيمان المسيحية والإسلام، هما، وفي الواقع، واحد. كلاهما روح أزلي، أبدي، كائن في كل مكان. الروح هو الحياة، لا فرق بين الاثنين.

نستنتج من ذلك، أن نعيمة يعتقد: بأنه، إذا كانت الحياة والوجود شيئاً واحداً. فإن الله والحياة شيء واحد! كذلك الحياة هي الكون، هي الوجود، فالكون إذاً، هو الله، هو الروح. الله هو الكون. . . !

تلك، فكرة موجزة عن فلسفة «الحلولية» التي يؤمن بها نعيمة ويبشر، بعد أن طرحها وبحث فيها في مجمل كتبه وأعماله عامة، وفي الكتب الثلاثة الآتية خاصة: **كتاب مرداد، واليوم الأخير، وكتاب ابن آدم.**

ب) نعيمة والأديان:

تخضع آراء ميخائيل نعيمة في موضوع الدين إلى فكرتين اثنين:

ـ **الفكرة الأولى**، وهي أن الدين ظاهرة، بارزة، مهمة في الوجود البشري ـ الإنساني.

ولما كان نعيمة يجد نفسه مضطراً إلى محاولة البحث في هذا الوجود الإنساني، ضمن إطار نظرية شاملة، متكاملة، متماسكة، رأى نفسه مضطراً إلى التصرف والبحث في موضوع الدين والإيمان الديني.

ـ **الفكرة الثانية**، وهي حتمية ولوج عالم الأديان بالبحث والدراسة القائمة على تناول الوجهين الآتيين:

* الدراسة النظرية الصرف الموضوعية والمحايدة، والعلمية للأديان.

* الدراسة الإيمانية القائمة على عوامل ومؤثرات عديدة كالمؤثرات الاجتماعية والثقافية والحضارية.

لذلك، فإن ميخائيل نعيمة ينظر إلى الدين، ليس كفعل تأمّلي، عقلي، نظري، روحي إيماني، وليس كهدف قائم بذاته، إنما هو، في نظره:

* طريق يذهب ليؤدي إلى هدف آخر أبعد من أهداف الدين.

* مسار يتبعه المؤمن. . . ليصل إلى مستويات عدة من السلوك في الحياة الاجتماعية.
* سلوك يقوم على نشر الخير والفضيلة ومقاومة الشر ومجابهة الرذيلة.

دين نعيمة يختلف كثيراً عن جوهر المسيحية والإسلام! هو طريق إلى الحقيقة وإلى العرفان. والعرفان غوص عميق في باطن الأشياء.

الحقيقة عند نعيمة هي الله، والروح، والوجود، والكون والطبيعة! «. . . فالله وهذه الحياة واحد. . . والله والعالم اسمان لموضوع واحد، وجهان لوجود واحد. . .».

يقول نعيمة وهو يتوجّه إلى الناس، كلِّ الناس: «كلمتكم وكلمة الله واحدة، لا فرق، إلا أن كلمة الله سافرة وكلمتكم لا تزال مُحَجَّبة. . .».

ج) الخاتمة:

يتبين لنا، من خلال ما تقدم من بحث وتحليل، أنَّ في عالم المعتقدات إيمانٌ بإلهٍ آخر، غير إله المسيحية والإسلام. إلهٌ هو إلهُ الكثير من الفلاسفة والمفكِّرين. أُولئك الذين يُمثِّلُ معتقداتهم فكرُ نعيمة وفلسفته. إلهٌ يختلف في كل شيء عن إله الكتب السماوية المُوْحى بها، إله غريب خاص بكل من كان غيرَ مُوَحِّدٍ. إله الهندوس مثلاً والبُوذِيِّينَ والأرواحيين والغنوصيّين والمجتهدين من بني البشر. . . إله كل من كان ويكون خارج حظيرة التوحيد الموسوي ـ المسيحي ـ المحمّدي.

المحور الثاني ـ الإنسان، خليقة الله

مقدمة: الخلق والإبداع، صنع الله

تشترك المسيحية مع الإسلام في القول والاعتقاد بمبدأ ثانٍ رئيس وعقيدة أخرى أساس تقول: إن الله الواحد الأحد، هو:

* خالق كل شيء من العدم.
* مبدع الوجود من لاشيء أو من اللاوجود.
* مكوّن الكائنات منظورة كانت أو غير منظورة، محسوسة أو غير محسوسة.

إنها العقيدة الثانية ـ الدعامة، التي تقوم عليها ويشترك فيها أديان التوحيد الثلاثة: الموسوية ـ اليهودية والمسيحية والإسلام.

ولقد رأينا ـ أبّان عرضنا للمحور الأول منْ هذا الباب ـ كيف أن الله هو الخالق، المكوّن، المبدع، وكيف خلق وكوّن وأبدع كل شيء.

بكلمة موجزة، يمكننا أن نردّد مع سفر التكوين من الكتاب المقدس، حين أعلن الحقيقة الآتية الخالدة:

«في البدء خلق الله السماوات والأرض...».

... إلى أن نصل مع الوحي الإلهي، وحي الروح القدس، إلى خلق الإنسان وتكوينه: «ثم قال الله: لنصنع الإنسان...».

كما يمكننا أن نردّد مع السنّة النبوية المحمّدية، في الحديث الشريف، كيف خُلِقَ آدم: «في خير يوم طلعت عليه الشمس، يوم الجمعة، فيه خُلق آدم وفيه أُدخل الجنة وفيه أُخرج منها» (رواه مسلم وغيره من رواة الأحاديث).

وفي الكتاب المجيد ما يأتي:

«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لكُم ما في الأرضِ جميعاً ثم ٱسْتَوَى إلى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاواتٍ وهو بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآية ٢٩).

نصل، هكذا، إلى مسألة خلق الإنسان وتكوينه، ذلك الإنسان الذي هو موضوع بحثنا في هذا المحور الثاني. فما هو هذا الإنسان؟ ومن هو؟ يا ترى!

أولاً ـ الإنسان في المسيحية

في عودة لازمة إلى سفر التكوين من العهد القديم، نقرأ سوية هذا النص الإلهي الهام:

«ثم قال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا، كمثالنا، فيتسلّط على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى الأرض، وعلى كل زاحف يزحف عليها. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً وأنثى خلقهم. وباركهم الله قائلاً لهم: أثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يتحرك على الأرض».

(**سفر التكوين** - الإصحاح الأول - الأعداد ٢٦ و٢٧ و٢٨).

يؤكد سفر التكوين، هكذا، أن الله وحده خالق الكون. وأن الرّب وحده خالق الإنسان، ذلك الكائن المميز عن كل ما عداه من الكائنات والمخلوقات.

لقد خلق الله الإنسان واصطفاه على سائر مخلوقات الأرض وأيده بما يأتي:

١ - بعقل يدرك ويعرف أنه يدرك.

٢ - بقلب يحس ويشعر، مدركاً أنه يحس ويشعر.

٣ - بضمير يميّز ويعرف أنه يميّز بين الخير والشر.

هذا بالإضافة إلى الملكات الرئيسة الآتية:

- اللسان والنطق اللذين يتيحان للإنسان التعبير والكلام.

- الإرادة والقرار.

- الروح والنفس الخالدتين، وروح الإنسان هي قوة الله فيه، تدله وتتيح له الإيمان والحياة في حالة انسجام تام مع إيمان الإنسان بالخلق العجيب.

هي الروح التي تؤمِّن للإنسان حياة الآخرة في دنيا الخلود، وفي ضيافة الله بعد الموت وبعد الحياة الدنيا.

أ) الإنسان، جسد ونفس وروح:

الإنسان، كما أسلفنا، مخلوق آدمي، لم يكن، ولن يكون، ولا يستطيع أن يدّعي، أو يطمح لأن يكون الله أو لكي يكون موازياً له. هذا تعليم يخرج عن معتقدات المسيحية ومبادئها ويتنافى مع الإيمان الإنجيلي، يُعَلِّمُ كثير من الفلسفات والمذاهب والنظريات، وتقول آراءُ وعقائد كثيرة إنَّ «الإنسان إله في القمط». ينمو ويتطور، يتصفّى ويتنقى مرّات ومرّات... إلى أن يصل إلى القمة... فيذوب في الذات الإلهية والحضرة الصمدانية، اللتين هما بدورهما تكونان حالّتين فيه أي في الإنسان.

تلك هي إحدى تعاليم فرق كثيرة من الناس تقوم على كثير من الأفكار السرّانية الملغزة أو كثير من المسائل «الغنوصية» والعرفانية.

هذا التعليم أو هذه التعاليم ترفضها المسيحية، ولا تؤمن بها. إنها لم ترد ولا أثر لها في كتب المسيحية وينابيعها. كما أنها ليست ماثلة لا في فلسفتها ولا في لاهوتها. فالإنسان في المسيحية كائن، خلقه الله وجعله مكرَّماً وعزيزاً عليه، ومقرَّباً منه ومُنْعَماً عليه بأن يشعر ويتمتّع، ويسبح ويحمد، ويبارك ويتواضع أمام:

ـ عظمة الله وعدله اللامحدود واللامتناهي.

ـ رحمة الله وغفرانه، وحنوّه ورأفته الفائقة البهاء.

لقد كوّن الله الإنسانَ مخلوقاً مركَّباً مِن:

روح خالدة.

نَفْسٍ خالدة.

جَسَدٍ خالد.

وكان، رجلاً وامرأة، ولداً وشاباً، شيخاً وكهلاً:

باراً كل البر كالقديسين.

خيّراً كل الخير كالصالحين.

بريئاً كل البراءة كالأطفال.

عفيفاً كل العفة كالمتبتلين...

... إلى أن خالف وصية الله، مختاراً بملء إرادته وفعل قراره، فارتكب المعصية ووقع في حال الخطيئة والإثم.

لم يخلق الله الإنسان آلة من الآلات أو أداة من الأدوات، بل خلقه كائناً حرّاً عاقلاً، مميزاً عن جميع دواب الأرض والحيوانات، وطيور السماء والعصافير، وأسماك البحر والأحياء المائية؛ عاقلاً ركز الله فيه:

العقل النيّر الواعي.

الإرادة الحرّة.

الضمير الميزان.

حرية القرار والفعل.

موهبة الانتقاء والاختيار والمفاضلة.

ورد في كتاب: **أتباع المسيح**، البحث الآتي:

[لقد جعل الله الإنسان عاقلاً وحرّاً (بروحه ونفسه والجسد)؛ يستطيع، إذا ما أراد أو شاء، أن يختار إطاعة الله خالقه، وأن يحبّه حب المخلوق للخالق، وأن يخدمه خدمة العبد المخلص الأمين، للسيد النبيل، الواسع الصدر والكريم. وكانت رغبة الخالق وخطته تقضي بأن يصبح جميع الناس كراماً وأبناء رمزيّين للرب الإله، يحبّونه

كما يحب الأبناء آباءهم ويحب بعضهم البعض الآخر، كما يحب الإخوة إخوتهم، مكمّلين ومتابعين ـ بفرح وسعادة ـ عمل الله في الأرض. فالناس جميعاً، والنوع البشري برمّته، يتكون من دم واحد، وعظم واحد ولحم واحد، وهو ينتسب إلى أب واحد وجد واحد، ويتمتع جميع أفراده بمحبّة الله، الصانع، الذي خلق آدم وحواء من تراب وكل أبناء آدم وحواء من أديم الأرض. لذلك، فإنه ـ إذا ما كانت هناك أجناس وأعراق متعددة ومختلفة من البشر، تسكن وتحيا على الأرض، متباينة في أشكالها وألوان بشراتها ولغاتها وثقافاتها ـ تبقى وحدة الناس، مخلوقات الله، أساساً في محبّة الله للإنسان ورحمته ورأفته به قاعدة وركيزة.

لكن إرادة الله ورغبته في تنفيذ الخطة التي أعدّها للإنسان، لم يتقيد بها ذلك الأخير كما يجب، فبدل أن يستعمل الإنسان حرية إرادته واختياره في طاعة الله، وأن يستخدم قراره في الخضوع لمشيئة المكوّن، خالق الإنسان ومبدعه، بدّل كل ذلك من عيش وخدمة وتصرّف استناداً إلى نواميس العناية الإلهية، فضّل التمرّد على شريعة الله وقوانين السماء، فعصِيَ أَمْرَ سيّده وأخطأ تماماً كما هو مذكور في الإصحاحين الثاني والثالث من سفر التكوين: لقد أمر الله أبوينا الأولين، بأن لا يأكلا من ثمر شجرة معرفة الخير والشر، تلك الشجرة التي كانت تطلّ باسقة في وسط جنة عدن، حيث أنبتها الله ونمّاها. لقد قال الله ـ بوضوح ـ لآدم وحواء، إنهما إذا ما عصياه وأكلا من ثمر الشجرة المعنية، فإنهما سوف يموتان موتاً:

- جسدياً، بفناء الجسم البشري وتحلله وعودته إلى تراب الأرض وأديمها.
- نفسياً، بانطفاء النفس ودخولها إلى عالم العدم.
- روحياً، بانعدام الروح وفقدانها لخاصة الخلود والأبدية].

ب) الإنسان والسقوط:

[لقد أصبح الإنسان، بعد فعلته المخالفة لمشيئة الله، معرضاً، كما قلنا، وخاضعاً لشريعة الموت والانطفاء الأبدي. لماذا؟

لأنَّ فِعْلَ أَبَوَيْنا الأَوَّلَين، عندما أكلا من ثمر الشجرة المحرمة، لم يكن غلطاً عابراً، أو خطأ طائشاً يمكن التغاضي عنه أو عدم أخذه بعين الاعتبار، بل كان عصياناً مبدئياً جسيماً، وتمرداً فظيعاً على أوامر الله.

لقد أراد الإنسان أن «يتحرّر» من وصاية الله خالقه، فماذا كانت النتيجة، من جرّاء تلك الفعلة الجسيمة؟

الجواب: موت جسدي ونفسي وروحي وفناء أبدي للإنسان... هذا، بعد طرد عقابي من جنة عدن... وتعب وحزن وألم، وبؤس وشقاء وحروب...

لقد كان ثمن خطيئة آدم وحواء باهظاً وغالياً جداً!

أصبح مخلوقاً هالكاً، واقعاً تحت قانون الهلاك الأبدي، روحاً ونفساً، جسماً وقلباً وعقلاً!

سقط الإنسان فعلاً بكامل اختياره، واستخدم حريته، التي احترمها الله له وفيه، فلم يمسَّها ولم يُلْغِها، . . وكان أن أدّت به هذه الحرية إلى هلاك جسده ونفسه وروحه، وإلى طرد مؤلم من فردوس عدن وقيام نظام بشريّ ـ أرضي جديد يكرس:

صعوبة الحياة والألم والشقاء.

نهاية العيش بالموت النهائي.

العودة إلى الفناء التام والعدم.

يعبّر المزمور الحادي والستون، وبروعة، عن ذلك الواقع الجديد، الذي طرأ على وضع الإنسان بعد السقوط الكبير، فيقول ما يأتي:

«ارحمني يا الله حسب رحمتك،

وامح معاصيّ حسب كثرة رأفتك،

اغسلني كلياً من إثمي وطهّرني من خطيئتي.

فإنني أقرّ بمعاصيّ، وخطيئتي ماثلة أمامي دائماً.

إليك وحدك أخطأت، والشر قدام عينيك صنعت. . .

. . . ها إنّي بالإثم قد ولدت وفي الخطيئة حبلت بي أمي».

(سفر المزامير: **زبور داود** ـ المزمور ٦١).

كما يبدأ المزمور الأول بهذه الحكمة الصارخة:

«طوبى للإنسان الذي لا يتبع مشورة الأشرار،

ولا يقف في طريق الخاطئين،

ولا يجالس المستهزئين.

بل في شريعة الرب بهجته،

يتأمل فيها نهاراً وليلاً،

فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه،

تعطي ثمرها في حينه،

وورقها لا يذبل،

وكل ما يصنعه يفلح].

(راجع كتاب: وليم م. ماير، **أتباع المسيح، معتقداتهم وممارساتهم**، ترجمة

الدكتور يوسف متى إسحق، المنصورية ـ المتن ـ لبنان، منشورات دار منهل الحياة ـ عام ١٩٨٦. ولقد عرضنا هذا المقطع الطويل منه، بكثير من التصرف).

ثانياً ـ الإنسان في الإسلام

إن أول ما أنزل من وحي على الرسول العربي، هو آيات تتكلم عن الإنسان وتعليمه. فالإنسان هو المخلوق المحور الذي ذكره القرآن في آي الذكر الحكيم.

يقول الكتاب المجيد:

«اقْرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.
خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ.
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ.
الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ.
عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.
كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى.
أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى.
إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى».

(سورة العلق وهي السورة الأولى في تاريخ النزول والوحي القرآني ـ ٩٦ ـ من الآية ١ إلى الآية ٨).

الإنسان، إذاً، هو محور رئيس من محاور الوحي القرآني وقضية مركزية كبرى من قضايا القرآن وموضوعاته؛ نذكر ونسجّل في ما يأتي بعضاً من النصوص المعبرة، والتي تجيب عن كل التساؤلات التي تطرح أو ترد إلى الذهن حول الإنسان، من هو؟ وما هو؟

يقول القرآن:

«لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.
ثُمَّ رَدَدْنَاه أَسْفَلَ سَافِلِينَ.
إِلاَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرَ مَمْنُونٍ».

(سورة التين ـ ٩٥ ـ الآيات ٤ و٥ و٦).

«. . . لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ في كَبَدٍ.

أَيَحْسَبَ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عليهِ أحدٌ.
يَقُولُ أهلَكْتُ مالاً لُبَداً.
أَيَحْسَبُ أَنْ لم يَرَهُ أَحَدٌ.
أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ.
وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ.
وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».
(سورة **البلد** ـ ٩٠ ـ من الآية ٤ إلى الآية ١٠).

ويتوالى الوحي القرآني، معالجاً قضية الخلق والإبداع والتكوين، خلق الإنسان والكون والوجود، وخلق الحياة من العدم:

«فَلْيَنْظُر الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ.
خُلِقَ مِنْ ماءٍ دَافِقٍ.
يَخْرُجُ من بين الصُّلْبِ والتَّرائِبِ.
إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ».
(سورة **الطارق** ـ ٨٦ ـ من الآية ٥ إلى الآية ٨).

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.
سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأعْلَى.
الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى.
والَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى.
والَّذِي أَخْرَجَ المَرْعَى...
.. سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى.
ويَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى.
الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الكُبْرَى.
ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ».
(سورة **الأعلى** ـ ٨٧ ـ من الآية ١ إلى الآية ١٥).

يعتبر الإسلام، أن الإنسان هو خليقة من أشرف مخلوقات الله الأرضية وأحبها إليه! إنه ـ أي الإنسان ـ خليفة الله في الأرض.

يقول القرآن، حول هذا الموضوع، مكرّساً الإنسان خليفة لله على كوكبنا ويُعلن:

«وإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَة إنّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أتَجْعَلُ فِيهَا من يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إنّي أعْلمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآية ٣٠).

«وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ أبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآية ٣٤).

أ) الإنسان، جسد ونفس وروح، وهو مخلوق مائِتٌ فانٍ:

الإنسان في الإسلام كائن يموت. إنه مخلوق يفنى جسده، وشخص خاضع لقوانين الكون والوجود التي وضعها الله وثبتها، بما فيها ومنها شرعة الموت.

وينصاع الإنسان، مبدئياً، بالفطرة والطبيعة والسليقة:

لأوامر الله ونواهيه.

لقوانينه وشرعه.

لوصاياه وقواعده.

وهو ـ كما في المسيحية ـ خاضع لمبدأ الحساب في يوم الدين والحشر!

والإنسان مخلوق مركب وكائن مصنوع من:

روح سماوية آتية إليه من عند الله.

نفس خالدة وضعها الله في الكائن المخلوق.

جسد ترابي، مائتٍ فَانٍ مِنْ أديم الأرض.

يقول القرآن في هذا الشأن ما يأتي:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِن طِينٍ.

ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قرارٍ مَّكِينٍ.

ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمَاً ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أحْسَنُ الخَالِقِين.

ثُمَّ إنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ.

ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ».

(سورة المؤمنون ـ ٢٣ ـ الآيات ١٢ ـ ١٦).

١) الإنسان في القرآن، نفسٌ وجسدٌ وروحٌ:

ما المضمون الذي يعلنه الوحي، حول هذا المخلوق العجيب؟

«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ.

ٱرْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيةً.

فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي.

وَٱدْخُلِي جَنَّتِي».

(سورة **الفجر** ـ ٨٩ ـ الآيات ٢٧ ـ ٣٠).

فكما أن العقاب حق وعدل في ميزان الله، الذي لا يخطىء أبداً، كذلك، فإن الثواب حق وعدل، ومنّة من رحمات الخالق، يُنْعِمُ بها على خليقته، التي جعل منها: «خليفة الله في الأرض».

يقول القرآن في موضوع الخلق والتكوين ـ أيضاً وأيضاً ـ ما يأتي:

«تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ.

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاواتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَٱرْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ».

(سورة **الملك** ـ ٦٧ ـ الآيات ١ ـ ٣).

ويموت جسد الإنسان ويدفن... ليعود بعد ذلك، استناداً إلى آيتي سورة المؤمنون:

«ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُون.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ».

فيبعث خالداً: سعيداً، ممجداً، منعماً في الجنة، أو تعيساً، مهاناً، متألماً في النار.

يموت الإنسان، إذاً كغيره من سائر مخلوقات الأرض ـ غير أنه يُبعث حَيًا، كما رأينا في الآيتين الكريمتين.

ويؤكد القرآن لنا وجود الحياة الآخِرة، في مواضع عديدة من سوره وآياته، نذكر منها، في هذا الموقع، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

«أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ».

(سورة يس ـ ٣٦ ـ الآيات ٧٧ و٧٨ و٧٩).

الإنسان في القرآن، إذاً، كائن، مخلوق، مميز، مكرم ومحترم؛ وهو:

مركب من روح ونفس وجسد في شخص ذي كيان واحد أوحد.

مركب من روح لا تموت ومن جسد فانٍ، يموت ويفنى.

كائن له حياتان اثنتان: حياة دنيا، أرضية، وحياة آخرة روحية.

كائن حيّ خاضع لشريعة الثواب والعقاب.

مخلوق هو الأكرم والأرفع والأول بين سائر مخلوقات الأرض.

إنه ـ باختصار ـ كما أسماه القرآن: «خليفة الله في الأرض»!

٢) الإنسان في السُنّة النبوية:

جاء في كتاب **قصص الأنبياء**، المذكور سابقاً، ما يأتي:

[سيدنا آدم عليه السلام هو أبو البشر وأول إنسان خلقه الله تعالى، فهو أول النوع البشري الذي فضّله الله على سائر المخلوقات، فهو أفضل من النوع المَلَكي (أي الملائكة) وأفضل من النوع الجني (أي الجان أو الجن).

وكان خلقه عليه السلام في الجنة آخِرَ ساعةٍ مِن يومِ الجمعة من الأيام الست التي خلق الله فيها السماوات والأرض. كما جاء في حديث مسلم (وهو أحد كبار رواة الأحاديث النبوية). وروى مسلم وغيره أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «خيرُ يوم طَلعَتْ فيهِ الشَّمسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ فيهِ خُلِقَ آدمُ».

شاء الله... بمشيئته الأزلية الّتي لا تتبدل ولا تتغير وجود آدم... فأبرزه بقدرته من العدم إلى الوجود. فقد أمر الله... ملاكاً من ملائكته أن يأخذ من جميع أنواع تراب الأرض من أبيضها وأسودها وبين ذلك، ومن سهلها وحزنها (أي قاسيها) وما بين ذلك، ومن طيبها ورديئها ومما هو بين ذلك.

قال رسول الله...: «إن الله قبض قبضة من الأرض من أبيضها وأسودها وما بين ذلك، ومن طيبها ورديئها وما بين ذلك، فجاءت ذرية آدم على قدر ذلك». (رواه أبو حبّان وغيره). وعند أحمد: «فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وما بين ذلك، والخبيث والطيب وما بين ذلك».

أي جاءت أحوال ذرّية آدم وألوانها مختلفة بسبب هذا التراب المختلف الذي خلق منه آدم.

فائدة: قيل سمي آدم بهذا الاسم لأنه من أديم الأرض.

* معنى قول الرسول... «إن الله خلق آدم على صورته»:

يجوز أن يكون معنى هذا الحديث: «إن الله خلق آدم على صورته»، أي على صورة آدم الأصلية التي خلقه عليها: طوله ستّون ذراعاً وعرضه سبعة أذرع فيكون الضمير في «صورته» عائداً إلى الله فيكون التقدير على الصورة التي خلقها الله وجعلها مشرّفة مكرّمة، وتسمى هذه الإضافة، إضافة الملك والتشريف لا إضافة جزئية كإضافة الكعبة إلى نفسه، كقول الله... لإبراهيم وإسماعيل: أن «طهّرا بيتي» لأن الله... لا يوصف بالجسمية والجزئية فليس هو أصلاً لشيء ولا فرعاً عن شيء ولا يتحيز في جهة ومكان لأن التحيز للجسم اللطيف والكثيف.

* الخلقة التي خلق عليها... آدم...:

خلق الله... آدم... جميل الشكل والصورة وحسن الصوت لأن جميع أنبياء الله الذين بعثهم الله لهداية الناس كانوا على صورة جميلة وشكل حسن وكذلك كانوا جميلي الصوت، قال...: «ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه حسن الصوت وإن نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتًا».

ولقد كان طول سيدنا آدم ستين ذراعاً وكان وافر الشعر شبَّهَهُ الرسولُ... في الطول بالنخلة السحوق، فلما خلقه الله قال: اذهب فسلم على أولئك ـ نفر من الملائكة جلوس ـ فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله.

فزادوه: ورحمة الله. وكل من يدخل الجنة يكون على صورة آدم في الطول. فقد ورد في مسند الإمام أحمد (أي كتاب مجموعة الأحاديث النبوية) بإسناد حسن عن أبي هريرة عن النبي... أنَّ أهل الجنة يدخلون الجنة على خلق آدم ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع.

فائدة: روى الإمام أحمد (وهو أحد كبار رواة الأحاديث) عن رسول الله... «أن الله عزّ وجلّ لما صور آدم تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطِيفُ به فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك»، وعند أبي يعلى: «فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم».

ففي هذا الحديث الصحيح دليل على أن إبليس كان في الجنة لمّا خلق آدم وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح فرآه أجوف أي شيئاً غير مصمّت بل له جوف، فعرف أنه خلق لا يتمالك أي ليس كالملائكة ولا كالجمادات بل هو أضعف من ذلك].

(راجع كتاب: **قصص الأنبياء**، مرجع مذكور سابقاً، ص ١٨ ـ ٢٠).

ب) الثواب والعقاب:

رأينا كيف أن القرآن والسنّة النبويّة متفقان على مفهوم واحد للإنسان، يلتقي في دعائمه الكبرى مع النظرة المسيحية إلى أبن آدم وحواء من حيث:

* التركيبة والجبلة.
* السليقة والفطرة.
* الخضوع لامتحان الثواب والعقاب.

لنعدْ إلى آيات القرآن ونبحث عما هو مكتوب وموحى به بشأن الإنسان وخضوعه لمبدأ المكافأة والمعاقبة:

يقول الكتاب المجيد:

«اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ».

(سورة **غافر** ـ ٤٠ ـ الآية ١٧).

«. . . كُلُّ آمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ».

(سورة **الطور** ـ ٥٢ ـ الآية ٢١).

«مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ».

(سورة **الأنعام** ـ ٦ ـ الآية ١٦٠).

«ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ».

(سورة **الأنفال** ـ ٨ ـ الآية ٥٠).

«وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

(سورة **الجاثية** ـ ٤٥ ـ الآية ٢٨).

وأخيراً، لا آخر، يقول القرآن في موضوع العبادة لله، وموقف الإنسان منها:

«وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِيْنَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً».

(سورة **الكهف** ـ ١٨ ـ الآية ٢٩).

١) الإنسان وحرية الاختيار:

هل الإنسان مسيّر في أعماله وأفعاله أم مخيّر حرّ في فعل ما يريد؟

سؤال قديم، حديث، يُطرَح ههنا في معرض البحث ضمن موضوع الإنسان في الإسلام. فما إمكانات الإجابة على مثل هذا الطرح غير السهل وغير البسيط؟

كتب الدكتور عبد الرسول الغفار في مؤلفه: **شبهة الغلو عند الشيعة**، مفنّداً مقولتي الجبر والاختيار ـ أي القدرية وحرية المخلوق ـ يقول:

[استدل المجبرة، أي القائلون بأن الأفعال مخلوقة لله، بعدّة أمور يمكن إيجازها بما يأتي:

أولاً: قالوا إن الإنسان غير قادر على أفعاله... ولو كان الإنسان قادراً على أفعاله، لزم اجتماع قادرين على فعل أو مقدور واحد، لأن الله قادر على كل شيء والإنسان، إذا قلنا قادراً على إيجاد فعله، كانت هناك قدرتان قد اجتمعتا، وهذا باطل، بدليل أنه لو أراد إيجاد فعل، وكانت إرادة الله... عدمه، أدّى ذلك إلى اجتماع النقيضين، وإذا وقع أحدهما دون الآخر، أدّى إلى ترجيح أحدهما، وترك الآخر بدون مرجّح وكل ذلك باطل... إذاً، لا بد من القول بقدرة واحدة، هي قدرة الخالق، وأن أفعال العباد مخلوقة له.

ثانياً: كون الأفعال الصادرة من العباد مخلوقة لله، لأنها محتاجة إلى مرجّح، وهذا المرجّح لا بد أن يكون مرجعه إلى الله، وإلا لو كان بترجيح من العبد، فلا يؤدي إلى النتيجة الفاعلة...

لا بد إذاً، من القول، بأن أفعال العبد صادرة بترجيح خارجي منوط بالله... هذه بعض استدلالات الأشاعرة وأهل الجبر، ومن تابعهم من الفقهاء، من أهل السُّنَّة والحديث.

وقد تصدى المعتزلة لردها... ومن جملة الردود التي تصح هي:

أولاً: لو كانت أفعال العباد مخلوقة... وأن الإنسان مجبور عليها، فهذا يعني إبطال الثواب والعقاب، وهذا خلاف ما يصرح به القرآن الكريم، حيث قال:

ـ «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ» (سورة الزلزلة ـ ٩٩ ـ الآيتان ٧ و٨).

ـ «وقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْؤُولُون» (سورة الصافات ـ ٣٧ ـ الآية ٢٥).

ـ «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (سورة المدثر ـ ٧٤ ـ الآية ٣٨).

ـ «وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُم تَعْمَلُونَ» (سورة النحل ـ ١٦ ـ الآية ٩٣).

ـ «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ» (سورة النمل ـ ٢٧ ـ الآية ٩٠).

ـ «فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (سورة يس ـ ٣٦ ـ الآية ٥٤).

ـ «إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ» (سورة **الأنعام** ـ ٦ ـ الآية ١٢٠).

ثانياً: إذا كانت أفعال العبد مخلوقة لله، فإن ذلك سوف يؤدي إلى تكليف بما لا يطاق، وهذا غير صحيح...

ثالثاً: إذا كانت أفعال العبد مخلوقة له، فما فائدة إرسال الأنبياء والرسل والكتب والشرائع؟ أو لم تكن الغاية من بعثهم، هداية الناس وإنذارهم وتعليمهم العقيدة الحقّ؟

قال تعالى:

ـ «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» (سورة **الجمعة** ـ ٦٢ ـ الآية ٢).

ـ «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ...» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآية ٢١٣).

رابعاً: إذا كانت أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وقد أجبرهم عليها، فإن عقاب الخالق للعاصي ظلم....

قال تعالى:

ـ «يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ العِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُم ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآية ٥٤).

ـ «وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (سورة **آل عمران** ـ ٣ ـ الآية ١١٧).

ـ «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُون» (سورة **هود** ـ ١١ ـ الآية ١١٧).

خامساً: يصرح القرآن الكريم بأن الفعل القبيح والمعاصي إنما تصدر عن الإنسان بإرادته وهو المسؤول عنها:

ـ «مَا سَلَكَكُمْ في سَقَرَ. قَالُوا لَمْ نَكُ منَ المُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ. وكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ. حَتَّى أَتَانَا اليَقِينُ» (سورة **المدثر** ـ ٧٤ ـ من الآية ٤٢ إلى الآية ٤٧)... إلخ.

أما المعتزلة... فلقد اتفقوا على أن العبد خالق لأفعاله قادر عليها، صادرة منه لحرّيته المطلقة وإرادته الكاملة. بهذا الاعتقاد أظهرت المعتزلة أن الخالق البارئ عاجز لا يتمكن من إعمال إرادته في إرادة الإنسان المخلوقة... لأنه ـ حسب زعمهم ـ قد

أوجد الكائنات... وتركها وشأنها من دون إعمال مشيئته فيها، وإن أفعال العباد هي إحدى ظواهر الوجود المتحررة عن مباشرة المشيئة الإلهية...

إنَّ فكر المعتزلة يجعل للإنسان إرادة خاصة مُنْفَكَّة عن إرادة الله، وهذا يبعد الإنسان عن التوحيد... حيث يصبح الإنسان في هذه الحرية، صاحب إرادة مطلقة... وهذا يقضي أن في الوجود قوتين وقدرتين وهذا هو الشِرْكُ بعينه! فالمؤثر الحقيقي هو الله وحده... لو أراد سبحانه أن يَذهَبَ بأثر إرادة الإنسان في أفعاله لفعل... وبعبارة أخرى، إن إعطاء القدرة والاختيار، هو فعل الله، لكن الفعل المقدور والمختار من قبل الإنسان هو فعل الإنسان.

إن الذي يعطينا الحل المناسب والصحيح، وهو الأخذ بقول أهل بيت النبي، حيث وضعوا القول الفصل في هذه المسألة، وأقروا:

إن الأمر بين الأمرين، فلا جبر إذاً ولا تفويض!

يقوم مذهب الجعفرية الإماميّة الاثني عشرية، على أن الإنسان مُوْجِدٌ لأفعاله، لكن بالقوة والقدرة التي أودعها الله فيه. فلو لم يكن سبحانه يفيض علينا من قدرته، حرية الإرادة والإمكانات والقوى والحياة في كل آن، لما كنا قادرين على أي عمل... لهذا فإن أفعالنا الإرادية ترتبط بنا لكونها صادرة عنا... وفي الوقت نفسه، فإن هذه الإرادة هي من ذخائر الخالق في العبد (أي الإنسان).

يتضح من ذلك، أن الأمور لا بد أن تجري بأسبابها، وأن من جملة الأسباب:

خلق الإنسان وتكوينه.

خلق الإرادة والقدرة فيه.

فَإنَّ أفعالنا الاختيارية صادرة عن... الإرادة... فإرادة الله هي منذ الأزل، ولا تتنافى هذه الإرادة مع حريّة البشر، في اختيارهم لأفعالهم، وبهذا الاختيار تحسن المكافأة على فعل الخير، ويجري العاصي بما فعل من سوء:

يقول الكتاب الكريم:

ـ «وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا...» (سورة **الكهف** ـ ١٨ ـ الآية ٢٩).

ـ «إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً» (سورة **الإنسان** ـ ٧٦ ـ الآية ٢٩).

ـ «إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (سورة **التكوير** ـ ٨١ ـ الآيتان ٢٧ و٢٨).

... عن الإمام الثامن المعصوم علي بن موسى الملقب بالإمام علي الرضا،

كلام يشرح فيه ويفسّر قول الإمام السادس المعصوم جعفر بن محمد الملقب بالإمام جعفر الصادق الذي ورد فيه ما يأتي:

[لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

قال: «من زعم أن الله عزّ وجلّ فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك.

وعندما سئل الإمام علي الرضا: هل هناك أمر بين أمرين؟

أجاب: وجوب إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه.

وعندما سئل: هل لله مشيئة وإرادة في ذلك؟

أجاب: فأما الطاعات فإرادة الله ومشيئته، فيها الأمر بها والرضى لها والمعاونة عليها وإرادته في المعاصي، النهي عنها والسخط لها والخذلان.

سُئل أيضاً: هل لله فيها قضاء؟

أجاب: نعم، ما من فعل يفعله العباد، من خير أو من شر إلا ولله فيه قضاء.

سُئل: ما معنى هذا القضاء؟

فأجاب: الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم، من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة... فإن الله لم يُطَع بإكراه ولم يُعْصَ بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملّكهم والقادر على ما أقدرهم عليه فإن ائتمر العباد بطاعته لم يكن الله عنها صاداً، ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبين فعل ذلك، فعل، وإن لم يحل ففعلوا فليس هو الذي أدخلهم فيه. ثم قال: من يضبط حدود هذا الكلام، فقد خصم من خالقه].

(راجع الفصل الثاني من كتاب: الدكتور عبد الرسول الغفار، **شبهة الغلو عند الشيعة**، بيروت، منشورات دار الرسول الأكرم ودار المحجة البيضاء ـ الطبعة الأولى، ١٩٩٥).

ذلك هو الإنسان في الإسلام، الذي يلتقي مع مفهوم الإنسان في المسيحية، في النظرة إلى جوهر الموضوع ولب القضية. فالإنسان في الدينين، مخلوق لا يعادله كائن آخر، فلا حيوان ولا نبات ولا جماد يعادل قيمة بني آدم ودوره في الحياة على هذه الأرض.

ثالثاً ـ المخلوقات الأخرى في المسيحية والإسلام

لقد خلق الصانع، رب العالمين، مخلوقات أخرى غير البشر. إنها مخلوقات عاقلة ولكنها غير منظورة وغير قابلة لأي نوع من أنواع اللمس. وهذه المخلوقات

موجودة فعلاً، ولو كنا لا نستطيع رؤيتها. لها حياتها الخاصة وأساليب عيشها المختلفة عن حياة الإنسان وطرق عيشه. في المسيحية والإسلام، إذاً، ثلاثة أنواع من المخلوقات غير البشرية، التي تختلف عن نوع الإنس الذي نحن منه، وهي:

١ ـ النوع الملكي أو الملائكة.

٢ ـ النوع الإبليسي أو الشياطين.

٣ ـ النوع الجني أو الجان.

أ) الملائكة:

هي مخلوقات عاقلة روحانية لا تُرَى! لا أجسام مادية لها ولا أجساد كثيفة. لا يستطيع البشر العاديّون رؤيتها أو لمسها أو مخاطبتها في الأحوال العادية. لا قدرة لنا إذاً، نحن البشر وأبناء آدم لأننا لسنا من الأنبياء أو الرسل أو الأبرار المختارين، المصطفين ولا يستطيع الناس لمس الملائكة لمساً مادياً؛ أو رؤيتها أو إبصارها بالعين المجرّدة العادية؛ ولا إدراكها بأية حاسة من الحواس الإنسية البشرية الخمس.

فالمسيحية والإسلام متفقان على وجود الملائكة وعلى أن الله خلقها، كما خلق الإنس، البشر الآدميين. ولا تظهر الملائكة للناس إلا بفعل: أعجوبة أو عمل إعجازي أو فعل خارق؛ آية من آيات الله البيّنات؛ نبوة أو رسالة إلهية يتولاها مخلوق مختار إما نبي أو رسول أو بار أو إنسان صالح اختاره الله وبعثه في مهمة معينة أو أمره بشأن محدود.

لذلك نستطيع أن نقول في هذا المجال، إن الالتقاء بين المسيحية والإسلام يكاد يكون شبه تام وكامل.

١) الملائكة في المسيحية:

الملائكة في المسيحية هم كائنات مخلوقة، حية، روحية، عاقلة، يتمتعون بفكر وشعور وإرادة، بالإضافة إلى كل مقومات الشخصيات الحية وصفاتها، ملكاتها وميزاتها. ولقد أساء ـ في زمن غابر بعيد ـ نفر غير قليل منهم إلى ميزة الإرادة الحرّة المركوزة في ذات الملائكة وإلى ملكة القدرة على الاختيار، ليخالفوا الله بعصيان أوامره ونواهيه، تلك المخالفة الجسيمة التي أدّت بهم إلى السقوط النهائي والوقوع تحت: لعنة الله وتخلّيه عنهم، غضبه وسخطه، عقابه والنقمة، . . . فتحولوا إلى أبالسة وشياطين.

ـ **أوصاف الملائكة:** لا نعرف الكثير عن أوصاف الملائكة في المسيحية، لأن **الكتاب المقدس**، لم يفدنا عن هذا الموضوع إلا القليل القليل، فأخبر عنهم، مستعملاً تعابير رمزية، مجازية، كقوله:

ـ «قد جعل ملائكته رياحاً وخدّامه لهيب نار» (**العهد الجديد ـ الرسالة إلى العبرانيين ـ الفصل الأول ـ** عدد ٧).

ـ «باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة، الفاعلين أمره فور صدور كلمته» (**العهد القديم ـ سفر المزامير ـ زبور داود** ـ المزمور ١٠٣ ـ عدد ٢).

خلق الله الملائكة، قبل أن يخلق الأرض ومن عليها من نوع الإنس. وهم أرواح لا أجساد لها، ولا نعرف عددهم بالضبط إنما يشير الكتاب المقدس إلى أنهم ألوف وألوف. . . !

يقول الكتاب المقدس في ذلك ما يلي: «من أمامه يتدفق ويجري نهر من نار، وتخدمه (أي تخدم الله) ألوف وألوف الملائكة ويمثل في حضرته عشرات الألوف» (**العهد القديم ـ سفر دانيال** ـ الإصحاح السابع ـ عدد ١٠).

ـ **أعمال الملائكة**: يقوم عمل الملائكة على الأمور الآتية:

ـ عبادة الله والسجود له وتمجيده وتسبيحه وتقديس اسمه.

ـ نقل الرسالات والمهمات الإلهية من السماوات إلى أبناء آدم الذين اختارهم الله وبعثهم أنبياء ورسلاً ومبعوثين أو كلّفهم بمهمات معينة محددة على الأرض.

ـ تنفيذ أي أمر يصدر إليهم من أوامر الله والخضوع التام لمشيئته المطّلِعة وإرادته التي لا تُخَالَفُ ولا تقاوم.

٢) **الملائكة في الإسلام**: ورد في كتاب **قصص الأنبياء**، البحث الآتي:

[النبوة خاصة بالبشر، فليس في الملائكة ولا في الجن نبي. أما الرسالة فليست خاصة بالبشر.

قال الله تعالى: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ. . .» (سورة **الحج** ـ ٢٢ ـ الآية ٧٥).

وتحت عنوان: سجود الملائكة لآدم واعتراض إبليس. . . ورد العرض الآتي أدناه الذي يحتوي على شرح القضية: أمر الله. . . الملائكة كلهم بالسجود لآدم، فامتثل الملائكة لأمر الله، وسجدوا كلّهم، لأن الملائكة كما وصفهم الله. . . :

«لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» (سورة **التحريم** ـ ٦٦ ـ الآية ٦).

وأمّا إبليس فأبى واستكبر واعترض على الله ولم يمتثل لأمره (أي لأمر الله) وقال:

«أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» (سورة **الأعراف** ـ ٧ ـ الآية ١٢).

فكفر وظهر منه ما قد سبق في علم الله. . . ومشيئته من كفره واعتراضه (على السجود لآدم) باختياره. . .

ومما يدل على أن إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن قول القرآن:

«قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ» (سورة **الأعراف** ـ ٧ ـ الآية ١٢).

ففي هذه الآية دليل على أن إبليس مخلوق من نار، بخلاف الملائكة، فإنهم خلقوا من نور، كما جاء في صحيح مسلم وغيره (من رواة الأحاديث النبوية) عن عائشة (أم المؤمنين وإحدى زوجات الرسول) عن النبي أنه قال:

«خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم»].

(راجع كتاب **قصص الأنبياء** م.م، وخاصة فصل «النبوة والرسالة» (صفحة ٤) وفصل «سجود الملائكة لآدم» (صفحة ٢٤) وقد أخذنا من هذين الفصلين بشيء من التصرف).

يبدو واضحاً من كل ما تقدم أن الملائكة، في التعليم الإسلامي، هي كائنات روحانية مخلوقة:

ـ حية، متحركة، ناطقة، لا تموت.

ـ تروح وتجيء بأمر من الخالق وتوجيه منه.

ـ لا تعصى لله أمراً ولا رغبة ولا مشيئة، مطيعة للخالق تمام الطاعة.

ـ إنها موجودة فعلاً وحقاً، حتى ولو كانت لا ترى، لأنها ليست بذات أبدان أو أجسام كثيفة، بل أرواح لطيفة.

ب) إبليس والشياطين:

يتفق الإسلام والمسيحية على وجود إبليس والشياطين، ككائنات روحانية حية خلقها الله، حتى ولو كانت لا ترى بالعيون، لا تسمع أصواتها بالآذان، ولا تلمس، ولا تشم بالأنف... وقد لعنها الله وغَضِبَ عليها.

١) إبليس والشياطين في المسيحية:

يقول الكتاب المقدس في موضوع إبليس والشياطين ما يأتي:

«ثم صعد الروح بيسوع إلى البرية، ليجرّبه إبليس. وبعدما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة، جاع أخيراً، فتقدّم إليه المُجرِّبُ وقال له: إن كنت ابن الله، فقل لهذه الحجارة أن تتحول إلى خبز!

... ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على حافة سطح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله، فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه قد كتب: يوصي ملائكته بك، فيحملونك على أيديهم لكي لا تصدم قدمك بحجر...

ثم أخذه إبليس أيضاً إلى قمة جبل عالٍ جداً، وأراه ممالك العالم وعظمتها وقال له: أعطيك هذا كله إن جثوت وسجدت لي! فقال له يسوع: اذهب يا شيطان!... فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة جاؤوا إليه وأخذوا يخدمونه».

(العهد الجديد ـ الإنجيل بحسب البشارة التي دوّنها متّى ـ الإصحاح الرابع).

٢) إبليس والشياطين في الإسلام:

ورد في القرآن المجيد، في موضوع إبليس والشياطين ما يأتي:

ـ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادخُلُوا في السِّلْمِ كَافَّةً ولاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآية ٢٠٨).

وقال أيضاً:

ـ «وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اَسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَن أَمْرِ رَبِّهِ» (سورة **الكهف** ـ ١٨ ـ الآية ٥٠).

ـ «وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ اَسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ ٣٤).

ـ «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمَ...» (سورة **طه** ـ ٢٠ ـ الآية ١٢٠).

ـ «يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا» (سورة **الأعراف** ـ ٧ ـ الآية ٢٧).

... نختم هذا البحث بالقول، وباختصار، فنؤكّد أن المسيحية والإسلام يلتقيان في هذا المجال، ويتفقان على أن عالمنا المنظور وغير المنظور يعجّ بمخلوقات الله المرئية وغير المرئية مثل الإنسان والحيوان والنبات، الملائكة غير المنظورين؛ وإبليس والشياطين غير المرئيين؛ كلها كائنات أبدعها الله وخلقها، كوّنها كما كوّن الوجود من اللاشيء والعدم، والفراغ واللاوجود.

ج) الجن أو الجان:

١) الجنّ في الإسلام:

يعتبر الإسلام الجانّ كائنات مخلوقة من نار، لا تُرى ولا تُسمع، لا تُلمس ولا تُشمّ. أبدعها الله وكوّنها، كما أوجد وصنع سائر المخلوقات الأخرى التي تسكن هذا العالم وتعيش فيه، جنباً إلى جنب، ضمن إطار العناية الإلهية وقوانين الوجود التي، تقول الأديان، بأن الله هو شارعها وواضع قواعدها.

يُنبئنا الكتاب ويخبر عن الجن في سورة تحمل اسمهم في القرآن ولقد وردت في

مطلع هذه السورة آيات تقول:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآناً عَجَباً.

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً...

... وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَن تَقُولَ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً...

... وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخساً ولا رَهَقاً.

وأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ ومِنَّا القَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً.

وَأَمَّا القَاسِطُون فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً».

(سورة **الجن** ـ ٧٢ ـ من الآية ١ إلى الآية ١٥).

ويقول الكتاب الحكيم أيضاً:

«وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ.

مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ» (سورة **الذاريات** ـ ٥١ ـ الآيتان ٥٦ و٥٧).

٢) الجن في المسيحية:

ليس في المسيحية أي نبأ أو خبر عن الجن والجان. وإذا ما عدنا إلى ينابيع المسيحية الثلاثة الآتية: الكتاب المقدس، وتعاليم الرسل والآباء وعلماء اللاهوت، والتعليم المسيحي العائد للكنيسة، لوجدناها خالية من أية إشارة إلى الجان، تلك الكائنات المخلوقة وغير المرئية التي يخبرنا عنها القرآن والأحاديث النبوية.

لذلك، علينا أن نسجل، ههنا، افتراقاً ملحوظاً بين الديانتين اللتين إذا ما التقتا على الاعتراف والإيمان بوجود جميع مخلوقات الله الأخرى، عادتا وافترقتا في ما يعود إلى موضوع الجن، مَن هم وما هم وماذا يعملون.

المحور الثالث ـ الأنبياء والرسل

مقدمة: الأنبياء والرسل في الأديان الموحدة

تتفق الأديان الكتابية الثلاثة: الموسوية ـ اليهودية والمسيحية والإسلام على مبدأ وجود علاقة حميمة، دائمة ومستمرّة، بين الخالق والمخلوق. كما تقر بوجود صلة رحمة ورأفة وودّ متين بين رب العالمين، الله الواحد الصمد. وخليفته في الأرض، الإنسان وأبناء البشر أجمعين.

فالصلة بين الكائن وصنيعته المكوِّن حقيقة بارزة للعيان، واضحة كل الوضوح، حاضرة وظاهرة، إذ تجلّت عبر الزمن والأعصر والأجيال في ظاهرة النبوة والرسالات. لقد نزلت دعوات عديدة من السماء، أتى بها أنبياء ورسل عديدون، يحملون بشارات الألوهة وإنذاراتها إلى الأرض.

بعث الله بالعديد من المختارين المصطفين لِيُبلِّغوا الناس ما يجب أن يقوموا به ويفعلوه، ولم تنقطع الرسالات والدعوات ابتداء من بدء الخليقة، أيام آدم أبي البشرية. إلى يوم البعثة النبوية المحمدية.

يقول الكتاب المقدس في عهده الجديد:

«إن الله، في الأزمنة الماضية، كلّم آباءنا بالأنبياء الذين نقلوا إعلانات جزئية، بطرق عديدة ومتنوّعة. أما الآن، في هذا الزمن الأخير، فقد كلّمنا بالابن، الذي جعله وارثاً لكل شيء. . .».

(الرسالة إلى العبرانيين ـ الإصحاح الأول ـ العددان ١ و٢).

أما القرآن المجيد، فهو بدوره، يقول في سورة طه (وطه هو اسم من أسماء النبي محمد العديدة) منبئاً عن نبي الله موسى الكليم:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى.

إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى.

تَنْزِيلاً مِمَّن خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمَاوَاتِ العُلَى.

الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى. . .

... وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى.

إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى.

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى.

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوًى.

وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى.

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَٱعْبُدْنِي وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي...

... ٱذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى...».

(سورة طه ـ ٢٠ ـ من الآية ١ إلى الآية ٢٤).

لم يترك الله خلقه من بني الإنسان دونما هاد أو مرشد أو قائد، نبي أو رسول. ودونما دليل أو «سراج منير» أو «كوكب درّي» مبعوث ومختار، مصطفى.

فرحمة الله بعباده ورأفته بهم، دعته بمشيئة من عنده، إلى عدم ترك خلائقه دون هداية أو كتاب منير؛ لأجل ذلك أخذ المولى يرسل النبي تلو الآخر والرسول بعد الرسول، ليبشروا الناس وينذروا بما شاء الله من خيرٍ لبني البشر.

سنعرض، في هذا الموقع من البحث، لمثالين ـ نموذجين اثنين، نبحث في شأنهما، على سبيل المثال، لا الحصر، لإعطاء فكرة ورسم صورة عن ماهيّة النبوة والرسالة، وهويّة الأنبياء والرسل.

أ) إبراهيم، نبي الله وخليل الرحمن:

تعتبر المسيحية ـ ويوافقها الإسلام في اعتبارها هذا ـ أن إبراهيم هو من كرام أنبياء الله الذين اختارهم المولى إلى:

ـ نبذ عبادة الأصنام والأوثان والأنصاب والآلهة التي من دون الخالق، ربِّ العالمين، السيّد، الديّان.

ـ الدعوة إلى عبادة الله الواحد، الأحد، والإيمان بالتوحيد.

ـ نبذ الشرك والابتعاد عن التقرب إلى الله زلفى، بآلهة أخرى أو وسائط، مهما كان نوع هذه الزلفى وتلك الوسائط.

وإبراهيم هو في المسيحية والإسلام أبو الأنبياء، وخليل الرحمن، والصديق البار، المطيع لإرادة المولى وأوامره.

فمن هو النبي إبراهيم؟ ومِنْ أين أتى؟

١ ـ إبراهيم في المسيحية:

هو إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعون بن فالج . . . بن سام بن نوح صاحب «الفُلْك السفينة» والناجي من الطوفان.

يخبرنا الكتاب المقدس الشيء الكثير عن إبراهيم، وينبئنا العهد القديم عن دوره في خطة الخلاص التي رسمها الله بنعمة من عنده، لإنقاذ الإنسان من السقطة الأولى، عند وقوعه في براثن الخطيئة الأصلية؛ تلك الخطيئة التي ورثناها جميعاً، عبر التناسل والتكاثر، عن آدم وحواء الأبوين الأوَّلَيْن.

ورد في سفر التكوين، ذكر إبراهيم، للمرّة الأولى، على الوجه الآتي:

«وقال الرب لأبرام (وأبرام هو الاسم الأول الذي كان يطلق على إبراهيم في الكتاب المقدس): أترك عشيرتك وأرضك وبيت أبيك واذهب إلى الأرض التي أريك،

فاجعل منك أمّة كبيرة وأباركك وأعظّم اسمك وتكون بركة (للكثيرين).

وأبارك مباركيك وألعن لاعنيك، وتتبارك فيك جميع أمم الأرض.

فارتحل أبرام كما أمره الرب، ورافقه لوط، . . .

. . . وأخذ أبرام ساراي (وهو الاسم الأول الذي كان يطلق على سارة) ولوطَ ابن أخيه وكلَّ ما جمعاه مِن مقتنيات وكلَّ ما امتلكاه من نفوس من حران، وانطلقوا جميعاً إلى أرض كنعان إلى أن وصلوها».

(سفر التكوين ـ الإصحاح ١٣ ـ الأعداد ١ و٢ و٣ و٤ و٥).

عندما بلغ أبرام سنّ التاسعة والتسعين من عمره، ظهر له الرب الإله وخاطبه قائلاً:

«أنا هو الله القدير، سر أمامي وكن كاملاً،

فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثر نسلك جدّاً.

فسقط أبرام على وجهه، فخاطبه الله قائلاً:

ها أنا أقطع لك عهدي، فتكون أباً لأمم كثيرة.

ولن يدعى اسمك بعد الآن أبرام (ومعناه الأب الرفيع) بل يكون اسمك إبراهيم (ومعناه أبو الجمهور) لأني أجعلك أباً لجمهور من الأمم.

وأصيرك مُثمِراً جداً، وأجعل أمماً تتفرع منك، ويخرج من نسلك ملوك.

وأقيم عهدي الأبديّ بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك جيلاً بعد جيل، فأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك».

(سفر التكوين ـ الإصحاح السابع عشر ـ الأعداد من ١ إلى ٧).

هذا غيض من فيض. إذ إن سفر التكوين يخصص عدداً من فصوله، ابتداء من

الإصحاح الحادي عشر إلى الإصحاح الخامس والعشرين، لِيُنبئنا وَيَرْوِيَ لنا كامل الأخبار عن إبراهيم ونبوءته.

٢ ـ إبراهيم في الإسلام:

هذا في المسيحية. أما في الإسلام فالأمر مشابه، لما قرأنا.

بالفعل، لقد ورد ذكر إبراهيم في مواضع وأماكن كثيرة من آي الذكر الحكيم. ويدوّن الوحي الإلهي أخبار أبي الأنبياء، تارة بالتفصيل وطوراً بالإيجاز. ولقد ورد ذكره في سور عديدة مثل:

ـ «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي. . .» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآية ٢٦٠).

ـ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إِبراهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ» (سورة آل عمران ـ ٣ ـ الآية ٣٣).

ـ «وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغنِي عَنكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً» (سورة مريم ـ ١٩ ـ الآيات ٤١ و٤٢ و٤٣).

ـ «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ» (سورة الأنبياء ـ ٢١ ـ الآية ٥١).

ـ «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ. قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ. أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ. قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُم تَعْبُدُونَ. أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ. فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ. الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ. وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ. وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ. وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» (سورة الشعراء ـ ٢٦ ـ من الآية ٦٩ إلى الآية ٨١).

ب) كليم الله موسى، المثال الثاني:

يؤمن الإسلام كما المسيحية، بنبوة موسى الذي هو:

ـ نبي وجيه وكليم الله المختار، اصطفاه الخالق ليبلِّغ الرسالة إلى بني إسرائيل، ويدعوهم إلى التمسك بالإيمان الحق.

ـ رسول كريم، أوحى الله إليه كتاباً سماوياً هاماً هو التوراة.

وتقوم دعوة موسى على مبادئ أساسية هي:

ـ إعلان وإثبات وحدانية الله وتوحيده دونما أي شرك أو ضلال أو وثنية.

ـ نشر وصايا الخالق ـ الديّان وناموسه وشرعه التي هي في محتوى التوراة والتي أراد الرحمن إبلاغها لنبي إسرائيل من جهة، ولفرعون مصر وشعوب مصر القديمة من جهة أخرى.

١ ـ موسى في المسيحية:

يبرز موسى في المسيحية، كنبي ورسول وقائد لشعب العبرانيين، الذي كان يعيش في مصر، بلاد الفراعنة، ويعاني في حياته تلك الأمرَّين: اضطهاد واستعباد وإرهاب وقمع. فقر وضيق حال وعوز وحاجة. ذل وخنوع وعبودية.

ويروي لنا سفر الخروج، وهو السفر الثاني من أسفار العهد القديم، قصة النبي موسى ومحطّاتها الكبرى من:

* ولادته في أرض مصر، وهو من سبط لاوي بن يعقوب / إسرائيل بن إسحق بن إبراهيم. . .

* إنقاذه من قبل ابنة فرعون، وإخراجها له من الماء، وتربيته في القصر الملكي، الفرعوني، المصري.

* ارتكابه لجريمة قتلٍ في مصر، إذ انتقم لأحد أبناء شعبه من العبرانيين، الذي ضربه ضرباً مبرّحاً رجلٌ مصري ظالِمٌ مُجرِم. لم يستطع موسى أن يقبل برؤية ذلك المنظر البشع، فقام بالتدخل وقتل المصري المعتدي وانتقم للإسرائيلي الضعيف المسكين.

* زواجه من ابنة كاهن مديان واسمه يثرون.

* ظهور الله له واختياره رسولاً، نبياً وقائداً لبني إسرائيل.

ورد في الإصحاح الثالث من سفر الخروج من أخبار موسى ما يأتي:

«وأمّا موسى فكان يرعى غنم حميه (أي يثرون) كاهن مديان، فقاد الغنم إلى ما وراء الطرف الأقصى من الصحراء، حتى جاء إلى حوريب، جبل الله.

وهناك تجلّى له ملاك الرب بلهيب نار وسط عليقة، فنظر موسى وإذا بالعليقة تتقد دون أن تحترق.

فقال موسى: أميل الآن لأستطلع هذا الأمر العظيم. لماذا لا تحترق العليقة؟

وعندما رأى الربُّ أن موسى قد دنا ليستطلع الأمر، ناداه من وسط العليقة قائلاً: موسى. فقال ها أنا.

فقال (أي الرب): لا تقترب من هنا، اخلع حذاءك من رجليك، لأن المكان الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة.

ثم قال: أنا هو إله أبيك، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب. . .

... فهلمّ الآن لأرسلك إلى فرعون، فتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر...».
(سفر الخروج ـ الفصل الثالث ـ الأعداد من ١ إلى ٦).

٢ ـ موسى في الإسلام:

ورد اسم النبي موسى وذكر مرّات عديدة في كتاب المسلمين الإلهي، فلقد أورده مئة وستًّا وثلاثين مرة، في سور متعددة ومواقع قرآنية مختلفة:

يقول الكتاب في ذلك، ما سنورده أدناه:

ـ «وَٱذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً. ونَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً» (سورة مريم ـ ١٩ ـ الآيات ٥١ و٥٢ و٥٣).

ـ «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيه فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ. فَٱلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَونَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُما كَانُوا خَاطِئِينَ. وقَالَتِ امرأةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. وأَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ... فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوى آتَيْنَاهُ حُكماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ...».

(راجع سورة **القصص** ـ ٢٨ ـ بكاملها، فإن فيها الشيء الكثير من أنباء موسى).

... دعا الله موسى وأمره بأن يذهب إلى فرعون، ملك مصر، فيدعوه إلى الإسلام والإيمان بالله الواحد، الأحد، ويحثه إلى وقف طغيانه! هذا، حسب ما ورد في الآيات البينات الآتيات:

ـ «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِي عَصَايَ أَتوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبُ أُخرى. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولى. وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخرَى... ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّر لِي أَمْرِي. وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِن أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً. وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى. وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرَى...».

(راجع سورة طه بكاملها، فإن فيها الكثير من أخبار موسى كليم الله ونبيه ورسوله).

يختار الله ـ إذاً ـ من مخلوقاته وصنائعه، أنبياء ورسلاً كثيرين، فيبعثهم ويكلفهم بإبلاغ أهل الأرض رسالات معينة ودعوات محددة من عنده.

أولاً ـ الأنبياء والرسل في المسيحية

أ) النبوة في المعتقد المسيحي:

يقول المؤمنون المسيحيون، عند تلاوتهم قانون الإيمان النيقاوي ـ القسطنطيني ما يأتي:

«... ونؤمن بالروح القدس... الناطق بالأنبياء والرسل...».

فماذا يعني هذا القول وتلك الشهادة؟

إن هذا المقطع الهام من الشهادة المسيحية يعني شيئين اثنين:

ـ أن هناك أنبياء ورسلاً.

ـ أنهم ينطقون بوحي من الله، لا من عندياتهم ورسالاتهم ما هي إلاّ رسالة إلهية واحدة.

فالأنبياء والرسل لا يتصرفون بوحي من أفكارهم، بل:

ـ بإيعاز وتكليف من الله.

ـ ووحي وإلهام ربّاني، سماوي إلهي معيَّن.

يعمل الأنبياء والرسل إذاً، حسب مشيئة الله، وحدها لا غير، يقودهم في مهماتهم الجلّى روح الله القدوس أي الروح القدس! إنهم يُنَفِّذون تعليمات ربّهم ووصاياه، دون أن يكون لهم في ذلك رأي شخصي أو إرادة فردية أو مزاج خاص، سواء في محتوى الرسالات التي يحملون، أو الدعوات التي ينشرون. إنهم سعاة الإرادة والتصميم الإلهيين. ينقلون مضمون إعلانات الله من السماوات إلى الأرض، ومحتوى المقصد الإلهي الحق، الهادف إلى إرشاد الناس وتعليمهم مبادئ الدين، والأخلاق التي تقوم على:

ـ الإيمان بالله وأنبيائه ورسله وكتابه المقدس.

ـ تطبيق وصايا الله في الحياة البشرية اليومية وتنفيذ شرائع الخالق على الأرض، والتقيد بأوامر المولى ونواهيه.

ـ محبة الله من كل نفس المرء وقلبه، والفكر والفؤاد.

ـ محبة القريب، لأن الإنسان هو أخو الإنسان.
ـ الأمر بالخير والمعروف والنهي عن الشر والمنكر.

وفي المسيحية أنبياء ورسل كثيرون وعديدون، فكتب العهد القديم تعجّ بالأنبياء والنبوات والرسل والرسالات. سوف نكتفي، في هذا الموقع الذي نحن فيه، بذكر البعض منهم، على سبيل المثال لا الحصر:

* إبراهيم الخليل،
* داود الملك،
* سليمان الملك بن داود،
* صموئيل وأشعيا،
* دانيال وزكريا،
* الياس ويوحنا / يحيى.

ب) الأنبياء والرسل وخطة الخلاص:

لقد مهّد الأنبياء والرسل، الوارد ذكرهم في العهد القديم، الطريق أمام تنفيذ مشروع الخلاص الذي وضعه الله لإنقاذ الإنسان والجنس البشري، من براثن الخطيئة والموت الأبدي. وكما قلنا سابقاً، فلقد لعب الرسل والأنبياء في هذا الحقل دور الأدلاّء والمُرْشِدين ممهدين الطريق ومرتبين الأوضاع، أمام بني البشر ليصبحوا جاهزين، قادرين على مواجهة:

ـ استحقاق ملء الزمان والبشارة ـ القمة.
ـ وظهور المسيح الموعود، هادياً ومبشراً ونذيراً.

هكذا، فإنه، من نبي إلى نبي، ومن رسول إلى رسول، تكرّم الله، وقرر أن يعد الأمور:

ـ لمجيء المخلص، «عمّانوئيل»، أي المسمّى «إلهنا معنا».
ـ لبشارته بين الناس في التاريخ، والزمان والمكان.
ـ لموته على الصليب.
ـ لقيامته من بين الأموات.
ـ لصعوده إلى السماء.
ـ لتأسيسه الكنيسة التي هي جماعة المؤمنين بالله ومسيحهِ.

النبوءات والرسالات هي، في المسيحية إذاً، محطات ومفاصل وإشارات سير كبيرة، هدفها إعداد الجنس البشري، ليصبح جاهزاً، قادراً على:

ـ سماع كلمة الله والعمل بها.
ـ وعي مشروع الخلاص الربّاني والإقبال عليه.
ـ الدخول في جماعة المؤمنين، أي في كنيسة الله.

لقد أراد الله الخير للناس، لكل الناس، وما الرسل والأنبياء سوى المؤشرات الحيّة والأصوات الصارخة في البرية وأوراق الروزنامة الكبرى التي أعدّها الله لتحضير وإعداد المؤمنين به وباسمه لحياة دينية روحية سامية.

يقول الإنجيل، في معرض إخباره عن واحد من هؤلاء الأنبياء الداخلين في روزنامة الله، عنينا به النبي يوحنا المعمدان أو النبي يحيى بن زكريا، ما يأتي:

«في تلك الفترة من الزمان، ظهر يوحنا المعمدان في بريّة اليهودية، يبشر قائلاً: توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات. ويوحنا هذا هو الذي قيل عنه بلسان النبي أشعياء إنه: صوت مُنَادٍ في البرية: أعدّوا طريق الرب، واجعلوا سبله مستقيمة...

... فخرج إليه أهل أورشليم (القدس) ومنطقة اليهودية (في فلسطين) كلها وجميع القرى المجاورة للأردن. فكانوا يعتمدون (أو يتعمّدون) على يديه في نهر الأردن معترفين بخطاياهم».

(الإنجيل حسب ما دونه متّى الرسول ـ الفصل الثالث ـ الأعداد ١ و٢ و٣ و٥ و٦).

وأنبأ الإنجيل أيضاً، في بشارة يوحنا، بالخبر الآتي:

«ظهر إنسان أرسله الله، اسمه يوحنا، جاء يؤدي الشهادة للنور، من أجل أن يؤمن الجميع بواسطته. لم يكن هو النور، بل كان شاهداً للنور، فالنور الحق الذي ينير كل إنسان كان آتياً إلى العالم...

... وهذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم (القُدْس) بعض الكهنة واللاويين يسألونه: من أنت؟

فاعترف ولم ينكر، بل أكّد قائلاً: لست أنا المسيح.

فسألوه: من إذن؟ هل أنت إيليا (أي النبي إلياس)؟ قال: لست إياه! أوأنت النبي؟ فأجاب: لا!

فقالوا: فمن أنت؟... ماذا تقول عن نفسك؟

فقال: أنا صوت مُنَادٍ في البرية: اجعلوا الطريق مستقيمة أمام الرب، كما قال النبي أشعياء.

فعادوا يسألونه: إن لم تكن أنت المسيح، ولا إيليا، ولا النبي، فلماذا تعمّد إذاً؟

أجاب: أنا أعمّد بالماء! ولكن بينكم من لا تعرفونه،

وهو الآتي بعدي، وأنا لا أستحق أن أحلّ رباط حذائه».

(الإنجيل حسب ما دوّنه الرسول يوحنا ـ الإصحاح الأول ـ الأعداد ٦، ٧، ٨، ٩، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٢٧).

تلك هي النبوة والرسالة في المسيحية، فما هو شأنها في الإسلام يا ترى؟

ثانياً ـ الأنبياء والرسل في الإسلام

نعود إلى كتاب **قصص الأنبياء**، المذكور سابقاً، لنرى ماذا يدوّن هذا المرجع القيم، حول موضوع النبوة والرسالة ومحتواهما نقرأ في الصفحة الثالثة من الكتاب ما يأتي: [. . . فإن أفضل الخلائق علويها وسفليها الأنبياء، لما أعطاهم الله من الصبر والتقى ما لم يُعْطِ غيرَهم، وإنَّ أَحْسَنَ القصص، قصصهم لما جعل الله فيها من مواعظ وعبر، وتعليم للناس على الصبر على ما افترض الله للوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى. وإن معرفة سِيَرِ الأنبياء، بالاطّلاع على قصص حياتهم وما حفلت به من أحداث، واشتملت عليه من أفعال، لدليل لنا، ننهجه ونستنير ونستعين به للوصول إلى الإيمان الكامل الذي هو سبيل النجاة والفوز في (الحياة) الآخِرة.

قال الله تعالى:

«لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ» (سورة **يوسف** ـ ١٢ ـ الآية ١١١)].

أما في الصفحة الرابعة، فإننا نقرأ بحثاً موجزاً، قيِّماً ومفيداً عن معنى النبوة والرسالة في الإسلام:

[النبوة كلمة أو تعبير مشتق من إما النبوة، وهي الرفعة، أو النبأ، وهو الخبر. فالنبي فعيل بمعنى فاعل، أي أنه مخبر عن الله بواسطة المَلَك (أو الملاك). والنبوَّةُ خاصة بالبشر، فليس بالملائكة ولا في الجن نبي.

وأما الرسالة، فليست خاصة بالبشر. قال تعالى: «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ» (سورة **الحج** ـ ٢٢ ـ الآية ٧٥)].

الفرق بين الرسول والنبي:

الرسول من البشر، هو النبي الذي أوحي إليه بشرع يشتمل على حكم جديد لم يكن في شرع الرسول الذي قبله كمحمد وعيسى وموسى، فإن هؤلاء كل واحد منهم، أنزل عليه حكم جديد. . .

وأما النبي غير الرسول فهو:

ـ من أوحي إليه بأتباع شرع الرسول الذي كان قبله.

ـ من أمر بتبليغ شرع الرسول الذي جاء قبله (أي قبل النبي).

ـ من لم يُوْحَ إليه بشرع جديد.

فكل رسولٍ نبيٌ وليس كُلُ نبي رَسُولاً.

أ ـ كيف تنال النبوة:

النبوة وضع حياتي ومهمة جليلة ووظيفة مباركة، وهي لا يمكن أن تُكتسب اكتساباً لأنها لا تعود، ولا تتعلّق بعمل النبي أو سعيه أو كسبه أو جدّه أو نشاطه أو جهاده.

يقول القرآن:

«يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الألْبَابِ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآية ٢٦٩).

تُنالُ النبوة أو الرسالة، إذاً باختيار من الله واصطفاء منه هو، لا بحسن خلق الكائن المرشح لها أو طيب عبادته أو فضائله الإنسانية؛ الله، والله وحده، هو الذي يختار الأنبياء والرسل، كيفما يريد وحين يريد.

يقول القرآن في هذا الحيِّز المعين ما يأتي:

ـ «إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (سورة **آل عمران** ـ ٣ ـ الآيتان ٣٣ و٣٤).

ولا يمكن للأنبياء والرسل أن يكونوا من النساء، فإن إرادة الله قد حصرت أمر النبوة والرسالة في الرجال دون النساء. كذلك فإن الأنبياء والرسل، يختارهم الله من الرجال الذين هم:

ـ أكمل عقلاً ورأياً وفكراً.

ـ أكثر فضلاً وصلاحاً وعفة.

ـ أعظم فطنة ومعرفة وتدبيراً.

ـ أتم شجاعة وسخاوة وزهداً...

من الناس الذين قرر الله أن يرسل هؤلاء الأنبياء والرسل إليهم.

تنال النبوة والرسالة من الله الذي يختار العبد الذي يراه مناسباً لهذين الدورين المهمين، دونما أية حاجة إلى أي قرار أو رأي أو نصيحة من أية جهة أو مرجع أو مصدر آخر.

ب ـ صفات الأنبياء والرسل:

يقول الإسلام في صفات الأنبياء والرسل، ويؤمن المسلمون، بأنهم يتمتعون

حكماً بالخِلاَلِ الآتية:

ـ **الصدق**: الصدق في القول والجهر في المواقف والآراء والتعاليم واجب عند الأنبياء والرسل. فهم لا يكذبون لأن الكذب يتنافى مع مهمة النبوة ومنصب الرسالة. لذلك أبعد الله عنهم كل ما يخالف قواعد الصدق وجعل الكذب مستحيلاً عليهم.

ـ **الأمانة**: إذ تستحيل على أصفياء الله ومختاريه الصالحين، الأبرار، كل شؤون الخيانة والغدر وما يمت إليهما بصلة أو قرابة أو علاقة. فلا إساءة أمانة عند الأنبياء والرسل ولا غدر أو احتيال أو نميمة، بل أمانة تامة خالصة مطلقة.

ـ **الفطانة والذكاء**: وهما مناقضان للغباوة والبلاهة والبلادة. كما أنهما لا يتفقان مع:

ـ ضعف الفهم وقلة التفكير.

ـ تخلف العقل وغياب المنطق.

ـ غياب الإدراك وعدم القدرة على التمييز بين «الغث والسمين».

فرجاحة العقل عند المبعوثين من قبل الرحمن واجبة، لازمة، ومتوفرة. لقد أرسل الأنبياء والرسل ليبلّغوا الناس رسالات تنفعهم في آخرتهم وفي دنياهم، لذا كان لزاماً عليهم أن يكونوا على مستوى تلك الرسالات والدعوات: جديرين وموهوبين. يتمتعون بالفطانة، مميزين وأصفياء. يملكون ذكاء ورجاحة عقل.

ـ **العفة والشرف والفضيلة**: كذلك، فإنه يستحيل على مختاري الله أن يمارسوا الرذالة والسفاهة والرياء، بل عليهم أن يظلوا على مستوى رفيع من الجدارة، يمارسون:

ـ عفة النفس والقلب واللسان والنظر.

ـ الشرف الرفيع وما يستلزمه من مناقب ومكرمات.

ـ فضائل النفس والجسد، سواء في المأكل أو المشرب، أو في أمور الجنس والملذات والمتع... فالأنبياء هم المثل العليا للناس في ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عند المنكر، كما عليهم أن يكونوا ممتلئين عفة وشرفاً وفضيلة.

ج) عدد الأنبياء والرسل:

يقوم المعتقد الإسلامي في محور الأنبياء والرسل، على القول بأن المولى، رحمة منه ورأفة بعباده، قام باختيار عدد كبير من الأصفياء المميزين، وأرسلهم ليبشروا وينذروا نوعي الإنس والجن، ويدعوهم إلى دين الله القويم:

ـ الإسلام لرب العالمين،

ـ الإيمان بالله الواحد،

ـ والإقرار باليوم الآخر والبعث والنشور.

روى ابن حبان، وهو من رواة الأحاديث النبوية المعروفين، استناداً ونقلاً عن أبي ذر الغفاري، وهو من كبار رجال الصحابة الذين كانوا يعيشون في معظم أوقات حياتهم بالقرب من الرسول وفي ظلاله، حديثاً نبوياً، قال فيه:

«. . . قلت: يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قلت: يا رسول الله، كم الرسل؟ قال: ثلاث مائة وثلاثة عشر جمًّا غفيراً. قلت: يا رسول الله، من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله، أنبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه قُبُلاً».

ولقد تباين العلماء وفقهاء الدين في الرأي والموقف فيما يتعلق بعدد الأنبياء والرسل: فالبعض منهم أقر بمحتوى حديث ابن حبان المذكور أعلاه والمنقول، إسناداً، إلى أبي ذر الغفاري. والبعض الآخر لم ير ذلك الرأي، فلم يقر بعدد معين أو رقم محدد، وحجته في ذلك، كون الموضوع لم يرد فيه أي حديث نبوي مُؤَكَّدٍ، أو ثابت ثبوتاً قطعياً!

د) كتب الله المُنَزَّلة:

يبلغ عدد الكتب والأسفار المنزلة والموحى بها إلى الرسل المختارين، أنقياء الله ومبعوثيه بالحق، مئة وأربعة كتب وصحف موزعة على الشكل الآتي:

ـ خمسون كتاباً أنزلت على نبي الله شيت بن آدم وأخي قابيل وهابيل.

ـ ثلاثون كتاباً أوحي بها إلى نبي الله إدريس بن يرد بن مهلاييل، الذي يدعى أيضاً: أخنوخ. وينتهي هذا المصطفى العظيم الشأن، بنسبه، إلى نبي الله شيت بن آدم.

ـ عشرة كتب على إبراهيم، خليل الرحمن، ووالد إسماعيل وإسحق.

ـ عشرة كتب على موسى كليم الله، قبل نزول التوراة عليه.

. . . ثم أوحى الله بالتوراة وما فيها من شريعة، عرفت فيما بعد بناموس موسى.

ـ كتاب واحد أنزل على داود الملك وهو الزبور.

ـ الإنجيل.

ـ القرآن.

أما أول الأنبياء في الإسلام فهو آدم، وآخرهم فهو محمّد بن عبد اللّه الهاشمي القرشي المكيّ العربي.

هـ) دين الأنبياء وشرائعهم:

إن دين الأنبياء والرسل هو واحد أحد. فهو، استناداً إلى إيمان المسلمين، دين

الإسلام الدين الأخير والنهائي، الذي لا عودة عنه، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده من نوعي الإنس والجن.

يقول الكتاب الحكيم في هذا الشأن ما يأتي:

ـ «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِيْنَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ».

ـ «وَمَن يَبْتَغِ غَير الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ».

(سورة آل عمران ـ ٣ ـ الآيتان ١٩ و٨٥).

يعتقد المسلمون إذن أن دين الله على الأرض هو الإسلام، دين الأنبياء جميعاً، من آدم إلى محمد. والإسلام هو هو، لم يتغير أو يتبدل ولم يُعَدَّل أو يُنْسَخ. هو العقيدة التي تقوم على:

ـ توحيد الإله الواحد الأحد، والإيمان به إيماناً كلياً مطلقاً.

ـ الاعتقاد بنبوة الأنبياء ورسالة الرسل من آدم... إلى خاتم المرسلين، محمد بن عبد الله.

ـ الإيمان باليوم الآخر وبالحياتين: الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

...

هذا هو الدين الحق، الذي بقي، في جوهره، كما أراده الله أن يبقى. فالتصديق بالأنبياء والرسل، والإيمان بهم وبمن أرسلهم، تصديق نهائي وإيمان لا يزول، حتى ولو كانت شرائع المصطفين من مختاري الله، تتغير وتختلف بأحكامها ونواميسها من نبي إلى آخر، أو من شريعة إلى شريعة ثانية.

مثالنا على ذلك:

فلقد كان مسموحاً ومباحاً في شرع آدم، أن يتم الزواج بين الأخ وأخته إلا إذا كانا أخوين توأمين. كما كانت فريضة واجبة على كل مؤمن، زمن الأنبياء مِن بني إسرائيل، بمن فيهم موسى، إقامة صلاتين اثنتين لا غير، في اليوم الواحد والليلة الواحدة... فجاء الشرع المحمدي القرآني بأحكام جديدة تقضي:

* بفسخ وإبطال زواج الأخ من أخته، سواء أكانا توأمين أم لا، وتحريم ذلك واعتباره فاحشة.

* بفسخ وإبطال فريضة الصلاتين اليومية وفرض خمس صلوات مكانها.

هكذا، فإن ما كان جائزاً وحلالاً في شرع معين وزمن محدد يصبح محظوراً في شرع معين آخر، وزمن محدد ثانٍ.

و) عصمة الأنبياء:

هل يقول الإسلام بعصمة الأنبياء والرسل؟

لقد اتفق علماء الدين المسلمون والباحثون، على أن الأنبياء بمن فيهم الرسل، معصومون عن الأمور التالية:

- الكفر بالله وعدم الإيمان، قبل إعلان نبوتهم، وخلال فترة النبوة... حتى الوفاة.

- كبائر الذنوب والمعاصي والآثام، كمثل الزنى والدعارة والأفعال الجنسية البشعة بما في ذلك اللواط والفجور والموبقات، أكل الربا، وهو تعاطي الدين بالفائدة، فالدين حلال في الإسلام، غير أن الدين بالفائدة هو حرام. ومن الخطايا والآثام الكبيرة، الدناءة والخسة والنميمة، الحسد والشهادة الكاذبة، وجميع أنواع المعاصي الكبيرة والصغيرة.

غير أن فريقاً من هؤلاء العلماء والفقهاء يقولون بجواز ارتكاب الأنبياء لمعصية ما، صغيرة وليست بذات مضاعفات خطيرة، وبجواز مخالفة الأنبياء لبعض الأوامر والنواهي الربانية. ومن هؤلاء العلماء، الإمام المشهور، المعروف بأبي الحسن الأشعري الذي قال: أنه حصل لآدم أن عصي الله.

يقول القرآن، في هذا الشأن، ما يأتي:

- «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى. فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوءاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجَنَّةِ وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى».

(سورة طه - ٢٠ - الآيتان ١٢٠ و١٢١).

وفي مثل هذه الأحوال، ينبه الله أنبياءه فوراً إلى مخالفاتهم الصغيرة تلك، فيتوبون عنها وعليها، قبل أن يمتثل أو يقتدي بهم وبمخالفاتهم المعنية، أحد غيرهم من عباد الله المؤمنين! هكذا، يتوب الله بعدها ويغفر للمخالفين ذنبهم، برحمة منه ورضوان عليهم.

وردت في القرآن، دعماً لهذا الرأي، الآية الآتية:

- «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى».

(سورة طه - ٢٠ - الآية ١٢٢).

ز) معجزات الأنبياء:

هناك لقاء مؤكد وتام بين المسيحية والإسلام، على محور المعجزات والخوارق التي

يجريها الله بإرادته ومشيئته هو، عبر الأنبياء والرسل، كرامة لهم وأمثولة للناس أجمعين.

ورد في الكتاب المقدس عن المعجزات الشيء الكثير، كما يخبرنا القرآن المجيد عن كثير من المعجزات والخوارق التي أجراها الله على يد أنبيائه ورسله المختارين... نذكر هنا من مجموع ذلك الكثير، نموذجيين اثنين:

* الأول، كتابيّ، اخترناه، مثلاً، من العهد القديم عن موسى كليم الله.
* والثاني، قرآني، اخترناه، أيضاً، مثلاً، عن موسى النبي ـ الرسول.

لقد أورد **سفر الخروج** وبوحي إلهي من الروح القدس، الحادثة ـ المعجزة الآتية:

«فقال موسى: ماذا إذا لم يصدقوني ولم يصغوا إلي وقالوا: إن الرب لم يظهر لك؟
فسأله الرب: ما تلك التي بيدك؟ فأجاب عصايَ.

فقال: أَلقِها على الأرض. فألقاها فإذا هي حية، فهرب منها موسى. فقال الرب لموسى: مُدَّ يَدَكَ واقبض عليها من ذيلها. فمدّ موسى يده وقبض عليها، فارتدت عصا في يده.

وقال الرب: هذا لكي يؤمنوا أن الرب إله آبائكم، إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب قد ظهر لك».

(**العهد القديم ـ سفر الخروج** ـ الفصل الرابع ـ الأعداد ١، ٢، ٣، ٤، ٥).

أما في القرآن، فلقد ورد، في موضوع معجزة عصا موسى ما يلي:

ـ «وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخرَى. قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى. فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى. قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولى».

(سورة طه ـ ٢٠ ـ الآيات ١٧ ـ ٢١).

وهذه «أعجوبة ـ معجزة» أخرى من معجزات الله مع موسى:

يخبرنا سفر الخروج بالنبأ الآتي:

«ثم قال الرب أيضاً: أدخل يدك في عبك. فأدخل يده في عبه. وعندما أخرجها إذا بها برصاء كالثلج.

وأمره الرب (أي أمر موسى): رد يدك إلى عبك ثانية. فرد يده إلى عبه ثانية ثم أخرجها من عبه، وإذا بها قد عادت مثل باقي جسده.

وقال الرب: إذا لم يصدقوك، أو يعيروا المعجزة الأولى انتباههم، فإنهم يصدقون الثانية.

وإذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يصغوا لكلامك، فاغرف من ماء النهر واسكبه على الأرض الجافة، فيتحول الماء الذي غرفته من النهر إلى دم فوق الأرض» (سفر **الخروج** ـ ٤ ـ الأعداد ٦، ٧، ٨ و٩).

ويخبرنا القرآن بالنبأ الآتي:

ـ «وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى» (سورة طه ـ ٢٠ ـ الآيتان ٢٢ و٢٣).

لقد أوجد الله المعجزة كسبيل من السبل أو درس من الدروس التي يستطيع الناس عبرها أن يتعرفوا إلى النبي ودعوته.

أما كلمة معجزة فهي لفظ وتعبير مشتق من الكلمة العربية: العجز. والعجز في اللغة، هو كل ما يدل على عجز المخلوق وعدم قدرته على معارضة قوانين العالم والحياة والوجود. والأعجوبة أو المعجزة، هي أمر إلهي خارق للعادة، ومخالف للقوانين والنواميس المتعارف عليها بين الناس. أما الهدف منها، فهو كونها تشكل إثباتاً قوياً يظهر صدق مدّعي النبوة في دعواه، وعجز من يخالفه الرأي وينازعه ولا يصدقه في ذلك الأمر الإلهي.

ثالثاً ـ من هم الأنبياء والرسل؟

اتضح لنا مما تقدم، أن عقيدة النبوة هي إيمان، يلتقي حوله وعليه المُعْتَقَدان المسيحي والإسلامي. غير أنه بالرغم من هذا الالتقاء المهمّ على العناوين الكبرى للعقيدة، فإن هناك بعض الافتراقات الواقعة في تفاصيل البحث، تقضي الأمانة العلمية بالإشارة إليها وذكر مضامينها. تنويراً للقارئ الكريم، سنورد هذا في المقطع التالي من بحثنا، خاصة عند عرضنا لأسماء الأنبياء سواء في المسيحية أو في الإسلام.

أ) الأنبياء في الكتاب المقدس:

يذكر الكتاب المقدس، في أسفار عهده القديم، الكثير من الكائنات التي كانت لها أدوار ومهمات في:

* عمليّة الخلق والتكوين الإلٰهيين.
* خطة الخلاص الإلهي الذي أعده الله لصالح الإنسان.
* مبدأ الإيمان بالله الواحد.

سواء كانت هذه الأدوار والمهمات سلبية، شريرة أو إيجابية خيِّرة.

لقد ساهمت أسماء كثيرة في الأحداث الهامة التي يرويها الكتاب والتي لها علاقة مباشرة بتاريخ النوع البشري:

١ ـ **فمن آدم... إلى شيت**: يبدأ تاريخ التوحيد والإيمان بآدم أبي البشرية مروراً بقايين (أو قابيل) وهابيل حتى شيت... دون أن يذكر الكتاب صراحة ما إذا كان هؤلاء أنبياء أم لا.

فآدم مثلاً وشيت ابنه، لا يسميهما الكتاب نبيين، كما يورد القرآن، إذ يضعهما صراحة في أول لائحة الأنبياء.

٢ ـ **إلى أخنوخ... ولامك ونوح وسام**: ولامك هذا هو أبو نوح صاحب الطوفان، الذي نجا هو وعائلته من كارثة الطوفان، التي أحدثها الله بفعل من إرادته، عقاباً لبني البشر، عندما نمت الخطيئة وتكاثرت على الأرض.

من الناجِيْنَ الذين ينتسبون إلى أسرة نوح، والذين لم يدمرهم الطوفان، يبرز اسم سام، أحد الأبناء الثلاثة، نظراً لِكَوْنِهِ أصبح، فيما بعد، جد الشعوب السامية التي سيأتي منها أبو الأنبياء، إبراهيم.

٣ ـ **إلى إبراهيم وابنه إسحق وحفيده يعقوب**: فإبراهيم هو أبو الآباء في الإيمان والتوحيد، عند الموسويين والمسيحيين والمسلمين، وأبو الأنبياء الكبار الذين كانوا على علاقة من الوحي والإلهام مع الله.

٤ ـ **الأسباط الاثنا عشر**: الأسباط هم نسل يعقوب المسمّى أيضاً في الكتاب، بإسرائيل، والذين منهم:

* يوسف الصديق وسبطه وعشيرته.
* لاوي الذي من نسله سيأتي موسى وهارون أخوه.
* يهوذا ومن نسله، جاء الملك داود ـ النبي.

٥ ـ **موسى وهارون**: يُعتبر كليم الله موسى من الأنبياء الذين كان لهم أثر كبير في ترسيخ عقيدة التوحيد الربّاني. وموسى كليم الله هو الذي دوَّن بوحي من الروح القدس، الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب، وهي: سفر التكوين؛ الخروج؛ سفر الأحبار أو سفر اللاويين؛ العدد؛ التثنية.

أما هارون أخو موسى، فقد أصبح أول رئيس كهنة للشعب الموحد، شعب بني إسرائيل، المؤمن بإله إبراهيم وإسحق ويعقوب.

٦ ـ **داود وسليمان... حتى يوحنا المعمدان/ يحيى...** ومنهم إلى صموئيل، وعزرا... وأيوب... وأشعياء وأرمياء... وحزقيال... وهوشع.. ويونس... وزكريا... والياس... حتى يوحنا المعمدان/ يحيى. هؤلاء كلهم بشَّروا خلال العهد

القديم، قبل ولادة المسيح، وتنبأوا بظهور المخلص وميلاده العجيب في بيت لحم من أرض فلسطين.

٧ ـ **الرسالات التي بعد المسيح**: الرسل الاثنا عشر هم تلاميذ المسيح وحواريّوه، بشّروا به وعمّدوا باسمه بعد قيامته وصعوده إلى السماء. وهم رسل ذوو شأن عظيم، في نشر الإيمان المسيحي. فكنيسة المسيح هم مؤسسوها ودعائمها، وركائزها ومعلّموها.

وهؤلاء الرسل هم:

- بطرس أو سمعان بطرس أو شمعون قيفا (أي سمعان الصفا) بالأرامية ـ السريانية. وكلمة قيفا كلمة آرامية ـ سريانية تعني بالعربية ـ القريشية: الصخرة أو الصفا.
- أندراوس أخو بطرس.
- يعقوب بن زبدي.
- يوحنا بن زبدي أخو يعقوب.
- فيلبُوس.
- توما أو التوأم.
- برتلماوس.
- متّى العشّار، جابي الضرائب.
- يعقوب بن حلفا.
- سمعان الغيور.
- يهوذا بن يعقوب.
- بولس الرسول أو شاول الطرسوسي. وهو اسمه قبل أن يهتدي إلى المسيحية، عندما كان حبراً يهودياً من كبار علماء التوراة وعظام أحبار الشريعة الموسوية.

ب) الأنبياء والرسل في القرآن المجيد:

لم يذكر الكتاب الكريم أسماء جميع أنبياء الله ورسله، إذ إن عددهم كبير ضخم، بل اكتفى بذكر عدد لا بأس به منهم. وكما ذكرنا سابقاً، فلقد اختلف علماء الدين في بيان عدد أنبياء الله:

فمنهم من اعتمد على حديث نبوي رواه ابن حبان، وفحواه أن عدد الأنبياء يبلغ ١٢٤,٠٠٠ نبيّ، منهم ٣١٣ رسولاً. ومنهم من لم يُعيِّن عدداً مُعَيَّناً، محتجًّا على ذلك، بأنه لم يثبت بصورة علمية قاطعة أن الحديث المذكور أعلاه حديث صحيح جزماً.

أما الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن فهم:

١ ـ آدم، شيت، إدريس ويدعى أيضاً أخنوخ. . . فنوح.

٢ ـ هود وهو النبي الذي بعثه الله وأرسله إلى شعب عاد، الذين هم من العرب البائدة.

٣ ـ صالح وهو نبي الله إلى قبيلة ثمود التي هي من العرب البائدة، أيضاً.

٤ ـ إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب/إسرائيل.

٥ ـ لوط وشعيب ويدعى في الكتاب المقدس، يثرون أو جثرو، وهو حمو موسى أي أبو زوجته.

٦ ـ يوسف وأيوب الصبور.

٧ ـ ذو الكفل ابن نبي الله أيوب واسمه في الأصل: بِشر ويونس أو يونان صاحب الحوت.

٨ ـ موسى وهارون.

٩ ـ الياس وداود وسلميان وزكريا وأليسع.

١٠ ـ يحيى أو يوحنا المعمدان.

١١ ـ المسيح عيسى اَبن مريم صاحب الإنجيل.

١٢ ـ محمد بن عبد اللّه خاتم النبيين والرسل وصاحب القرآن.

هؤلاء هم أنبياء الله الذين ورد ذكرهم في القرآن، جميعهم مصطفون مختارون، أرسلهم الرحمن، رب العالمين، ليبشروا بدين الإسلام الذي يقوم على التوحيد. ولقد ورد ذكر هؤلاء المنتقين في سور عديدة وآيات كثيرة. منهم من ذُكر بإيجاز واختصار، ومنهم من ذكر مع شيء من التفصيل، كل ضمن إطار حوادث وأحداث ومناسبات ووقائع معينة.

ويعتبر الإسلام أن من بين هؤلاء الأنبياء الكرام، خمسةً كباراً، مميزين عن الباقين من جمهرة المختارين، الأصفياء، وهؤلاء الخمسة المصطفون هم:

١ ـ نوح بن لامك، أبو سام وحام ويافث، وهو الذي لبّى أمر الله له، فبنى السفينة/الفُلْك ونجا فيها من الطوفان الذي أغرق الأرض ومن عليها.

٢ ـ إبراهيم بن تارح، وهو والد إسماعيل وإسحق، الذي قام، إنفاداً لأمر الله، ببناء البيت الحرام في مدينة مكة، بعد أن كان قد تهدَّمَ بفعل أحداث الزمن والإهمال وعوامل الطبيعة.

٣ ـ موسى بن عمران، وهو ينحدر من سبط لاوي بن يعقوب/إسرائيل، صاحب التوراة، التي أوحى الله إليه فيها الناموس والشريعة الموسوية.

٤ ـ المسيح، عيسى اَبن مريم.

٥ ـ محمد بن عبد الله.

يُسمّي الإسلام هؤلاء الأنبياء والرسل الكبار: الأنبياء أولي العزم، الأقوياء الفاعلين.

ج) افتراق في التفاصيل:

نلاحظ أن هناك افتراقاً في التفاصيل بين المسيحية والإسلام في موضوع النبوّة والأنبياء والرسالة والرسل، وهذا الافتراق واقع في القسم الذي يتعلق بأسماء بعض الأنبياء ومهماتهم.

فكما سبق وأشرنا إلى ذلك، في مواقع كثيرة، نرى أن الكتاب المقدس لا يذكر شيئاً عن بعض الأنبياء الذين وردت أسماؤهم في القرآن الكريم:

فالنبي إدريس مثلاً، لا يعرفه الكتاب المقدس سوى تحت اسم أخنوخ.

ونبي الله هود، غير مذكور إطلاقاً في أسفار الكتاب المقدّس.

كذلك صالح، فهو مثل هود لا ذكر له إطلاقاً في الكتاب المقدّس.

أما إسماعيل بن إبراهيم من السيدة هاجر المصرية، فهو مذكور بوفرة في الكتاب، دون أن يكون معتبراً من أنبياء الله الكتابيّين.

شعيب، وقد ورد ذكره، تحت اسم يثرون أو جثرو.

ذو الكفل، الذي لا يذكر عنه الكتاب المقدّس أي شيء إطلاقاً.

يونس، وقد ورد ذكره في سفر من أسفار العهد القديم، تحت اسم يونان. فكتاب يونان سفر معروف من الأسفار المقدسة.

يحيى، وهو في الكتاب يوحنا المعمدان، الذي كان يُعمِّد المؤمنين بالماء وهو الذي تولّى تعميد المسيح.

أما بالنسبة إلى القرآن، فإن هناك كثيراً من أنبياء المسيحية لم يرد ذكرهم فيه، مثل: النبي صموئيل... وأشعياء... وأرمياء... وهوشع... ويوئيل... وعاموس... وميخا... وناحوم... وحبقوق... وصفنيا... وملاخي...

غير أن جميع هذه الافتراقات الصغيرة، لم ولن تؤثر في جوهر اللقاء المحوري المتين بين المسيحية والإسلام حول مبدأ النبوة والرسالة وفحواهما، سواء في دين المسيح أو في دين محمد، عند المؤمنين المسيحيين أو عند المؤمنين المسلمين.

المحور الرابع ـ خلود النفس والروح الثواب والعقاب

مقدمة: عودة إلى الإنسان

يتفق الكتاب المقدس والقرآن المجيد على أن هذا الإنسان، خليقة الله، مركّب بالإضافة إلى الجسد الترابي، من:

* روح خالدة ونفس لا تموت.
* حياة آخِرة يُطبِّق اللّهُ فيها على كل إنسان مبدأ الثواب والعقاب.

فما هو هذا المبدأ؟ وما نتائجه؟

إن بشارة المسيح ودعوته، ورسالة محمّد وعقيدته، تجيبان بشكل واضح عن كل هذه التساؤلات التي تدور في خلد أي باحث دارس، وتقدّمان الإيضاح المقنع، الآتي عبر الوحي الإلهي في الكتابين الينبوعين: الكتاب المقدس والقرآن المجيد.

أولاً ـ روح الإنسان، خالدة، لا تموت

رأينا في ما سبق من بحث ودراسة أن:

ـ الإنسان كائن خلقه الله، ليكون خليفة الرحمن في الأرض، فابن البشر إذاً، مصنوع ومحدث، كوّنه الخالق، ليملأ الدنيا ويعمّرها هو ونسله. كذلك فقد شرّفه المولى، خالقه، بأن خاطبه، قائلاً:

ـ في المسيحية: «أنا هو الرب إلهك، الذي أخرجك من أرض مصر، ديار عبوديتك. لا يكن لك آلهة أخرى سواي».

ـ وفي الإسلام: «... وإنّي أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري».

الإنسان كائن، مخلوق، مركب فيه:

* روح ونفس عاقلة لا تموت ولا تفنى.
* بدن من لحم ودم وعظام يموت ويبلى.

ومبدأ الثواب والعقاب، وهو مبدأ رئيس يقوم انطلاقاً من صفة العدل المطلق في الله: العدل الإلهي الأسمى. إنه ميزان الروح الخالدة، ومقياس الحساب فيما يعود إلى

النفس الخيّرة أو الخاطئة، عليه يقوم الحشر وبموجبه تتمّ الدينونة.

أ) إنسان المسيحية، مِمَّ هو مركّب؟

تُعلِّم المسيحيةُ أنَّ ابن آدم، مخلوق حيٌّ مركّب من حقيقتين اثنتين:

حقيقة الجسد أو الجسم أو البدن وهي حقيقة مجبولة ومصنوعة من تراب الأرض، وحقيقة الروح، التي هي مبدأ الحياة والحركة والعقل. والروح نابعة، في الإنسان، من عند الله رأساً، نفخها في الجسم الترابي، فأعطاهُ الحياة.

بهذا المعنى، وبهذا المعنى فقط، تقول المسيحية إن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله. وغنيّ عن الإيضاح بأن هذا التعبير ما هو إلا صورة رمزية ولا تعني - إطلاقاً - أن الإنسان صورة الله، إذ لا صورة لله أبداً، لا من قريب أو بعيد، كما أنها لا تعني أن الإنسان هو أيضاً مثال الله، إذ لا مثال لله، إطلاقاً لا من قريب أو بعيد (لأنه ليس كمثله شيء في الوجود.).

١ - جسد الإنسان، مائت، يفنى:

تقول المسيحية إن جميع المواد والعناصر المكوِّنة للإنسان، مائتة، فانية، تتحلل بعد الموت وتندثر، حالها حال جميع مخلوقات الله في الأرض، المحسوسة والملموسة؛ سواء كانت إنساناً أو حيواناً أو نباتاً.

فالموت في المسيحية، ما هو إلا واقعٌ حق يصيبنا جميعاً، ويفصل بين الحياتين فصلاً حتمياً، فهو الحدّ المميّز بين:

- الحياة الأرضية، حياة المادة والمحسوس والملموس والمبصَر.

- والحياة الأبدية، التي تلي هذه الأولى: حياة الروح، غير المحسوسة، وغير الملموسة وغير المنظورة.

٢ - روح الإنسان، عنصر لا يموت:

إن روح الإنسان هي ملء الحياة فيه! إنها المحرّك العاقل الواعي في المخلوق الآدمي. ولقد نفخَهَا الله في جبلة الإنسان الترابية.

لذلك، فإن الروح لا تموت ولا تفنى، لا يصيبها البلاء أو التحلل أو الاندثار.

روح الإنسان هي قلب الحياة فيه، ومصدر الطاقة الإرادية في شخصه: هي حرّيته الحيّة وقدرته على اتخاذ المواقف والقيام بالأعمال وتقرير الخيارات. وهي أيضاً «صورة الله ومثاله» الرمزيان اللذان على معيارهما خلق الإنسان!

وتمرّ الروح بعد الوفاة وموت الجسد، في مرحلتين اثنتين من مراحل الحياة الثانية، الخالدة، الأبدية، وغير الفانية:

المرحلة الأولى: التي تبدأ في اللحظة التي يتم فيها الموت، أي انفصال الروح عن الجسد... حتى يوم الدينونة العامة؛ يوم القيامة. إنها مرحلة الحياة الأبدية الفردية، التي تدوم حتى نهاية العالم الأرضي هذا! يوم قيامة الموتى والبعث والنشور.

المرحلة الثانية: وتبدأ من اللحظة الأولى من يوم الدينونة العامة، يوم القيامة والبعث... فتستمر إلى... دهر الداهرين وأبد الآبدين...

ب) إنسانُ الإسلامِ، مِمَّ هو مُكَوَّن؟

يقول الإسلام ويؤمن، كما تقول المسيحية، بأن الإنسان مخلوق، مكوّن من:

- الجسد وهو المركّب المادي، الطيني الصلصالي، الترابي المصنوع والمخلوق.
- النفس أو الروح وهي الحقيقة الإلهية العاقلة (في ذات الإنسان وصلبه). إنها الروح التي نفخها الله في جبلة آدم التربية، مباشرة دون أية واسطة أو حاجة.

ويعلّم الإسلام أيضاً، أنه عندما تتحد النفس الخالدة بالجسد الفاني، ينشأ الإنسان، مخلوقاً حيّاً متحرّكاً، عاقلاً، مفكّراً، بإذن الله ومن عنده.

١ ـ جسد الإنسان، فانٍ:

لقد خلق الإنسان بريئاً، لا يعرف الشر أو الإثم. غير أنه ما لبث أن فقد هذه الصفة. فتلاشت البراءة منه عندما:

- خالف الشريعة والناموس والقانون الإلهي.
- عصي أوامر الخالق، صانعه ومكوّنه وباريه.

يقول الحديث الشريف، وقد رواه الصحابي المعروف أبو هريرة عن الرسول، قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة... فجحد آدم فجحدت ذريته، ونسي آدم فأكل من الشجرة، فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته. هكذا فإن آدم مائت وكل بني آدم مائتون».

وورد في القرآن عن فناء الناس وموتهم ما يأتي:

- «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ.

وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ» (سورة الرحمن ـ ٥٥ ـ الآيتان ٢٦ و٢٧).

وورد في سورة ق:

- «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ.

وَنُفِخَ في الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الوَعِيدِ.

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ.

لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ . . .

. . . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ» (سورة ق ـ ٥٠ ـ الآيات ١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٤٣).

٢ ـ **نفس الإنسان، لا تموت:**

يخبرنا القرآن أن نفس الإنسان لا تموت، إذ تقول لنا آياته البيّنات المثبتة في الذكر الحكيم:

«يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ.

ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً.

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي.

وَادْخُلِي جَنَّتِي» (سورة الفجر ـ ٨٩ ـ الآيات ٢٧ و٢٨، ٢٩ و٣٠).

وورد في معرض ثانٍ:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» (سورة **العنكبوت** ـ ٢٩ ـ الآية ٥٧).

بمثل هذا الوضوح التام، يتبين لنا أن المسيحية والإسلام على التقاء تام وتوافق في ما يتعلّق: بموت الجسد وخلود الروح أو النفس، وبالثواب والعقاب في الحياة الآخرة، حياة ما بعد الموت.

ينفي الإسلام والمسيحية معاً وجود أو صحّة أيّة مقولة أخرى من مقولات بعض الفلسفات والأديان والمسالك الفكرية التي تقول وتعتقد وتؤمن: **بالتقمّص والتناسخ**.

والتقمّص عقيدة أو نظرية تقوم على الاعتقاد والإيمان بالمبادىء الآتية:

ـ انتقال الروح أو النفس البشرية، عند الوفاة وفي لحظة حدوث الموت، من قميص بالٍ، فانٍ، هو الجسد البشري الذي كانت تسكن وتحيا فيه، إلى قميص جديد هو جسم بشريّ ثانٍ، جديد، وُلِدَ للتوّ ومباشرةً بعد الوفاة تستوطنه نفس المائت لتبدأ دورة حياة جديدة ثانية... فثالثة... فرابعة وهلمّ جراًا... حتّى انتهاء العالم!

ـ تعدد الحيوات التي تحياها الروح أو النفس في انتقالها من جسد مائت إلى جسد يولد للتوّ... مرّات عديدة وحيوات عديدة... إلى أن تتطهّر تلك الروح وتتصفّى من جميع أدرانها، فتصبح طاهرة نقيّة، بلا عيب ولا دنس، وهكذا تصير مُؤَهَّلَةً للاتحاد بالروح العظمى، روح الباري، المولى... فتذوب، في نهاية المطاف وختام الوجود وتتّحد بروح الله!

أما التناسخ فعقيدة أخرى، تقوم على الإيمان بما يأتي:

انتقال النفس البشرية أو الروح من قميصها الجسدي الذي مات، في لحظة الموت عينها إلى قميص ماديّ، منظور، جديد، أي إلى جسمٍ فانٍ آخر.

وهذا القميص الجديد، يمكن أن يكون إنساناً أو حيواناً بهيمة ودابّة من دواب الأرض غير العاقلة، أو نبتة من عشبٍ أو شجر أو خضار، أو جسماً جماداً من حجر أو تراب أو معدن أو ما شابه ذلك.

لا تقمّص ولا تناسخ، لا في المسيحية ولا في الإسلام، ولا فلسفات أو عقائد مشابهة، إذاً، من مثل تلك الأفكار أو المسالك التي نجدها في كثير من الديانات والنظم الغيبية السماوية وغير السماوية، الموحّدة وغير الموحّدة.

ثانياً ـ الثواب والعقاب في المسيحية

إن كون المسيحية ـ كما الإسلام ـ لا تؤمن، لا بعقيدة التقمص ولا بعقيدة التناسخ، يعني، منطقياً وبكل بساطة، أن الحياة الثانية تقوم على مبدأ ـ أساس هو مبدأ الثواب والعقاب. وبرهاننا على ما نقول، هو خلو الآداب المسيحية والفكر الإنجيلي، من أية إشارة تدل من قريب أو بعيد على:

* انتقال الروح الخالدة من جسد فانٍ إلى جسد يولد من جديد، انتقالاً طبيعياً حتمياً، كما هو الأمر في بعض معتقدات الهند مثلاً أو كثير من فلسفات الشرق الأقصى.

وكما سبق وأسلفنا، فإن عقيدة التقمّص، في الديانات والمذاهب والمعتقدات التي تدين بها، تحل محل مبدأ الثواب والعقاب المعمول به في المسيحية والإسلام. فالتقمص يتيح أمام الروح أن تحيا سلسلة من الحيوات الجسمانية ـ الجسدية، التي تمكّنها مِنْ أن تمرّ فيها وتحياها. فانتقال الروح من حياة إنسانية إلى حياةٍ إنسانية ثانية وثالثة... يتيح لها:

* أن تنتقل إلى وضع أرقى وعمر أفضل من سابقهما.
* أو أن تسقط في وضع أسوأ وعمراً شرّ من الوضع والعمر اللذين سبقا هذين العمرين والوضعين المشار إليهما، ههنا، في هذه الفقرة. وهكذا، فمن حياة... إلى حياة... إلى حياة... تتطهّر النفس، وتتصفى... قبل أن تذوب في الروح الكبرى، عائدة إلى مصدرها ـ الأساس الذي هو الله، في نهاية الحيوات المادية.

كذلك ـ ونرغب في تذكير القارئ مرة جديدة ـ لا تؤمِن المسيحية، كما الإسلام، بمعتقد التناسخ، الذي يؤلف، بدوره، مفهوماً غيبياً شاملاً قائماً بذاته، ونظاماً روحياً يشرح ويفصل جميع أشكال وطرق:

* انتقال الروح أو النفس البشرية من حالة جسدية إلى حالة جسدية أخرى، في لحظة الموت بالذات.

* دخول النفس أو الروح الإنسية، البشرية، في حياة تالية، تبدأ مباشرة بعد الحياة التي هي بصددها؛ ذلك في سلسلة من الحيوات لا نعرف متى بدأت ومتى تنتهي.

فالتناسخ، إذاً كالتقمص، هو عبارة عن سلسلة طويلة من أدوار الحيوات تبدأ... عند خروج الروح من حضن الله لتلتحم بالجسد، وتصبح المخلوق المركب، المجبول من نفس كائنة تسكن في «بدن ـ قميص» يبلى، وتنتهي بعد حلقات وأدوار لا تحصى من الحيوات... بالعودة والذوبان في روح الوجود العظمى ونفس الكون الكلية وأكسير الحياة التي هي ـ كلها ـ الله!

تقوم عقيدة التناسخ على ثلاثة احتمالات فلسفية محتملة هي الآتية:

الاحتمال الأول: وهو انتقال وتحول الروح أو النفس، من جسد إنسي، بشري، إلى بدن بشري جديد آخر، ولد وخلق كقميص آخر جديد، تسكن فيه النفس، لتستمر في سلسلة حيوات وأدوار طويلة، من إنسان... إلى إنسان... إلى إنسان...! حتى نهاية المطاف والطريق بعودة الروح إلى الله، وفناء الجسد إلى تراب مدفون في القبر. ويلتقي هذا المفهوم أو الاحتمال الأول تماماً مع مفهوم عقيدة التقميص، سوى أنه يسمّى، عند ذوي الاختصاص والعارفين: النَسْخ!

ـ **الاحتمال الثاني**، وهو تحول النفس البشرية، الإنسية، الآدمية، من «قميص ـ بدن» وجسم بشري إلى جسم حيوان أو بهيمة، سواء كانت بهيمة برّية أو طائراً أو حيواناً بحرياً؛ ليصبح القميص الجديد للروح الساقطة: من درجة الإنسان والنوع الإنسي ـ الآدمي، إلى رتبة الحيوان والنوع البهيمي.

ويسمّى هذا الانتقال الذي نحن في صدد البحث فيه، عند العلماء والمختصين بحال المَسْخ الموجود والمعروف في كتب الهندوس مثلاً وفي المعتقدات الهندية القديمة. إذا تتحول النفس إلى حيوان: كالقردة على اختلاف فصائلها وأجناسها، والخنازير برّية كانت أم أليفة داجنة، والكلاب مهما كانت أنواعها، والسعادين صغيرة كانت أم كبيرة.

ـ **الاحتمال الثالث**، وهو الذي يطلق عليه تسمية الرّسخ!

فالرّسخ هو انتقال الروح البشرية، روح الإنسان العاقل المتكلم الواعي، سواء كانت: ردية فاسقة؛ شريرة فاسدة؛ سيئة أثيمة؛ آمرة بالمنكر وناهية عن المعروف والخير؛ غرقى بالمعاصي والكبائر والذنوب،... تلك الروح التي لم يعد هناك أية إمكانية متاحة، لإصلاح مسارها، في دورة حياة جديدة تالية، وتحوّلها من: قميص

بشري ـ إنساني إلى نبات، كالعشب أو الشجر أو الخضار أو تتحوّل إلى جماد، أو تراب أو معدن. وهذا ما يسمّى بالرسخ.

إن حالة الرسخ هذه، التي تبشر بها عقيدة التناسخ، واردة، ثابتة في معتقدات وكتب المصريين القدماء، الدينية والفلسفية. وهي معروفة، مكتشفة في آثارهم، إذ تشكل العمود الفقري لماورائيات آدابهم وتراثهم!

بعد هذه الايضاحات المقتضبة نستطيع أن نقول، إن عقيدة الثواب والعقاب لا تتفق إطلاقاً لا مع التقمص ولا مع التناسخ. إنها عقيدة «ركيزة ـ أساس» في الإيمان المسيحي؛ نظراً لكونها تنطلق وتعتمد على مبدأ العدالة الإلهية المطلقة:

فلا عدالة دون ثواب وعقاب، ولا رأفة ورحمة دون كفّارة وغفران.

أ) الإيمان بعدل الله، أساس الثواب والعقاب:

العدل الإلهي المطلق، اللامتناهي واللامحدود، هو الأساس الذي يقوم عليه مبدأ الثواب والعقاب! يثيب الله المؤمنين به وباسمه من فاعلي الخير والآمرين بالمعروف، السائرين بحسب تعاليم الله وإنجيله، ويعاقب أولئك الذين لا يؤمنون، من فاعلي الإثم والذنوب، كل ذلك لأنه عادل تمام العدل...! نزيهٌ تمام النزاهة!

تدور حياة المؤمن الفعلي، الجدّي، في المسيحية ـ ذلك الذي يخشى الله خشية عميقة، ويحب خالقه حباً جماً، من كل قلبه وضميره ووجدانه وعقله ـ في إطارين اثنين:

١ ـ الإطار الأول: إيمان قوي ومتين:

إن الإيمان بالله، إيماناً قوياً، متيناً، صادقاً وصلباً، هو أول الألفباء في العقيدة الصحيحة. تلك العقيدة التي تملأ الكيان والذات، وتكسب القناعة الضميرية الواعية بأن الله موجود وأنه عادل يحاسب ويعاقب، ومحب رؤوف رحيم يغفر الذنب ويسامح.

فالمسيحي المؤمن يملك في وعيه وضميره البرهان الدافع، والدليل القاطع، على ما يدور في الكون من أسئلة وقضايا تتناول الوجود والحياة ومعناهما. كذلك، في إيمانه الحي، يعبّر تعبيراً واضحاً عمّا يتوقعه، كمؤمن متعبّد، من حياته وأيام عيشه بحلوها ومرها. المسيحي المؤمن، إذاً، هو المخلوق الذي يكرّس حياته:

ـ لمحبّة الله.

ـ ومحبّة القريب، أي مطلق إنسان آخر، ذلك الذي هو أخ للمسيحي في الإنسانية.

يقول الإنجيل، في إنبائه عمّن هو الأعظم في ملكوت السماوات عند الله ما يأتي:

«في تلك الساعة، تقدّم التلاميذ إلى يسوع يسألونه: من هو الأعظم، إذاً، في ملكوت السماوات؟ فدعا إليه ولداً صغيراً وأوقفه وسطهم، وقال:

الحق أقول لكم إن كنتم لا تتحولون وتصيرون مثل الأولاد الصغار، فلن تدخلوا ملكوت السماوات أبداً.

فمن اتضع فصار مثل هذا الولد الصغير، فهو الأعظم في ملكوت السماوات. ومن قبّل باسمي ولداً صغيراً مثل هذا، فقد قبّلني. ومن كان عثرة لأحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فأفضل له لو علّق في عنقه حجر الرّحى وأغرق في أعماق البحر. الويل للعالم من العثرات!

فلا بد من أن تأتي العثرات؛ ولكن الويل لمن تأتي العثرات على يده! فإن كانت يدك أو رجلك فخاً لك، فاقطعها وألقها عنك: أفضل لك أن تدخل الحياة ويدك مقطوعة، من أن تطرح في النار الأبدية.

وإن كانت عينك فخاً لك، فاقلعها وألقها عنك:

أفضل لك أن تدخل الحياة وعينك مقلوعة، من أن تطرح في جهنّم النار ولك عينان.

إياكم أن تحتقروا أحداً من هؤلاء!

فإني أقول لكم:

إن ملائكتهم في السماء يشاهدون كل حين وجه أبي الذي في السماوات».

(العهد الجديد ـ الإنجيل كما دوّنه الرسول متّى ـ الإصحاح ١٨).

٢ ـ الإطار الثاني، الأعمال وارتباطها بالإيمان:

إن أعمال المؤمن وأفعال حياته، يجب أن تكون مرتبطة بإيمانه الواعي وخشيته الله. فالأفعال والممارسات اليومية هي الدليل القاطع على مدى انسجام المؤمن مع إيمانه ومحتوى عقيدته ومبادئها. والعقيدة والقناعة الكيانيتين الواعيتين إما أن تكونا مقياس الأعمال ومعيار الأفعال أو لا تكونا كذلك، ويكون الإيمان في هذه الحالة الثانية سطحياً غير متين. وهكذا على المسيحي الحقيقي أن تكون أعماله مطابقة لمقومات إيمانه وناموس دينه، قوانين الكنيسة والوصايا، وشرعة الكتاب المقدس وعباداته.

يقول الإنجيل في هذا المعرض ما يأتي:

ـ «إن أخطأ إليك أخوك (أي قريبك الإنسان)، فاذهب إليه وعاتبه بينك وبينه على

انفراد. فإذا سمع لك، تكون قد ربحت أخاك. وإذا لم يسمع، فخذ معك أخاً آخر أو اثنين، حتى يثبت كل أمر بشهادة شاهدين أو ثلاثة. فإن لم يسمع لهما، فاعرض الأمر على الكنيسة (أي على جماعة المؤمنين). فإذا لم يسمع للكنيسة أيضاً، فليكن عندك كالوثني وجابي الضرائب».

(الإنجيل بحسب ما دوّنه متّى الحواري ـ الإصحاح الثامن عشر ـ الأعداد ١٥، ١٦ و١٧).

ـ «ولما وصلوا إلى الجمع، تقدم رجل إلى يسوع وجثا أمامه، وقال: يا سيّد، ارحم ابني لأنه مصاب بالصرع، وهو يتعذّب عذاباً شديداً، وكثيراً ما يسقط في النار أو في الماء. وقد أحضرته إلى تلاميذك، فلم يستطيعوا أن يشفوه.

فأجاب يسوع قائلاً: أيها الجيل غير المؤمن والأعوج، إلى متى أبقى معكم؟ إلى متى أحتملكم؟ أحضروه إلى هنا.

وزجر يسوع الشيطان، فخرج من الصبي فشفي من تلك الساعة. ثم تقدّم التلاميذ إلى يسوع على انفراد وسألوه: لماذا عجزنا نحن أن نطرد الشيطان؟

أجابهم: لقلة إيمانكم. فالحق أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل بذرة الخردل، لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل، ولا يستحيل عليكم شيء».

(الإنجيل حسب ما دوّنه متّى ـ الإصحاح ١٧ ـ الأعداد ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩ و٢٠).

ب) الأعمال المسيحية والثواب والعقاب:

في المسيحية ثلاثة أنواع من الأفعال أو الأعمال، تخبرنا عنها أسفار الكتاب المقدّس وتشرحها لنا. وهي تتوزّع على الشكل الذي سيأتي:

ـ الأعمال السيئة أو أفعال السوء.

ـ الأعمال الفاترة التي لا سوء فيها ولا خير.

ـ الأفعال الحسنة أو أعمال الخير.

١ ـ أفعال السوء:

تشتمل هذه الأفعال على كل أصناف الذنوب من معاص أو شرور أو موبقات أو آثام. فأية ممارسة غير صالحة يقوم المؤمن الورع بارتكابها فكراً أو قولاً أو فعلاً، تعتبر من أفعال السوء والشر.

* فالأفكار الشريرة التي تراود المؤمن الورع، سواء في عقله أو في قلبه، من حقد

وكراهية وبغض وحسد وغيرة وتمنّ للغريب أو الغير بالضرر، وكل ما شابه ذلك من أفكار أو تمنيات أو رغبات، هي في الواقع أفعال سوء وذنوب ومعاصٍ. لأنَّ كل ما يتوجه به الإنسان إلى قريبه، بدافع الأذى والإساءة، هو محرّم في شرع الله وتعليمه. لذا تأمر المسيحية مؤمنيها بأن يبتعدوا عن كل شعور أو حسٍ يتميز بالغرور والضغينة، والكبرياء والجشع، وما يمت إلى تلك الموبقات بصلة فهي تعتبر:

- خطايا فكرية.
- وآثام صامتة.
- وأحاسيس رديئة.

تنبع بمجملها من القلب غير الصافي والعين الرديئة والنفس الأمّارة بالسوء. وهي وإن لم تتجسد أقوالاً شريرة أو أفعالاً ضارة، تبقى منزلتها بمنزلة الخطيئة والمعصية.

تقول الأسفار المقدّسة:

«سمعتم أنه قيل للأقدمين: لا تقتل! ومن قتل يستحق المحاكمة. أما أنا فأقول لكم: كل من هو غاضب على أخيه يستحق المحاكمة!

... وسمعتم أنه قيل: لا تزن!

أما أنا فأقول لكم: كل من ينظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها، فقد زنى بها في قلبه».

(العهد الجديد - الإنجيل استناداً إلى بشارة متّى - الإصحاح الخامس - الأعداد ٢١، ٢٢، ٢٧ و٢٨).

* قول الشر؛ وهي الخطايا التي تتمثل في جميع ما يصدر عن لسان الإنسان المؤمن، من: كلام بذيء، أو حديث جارح، أو نميمة أو أخبار تمس كرامة القريب وتنال منها، أو أي أذى كلامي موجّه من إنسان إلى إنسان بفعل الكراهية وغياب المحبّة... إلخ...

يقول الوحي الإلهي:

«يا إخوتي... كذلك اللسان أيضاً: فهو عضو صغير، ولكن ما أشدّ فعاليته! انظروا: إن شرارة صغيرة تحرق غابة كبيرة! واللسان كالنار خطراً: فهو وحده بين أعضاء الجسم، جامع للشرور كلّها، ويلوث الجسم كلّه بالفساد، إنه يشعل دائرة الكون ويستمد ناره من جهنّم... ولكن أحداً من الناس لا يقدر أن يروّض اللسان. فهو شرّ لا ينضبط، ممتلئ بالسم القتّال! به نرفع الحمد والشكر للرب والآب، وبه نوجه الشتائم إلى الناس الذين خلقهم الله على مثاله».

(العهد الجديد، رسالة يعقوب، الإصحاح الثالث - الأعداد ٤، ٥، ٦ و٨).

وغني عن التذكير، هنا، في هذا المعرض، بأن الذنوب التي ترتكب بالقول، هي ذنوب صادرة عن قلب الإنسان غير المحب؛ تتجسد نظرات شريرة في عينيه وناراً حارقة في قلبه وكلاماً آثماً على لسانه. لذلك، وجب علينا الإقرار بأن خطايا اللسان والقول، تسبب ـ كخطايا القلب والفكر ـ الضرر المقيت والألم الجارح والاحتقار المهين للقريب والجار والإنسان الآخر، أخينا في الإنسانية والمجتمع.

خطايا الفعل؛ وهي تشتمل الذنوبَ والمعاصي التي تتمّ بالأعمال والأفعال ونوازع الشر والتصرفات الإجرامية: كالقتل؛ والسرقة؛ والزنى، وعدم إكرام الأبوين... إلخ...

٢ ـ الأعمال الفاترة:

إنّ الأفعال الفاترة في المسيحية، هي تلك التي:

ـ لا تخالف لا الوصايا ولا الشرائع أو الناموس.

ـ ولا تصدر عن فعل محبّة لا لله ولا للإنسان القريب، أو الأخ.

فالإنسان الفاتر هو الإنسان غير المحب، الذي يأتي بأفعال لا تتميز لا بالمحبة ولا بالمودّة أو الحنان. كما إنها لا تنبض بمشاعر القلب التي لولاها، لما بقي الإنسان إنساناً.

المسيحية تأمر بالممارسة الصادقة الجياشة الحارة. وهي ضد الفتور الذي يقوم أول ما يقوم على البرودة في العاطفة، وعدم التفاعل مع قوانين المحبّة وحرارة القلب.

وتأمر المسيحية المؤمنين بها بإقامة العلاقات الدافئة في ما بين الناس، وبين المؤمنين، بعضهم مع البعض الآخر. فالمحبّة الحارة هي، إذاً، محرّكُ العلاقات الأوّل، سواء كانت هذه العلاقات: بين الخالق المحب والمخلوق، أو بين الناس، كل الناس: جماعات وأفراد وأُسر.

٣ ـ الأعمال الصالحة:

الأفعال الحسنة والصالحة، هي مجموعة التصرفات والممارسات التي تنصح المسيحية بالقيام بها والعيش في ظلالها وتحت أكتافها. إنها الأعمال النافعة التي:

لا حياة ممكنة من دون وجودها؛ تقوم وتنطلق من الوصايا الإلهية؛ وتأمر بها قوانين الله وشرائعه.

إنها الخير والصلاح، والمعروف والنافع، والقيّم والطيّب، والمفرح السعيد والمبهج الغني. إنها نور الحياة وعصب العيش وذخيرة الآخرة وكنز الخلاص!

ج) قوانين الله في المسيحية:

ينبئنا سفر **الخروج**، وهو ثاني الأسفار المسيحية المقدّسة بما يأتي:

ـ «ثم نطق الله بجميع هذه الأقوال:

١ ـ أنا هو الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر، ديار عبوديتك. لا يكن لك آلهة أخرى سواي.

٢ ـ لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب يعاقب من نطق باسمه باطلاً.

٣ ـ أذكر يوم السبت لتقدّسه. ستة أيام تعمل وتقوم بجميع مشاغلك، أما اليوم السابع (أي يوم السبت) فاْجْعَلْهُ سبتاً (أي راحة وعطلة) للرب إلهك.

٤ ـ أكرم أباك وأمّك لكي يطول عمرك في الأرض.

٥ ـ لا تقتل.

٦ ـ لا تزن.

٧ ـ لا تسرق.

٨ ـ لا تشهد زوراً على جارك.

٩ ـ لا تشته بيت جارك، ولا زوجته، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما له».

(العهد القديم ـ سفر الخروج ـ الإصحاح ٢٠).

ولقد كرر الوحي الإلهي هذه النواحي، مرة ثانية في سفر التثنية الذي يخبرنا بالآتي:

ـ «. . . فقال الرب:

١ ـ أنا هو الرب إلهك الذي حررك من سجن العبودية في ديار مصر. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. . .

٢ ـ لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرئ من ينطق باسمه باطلاً.

٣ ـ احفظ يوم السبت مقدّساً كما أوصاك الرب إلهك. ستة أيام تشتغل وتقوم بجميع أعمالك، وأما اليوم السابع فيكون فيه يوم راحة للرب إلهك. . .

٤ ـ أكرم أباك وأمك كما أمرك الرب إلهك، فتطول أيامك ويكون لك خير على الأرض. . .

٥ ـ لا تقتل.

٦ ـ لا تزن.

٧ ـ لا تسرق.

٨ ـ لا تشهد على جارك شهادة زور.

٩ ـ لا تشته امرأة غيرك.

١٠ ـ ولا بيته، ولا حقله ولا عبده. . . ولا كل ما له.

(سفر التثنية ـ الإصحاح ٥).

هذا في عهد موسى، في العهد القديم.

أما في العهد الجديد، عهد المسيح، فلقد تطور الوضع، إذ رسم الفادي قانون المحبة، الذي حل محل كل القوانين وأصبح سيد الوصايا ودليل العلاقات بين الناس والمعاملات اليومية سواء في حياة الإنسان الفرد أو في سير أمور المجتمع والعائلات والأسر.

يخبرنا الإنجيل، في هذا الشأن، بالآتي:

«... ولكن لما سمع الفريسيون (وهم من علماء الدين، والأحبار اليهود) أن يسوع أفحم الصدوقيين (وهم أيضاً فرقة من فقهاء الدين الموسوي)، اجتمعوا معاً، وسأله واحد منهم، وهو من علماء الشريعة...

يا معلم، ماهي الوصية العظمى في الشريعة؟

فأجابه: أحب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل فكرك!

هذه هي الوصية العظمى الأولى.

والثانية مثلها: أحب قريبك كنفسك!...».

(العهد الجديد ـ الإنجيل كما دونه متّى ـ الإصحاح ٢٢ ـ الأعداد ٣٤ إلى ٣٩).

في ختام بحثنا لموضوع: الأعمال في المسيحية هذا، لا بد لنا من أن ننهي عرضنا بموعظة الجبل الإنجيلية المعروفة:

«وإذ رأى (يسوع المسيح ـ عيسى ابن مريم) جموع الناس، صعد إلى الجبل. وما إن جلس حتى اقترب إليه تلاميذه، فتكلم وأخذ يعلمهم. فقال:

طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السماوات (أي جنات النعيم).

طوبى للحزانى، فإنهم يعزون.

طوبى للودعاء، فإنهم سيرثون الأرض.

طوبى للجياع والعطاش إلى البر، فإنهم سيشبعون.

طوبى للرحماء، فإنهم سيرحمون.

طوبى لأنقياء القلب، فإنهم سيرون الله.

طوبى لصانعي السلام، فإنهم سيدعون «أبناء الله».

طوبى للمضطهدين من أجل البر، فإن لهم ملكوت السماوات.

طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم، وقالوا فيكم من أجلي كل سوء كاذبين. افرحوا وتهللوا، فإن مكافأتكم في السماوات عظيمة. فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم».

(العهد الجديد ـ الإنجيل كما دونه متّى ـ الإصحاح الخامس).

يستدل من هذه العظة أن قوانين الله في المسيحية، ما هي إلا قانون واحد أَحد هو: قانون محبة الإنسان الصادقة للّه، وقانون محبة الإنسان للإنسان.

ثالثاً ـ الثواب والعقاب في الإسلام

يستند مبدأ الثواب والعقاب في الإسلام ـ كما في المسيحية ـ على صفة العدل المطلق، اللامحدود واللامتناهي التي يتحلى بها الله. فالله عادل وعنده تمام العدل وكماله. كذلك، فإن المبدأ الذي نحن بصدد ولوج البحث فيه يقوم ويعتمد على:

ـ **الإيمان بالله واليوم الآخر**، أو يوم القيامة والحشر، وهو اليوم العظيم، الذي يُحْشَرُ فيه الإنس (أي أبناء آدم) والجن والملائكة، فيدعون إلى الحساب الأخير... وإلى الحياة الآخِرة؛ ذلك أن الإسلام ـ كالمسيحية ـ يؤمن ويقول بوجود الحياتين: **الحياة الدنيا**، التي تبدأ بالولادة؛ ولادة المخلوق البشري، وتنتهي بالموت، وانفصال النفس الباقية عن الجسد الفاني؛ **الحياة الآخِرة**، التي تبدأ بعد الموت. وهي حياة مستمرة لا فناء فيها ولا عدم.

ـ **أعمال الإنسان، سيئها وخيرها**، التي تعلن يوم الحشر والنشور، حيث يقوم الحساب ويتم: الثواب على حسن الأعمال والمعروف والخير؛ والعقاب لسيئ العمل وللمعاصي وللإثم والشرور.

إن يوم الحساب هذا، أو يوم الدين، أو يوم البعث أو يوم الحشر أو النشور، هو يوم عظيم، وعظيم جداً في معتقد الإسلام وإيمانه وفكره الديني.

يخبرنا القرآن المجيد عن هذا اليوم، فيعلمنا بأنه يوم يبلغ طوله مقدار ألف سنة من الزمن، إذ ورد في سورة **السجدة** ما يأتي:

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى العَرْشِ مَا لَكُم مِن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ. يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ. ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِن طِينٍ».

(سورة **السجدة** ـ ٣٢ ـ الآيات ٤، ٥ و٦).

كما يبلغ طوله، في موضوع آخر من القرآن، خمسون ألف سنة من السنوات التي نعدها نحن، أبناء آدم وحواء. ورد في الكتاب المجيد ما يلي:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ. للكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ. مِنَ

اللّهِ ذِي المَعَارِجِ. تَعْرُجُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ. فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً. إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً. وَنَرَاهُ قَرِيباً» (سورة **المعارج** ـ ٧٠ ـ الآيات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦ و٧).

أ) الإيمان بالله، أساس الثواب والعقاب:

ينبئنا القرآن في إنشائه الإلهي عن الإيمان والمؤمنين ما يأتي:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. قَدْ أَفْلَحَ المؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ. أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (سورة **المؤمنون** ـ ٢٣ ـ الآيات من ١ إلى ١١).

لم يكتف القرآن بهذا الدرس الهام، يوجهه الوحي إلى المؤمنين، بل أراد أن يعلمنا، في مجال آخر، درساً ثانياً، ما هو إلا تكملة لما قرأناه أعلاه. يقول وهو يخبرنا عن المؤمنين:

«بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. الحَمْدُ للّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً. قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً. مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً... وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً» (سورة **الكهف** ـ ١٨ ـ الآيات ١ ـ ٣ و٢٩ ـ ٣٠).

فالإيمان بالله ـ كما سبق وذكرنا ـ هو الشرط الأساس لتطبيق مبدأ الثواب والعقاب: إيمان بالله أولاً، وعمل صالح ثانياً، ... وتأتي المكافأة البهية، هبة مجانية من الله ونعمة ورضى يؤدّي بالمؤمن الصالح إلى دخول النعيم من جنات وأنهار وأفياء وسعادة، خالداً فيها مدى الدهر وإلى... ما شاء الله!

الإيمان بالله وتوحيده، إذاً، هو اللازمة الأولى التي تعلو على كل لازمة والتي يجب أن تتوافر لدى الفرد أو الجماعة لكي يقيم الله، من عنده وبإرادته، عملية الثواب. فكل مؤمن صالح، خَيِّر، مسيحياً كان أو مسلماً، يسعى، بإيمانه وأعماله،

للحصول على نِعَم الله، والحياة في ظلال النعيم المنشود، ثواباً ورحمة.

فلا ثواب لغير المؤمن الموحد!

ولا حياة في جنة الخلد لغير المؤمنين الصالحين!

ب) الأعمال الإسلامية والثواب والعقاب:

إذا كان الإيمان بالله وتوحيد الخالق، الديان، شرطين أساسيين لقيام مبدأ الثواب والعقاب في المسيحية وتطبيقه، فهما أيضاً ـ وبالتأكيد ـ الشرطان اللازمان لوقوع مبدأ الثواب والعقاب في الإسلام وتعميمه على المخلوق فرداً وجماعةً. ولقد ورد هذا في القرآن وفي أحاديث السنة النبوية، بشكل واضح، شفاف، دون أي مواربة أو إشكالات أو غموض.

الأعمال في الإسلام، إذاً شرط ثانٍ لخلاص المؤمن من العقاب العادل في الحياة الأخرى، يوم الحساب الأخير، ومن جهنم النار وأعماق الجحيم المعدُّة للعقاب الأليم.

لقد أسهب القرآن في الإعلام عن موضوع الأعمال والممارسات التي يجب على المؤمنين المسلمين القيام بها والعيش ضمن إطارها ونطاقها؛ هذا بالإضافة إلى وجوب التحلي بالفضائل الآتية الموصوفة تفصيلياً في آي الذكر الحكيم:

«... وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُون قَالُوا سَلاَماً. وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً. وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً. وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً. يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً. إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً. وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً. وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً. وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً. وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً. أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً» (سورة **الفرقان** ـ ٢٥ ـ من الآية ٦٣ إلى الآية ٧٦).

ذلك هو وجه من أوجه الدستور، الذي رسمه القرآن للمؤمنين في الإسلام، الذين عليهم أن يسعوا ليلَ نَهار، لكسب مرضاة وجه الله. إنه دستور الأعمال والممارسات في الإسلام، الذي يعرّف المنكر وينهي عنه، ويبارك المعروف ويحث عليه:

«وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَحِيمِ» (سورة المائدة ـ ٥ ـ الآيتان ٩ و١٠).

رابعاً ـ التوبة والغفران في المسيحية والإسلام

عندما طرحنا، في موقع سابق من هذه الدراسة موضوع صفات الله وميزاته الجمّة، مرّ معنا خلال البحث، استعراض الصفات الربّانية الهامة الآتية:

- العدل الإلهي المطلق، اللامحدود واللامتناهي، الذي يثيب ويعاقب.
- الرحمة الإلهية المطلقة اللامحدودة واللامتناهية، التي تغفر وتسامح.
- الرأفة الربّانية، التي تترأف بعباد الله التائبين.
- المحبّة الربانية، التي تغمر الإنسان بمحبّة الله، ولا تُقَارَن بأية محبّة أخرى.

بناء عليه، يمكننا أن نقول، إنَّه إذا كان الله قادراً على عقاب مخلوقاته، وهو كما تأكد لنا كليّ القدرة، وإنَّه إذا كان قادراً على الثواب، لأنه كليّ السلطان، يفعل ما يشاء فهو أيضاً:

- غفور رحيم،
- محبّ عطوف،
- رؤوف بعباده الضعفاء،
- قريب، يلبّي دعوة الراعي إذا ما دعاه،
- ويغفر لمن أراد من مؤمنيه، المذنبين، الخاطئين، التائبين، وطالبي المغفرة.

إن الله قادر أن يصفح ويسامح، ويتوب على المذنبين التائبين، والأثمة والمستغفرين، سواء في المسيحية والإسلام، استناداً إلى القرآن واستناداً إلى الكتاب المقدّس فهو بستطيع أن يغعل ما يريد!

أ) التوبة والغفران في المسيحية:

لقد أخطأ آدم وحواء، أبوانا الأولان، عندما ركنا إلى وسوسة الشيطان، فانقادا لرغباته ومغرياته... وكان أن عصيا أوامر الله لهما ونواهيه... فخسرا بذلك ما كانا ينعمان به من سعادة روحية وهناء جسدي، مادي. وبدل أن يورثا نسلهما البشريَّ تلك

السعادة وذلك الهناء، ثروة الله التي وهبهما إياها ونعمته التي مَنَّ بها عليهما، أورثاه الشقاء والتعب والهموم، المرض والألم والموت.

أدت خطيئة آدم وحواء إذاً إلى تغيير في وضع نوع الإنس كلّه. . . وانتقلت «الخطيئة الأصلية» إلى نسلهما بالوراثة والتكاثر. غير أن الله، بفعل رحمته ورأفته ومحبّته للبشر، لم يرد أن يُهْلِكَ الإنسان الهلاك الأبدي بفعل خطيئته، كما أهلك الملائكة الأشرار الذين تمرّدوا عليه وعصوا أوامره، لذلك قام بوعد خارق إعجازي، إذ وعد البشرية بمخلص هو المسيح، الابن المتجسّد. لم يرد الخالق، الديان أن يتخلى عن خليقته ابن آدم فتوجّه إليه قائلاً:

تب واستغفر، وآمن بي، فسأرسل لك ابني الوحيد، الحبيب الذي به سُرِرتُ، فادياً ومخلصاً، لك ولنسلك من الآن وحتى انقضاء الدهر. . . !

وهكذا كان!

إذ إنه، لما جاء «ملء الزمان»، الذي حدده الصانع لقدوم الفادي، تأنس ابن الله ـ الكلمة متجسّداً وحلّ بين الناس مسيحاً، مقدماً ذاته كفّارة وفداء عن الإنسان:

فمات على صليب الآلام، واهباً دمه وذاته ثمناً كريماً لخطيئة البشر الكبرى،

وقام من بين الأموات، مسيحاً ممجداً، نازعاً عنّا كل عثرة وورم خطيئي خبيث.

ب) التوبة والغفران والصفح الإلهي في الإسلام:

وَضُحَ مِن خلال الدراسة، ـ وإن كانت موجزة ـ لمبدأي الثواب والعقاب، أن الخالق الديان:

ـ عادل ومطلق العدل، وبالتالي فهو «شديد العقاب» نظراً لعدله اللامحدود، إذ إنه يعاقب ويثيب.

ـ رؤوف، غفور، رحيم، مطلق الرحمة، فهو بالتالي كثير الغفران يصفح ويسامح نظراً لرحمته اللامحدودة، إذ ينه يسامح الذنب ويغفر المعاصي، كيفما يريد وساعة يريد ولأي سبب يريد.

لا يفترق الإسلام ـ كما رأينا ـ عن المسيحية على هذا المحور الهام، كما وأن المسيحية لا تفترق عن الإسلام في النظرة إلى:

ـ عقيدة خلود النفس.

ـ عقيدة الحياة الأبدية أو الحياة الآخرة.

ـ عقيدة العدل الإلهي والثواب والعقاب.

ـ عقيدة الصفح من توبة إلى كفارة إلى غفران، إلى مسامحة العاصي والمذنب استناداً

إلى رحمة الله ورأفته ومحبته.

يشير القرآن إلى ذلك في آياته البينات، فيعلّم ما يأتي:

«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ».

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» (سورة **الحجّ** ـ ٢٢ ـ الآيتان ١٤ و١٧).

ويشير أيضاً:

«إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً» (سورة **النساء** ـ ٤ ـ الآية ١١٦).

في ختام هذا المحور الرابع من دراستنا الموجزة، يسرّنا أن نقفل العرض بهذا النص القرآني المعبّر، الذي يفيدنا عمّا هي المغفرة:

«إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ والصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ والخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً» (سورة **الأحزاب** ـ ٣٣ ـ الآية ٣٥).

المحور الخامس ـ سلّم الأخلاق والآداب والقيم

مقدمة: الحلال والحرام

يلتقي الكتاب المقدس والقرآن المجيد على سلّم مشترك من المقاييس شبه الموحّدة للأخلاق الإنسانية، وللآداب العامة الفردية والاجتماعيّة، ولقيم الضمير الحيّ، الواجب توافرها لدى كل مؤمن، مسيحياً كان أم مسلماً. ويعتقد أبناء الدينين الكبيرين بأن أمور الحياة الفردية أو الاجتماعيّة لا تستطيع أن تقوم وتستمر إذا لم تكن مبنيّةً على:

* قواعد للتعامل سواء على المستوى الفردي (الشخصي) أو الأسري (العائلي) أو المجتمعي الشعبي.

* أصول ومعايير أو مقاييس تقوم عليها حياة الإنسان الفرد والأسرة والمجتمع.

* قوانين ونظم مرعية الإجراء تنبع من عقيدة ـ رئيسة ومبدأ ـ أساس يرعى شؤون العيش والحياة والتعامل اليومي، هما:

ـ معيار الخير المسموح به والمرغوب في فعله وممارسته.

ـ مقياس الشر المحرّم الذي تنبذه الكتب المقدسة وتنهى عنه المسيحية والإسلام.

هكذا تلتقي الديانتان، أيضاً، على هذا المحور الخامس، وتتقاربان الواحدة من الأخرى، بشكل يكاد يكون التقاء تاماً، اللهمّ، لولا بعض الفوارق، التي سنشير إليها في مجالها عندما نحاول ولوج عالم الحلال والحرام. وهو الموضوع الرئيس في محورنا هذا، وفي ميثاق المعاملات اللازمة والواجبة بين الناس وفي المجتمعات.

أ) ما هو الحلال؟

الحلال هو كل فكر أو شعور وكل قول أو إيماءة أو تعبير؛ كل فعل أو عمل أو سلوك أو تصرّف؛ كل مأكل أو مشرب؛ كل ملبس أو حالة، . . . كل حركة (أو تحرك) تسمح به وترعاه وتباركه وصايا الله وناموسه وشرعه، وتعاليم الكتب المقدّسة والمبادئ المنبثقة منها. والحلال شأن هام من شؤون الحياة ووضع عموميّ من أوضاع العيش والتعاطي، تسمح به وتجيز فعله أو حدوثه الديانتان اللتان نحن بصددهما. فالإنسان المؤمن له ملء الحرية وكامل التصرف في مجال الحلال وفعل المعروف والأمر به، دونما أي حرج أو تحفظ أو تزمت.

مثالنا على ذلك:

الزواج:

هو مؤسسة حلال، خيّرة ومباركة، يُجمع المسيحيون والمسلمون على اعتبارهما الإطار الوحيد المسموح به (والمشرع له) لإقامة العلاقات الجنسية، الزوجية بين:

- الرجل، الزوج، رب الأسرة وأبو الأولاد.
- الامرأة، الزوجة، ربة الأسرة وأم الأولاد.

والزواج هو الوضع الوحيد المقبول به، إسلامياً ومسيحياً، أساساً لقيام الأسرة، العائلة، وأرضية لنمو المجتمعات البشرية، السليمة، القويمة.

وتتيح تصرفات الحلال ومسالكه، على اختلاف أنواعها، العيش للمؤمن وتدبّر حياته، دونما خوف أو وجل أو تردد، أو حذر وخشية أو ندم على الوقوع في حالات الخطيئة والإثم، الذنب والمعصية.

لقد رأينا من قبل، في المحور الرابع من دراستنا الموجزة، كيف أن الله، الخالق، الديّان، يكافىء الحسنى بالحسنى، والخير بالجنّة والنعيم؛ ويجازي المسيء بالعقاب، بإنزاله جهنّم، النار.

لذلك، وجب على المؤمن الورع أن يحيا في الحلال؛ في حسن الأمور وخير الأعمال وجيّد التصرفات وأن يجتنب الحرام، من إثم وخطيئة، وشرّ وأذى. فالديان هو المحاسب، الذي يتولّى الأحكام، لا نحن. وهو الذي يدين بحسن المآب وسوء المرتفق لا نحن، وهو الذي يقاضي، فيرفع الحلال ويجزي أهله خيراً ويخفض الحرام، فيجزي أصحابه سوءاً.

جاء في القرآن الأمثولة المعبّرة الآتية:

- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِم وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ».

- «... وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (سورة البقرة - ٢ - الآيتان ٦٢ و٨٢).

هؤلاء هم، في نظر القرآن، أصحاب الحلال وأهله...

ولقد نصح الكتاب المقدّس، في عظته المعبّرة الآتية:

«... لا تدينوا لئلا تدانوا. فإنكم بالدينونة التي بها تدينون تُدانون؛ وبالكيل الذي به تكيلوا يُكال لكم. لماذا تلاحظ القشة في عين أخيك (أو قريبك، أي إنسان آخر) ولكنك لا تنتبه إلى الخشبة الكبيرة التي في عينك؟ أو كيف تقول لأخيك: دعني أُخرِج القشة من عينك، وها هي الخشبة في عينك أنت! يا مرائي! أخرج أولاً الخشبة

من عينك، وعندئذ تبصر جيداً لتخرج القشة من عين أخيك».

(**العهد الجديد ـ الإنجيل كما دوّنه متّى ـ** الإصحاح السابع ـ الأعداد ١، ٢، ٣، ٤، ٥ و٦).

«... عندئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه، قال: اعتلى الكتبة والفريسيون (وهم من أحبار اليهود وعلماء الدين عندهم) كرسيّ موسى، فافعلوا كل ما يقولونه لكم واعملوا به.

ولكن لا تعملوا مثل ما يعملون:

لأنهم يقولون ولا يفعلون...».

(**الإنجيل كما دوّنه متّى** ـ الإصحاح ٢٣ ـ الأعداد ١، ٢ و٣).

خلاصة القول: الحلال في المسيحية والإسلام هو:

ـ كل برّ وعمل صالح، مفيد؛

ـ المعروف والخير والإحسان؛

ـ المعونة والمساعدة وطيب العلاقة مع الناس؛

ـ كل مأكل ومشرب وملبس وسلوك ونهج حياة وعيش لا تنهى عنه شريعة الله... إلخ...

يخبرنا الكتاب المقدس في إرشاده الربّاني:

«ليس كل من يقول لي: يا رب! يا رب! بل من يعمل بإرادة أبي الذي في السماوات. في ذلك اليوم (أي يوم الدينونة) سيقول لي كثيرون: يا رب! يا رب! أليس باسمك تنبأنا؟ وباسمك طردنا الشياطين؟ وباسمك عملنا معجزات كثيرة؟ لكنني عندئذ أقول لهم: إنني لا أعرفكم قط، ابتعدوا عني يا فاعلي الإثم...».

(**الإنجيل كما دوّنه متّى** ـ الإصحاح السابع ـ الأعداد ٢١، ٢٢ و٢٣).

وجاء في آي الذكر الحكيم:

«إِنَّ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الحَمِيدِ» (**سورة الحج** ـ ٢٢ ـ الآيتان ٢٣ و٢٤).

«جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ» (**سورة فاطر** ٣٥ ـ الآيات ٣٣، ٣٤ و٣٥).

«يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ. آدْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ. يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ» (سورة الزخرف ـ ٤٣ ـ من الآية ٦٨ إلى الآية ٧٣).

أولئك هم أهل الحلال وأصحاب الصالحات من المؤمنين، الذين يعبدون الله ويتقونه، مبتعدين في عيشهم عن كل شيء، إلا عن الحلال الذي يعيشون ـ بإيمانهم وصالحاتهم ـ في كنفه وأفيائه الوارفة! أولئك يجزيهم الله خيراً في الحياة الآخرة، نظراً لما كانوا يمارسون من حلال الأمور.

جاء في آي الذكر الحكيم:

«إِنَّ المُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ. كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ. يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ. لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا المَوْتَ إِلاَّ المَوْتَةَ الأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الجَحِيمِ. فَضْلاً مِن رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ» (سورة الدخان ـ ٤٤ ـ من الآية ٥١ إلى الآية ٥٨).

ب) ما الحرام؟

الحرام هو نقيض الحلال وضدّه. هو كل شيء نهى الدين عن إتيانه أو فعله أو القبول به، نهياً قاطعاً، جازماً سواء كان عملاً أو فعلاً، أو فكراً وشعوراً وأحاسيس وعواطف، وسواء كان موقفاً أو كلاماً أو كتابة، أو ملبساً ومعاطاة وتصرّفاً، وسواء كان مأكلاً أو مشرباً، أو ترفيهاً وترويحاً وتسلية.

ويشتمل الحرام في المسيحية والإسلام، على كل:

ـ نية رديئة أو إحساس شرير.

ـ أمر شاذ، أو تصرف ملعون.

ـ سلوك ممنوع القيام به، أو حالة بغيضة مؤذية.

الحرام إذاً، هو كل ممنوع ومحظور القيام به من قبل العابد المؤمن، الممارس المؤدّي لفرائض الله.

مثالنا على ذلك:

الزنى:

فهو حرام في المسيحية والإسلام! إنَّهُ الإثم الكبير الذي يقوم على إقامة

العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج الشرعي.

ويتفق الكتاب المقدّس والقرآن على منع الزنى وتحريمه تحريماً قاطعاً جازماً دون أي ترد أو خفر أو فتور. فكل العلاقات الجنسية مهما كان نوعها أو شكلها، غير مقبولة في المسيحية والإسلام. إنها ممنوعة، محظورة، أي محرّمة. الزنى فعل حرام، أي هو ذنب كبير ومعصية خطيرة وخطيئة مميتة، كارثة. إذ إنه، وكما ذكرنا أعلاه، لا علاقات جنسيّةٍ إلا ضمن مؤسسة الزواج.

الزنى في المسيحية:

تشير الوصية السادسة من وصايا الكتاب المقدس العشر إلى تحريم الزنى، إذ تنهى عنه بالقول: لا تزن! أي لا تقم، أو لا تقيمي، لكَ أو لكِ، أية علاقة جنسية، مهما كانت هذه العلاقة خارج إطار مؤسسة الزواج التي رعاها الله وباركها وجعل منها قدسيةً (أو سرّاً) ركناً في البناء الاجتماعي.

الزنى إذاً محظور تماماً يشكل ارتكابه خطيئة مميتة تستوجب العذاب الأبدي...

ونحيل هنا إلى عظة الإنجيل كما دونه متّى (الإصحاح الخامس، العدد ٢٧ ـ ٣٠) التي أوردناها سابقاً. هذا التحذير الإنجيلي من عواقب الزنى الوخيمة، ما هو سوى تحذير نموذج (مثال)، لعدة تحذيرات وردت في حنايا أسفار الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد... وجميعها تدين الزنى وتحظر ارتكاب معصيته لأي سبب من الأسباب.

ويتفق الإسلام بتعاليمه مع المسيحية في حظر الزنى والنهي عنه!

إنه حرام ممنوع ومنكر غير مسوح به!

إن الزنى والدعارة أمران محظوران على المؤمنين المسلمين، لأنهما من المحرمات التي يأبى الشرع الإسلامي، كما تأبى الشريعة المسيحية، القبول بهما أو التساهل بشأنهما.

يحدّد الإسلام الزنى والدعارة بأنهما أفعال ممارسة العلاقات الجنسية التي تتم بين أي رجل وامرأة خارج إطار الزواج الشرعي القانوني. فكل اتصال جنسي أو علاقة شهوانية بين رجل وامرأة غير متزوجين تعتبر معصية وإثماً سواء تمّ ذلك قبل الزواج الشرعي أو بعده.

ويشير القرآن إلى موضوع الزنى أو الفاحشة في أكثر من موضع، منها:

«وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً» (سورة الإسراء ـ ١٧ ـ الآية ٣٢).

أولاً ـ المسموح به والممنوع إِتيانه في كتب السماء

تُخَصِّص الكتبُ جزءاً كبيراً من دعوتها ووحيها الإلهي للمسموح به سِواءٌ في الفكر أو في القول والفعل والسلوك، وللممنوع المحرم على المؤمن إتيانه أو ارتكابه أو القيام به.

ويتفق الكتاب المقدس مع القرآن المجيد في هذا المعرض اتفاقاً يكاد يكون تاماً. فاللقاء حول الحلال والحرام شبه مطلق أو شبه كامل، متطابق ومتماثل.

أ) المسموح به والممنوع إتيانه في الأسفار المقدسة:

سنكتفي، نظراً لضرورة الإيجاز، باستعراض بعض ما ورد، في هذا الشأن في كتب العهد الجديد وحدها لا غير، لأن الاختصار يقضي بإعطاء بعض الأمثلة الكتابية المحدودة حول الموضوع ليس إلا. لقد جاء الوحي الإلهي واسع المجال والمدى، في معالجته للموضوعين الخطيرين: الحلال والحرام، المسموح به والممنوع إتيانه مسيحياً. لذلك سنكتفي بإيراد الأمثلة الآتية:

«. . . عندئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه، قال: . . . يحزمون (أي الكتبة والفريسيون، وهم من أحبار اليهود، وعلماء الدين والفقه واللاهوت عندهم) أحمالاً ثقيلة لا تطاق، ويضعونها على أكتاف الناس، ولكنهم هم لا يريدون أن يحرّكوها بطرف الإصبع. وكل ما يعملونه، فإنما يعملونه لكي يلفتوا نظر الناس إليهم. فهم يعرّضون عصائبهم ويطيلون أطراف أثوابهم؛ ويحبون أماكن الصدارة في الولائم، وصدور المجالس في المجامع، وأن تلقى عليهم التحيات في الساحات، وأن يدعوهم الناس: يا معلم! يا معلم! أما أنتم فلا يقبلوا أن يدعوكم أحد: يا معلم! لأن معلمكم واحد، وأنتم جميعاً إخوة.

ولا تدعوا أحداً على الأرض أباً لكم: لأن أباكم واحد، وهو الأب الذي في السماوات. . . وليكن أكبركم خادماً لكم. فإن كل من يرفع نفسه يوضع (أي يصبح وضيعاً) ومن يضع نفسه يرفع (أي يصبح رفيعاً). لكن الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تغلقون ملكوت السماوات في وجوه الناس، فلا أنتم تدخلون ولا تدعون الداخلين يدخلون! الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تلتهمون بيوت الأرامل وتتذرعون بإطالة صلواتكم. لذلك تنزل بكم دينونة أقسى!

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا متهوداً واحداً؛ فإذا تهوّد جعلتموه أهلاً لجهنّم ضعف ما أنتم عليه! الويل لكم أيها

القادة العميان! تقولون: من أقسم بالهيكل، فقسمه غير ملزم! أيها الجهال والعميان! أي الاثنين أعظم: الذهب أم الهيكل الذي يجعل الذهب مقدساً؟ وتقولون: من أقسم بالمذبح فقسمه غير ملزم؛ أما من أقسم بالقربان الذي على المذبح، فقسمه ملزم!

أيها العميان! أي الاثنين أعظم: القربان أم المذبح الذي يجعل القربان مقدّساً؟. . .
الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تؤدون حتى عشور النعنع والشبث (أي الشمرة) والكمون وقد أهملتم أهم ما في الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. . .

. . . أيها القادة العميان! إنكم تصفّون الماء من البعوضة، ولكنكم تبلعون الجمل. الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تنظفون الكأس والصحفة من الخارج، ولكنهما من الداخل ممتلئتان بما كسبتم بالنهب والطمع!

أيها الفريسي الأعمى، نظف أولاً داخل الكأس ليصير خارجها أيضاً نظيفاً. الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم كالقبور المطلية بالكلس: تبدو جميلة من الخارج، ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة! كذلك أنتم أيضاً، تبدون للناس أبراراً! ولكنكم من الداخل ممتلئون بالرياء والفسق. الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الأبرار، وتقولون: لو عشنا في زمن آبائنا لما شاركناهم في سفك دماء الأنبياء. فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلي الأنبياء! فأكملوا ما بدأه آباؤكم ليطفح الكيل!

أيها الحيات، أولاد الأفاعي! كيف تفلتون من عذاب جهنّم؟ لذلك: ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلمين، فبعضهم تقتلون وتصلبون، وبعضهم تجلدون في مجامعكم، وتطاردونهم من مدينة إلى أخرى. وبهذا يقع عليكم كل دم زكي سُفك على الأرض: من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. . .».

(الإنجيل كما دوّنه متى ـ الإصحاح ٢٣).

يتضح من هذا النص، لأي قارئ كان، أن الوحي الإلهي يريد أن يعلمنا، بأن جزاء ارتكاب المحرّم، الذي هو العصية والخطيئة والإثم، هو العقاب! وأن كل ذنب وشر وأذى هو حرام تنهى عن ارتكابه المسيحية. . . ويؤدي بفاعله إلى:

ـ الوقوع تحت غضب السماء والقصاص الإلهي بموجب عدالة الرحمن اليقظى التي لا تنام أبداً. وهي تتطالب وتحاسب وتعاقب.

ـ الوقوع تحت عدم رضى المؤمنين الأبرار ونقمة المجتمع المؤمن واستنكار كل ذي ضمير حيّ.

هناك مثال آخر، معبّر، يوضح للناس، ببساطة، فداحة عدم مساعدة الإنسان

لأخيه الإنسان، وعدم نجدة المخلوق لقريبه المخلوق، فهذان العملان هما حرام.

وهو يروي لنا مثل الغني وألعازر الفقير الذي ذكره الكتاب المقدس، مبرزاً فيه:

ـ تصرف الغني واكتفاءه بذاته وثروته بسلطانه ومجده.

ـ وحياء الفقير وخفره ورضاه بما قسم الله له، دون حقد أو كراهية أو حسد.

تخبرنا الأسفار المقدّسة، عن حقيقة هذا الشأن، بالآتي:

«كان هناك إنسان غنيّ، يلبس الأرجوان وناعم الثياب، ويقيم الولائم المترفة، متنعماً كل يوم. وكان (هناك) إنسان مسكين اسمه ألعازر، مطروحاً عند بابه، وهو مصاب بالقروح، يشتهي أن يشبع من الفتات المتساقط من مائدة الغني. حتى الكلاب كانت تأتي وتلحس قروحه.

ومات المسكين، وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ثم مات الغني أيضاً ودفن. وإذ رفع عينيه وهو في الهاوية يتعذب، رأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى قائلاً:

يا أبي إبراهيم! ارحمني، وأرسل ألعازر ليغمس طرف إصبعه في الماء ويبرّد لساني: فإني معذّب في هذا اللهيب.

ولكن إبراهيم قال له: تذكر أنك نلت خيراتك كاملة في أثناء حياتك، وألعازر نال البلايا لكنّه الآن يتعزى هنا، وأنت هناك تتعذّب، وفضلاً عن هذا كلّه، فإن بيننا وبينك هوة عظيمة قد أثبتت، حتى إن الذين يريدون العبور من هنا لا يقدرون، ولا الذين من هناك يستطيعون العبور إلينا!

فقال الغني: ألتمس منك إذاً، يا أبي أن ترسل لعازر إلى بيت أبي، فإن عندي خمسة أخوة، حتى يشهد لهم (ألعازر) منذراً إياهم، لئلا يأتوا هم أيضاً إلى مكان العذاب هذا.

لكن إبراهيم قال له: عندهم موسى والأنبياء (أي أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس، الموحى بها): فليسمعوا لهم!

فقال له: لا يا أبي إبراهيم، بل إذا ذهب إليهم واحد من بين الأموات يتوبون!

فقال له (أي إبراهيم): إن كانوا لا يسمعون لموسى والأنبياء (أي للكتاب المقدس) فلن يقتنعوا حتى ولو قام واحد من بين الأموات (وذهب إليهم).

(**الإنجيل كما دوّنه الحواري لوقا الرسول** ـ الإصحاح السادس عشر).

يلتقي ذلك المثل الإنجيلي المعبر والأمثال الذي سبقته مع ما أشار إليه النص القرآني في آي الذكر الحكيم، حين يقول:

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُوْلُ آمَنَّا بِاللّٰهِ وبِاليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ اللّٰهَ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَ يَشْعُرُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُونَ. وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ. اللَّهُ يَسْتَهزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الضَّلاَلَةَ بِالهُدَى فَمَا رَبِحتَ تِجَارَتُهُم وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يَبْصِرُونَ. صُمٌ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ. . . يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ» (سورة البقرة ـ ٢ ـ من الآية ٨ إلى الآية ٢٠).

ب) الحلال والحرام في آي الذكر الحكيم:

جميلٌ في هذا الموقع أن نرى ونتفحص سوية ماذا وعد الله أن يُكافىء المتقين الذين يمارسون المعروف والحلال في حياتهم مع أنفسهم وعيالهم ومع الناس؟

يقول القرآن في ذلك ما يأتي:

«مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِن مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِن خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِن عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِن رَبِّهِم كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ» (سورة محمّد ـ ٤٧ ـ الآية ١٥).

أما من يخشى ويخاف الله ويعيش بحسب شرعه، فيقول القرآن فيه قولاً حقاً:

«. . . وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. ذَوَاتَا أَفْنَانٍ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرْجَانُ. فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ. هَلْ جَزَاءُ

الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ. . . » (سورة الرحمن ـ ٥٥ ـ من الآية ٤٦ إلى الآية ٦٠).

ينطلق الإسلام في تشريعه، لما هو الحلال والحرام، من الكتاب الكريم أولاً وأحاديث السنّة النبوية ثانياً، مستنداً إلى المبادئ الآتية:

١ ـ الأشياء والأفعال والأعمال تُعتبر، في الأصل مباحة، إلا إذا كان هناك نص إلهي أو نبوي يحرمها.

٢ ـ إعلان الحرام والحلال هو حَقّ من حقوق الله، وحده.

٣ ـ من يحرّم ما أحلّ الله والعكس، يُعتبر مشركاً أو مثل المشرك.

٤ ـ لم يحرّم الله من الأشياء سوى خبيثها والضارّ أو المؤذي منها أو السيئ أو المشين.

٥ ـ تغني المحللات الإنسان، كل إنسان عن المحرّمات. ومعنى ذلك أن الحياة البشرية العادية لا تحتاج إلى الحرام، كي ما تسير في مجراها اللائق، النافع والسعيد. إنها بِغنىً تامّ عن كل ما هو حرام وممنوع.

٦ ـ كل ما يؤدي إلى الحرام، حرام بدوره. وكل تحايل على الحرام، هو أيضاً، حرام بدوره.

٧ ـ عدم جواز المسايرة أو المحاباة أو التفريق في المحرّمات من الأشياء والأفعال والمعاملات.

٨ ـ الابتعاد عن الشبهات، وهي الأشياء والأفكار والكَلم والأعمال التي يُشَكُّ في أمرها: أحلال هي، أم حرام؟ وتجدر الملاحظة ههنا، في مجال الشبهات، إلى أن مبدأها هذا يستند ويقوم على الحديث النبوي، الذي يشير بالرأي إلى أن:

«الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور شبهات، لا يدري كثير من الناس، أمن الحلال هي أم الحرام؟ فمن تركها استبراء لدينه وعرضه فقد سلم، ومن واقع شيئاً منها يوشك أن يواقع الحرام. . .».

ويشير آي الذكر الحكيم إلى هذا الموضوع بهذه الآيات البيِّنات:

«أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَٰلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ. . . المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُونَ. وَعَدَ اللَّهُ المنَافِقِينَ وَالمُنَافِقَاتِ والكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ» (سورة التوبة ـ ٩ ـ من الآية ٦٣ إلى ٦٧).

وجاء أيضاً:

﴿وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبذِيراً. إنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوهَا فقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً. وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُم كَانَ خِطْئاً كَبِيراً. وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً. وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلطاناً فَلا يُسْرِف فِي القَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً. وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً. وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً. وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذَلِكَ كَان سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾.

(سورة الإسراء ـ ١٧ ـ من الآية ٢٦ إلى الآية ٣٨).

لقد قام الإسلام بوضع عدد من المبادئ الأسس جاعلاً منها القواعد الشرعية، التي يفترق فيها الحلال عن الحرام. ورأس هذه المبادئ المبدأ القائل إن: الأصل في كل ما أبدع الله وصنع هو الحلال المباح.

وأن لا حرام في الإسلام إلا بموجب نص شرعي واضح، متين وصريح، سواء في الأشياء والكائنات والموجودات، أو في الأفعال والعادات، والمعاملات والتصرفات، وقواعد السلوك وأساليب الحياة.

ثانياً ـ الأخلاق في المسيحية والإسلام

تنطلق الأخلاق العامة في الدينين، اللذين نحن بصدد دراستهما، من المبادئ الرئيسة المشتركة نفسها، وتدور على المحاور ـ الأساس ذاتها، . . . لتشكل سلّماً للقيم والمناقب وقواعد السلوك يكاد يكون واحداً في العقيدتين. فالمُثُلُ الإسلامية التي تنير حياة المسلم وعيشه تلتقي في العديد من المجالات، بحلالها وحرامها، مع المُثُلِ التي تنير وجود المسيحي وعمره وأصول حياته الأرضية هذه.

وإذا كانت هناك بعض الفروقات، في مناهج الحياة والسلوك الإنساني، بين

وحي الأسفار المقدسة ووحي آي الذكر الحكيم، فهي فوارق محدودة، ومحدودة جداً، تتناول، في ما تتناول، عدداً ضئيلاً من المناحي والشؤون التي تتميز بها كل واحدة من الديانتين.

أ) سلّم الأخلاق والآداب في المسيحية:

في عودة لازمة أخرى إلى الأسفار المقدسة، نجد أن الإنجيل يشير إلى أمثلة عديدة، أرادها الوحي الإلهي نماذج لما يمكن أن يكون عليه سلم القيم والأخلاق والآداب والمثل في المسيحية.

ورد في الإنجيل، المثل الحق الآتي:

«. . . وعندما يعود ابن الإنسان (أي المسيح) في مجده ومعه جميع ملائكته، فإنه يجلس على عرش مجده، وتجتمع أمامه الشعوب كلها، فيفصل بعضهم عن بعض، كما يفصل الراعي الغنم عن الماعز. فيوقف الغنم عن يمينه والماعز عن يساره؛ ثم يقول الملك للذين عن يمينه:

تعالوا يا من باركهم أبي، رثوا الملكوت الذي أُعِدَّ لكم منذ إنشاء العالم. لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، سجيناً فأتيتم إليّ.

فيردّ الأبرار قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعاً فأطعمناك؟ أو عطشاناً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك؟ أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو سجيناً فزرناك؟

فيجيبهم الملك: الحق أقول لكم: بما أنكم فعلتم ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغار، فبي فعلتم.

ثم يقول للذين على يساره: ابتعدوا عني يا ملاعين إلى النار المُعدَّة لإبليس وأعوانه! لأني جعت فلم تطعموني، وعطشت فلم تسقوني، كنت غريباً فلم تأووني، عرياناً فلم تكسوني، مريضاً وسجيناً فلم تزوروني!

فيرد هؤلاء، أيضاً قائلين: يا رب، متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو سجيناً، ولم نخدمك؟

فيجيبهم: الحق أقول لكم: بما أنكم لم تفعلوا ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغار، فبي لم تفعلوا! فيذهب هؤلاء إلى العقاب الأبدي، والأبرار إلى الحياة الأبدية!».

(**الإنجيل حسب ما دوّنه متّى** ـ الإصحاح الخامس والعشرون ـ من العدد ٣١ إلى العدد ٤٦).

مَثَلٌ ثانٍ، هو مثَلُ الوزنات الخمس؛ ذلك النص الذي يلقي الضوء، منيراً لجانب آخر من جوانب سلم المناقب والقيم المسيحية: يقول الإنجيل:

«. . . إنسان مسافر استدعى عبيده وسلمهم أمواله، فأعطى واحداً منهم خمسَ وزنات (الوزنة هي مثقالٌ أو معيارٌ من الفضة يستخدم كنقد أو عملة) وأعطى آخرَ وزنتين، وأعطى الثالثَ وزنةً واحدة، كلٌ واحد على قدر طاقته، ثم سافر:

وفي الحال مضى الذي أخذ الوزنات الخمس وتاجر بها، فربح خمس وزنات أخرى. وعمل مثله الذي أخذ الوزنتين، فربح وزنتين أخريين.

ولكن الذي أخذ الوزنة الواحدة، مضى وحفر حفرة في الأرض وطمر مال سيده.

وبعد مدة، رجع سيد أولئك العبيد واستدعاهم ليحاسبهم. فجاءه الذي أخذ الوزنات الخمس، وقدم الوزنات الخمس الأخرى وقال: يا سيدِ أنتَ سَلَّمْتَني خمس وزنات، فهذه خمس وزنات غيرها ربحتها!

فقال له سيده: حسناً فعلت أيها العبد الصالح الأمين! كنت أميناً على القليل فسأقيمك على الكثير! أدخل إلى فرح سيدك!

ثم جاءه أيضاً الذي أخذ الوزنتين وقال: يا سيد أنت سلمتني وزنتين، فهاتان وزنتان غيرهما ربحتهما!

فقال له سيده: حسناً فعلت أيها العبد الصالح الأمين! كنت أميناً على القليل فسأقيمك على الكثير! أدخل إلى فرح سيدك!

ثم جاءه أيضاً، الذي أخذ الوزنة الواحدة، وقال: يا سيد عرفتك رجلاً قاسياً، تحصد من حيث لم تزرع، وتجمع من حيث لم تبذر، فخفت وذهبت فطمرت وزنتك في الأرض. فهذا هو مالك!

فأجابه سيده: أيها العبد الشرير الكسول!. . .

. . . ثم قال لعبيده: خذوا منه الوزنة وأعطوها لصاحب الوزنات العشر!. . . أما هذا العبد الذي لا نفع منه، فاطرحوه في الظلمة الخارجية، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان!. . .».

(الإنجيل كما دوَّنه متّى ـ الإصحاح الخامس والعشرون ـ الأعداد من ١٤ إلى ٣٠).

تشير هذه النصوص ـ الأمثلة إلى سياق أخلاقي معين، ومسار مناقبي محدد، يقومان على آداب قيمية، سواء في الحياة الشخصية الخاصة، أو الحياة الاجتماعيّة العامة. إنه السياق الإنجيلي، سياق فعل الخير والمساعدة، العمل الصالح وتلبية الحاجات، العزاء والتراحم بين الناس. . . وباختصار: تحثُ المسيحيةُ الناسَ، كلَّ الناسِ، على أنْ يُحبَّ بعضُهم بعضاً، ويرحَمَ بعضُهم بعضاً، ويسعوا جميعاً فيتراكضون

وراء الخير العام والرأفة بالإنسان، قريباً كان أم بعيداً!

ويتم ذلك كله باحترام الوصايا والتقيّد بها وبمراعاة الأوامر والنواهي، إقبالاً على المسموح القيام به وإعراضاً عن الممنوع ارتكابه من الأعمال والحديث والنوايا وخواطر العقل والقلب. فالمسيحي هو المؤمن بإقامة شرع الله وناموسه؛ وأول ما يطلب من هذا المؤمن:

١ ـ عبادة الله الواحد الأحد، دون أي شرك فيه: نؤمن بإله واحد. . .

٢ ـ تكريس يوم الأحد، يوم القيامة وهو أول الأسبوع، للعبادة والصلاة والتأمل والدعاء، خاصة المشاركة الفعلية في قدّاس الأحد، صلاة الجماعة المؤمنة المشتركة.

٣ ـ إكرام الوالدين من آباء وأمهات وأجداد وجدّات والإحسان إليهم فكراً وقولاً وفعلاً.

٤ ـ الامتناع عن القتل. فلا قتل في المسيحية ولا انتحار، ولا أذى للغير سواء كان هذا الأذى، ضرراً جسدياً مادياً، أو نفسياً معنوياً أو اقتصادياً مالياً أو روحياً.

٥ ـ الامتناع عن ارتكاب الزنى، أي الامتناع عن إقامة العلاقات الجنسية، مهما كان نوعها، خارج إطار الزواج. فلا شهوة ولا نظرة ولا تصرف يخرج عن إطار اللياقة والاحترام والكرامة والمحبّة، بل احتشام عام وخاص وعفّة وطهارة ونبل وشفافية.

ويتطلّب كل هذا من المسيحي المؤمن احتشاماً ولياقة وخفراً في الملبس والمظهر والتبرّج الجسدي العام، وفي تجميل الوجه والجسم، واحتشاماً ولياقة وتأدباً في السلوك العام والخاص، سواء في المشية، والنظرة أو في الضحكة والابتسامة. . .

وهذا كله مطلوب من الرجال والنساء، سواء كانوا متزوّجين أو غير متزوّجين، كباراً أم صغاراً.

٦ ـ الامتناع عن السرقة وكل ما يمت إليها بصلة القرابة! فلا اختلاس في المسيحية ولا إساءة أمانة ولا نصب ولا احتيال، ولا تحصيل مالٍ أو ثروات بطرق غير مشروعة كالتهريب والاتجار بالمخدرات والغش، أو الدعارة والزنى ولعب الميسر والاحتيال.

أو كل ما شابه ذلك، من احتكار وتحكّم بالأسعار والاستغلال المادّي والمعنوي لأي إنسان بعيد أو قريب، مهما كان جنسه أو دينه، ووضعه الاجتماعي أو الثقافي، الديني أو المالي ـ المادي.

٧ ـ الامتناع عن الشهادة بالزور أو الكذب وما شابه ذلك من نميمة أو كراهية وحقد أو شتيمة وذمّ.

٨ ـ رفض التقيّة والتدليس عملاً بالوصية الإنجيلية الشهيرة: ليكن كلامكم نعم،

نعم! أو لا، لا! وكل ما زاد على هذه الصراحة أو نقص منها، فهو من الشرير (أي من الشيطان أو من إبليس). فالمسيحي ملزم بتأدية الاعتراف والشهادة لدينه وتعاليم كتابه، دون أية مواربة أو كذب أو مسايرة، حتى ولو أدى ذلك إلى بذل حياته وسفك دمه واستشهاده...

بعد هذا العرض السريع، نستطيع أن نؤكد الحقيقة المسيحية الآتية.

المسيحي المؤمن هو الذي يسير على خطى معلمه، عاملاً بمقتضى قانون المحبة العامة الشاملة الذي سنّهُ يسوع المسيح والقائم على:

* محبة الله العميقة، المتينة، من كل القلب والعقل واللسان.
* محبة الناس، كل الناس، من كل القلب والعقل واللسان.

ب) سلّم الأخلاق والآداب في الإسلام:

لقد وردت في القرآن موعظة هامة، تعتبر مثالاً يُحتذى ونموذجاً يجب على المسلم المؤمن السير على منواله في مجالات الأخلاق والآداب والقيم:

«وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ باللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ... يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ. وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ في مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ» (سورة لقمان ـ ٣١ ـ من الآية ١٣ إلى الآية ١٩).

وورد أيضاً، عَرْض ذو مدلول ساطع، قاطع، إذ يقول القرآن المجيد:

«يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يوماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً. وَيُطعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً. إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً» (سورة الإنسان ـ ٧٦ ـ الآيات ٧، ٨ و٩).

وإذا ما طرح، في هذا الشأن، السؤال الجوهري الآتي: ماذا أعد الله للمؤمنين الذين اتقوا ربهم وعملوا الصالحات، الذين أمروا بالمعروف والخير والحلال ونهوا عن المنكر والشر والحرام؟

يجيب القرآن عن هذا السؤال جواباً صريحاً، فيشير إلى حسن الثواب بقوله الآتي:

«وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ إِلَى الجَنَّةِ زُمَراً حتَّى إِذَا جاءُوها وَفُتِحَتْ أبوابُها وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» (سورة الزمر - ٣٩ - الآية ٧٣).

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ. جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» (سورة البيّنة - ٩٨ - الآيتان ٧ و٨).

والجنة التي هي في الإسلام مأوى المؤمنين الصالحين ومنزلهم في الحياة الأُخرى، هي أيضاً عالم فيه من الحسن ما لذ وطاب. وفيه من جميع أنواع الأطعمة وألوان الشراب وصنوف الفاكهة والرياحين، وفيه أيضاً، نكاح الحُوْرِ العِيْنِ اللواتي هُنَّ في الجمال كأمثال اللؤلؤ المكنون، دونما نهاية ولا انقطاع! يأخذ نزلاء الجنة من خيراتها كل ما تشتهي النفس وتلذ العين من كرامة وحياة ورفاه: جلوس على الأسرة الفاخرة، متكئين فيها على الأرائك، عليهم ثياب الحرير الناعم الملمس. وجوههم سعيدة ترى فيها نضرة النعيم! ويدور عليهم (أي على المؤمنين الصالحين) فيها الولدان المخلدون والوصائف والوصفاء الذين هم - في جنسهم - كاللؤلؤ المكنون يسقون فيها من كؤوس ملأى بالرحيق المختوم الذي ختامه مسك وكافور ومزاجه من تسنيم! عينٌ يشرب منها المقربون، يُحيّون فيها بأحسن التحيات وأطيبها: لا يسمعون فيها لغواً ولا يمس أحداً منهم جوع ولا لغوب! هؤلاء الصالحون هم، إذاً، في النعيم الكريم آمنون، واثقون، خالدون دوماً وأبداً، كل ذلك بإذن الله ومشيئته ورضوانه!...

هذا على عكس الكفار الذين:

- أشركوا بالخالق المولى ولم يؤمنوا برسله وأنبيائه.
- أو ارتكبوا المعاصي والآثام والمنكرات.

فكذبوا آيات الوحي وحرموا حدود القرآن وخالفوها!

أولئك هم أهل النار، في جهنم لابثين، يعانون من حريق لا ينطفئ وزمهرير لا يوصف، خالدين فيها، كلما احترقت جلودهم جددت لهم جلود أخرى! إن مقام هؤلاء الذين عصوا وارتكبوا الآثام والموبقات، هو الجحيم، شرابهم فيه كالمهل، وطعامهم من شجرة الزقوم؛ هم وإبليس رفاق، يجالسونه ويجالسون جنوده، وبئس المصير!...

ومن آي الذكر الكيم، في هذا المضمار، الإنذار الحاسم الآتي:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النبِيِّيْنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ

بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِن نَاصِرِينَ» (سورة **آل عمران** ـ ٣ ـ الآيات ٢١ و٢٢).

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً. أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً» (سورة **النساء** ـ ٤ ـ الآيتان ١٥٠ و١٥١).

وورد أيضاً:

«وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ. أَإِذَا مُتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ... وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ. هَذَا يَوْمُ الفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ. اَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الجَحِيمِ... أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ...» (سورة **الصافات** ـ ٣٧ ـ الآيات ١٥، ١٦، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣... ٦٢ و٦٣).

«أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بالدِّينِ. فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ...» (سورة **الماعون** ـ ١٠٧ ـ الآيات ١، ٢، ٣).

«هَذَا وَإِنَّ للطَّاغِينَ لَشَرَّ مآبٍ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ» (سورة ص ـ ٣٨ ـ الآيتان ٥٥ و٥٦).

تلك هي سنن الدّين وشرائعه فيما يتعلق بالجنة والنار.

فإذا ما دخلت في دين الإسلام إذاً، وشهدت الشهادتين، عليك أن تتقيد بأوامر القرآن ونواهيه المتعلّقة بالحلال والحرام. ولنستعرض الآن بإيجاز، مجالات الإباحة والتحريم والحلال والحرام في الدين المحمّدي والقرآن.

١ ـ المباح والمحرم، الذي يتناول محور الحياة الفردية، الشخصية مثل:

* الطعام والشراب وما يخصهما.

* اللباس والزينة والتبرج وما يعود إليها من حشمة وخفر وتعفف ولياقة.

* السلوك الفردي، الشخصي والأسري، العائلي في البيت، وما يستلزمه ذلك السلوك من ابتعاد عن الغلو في الترف والزينة والأبهة.

ـ الحياة المهنية ومجالات العمل والكسب، وضرورة الابتعاد بها عن كل مُحَرَّم. فوسائل الكسب وأساليبه، واجب فيها أن تكون بعيدة عن الطرق الشائنة في تحصيل الرزق.

٢ ـ المباح الحلال والمحظور المحرم، في موضوع الزواج وبناء الأسرة. فمن المعيب الآثم أن يشوب الزواج معصية مثل إثم الزنى وأخواتها من المعاصي المشابهة، في أمور الجنس والرغبة والشهوة الجسدية. مع ما يتفرع من هذا الجذع من:

* العلاقات الحميمة بين الزوجين والحياة المشتركة، حلالها وحرامها.
* العلاقات بين الوالدين والأولاد، وعلاقات الأولاد، بعضهم بالبعض الآخر.

٣ ـ الحلال والحرام في يوميات الحياة العامة، التي تحتوي على أمور وظروف وموجبات عدة متنوعة مثل:

* التقاليد والعادات والمعتقدات الاجتماعية، حلالها وحرامها.
* التعامل الاقتصادي والمالي في حياة المجتمع.
* الحرية الشخصية، مساحتها وحدود ممارستها، كيفية التمتع بها، وشروط جواز ذلك التمتّع.

٤ ـ العلاقات الاجتماعية، وما فيها من حلال وحرام، سواء في المدرسة أو المكتب، المعمل أو الشارع، أصول ترتيبها وقوننتها وأشكال ممارستها وسير الأمور فيها.

٥ ـ اللهو والترويح والترفيه والتسلية، وما هو مباح في الرياضة والفنون مثل الرقص والموسيقى، والغناء والسينما والمسرح؛ وما هو محظور في عالم الألعاب والجلسات والأفراح والأتراح...

ثالثاً ـ بعض الافتراقات

رأينا ولمسنا، بواقع الفكر والعقل، كيف تلتقي المسيحية والإسلام على هذا المحور الخامس وفي مجالات مضمونه الواسع. لقد اتفق الدينان، فاعتمدا سلماً واحداً ـ تقريباً ـ في عالم الحلال والحرام، والقيم والأخلاق والآداب.

كل ذلك استناداً إلى:

ـ مبادئ السماح والأمر بكل ما هو خير والحظر والنهي عن كل ما هو مسيء لله وللإنسان.

ـ مبادئ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ـ الوعظ والإرشاد والتوجيه والتعليم لكي تكون ممارسات المؤمن نابعة من معتقدات إيمانه الديني.

غير أنه، بالرغم من هذه الوحدة، فإن المسيحية والإسلام يفترقان في بعض التفاصيل العائدة إلى القضايا التي التقيا عليها. لذلك وجب علينا، إذاً، أن ندرس

ونستعرض هذه الأمور كوننا مضطرين إلى معالجتها منهجياً، وبشيء من التفصيل، في الباب الثالث من هذا الكتاب الذي سيكون عنوانه: محاور الافتراق.

أ) الافتراق في أمور الحياة الفردية:

يقع هذا الافتراق في نطاق أمور ثانوية كتلك التي تتناول أوجه الحياة الشخصية للإنسان المؤمن. ففي هذا الشأن الخاص الذي يغطي حياة كل فرد منا، نرى أن المعايير تفترق من دين إلى آخر، كما سنحاول أن نوضح ذلك في هذه الصورة السريعة التي نتمناها تامة الوضوح، قريبة المنال.

١ ـ الملبس وما يعود إليه من تجمل وتزين وتبرج:

يقف الإسلام موقف الاعتدال في نظرته إلى كل هذه المسائل العائدة إلى الملبس والتزين والتبرج والتجمل. لقد أباح، بل شجّع المؤمنات والمؤمنين على الظهور بمظهر لائق، والخروج بين الناس، وفي المجتمع، بشكل راقٍ. حسن المنظر، جميل الإخراج محتشم وعفيف، نظيف ومنسجم. وانطلاقاً من هذا التوجيه العام، يوجب الإسلام على المؤمن والمؤمنة عدم الخروج في المجتمع وحياة الناس العامة إلا: حسني الهيأة والقيافة؛ كريمي الطلعة والقامة؛ جميلي الهندام والطلة.

غير أن الدين قد ميز، في هذا الإطار، بين ما هو مسموح به للرجال والنساء وبين ما هو ممنوع ممارسته والظهور به بين الناس وفي منتديات المجتمع.

إن ما حرّمه الإسلام على الذكور، هو تلك الأمور التي نوجزها في ما يأتي:

ـ ارتداء الملابس المصنوعة من الحرير، فهي في الإسلام وقف على النساء فقط دون الذكور، ولا يجوز للرجال لبسها أو الخروج بها بين الناس وفي الأماكن العامة إطلاقاً، اللهم إلا لأسباب وجيهة ذات بال، أسباب مهمة لها علاقة بصحة المؤمنين مثلاً أو سلامة أبدانهم.

ـ التحلّي بأدوات أو حليّ مصنوعة من الذهب، فالذهب في الإسلام وكل ما صيغ منه وقف على الإناث دون الذكور من المؤمنين.

ـ ارتداء الأزياء الخاصة بالنساء والتشبه بهن سواء في الملبس أو التبرج أو التزيين أو التجمل. فالرجال ذكور والنساء إناث، في كل شيء من ظاهر الحال، إلى القلب والقالب. . . إلى الرأس وأسفل القدمين.

ـ الاختيال والافتخار والتعاظم في المشية والملبس والزينة والأبهة. . . والتباهي المفرط في القيام والقعود.

أما ما حرّم على النساء، فيتناول الأمور الآتية:

ـ ارتداء أي نوع من أنواع الثياب والملابس التي تفصّل جسد المرأة وتُبرز مفاتنها بقصد الإثارة أو إشعال نار الشهوة الجنسية، وهذا حرام. فكل ما يبرز أو يلفت النظر إلى مكامن الغريزة الشهوانية في الأنثى، كالصدر والثديين، والخصر والمؤخرة، والفخذين والساقين العاريين والفرج هي أمور غير مسموح بها وممنوعة لأنها حرام.

ـ الإسراف في اللبس والمبالغة في الزينة والتباهي في مظهر الجسد العام، هذا بالإضافة إلى أي سلوك غير عفيف، شهواني ومثير للغرائز.

ـ المبالغة والتهوّر في أي لون من ألوان التزيّن أو التجمّل الذي يمكن أن يؤدّي إلى تغيير خلقة الأنثى أو تبديل خلق الله وما أراده للمؤمنات به من هيئة وهيبة ووقار طبيعية أنثوية.

٢ ـ المأكل والمشرب:

هناك عدة محرمات فرضها الشرع الإسلامي في ميادين المأكل والمشرب، سنذكر هنا شيئاً منها، نشير إليه على سبيل المثال وأخذ العلم لا على سبيل الإحصاء والحصر:

ـ كأكل الميتة، أي الحيوان والطير اللذين ماتا ميتة طبيعية دون أن يكون قد اصطادهما أو ذبحهما إنسان ذبحاً حلالاً. فأكلُ هذا المائت حرام غير مسموح به. في إطار الإسلام ودين محمد الحنيف.

ـ أكل أو شرب الدم المسفوح السائل سواء كان دم حيوان محللٍ أكله أو بهيمة حرام تناولها طعاماً.

ـ أكل لحم الخنزير سواء كان خنزيراً أليفاً أو برّياً. . . وخنزيراً وحشياً غير مدجَّن أو داجناً.

(راجع، في سبيل ذلك، سورة البقرة ـ ٢ ـ الآيتان ١٧٢ و١٧٣؛ وسورة الأنعام ـ ٦ ـ الآية ١٤٥؛ وسورة المائدة ـ ٥ ـ الآية ٣).

ـ أكل كل أنواع الحيوانات والطيور وما هو مثلها، إذا لم يتم ذبحها ذبحاً حلالاً حسب ما ينص عليه الشرع الإسلامي المحدد، والمُعَيَّن المثبت.

لقد كان عرب الجاهلية يذبحون حيواناتهم وطيورهم وما شابه ذلك من مخلوقات حية معدة لمأكل الإنسان، إما أمام الأوثان والأصنام والأنصاب أو مع ذكر وثن معين أو صنم محدد أو نصب خاص، خلال عملية الذبح المعمول بها.

ولقد آستثنى الإسلام، من حكم التحريم هذا الأسماك والحيتان وحيوانات البحر على أنواعها والجراد على أنواعه، إذ قال الشرع بإباحة أكلها ميتة دونما أي إشكال أو حرج أو إجراءات خاصة.

ـ شرب الخمور، وهي المشروبات التي تحتوي على مادة كحولية، تؤدي بشرابها إلى السكر والثمالة (راجع سورة **المائدة** ـ ٥ ـ الآيتان ٩٠ و٩١).

ـ تعاطي المخدرات مثل الحشيش والأفيون والكوكايين، والهيروين وكل ما يمت إلى هذه المواد المذكورة بصلة، أو يشبهها بالمفعول الذي تسببها في المتعاطي وعلى المتعاطي المتناول لها.

ـ أكل وشرب أو تعاطي أي مادة تسبب الضرر وتؤذي صحة الإنسان الجسدية أو النفسية أو الخلقية.

٣ ـ المحرمات في المنزل:

إن حياة الإنسان والعائلة في البيت الزوجي أو المسكن العائلي لها قواعدها التي يجب أن تسير عليها. ولقد حدد الشرع أحوال حياة الإنسان المنزلية، فأباح للناس أشياء وحرم عليهم أشياء كثيرة، مثل:

* المبالغة في عيش الترف كالغلو والإسراف في المقتنيات الفاخرة ذات الطابع الذي يدل على الغنى الفاحش والثراء المسرف في الاستمتاع بالأشياء أو الأعمال المحرّمة. كاستعمال الآنية واللوازم واستخدام الأدوات المنزلية المصنوعة من نوادر المعادن الثمينة: سواء كانت من ذهب أو من فضة أو من أي معدن ثمين آخر باهظ الثمن وغالي الكلفة، أو من حرير فاحش المظهر، مبالغ في حياكته أو تطريزه.

فالإسلام ـ كما المسيحية ـ يأبى الفحش ويمنع البذخ المبالغ فيه ويحرم مظاهر الأبهة والهالات الفائقة للمألوف، كما يحارب كل ما له علاقة باستعمالات الإنسان واستخداماته المبالغ في ترفها، لأنَّ في مظاهر البذخ ما يدعو إلى العجب بالذات والكبر والتعاظم البغيض.

* إقامة أو اقتناء التماثيل في البيت والمسكن، على اختلاف أنواع هذه التماثيل وأشكالها، نظراً لكونها تتعارض مع عقيدة التوحيد الخالصة التي يدعو إليها الإسلام، ولأنها، كذلك، تذكّر بعقيدة الشرك التي كانت سائدة في جاهلية العرب، والتي تتنافى مع وحدانية الله وتوحيده.

٤ ـ في أمور الكسب والعيش:

لقد حرم الإسلام أموراً عدة، على المؤمن أن يتجنَّبها في سعيه وراء المال والربح الحلال الناتج عن المسعى التجاري. فكل إنسان له وعليه أن يتعاطى الشأنين، الاقتصادي والمالي، طَلَباً للكسب المشروع والربح الحلال دون أن يقع في ما حرّم الإسلام وشرعُه من أعمال منكَرَة كتلك التي نعدّدها أدناه:

ـ الاتجار بكل ما هو مواد أو سلع أو خدمات حرام، منكرة، محرمة أو ممنوعة،

كالمسكرات والمخدرات والأفلام الإباحية وتسهيل الدعارة والزنى... والبغاء. الرقص والغناء وجميع الفنون المثيرة للشهوات والغرائز الجنسية، بما في ذلك تلك التي تحث على الفجور. الخلاعة والمجون والعبث الوقح وكل ما يخرج عن نطاق عفة الفكر واللسان والجسد والتصرفات.

ـ صناعة الخمور والمشروبات الكحولية وكل أنواع المسكرات. فالإسلام ـ كما المسيحية ـ لا يبيح، من حيث المبدأ، سوى وسائل الكسب المشروع وتحصيل المال الحلال، انطلاقاً من القاعدة الشرعية الأساس الآتية:

حرام على المؤمنة أو المؤمن استعمال المحرمات للكسب والعيش، فكل مال يأتي من حرام ومحرمات هو مال حرام ومحرّم منكر.

كسب المال في الإسلام ـ كما في المسيحية ـ يجب أن يأتي إذاً بالوسائل والمهن والطرق المشروعة؛ طرق الحلال غير الممنوعة، التي يُباركها اللّه.

ب) الافتراقات في شأن الزواج والعائلة:

إن الزواج والحياة الأسرية لهما مقام خطير وجليل، في المسيحية والإسلام! فالزواج منه العائلة، وحياة الأسرة والأولاد هي نِعَمٌ تباركها الديانتان اللتان نحن بصدد البحث في شؤونهما الخلقية ـ الأدبية، وأوامرهما ونواهيهما وحلالهما وحرامهما.

هذا، من حيث المبدأ العام.

أما في التفاصيل... فنلاحظ أن هناك فوارق تبرز كلما دخلنا في بحث المضمون وتحليله: مضمون الزواج: شأنه وأصوله... ومضمون الأسرة ومحتواها؛ أمور الحياة في نطاقها وقواعد العيش.

١ ـ الرهبانية والزواج:

الرهبانية اختيار وسلوك مبارك في المسيحية. إنها مؤسسة تقوم على نعمة الله وعطاءاته، وكثير من المؤمنين المسيحيين مدعوون لكي يصيروا رهباناً، فيعيشون في رحاب الأديار أو يكرسون حياتهم للنسك والزهد في المناسك والصوامع والمحابس المنتشرة في جميع أنحاء العالم، طلباً للصلاة والدعاء والتأمل في سِرّ الله العظيم. أما في الإسلام، فالرهبانية حرام وبدعة غير إلهية! هذا انطلاقاً من المبدأ الشهير القاضي بالقول إنه: لا رهبانية في الإسلام!

أما الزواج، فهو فريضة مباركة لدى المسلمين منها وفيها تتكون الأسرة ويولد الأولاد ويستمر النوع الأنسي، كما أراد الله، في لعب دوره في عبادة الله الأعظم والأعلى وعيش حياة الإيمان والفرائض والدين القويم.

٢ ـ الزنى وما جرى مجراه:

الزنى، كما ذكرنا سابقاً، حرام في المسيحية والإسلام، هو وكل ما يتصل به أو يشجّع ويحمل على وقوعه من مثل إثارة الشهوة لدى الذكور والإناث، وكل ما يؤدي إلى قيام فعل الزنى، كأنواع السلوك الفاضح المعيب، والمَلْبَس الخليع والمأكل المثير والمشرب المثير للشهوة... إلى أن يصل الأمر إلى فنون الدعارة والبغاء والرقص الإباحي والغناء العاهر والموسيقى الشهوانية، وقضايا العلاقات الجسدية المنحرفة والمنكرة التي تقوم وتتم خارج إطار الزواج.

٣ ـ عورات الرجال والنساء:

عورات الذكور والإناث هي أعضاء الجسم البشري التي يجب أن تبقى مستورة غير مبانة أو معروضة للناظر أو العيان. إنها الأعضاء الحميمة والأجزاء المثيرة للشهوة والمهيجة للغريزة. فجسد الرجل والمرأة هو من خلق الله له احترامه واعتباره لكل ذلك قالت المسيحية كما قال الإسلام، بضرورة ستر كل ما هو عورة عند المرأة أو الرجل. وتجدر الملاحظة في هذا الموقع، أنَّ هناك شبهاً واتفاقاً تامّين على تحريم كشف العورات سواء كان ذلك في المسيحية أو في الإسلام.

٤ ـ السفور والحجاب:

السفور يعني عدم تغطية رأس المرأة وشعرها بحجاب شرعي معين، ذلك عند خروج المرأة من حرمها الزوجي الذي هو بيتها، إلى الحياة العامة والاجتماعيّة، والسفور حرام في الإسلام وهو يطال كل مؤمنة مسلمة بلغت سن التاسعة من عمرها. واجب إذاً على كل أنثى تغطية رأسها وشعرها بغطاء كثيف، ليس بشفاف أو رقيق، حجاب يحجب الرأس والشعر عن الرؤية.

فالحجاب الشرعي هو حجاب قانوني معين، له مواصفاته الإسلامية، يوضع كاملاً على رأس المرأة بقصد ستر الشعر وسائر الرأس وحجب رؤيته عن أي شخص كان...

أما في المسيحية فلا حجاب شرعي يغطي الرأس، والقاعدة الحلال، هي السفور، إذ لا يعتبر سفور المرأة إثماً، ولا يحسب شعر المرأة ورأسها عورة أو عيباً حراماً يجب ستره.

٥ ـ التبرّج والتزين:

ما التبرج؟

يُعرِّف الإسلام التبرجَ كما يأتي: هو تَكَشُّفُ المرأةِ أمام الرجال الغرباء، غير المحارم ـ وهم الأشخاص الذين حُرِّم عليها الزواج منهم شرعاً بسبب النسب ـ وذلك

بإبداء زينتها أو المغالاة في ذلك وإظهار محاسنها ومغرياتها الجسدية، وكل ما يجب إخفاؤه من جسدها وفتنتها.

ورد في القرآن المجيد:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجورِكُم مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ...» (سورة النساء ـ ٤ ـ الآية ٢٣).

أما الرجال المحارم (غير الغرباء)، فالمقصود بهم، أقرباء المرأة من فئة الذكور الذين يحرم عليها الزواج منهم، من مثل، الأب أو الجد أو الأخ أو الابن أو الحفيد أو العم أو الخال... أو الصهر زوج الإبنة أو زوج الأخت...

أما ما وجب على الأنثى إخفاؤه فهو:

ـ إما موضع أو عضو أو جزء معين من الجسد النسوي ـ الحريمي.

ـ أو طريقة أو نهج من طرق ومناهج التخاطب غير اللائق، أو الكلام البذيء أو الحديث المغري.

ـ أو أسلوب من أساليب المشي والسير الفاضح، غير المحتشم وغير اللائق والكثير التعهّر.

ـ أو حلية من تلك التي لا تتوافر فيها شروط الحشمة والخفر، واللياقة والأدب.

فكل ألوان التبرج هذه، وكل ما شابهها من أمور التزيين والتجمّل في الحياة العامة خارج البيت والمنزل، هي من المحرمات سواء في الإسلام أو المسيحية ولدى الرجال والنساء والشبان والشابات على السواء.

٧ ـ العلاقات الجنسية «المثلية» أو الشذوذ الجنسي:

ما العلاقات الجنسية «المثلية»؟ أو الشذوذ الجنسي «المثلي»؟ أو العلاقات الجنسية «الشاذة»؟

هي كل علاقة تقوم أو يمكن لها أن تقوم: بين رجل ورجل، أي بين ذكور وذكور. أو بين امرأة وامرأة أخرى، أي بين إناث وإناث.

إنها تلك العلاقات التي يطلق عليها ـ عرفاً وتقليداً ـ تسمية اللواط، عندما تكون من صنف علاقات الرجال بالرجال. وتسمية السحاق في حال وقوعها بين امرأة وامرأة.

فكل علاقة تنمو ـ جنسياً ـ بين كائنين من ذات الجنس، وكل صلة حميمة ذات

طابع جنسي أو كل شهوة في القلب أو الغريزة أو العين تنشأ بين مخلوق ومثله أو مخلوقة ومثلها، هي علاقة حرام ممنوعة ومنكرة. إنها وضع شاذ، مدان، سواء في المسيحية أو في الإسلام، دون أي تردد.

تقوم العلاقات المثلية على:

جماع بين إحليل ذكري ودبر ذكري آخر وجماع بين فرج أنثوي وفرج أنثوي آخر ومداعبات جسدية حميمة بقصد اللذة الجنسية والنشوة الجسدية والرعشة الحرام، وقُبَلٌ وعناق حميم بقصد اللذة والنشوة أيضاً، والرعشة.

٧ ـ علاقات الجنس بين الزوجين:

لا تحل المسيحية ولا الإسلام علاقات الجنس بين الزوجين، وضمن إطار الزواج الشرعي، القانوني إلا إذا تمت «بحسب الطبيعة» أي أن يدخُل الزوجُ إحليله (وهو العضو التناسلي الذكر) في فَرْجِ الزوجة (أي العضو التناسلي الأنثوي)!

أمَّا العلاقة القائمة على دخول إحليل الزوج في دبر المرأة الزوجة أو إستها، فتُعتبر ـ في نظر المسيحيين والمسلمين المؤمنين ـ علاقة تتم «خلافاً للطبيعة». وهي علاقة محظورة لا يسمح بها سواء في قوانين المسيحية أو في شرع الإسلام! إنها حرام محرّم وإثم كبير ومعصية فادحة، وفساد وفسق ما بعده معصية أو فساد أو فسق.

٨ ـ التبنّي:

كان التبنّي منتشراً، رائجاً في المجتمع العربي، عصر الجاهلية وقبل الدعوة المحمدية.

ولما ظهر الإسلام وانتشر، حرم التبني وشرع بطلانه عملاً بالإشارة القرآنية، التي نصّت على ما جاء في سورة الأحزاب:

«مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ. ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» (سورة الأحزاب ـ ٣٣ ـ الآيتان ٤ و٥).

إن رأي الإسلام في هذه العادة العربية الجاهلية، واضح، صريح. فالتبني تزوير للواقع البشريّ والطبيعة الإنسانية. إنه ادِّعاء مصطنع، يجعل من ولد غريب بالدم، عضواً من أعضاء الأسرة المعنية، وفرداً من أفراد العائلة، يخلو بنسائها (أي بنساء الأسرة) وكأنهن من محارمه بينما هن في الواقع غريبات عنه، أجنبيات، فلا زوجة

الرجل الذي تبنّى المُتَبَنَّى أمه ولا ابنته أو أخته، إنما هو شخص أجنبي، غريب عن جميع أفراد الأسرة.

ولا تتفق المسيحية مع الإسلام في موضوع التبني. فهي تجيزه وتعترف به، إذا ما تم ضمن إطار نظام معين، محدد، له أسسه وشروطه، قوائمه وتفاصيله.. نظام خاص وضعته وأعدّته السلطة الدينية المعنية، صاحبة العلاقة والمرجع الحق.

خاتمة الباب الثاني

لقد وُضح لنا، من خلال الاستعراض الذي أجريناه على مدى الباب الثاني من هذه الدراسة، أن نقاط الالتقاء ومحاوره عديدة وهامة بين المسيحية والإسلام، وبالتالي بين المؤمنين المسيحيين والمؤمنين المسلمين.

سبب ذلك اللقاء يكمن في كون الدينين ينبعان من مصدر واحد في الأساس، هو مصدر التوحيد السامي ـ الإبراهيمي. فالمسيحية فخورة بكونها تسير على المنوال الذي نسجه إبراهيم، والإسلام كذلك، يعلن، بكل صراحة، أنه لم يأت بعقيدة جديدة، بل إن جلّ ما قام به هو تصحيح ما شاب الإيمان الإبراهيمي التوحيدي من انحرافات وغموض وشوائب. فالإسلام المحمّدي هو ـ في نظر علماء الدين المسلمين ـ الحركة التصحيحية اللازمة والتي كانت منتظرة، لتنقذ الدين الحنيف، دين إبراهيم الخليل، من كل انحراف أصابه، خلال حقبات الزمن، وتطهره من كُلِّ وهنٍ أو شرك أو خطأ أدخله الناس، زوراً وجهلاً، على عقيدة الإسلام الأصيلة، وإيمانْ التوحيد الخالص.

وكما أن المسيحية تقول عن نفسها إنَّها لم تبدع ديانة جديدة إنما هي بناء روحي يقوم على قواعد تَرْقَى بنا بعيداً في الزمن، من آدم وحواء إلى هابيل وشيت. . . إلى نوح، فسام، فإبراهيم، ومن إبراهيم إلى موسى وداود وسليمان، ومن سليمان الحكيم إلى يوحنا ـ يحيى والمسيح. إنها إذاً، وأسفارها التي هي كتب العهد الجديد، ليست سوى إتمام للبناء التوحيدي، الإبراهيمي ـ الموسوي، الذي تجلى ووصل إلى قمته بولادة المسيح وبشارته. إنها الإكمال لتلك العمارة التي بدأت بآدم وحواء. . . وهي مستمرة إلى اليوم.

وكما تلتقي المسيحية «الموسوية ـ اليهودية» في كثير من المحاور وفي عديد من النقاط الهامة؛ وكما تفترق المسيحية عن الموسوية في بعض المجالات وفي عدد من المحاور، كذلك يلتقي الإسلامُ المسيحيةَ في كثير من محاور الإيجاب وفي عديد من النقاط المشتركة المركزية، ويعود ليفترق عنها في بعض المجالات وعند عدد من المحاور.

لقد لمسنا أن الدينين يشتركان، دون أي شك، في إيمان وقناعة تقوم على:

١ ـ مبدأ وجود إله واحد، يختلف في مفهوم الديانات الموحّدة الثلاث ـ له وبجوهره اللاهوتي ـ الفلسفي والفقهي ـ عن جميع ديانات الأرض الأخرى، شرقاً وغرباً. فكل ديانات العالم لا تعرف إلهاً كإله الموسوية والمسيحية والإسلام، ولا

تؤمن بإله كائن أعلى، كما تبين لنا في دراستنا، إله خالق لكل شيء، ديّان يحاسب الناس بالعدل والقسطاس.

٢ ـ حقيقة وجود الإنسان على الأرض كمخلوق صنعه الله وكوّنه من العدم واللاشيء.

٣ ـ مبدأ وجود الأنبياء والرسل الداعين إلى اتباع رسالة السماء والوحي الإلهي الذي أنزله الله.

٤ ـ حقيقة الدينونة واليوم الآخِر، والحياة الخالدة للروح بعد الموت.

٦ ـ عقيدة وجود سلّم إلهي من القيم والمناقب والأخلاق والآداب العامة التي حددها شرع الله وناموسه، والتي على المؤمنين التقيد بها والعيش بموجبها طوال فترات حياتهم.

٧ ـ كثيرٌ غير ذلك من الجوامع المشتركة التي تربط بين إيمان الموحدين جميعاً سواء أكانوا يهوداً أم نصارى أم مسلمين، كمعتقد العناية الإلهية الدائمة للكون والإنسان، وحقيقة اليوم الآخِر، يوم الحساب ويوم الدينونة، ومبدأ السعادة والهناء من جهة ومبدأ التعاسة والعذاب من جهة أخرى، وحقيقة وجود إبليس والشياطين حاملي راية الشر والخطيئة من جهة ووجود الملائكة خدام العزّة الإلهية من جهة أخرى. . . والمسبّحين الحامدين لله.

لذلك، أمام مجموع هذه الحقائق الثابتة، الدامغة، نقف، بحيرة وعجب لنسأل: أين الحل الذي يجب أن يولد، ليبدأ المجهود المشترك الهادف إلى فتح مجال الحوار الحقيقي الجدي بين نصارى العالم ومسيحييه من جهة، وبين مسلمي العالم ومؤمنيه من جهة أُخرى، للوصول إلى فهم عميق يجمع المؤمنين كافة كل المؤمنين، في مناخ واحد من الاحترام المتبادل الصريح أولاً، والتخطيط الواضح لبدء عمل بنّاء مشترك، على ساحة الأرض كلها ثانياً.

في قناعتنا الواضحة الأكيدة، ونقولها بكل تواضع، أن مستقبل البشرية والإنسان ومصير الكرة الأرضية ومن عليها مرهون، في الزمن الآتي، لقيام مثل هذا التعاون البناء المشترك، الذي يدعو إليه الناس، وندعو إليه نحن معهم، بكل ما أوتينا من قناعة وكدّ وحماسة.

فإنّ الذي يجمع بين محمّد والمسيح هو في الواقع، أكثر بكثير من الذي يفرق!

فلِمَ التردد إذن؟

ولماذا التلكّؤ والانتظار؟ . . .

غير أنه يجب علينا ألاّ ننسى أيضاً أنه، بالرغم من وجود محاور هامة تجمع بين

ديانتي التوحيد، فإن في الأمر كثيراً من النقاط العديدة التي يفترق فيها المسيحيون والمسلمون، بعضهم عن البعض الآخر. لذلك، وجب بدء العمل الصادق لإقامة الحوار الواجب انطلاقاً من قبول كل دين للدين الآخر والاعتراف له بحقه في الوجود والإعراب عن نفسه وحقائقه وإيمانه. فعلى صخرة مثل هذه المبادئ وعلى أرضية متينة من الصراحة في التعامل والصدق في الأخذ والعطاء، يمكننا أن نبدأ دراستنا لمحاور الافتراق، دون أن نقع في محاذير التحيّز والانحراف، والرياء والتقوقع، ومحاولة ذر الرماد في العيون والعقول والأذهان. وبعد:

«. . . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. . .» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآية ٦٢).

«. . . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئُونَ والنَّصَارَى مَن آمَنَ باللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحزَنُونَ. . .» (سورة المائدة ـ ٥ ـ الآية ٦٩).

«. . . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا والصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ» (سورة الحج ـ ٢٢ ـ الآية ١٧).

الباب الثالث

محاور الافتراق

تقديم الباب الثالث

لا يجوز لنا في معرض عملنا هذا، لكي يصبح وافياً بالغرض ودقيقاً ومُتَمِّماً للهدف الذي نسعى إليه، أن نتجاهل أو نتناسى نقاطاً هامة جديرة بالدراسة والبحث. إنها محاور الافتراق التي نراها، بين المسيحية والإسلام. تلك المحاور التي علينا قبولها والاعتراف بها، قبولاً تاماً واعترافاً جريئاً. فالمسيحية والإسلام ليسا:

* ديناً واحداً، كما يدّعي البعض، بل هما دينان اثنان متمايزان.

* أو إيماناً واحداً في رسالة وحيدة، بل إيمان واحد في دعوتين ورسالتين، فيهما من التمايز ما يكفي ليجعل من كل واحدة منهما، شخصية معنوية قائمة بحد ذاتها، ومستقلة تمام الاستقلال عن الأخرى.

كذلك، فإن القول بأن المسيحية دين قائم بحد ذاته، متمايز عن الإسلام، والإسلام دين قائم بحد ذاته، متمايز عن المسيحية لا يعني ـ إطلاقاً ـ وجوب استمرار الحرب المستعرة بين المؤمنين المسيحيين والمؤمنين المسلمين، منذ مئات السنين، إذ اندلعت، في الماضي وخلال أزمنة طويلة وعصور متعددة من حقبات التاريخ:

ـ سواء في الشرق بين البيزنطيين (أو الروم) والعرب المسلمين.

ـ أو في الغرب الأوروبي بين المسلمين العرب والبربر والمسيحيين الفرنجة ـ الأوروبيين.

ـ وسواء في العصور الوسطى بين الصليبيين الغربيين ـ الأوروبيين القادمين من بلاد الشمال والمسلمين القاطنين في بلدانهم من أقطار الشرق الأوسط والأدنى.

ـ أو بين العثمانيين الأتراك في العصور الحديثة وبلدان روسيا والبلقان واليونان... والنمسا في أوروبا.

لقد حارب المسيحيون المسلمين طويلاً في ما مضى. كما حارب أيضاً المسلمون المسيحيين كثيراً وطويلاً خلال التاريخ الماضي.

فماذا كانت النتيجة؟

نترك للقارئ الكريم مبادرة الإجابة عن هذا السؤال الرئيس... ونكمل ما بدأنا به من استعراض للقاء الحواري الصادق الذي نرجو ونأمل أن يستمر ويتمّ.

ونحن إذ نرجو ونأمل أيضاً، أن يكون، واقع الصراعات الدينية وأزمنة الحروب بين المسيحيين والمسلمين قد ولّى إلى غير رَجْعة ـ بعدما أصبح العالم كله، والكرة الأرضية، قرية صغيرة في هذا الكون الفسيح؛ وبعدما أصبح المؤمنون، كلُّ المؤمنين بإله إبراهيم، أقليةً عددية صغيرة، بين مجموع بني البشر ـ نقدم للمخلصين الساعين

الجديّين عرضاً نتمناه علمياً موضوعياً لمحاور الافتراق بين الدينين الجليلين.

فليس المطلوب أبداً أن تتخلّى المسيحية عن ذاتها وعقيدتها أو أن يتخلّى الإسلام عن ذاته وعقيدته، إنما المرجو والمطلوب هو أن يلتقي الدينان على جوامعهما المشتركة الكثيرة دون أن يقعا في نزاعات دموية قتالية وحربية كما حدث في الماضيين القريب والبعيد من تاريخهما المشترك الطويل، الأحمر الدامي.

بعد هذا التمهيد الموجز، اسمح لنا أيها القارئ الكريم، مسيحياً كنت أم مسلماً، أن نتابع الدراسة معك، في الباب الثالث هذا من كتابنا، فنبحث سوية، وَبجرأة وصدق، محاور الافتراق والتمايز بين الدينين اللذين هما مضمون تحليلنا الموجز، في هذه التجربة التي نحاول أن تأتي: موضوعية شفافة؛ إيجابية بناءة؛ ومقدمة لأبحاث حواريّة مستفيضة، واسعة وطموحة!

□ المحور الأول: تمايز وافتراق حول مفهوم الله:

يتناول هذا المحور الأول، التمايز الواقع والتباين البارز، لا في عقيدة الإيمان بوجود إلٰه واحد أحد، كائن أعلى، خالق وديّان وضرورة الإيمان به وحتمية ذلك الإيمان، بل في تفاصيل مفهومي الدينين لذلك الإلٰه الأزلي السرمدي، في ذاته وكنهه، وجوهره وصفاته، وكيفية وحدانيته.

ويطرح هذا المحور الأول، علينا وعلى بساط البحث، السؤال الهام الآتي:

هل إنَّ الله، الكائن الأعلى، هو واحد، أحد، في الذات والجوهر، لا أقانيم فيه ولا ثالوث؟ أم إنّه: كائن أعلى، واحد، أحد، في ذاته وجوهره ولكنّه ثالوث في الأقانيم؟

□ المحور الثاني: تمايز وافتراق حول مفهوم المسيح:

تدور الدراسة على المحور الثاني هذا، حول شخصية المسيح، عيسى أبن مريم - يسوع، فيطرح علينا التساؤل التالي:

* هل المسيح يسوع - عيسى أبن مريم - إلٰه تامٌّ، كامل اللاهوت؟ إلٰه مِئَةٌ بالمئة؟ وإنسان تامٌّ، كامل الناسوت، إنسان مئة بالمئة؟ أم إنه، نبي ورسول «قد خلت من قبله الرسل»، اختاره الله، مخلوقاً عجيباً دون أب وكلّفه بالدعوة إلى الدين القيّم: دين الإسلام الإبراهيمي وإكمال رسالة التوحيد؟

ولهذا، أعطينا هذا المحور الثاني المهمّ العنوان المعبّر الآتي: من هو المسيح؟ إله تام وإنسان تام هو، أم نبي رسول؟

□ المحور الثالث: معتقد الفداء في المسيحية والإسلام:

يعالج هذا المحور التباين والافتراق الحاصل من جرّاء التعليم المسيحي القائل

بعقيدة الفداء، الذي يؤمن به جميع المسيحيّين والذي لا وجود له في إيمان المسلمين ومعتقدِهم.

ويطرح المحور الثالث هذا، سؤالاً جوهرياً، لا بُدّ من الإجابة عليه، والبحث في محتواه، بعد دراسة جدية لفحواه ومضمونه:

هل صلب المسيح وتألم ومات بملء إرادته واختياره، كفّارةً عن معاصي الناس جميعاً وفداء لهم، لإنقاذهم من الموت الروحي، الأبدي؟ أم إنه، لم يُقتل ولم يُصلب، وحاشا له أن يكون قد قتل أو صلب؟ «بل شُبِّه لهم».

هذا هو السياق والمسار اللذان سيدور في فلكهما موضوع دراستنا في هذا المحور الثالث من الكتاب.

□ **المحور الرابع: عقيدة الخطيئة الأصلية في المسيحية والإسلام:**

يدور جوهر المحور الرابع حول موضوع عقيدة الخطيئة الأصليّة: هل هي عقيدة إيمانية في الكتاب المقدس، وبالتالي مبدأ أساس في إيمان المسيحيين؟ وهل هي عقيدة من عقائد القرآن المجيد؟ وهل يؤمن المسلمون بمعتقد الخطيئة الأصلية أم لا؟

سنرى ونتناول هذه التساؤلات في الفصل الخاص بمحور الخطيئة الأصلية الذي سيأتي ذكره لاحقاً في موضع رئيس من هذا الباب.

□ **المحور الخامس: الفرائض والعبادات والشعائر:**

ندرس في إطار هذا المحور موضوع التمايز والافتراق الواقع بين الممارسات الدينية والشعائر الروحية التي يمارسها المسلمون، لنرى في النهاية أن الإسلام شأنه شأن المسيحية يأمر بالمعروف وينهى على المنكر والبغي؛ تماماً كالمسيحية التي توصي بفعل الخير والبعد عن الشر، إذ أنّه لا خلافَ جوهريًّ بين الدينين في مسعى كل واحد منهما إلى التقرّب من الله، على طريقته الخاصة وعبقريته المميزة.

فالمسيحي يصلّي والمسلم يصلّي! والمسيحي يصوم والمسلم يصوم! والمسيحي يزكّي أمواله بدفع العشور كما يفعل المسلم بإيتاء الزكاة، كل واحد ضمن شروط خاصة، تختلف في التفاصيل وتلتقي في الجوهر واللبّ والأساس.

المحور الأول ـ الله، واحد، أحد أم واحد في ثالوث الأقانيم؟
الافتراق الأول الكبير

مقدّمة: صعوبة المسألة المطروحة

في رأينا، ونظراً لصعوبة المسألة المطروحة على بساط البحث، علينا، قبل البدء بأي دراسة أو تحليل، أن نعي خطورة المخاض الذي نحن بصدده الآن. إنه العقبة الكأداء التي تعترض سبيل أي مختص معنّي بموضوع وحدانية الله! لذا علينا، إذا ما أردنا التقدم في السير على هذا الطريق الوعر، أن نتأنّى كبير التأنّي وأن نحذر شديد الحذر، حتى لا نقع ـ مثلما وقع غيرنا والكثير من الباحثين ـ في مطبّات:

ـ الجدل العقيم في موضوع شائك دقيق مثل هذا الموضوع الرئيس.

ـ أو الرغبة في التوفيق بين وجهات النظر، المتمايزة والمتغايرة، توفيقاً عشائرياً يقوم على حسن النوايا والمجاملات السطحية أو سهولة الانجراف في المحاولات التوفيقية الساذجة أو الانتهازية الهادفة، أو السيِّئة النية.

لقد سبق وقلنا، في المحور الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب، إنَّ الإسلام والمسيحية يتفقان تماماً على مبدأ رئيس وعقيدة أساس، ألا وهما:

ـ الإيمان بوجود إله واحد، كائن أعلى تمام العلو، وأسمى تمام السمو، كائن خالق، مكوِّن للوجود، أبدعه وخلقه من العدم، إله كلّي القدرة، أزلي، سرمدي، ديّان، إله «ليس كمثله شيء»!

ـ عبادة ذلك الإله الأعظم والعيش حسب تعاليمه ووصاياه، أوامره ونواهيه.

فأين هي المسألة الصعبة، الشائكة في ذلك، يا ترى؟

إنّ العقبة التي تشكل حاجزاً أمام الباحث عن المعرفة، تكمن في حقيقة ما يحتوي هذا التعليم من حقائق إيمانية توجزها الشرعة المسماة بقانون الإيمان المسيحي!

وقانون الإيمان هذا، ما هو ـ كما أسلفنا سابقاً ـ سوى الشرعة ـ الشهادة ـ الأساس. إنه الميثاق ـ المرجع الذي يشهد به وعبره كل مسيحي مؤمن، وبالفم الملآن لإيمانه قائلاً: «نؤمن بإله واحد...».

هذا كل يوم أحد من كل أسبوع، وكل يوم عيد من الأعياد المسيحية السنوية خلال فريضة القداس، التي هي الصلاة الجماعية الواجبة والشعيرة الإلزامية، التي يجتمع في إطارها المؤمنون في بيت الله: الكنيسة، ويشتركون فيها جميعاً في صلاة الكنيسة: صلاة جماعة المؤمنين!

يتلو المسيحيون إذاً، قانون الإيمان في كل قداس، بصوت مشترك، مرتفع ومسموع إعلاناً لفهم شهادة إيمانهم. فما هو قانون الإيمان هذا؟

نُكَرِّرُ ههنا، للمرّة الثانية، بأن قانون الإيمان هو قبل كل شيء:

- إعلان إيماني.
- شهادة من المؤمن إلى الملأ بإيمانه المسيحي.
- شرعة وميثاق يربط بين جميع المؤمنين.

ولقد وضع قانون الإيمان على مرحلتين اثنتين: الأولى، عام ٣٢٥ للميلاد خلال المؤتمر المسيحي العام الأول: مجمع نيقية المسكوني، والثانية، عام ٣٨١، خلال المؤتمر العالمي الثاني: مجمع القسطنطينية المسكوني، حيث اتخذ صيغته النهائية التامة.

ولا تتم صلاة القداس، وهي «صلاة ـ فريضة»، إذا لم يتلُ المؤمنون خلالها وفي مرحلة محدَّدة منها، قانون الإيمان، الشرعة ـ الميثاق هذا!

أولاً ـ قانون الإيمان المسيحي

يحتوي قانون الإيمان على النصّ والمضمون الآتي:

«نؤمن بإله واحد،

آب ضابط الكل،

خالق السماء والأرض،

كُل مَا يُرى ومَا لا يُرى،

و(نؤمن) برب واحد،

يسوع المسيح (أي المسيح عيسى أبن مريم)،

المولود من الآب (أي مولود من الله الأب، ولادة روحية صرفة، انبثاقية، فالولادة المعنية والمقصودة، ههنا في هذا النص، هي ولادة لا تمتّ بصلة، ولا علاقة لها، لا من قريب أو بعيد، بأي شكل من أشكال الولادة الجسدية، التناسلية أو الجنسية المادية. إن ولادة الابن من الآب تعني في علم اللاهوت المسيحي ولادة روحية وولادة انبثاقية، تمت في الأزل، ما قبل الزمان وقبل أية بداية كانت لأي موجود! وهي ولادة عجيبة، إعجازية، خارقة، لا يمكن للعقل البشري المحدود أن يفهمها أو يحدها، أو يدرك كيف تمّت وجرت قبل كل الدهور والأوقات والأزمان)، قبل كل الدهور.

إلٰه من إلٰه، (أي أن الأقنوم الابن ـ الكلمة إلٰه تام من الأقنوم الآب الذي هو، بدوره، إلٰه تام)، نور من نور، إلٰه حق من إلٰه حق،

مولود غير مخلوق (أي أن الإلٰه الابن مولود من الإلٰه الآب لكنه غير مخلوق من قِبَله، فهو أزلي مثل الآب، أي لا بداية له، وسرمدي مثل الآب أيضاً، أي لا نهاية له)، مساو للآب في الجوهر...».

... ثم يتابع النص سيره، إلى أن يصل إلى الروح القدس... فيعلن ما يأتي:

«... ونؤمن بالروح القدس،

الرب المحيي،

المنبثق من الآب (والابن)،

الذي هو مع الآب والابن.

يسجد له ويمجّد،

الناطق بالأنبياء والرسل، ...».

ذلك هو الإلٰه الواحد، الذي يؤمن به المسيحيون، كل المسيحيين!

وعندما ينطق المسيحي بهذه الشهادة، يعلن على رؤوس الأشهاد: أنه مؤمن، بإلٰه واحد! وأنه منضوٍ تحت لواء الوحدانية والتوحيد.

لذلك، يختم تلاوة قانون إيمانه بعبارة: آمين! التي تعني: ليكن كذلك، أي كما أعلنت، أو تعني: حقاً!

قانون الإيمان النيقاوي (نسبة إلى مدينة نيقية، في آسيا الصغرى، التي عقد فيها المؤتمر العالمي الأول أو المجمع المسكوني: مجمع نيقية) هو إذاً كما قلنا، وثيقة الإيمان الدامغة، التي تكرّس بشكل مباشر عقيدة التوحيد ومبدأ الإيمان بوحدانية الله الكاملة.

فإلٰه المسيحيين هو الله:

ـ إلٰه الكتاب المقدس.

يقول الكتاب، المقدّس:

«فقال الرب: أنا هو الرب إلهك، الذي حررك من سجن العبودية في ديار مصر.

لا يكن لك آلهة أخرى أمامي..» **(العهد القديم ـ سفر تثنية الاشتراع (أو سفر التثنية)** ـ الإصحاح الخامس ـ العدد ٦ و٧).

ـ وإلٰه الكنيسة، جماعة المؤمنين وجسد المسيح السريّ ـ العجيبي، والإعجازي، الخارق.

ويقول أيضاً:

«في تلك الأيام جاء يسوع من الناصرة منطقة الجليل، وتعمّد (أو اعتمد) في ماء نهر الأردن على يد يوحنا. وحالما صعد من الماء، رأى السماوات قد انفتحت، والروح القدس هابطاً عليه كأنه حمامة. وإذا بصوت من السماوات يقول: أنت ابني الحبيب، بك سُررت كل السرور».

(**الكتاب المقدس ـ العهد الجديد ـ الإنجيل حسب ما دوّنه مرقس ـ** الإصحاح الأول ـ الأعداد ٩، ١٠ و١١).

غير أن طريقة تعبير المسيحيين عن الإله الواحد الذي يعبدون، وطريقتهم ونهجهم في التوحيد، يتعارض مع محتوى ومفهوم التوحيد الإسلامي الذي يقوم على وحدانية القرآن الوحدية:

ورد في آي الذكر الحكيم، وفي هذا المجال ما يأتي:

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» (**سورة الإخلاص ـ ١١٢ ـ الآيات ١ ـ ٤**).

المشكلة تكمن إذاً في طرح السؤال الآتي:

هل التوحيد الإلهي الذي يقول به الإسلام، هو عينه، التوحيد الذي تؤمن به المسيحية؟

والمشكلة تكمن أيضاً، في علاج الموضوع اللازم لإيجاد الجواب عن ذلك السؤال. لذلك، سنحاول إعطاء الإجابة عن هذا السؤال وكل تساؤل آخر ورد وممكن أن يرد حول موضوع الوحدانية:

التوحيد بمعناه المسيحي ومفهوم المسيحيين له.

والتوحيد بمعناه الإسلامي ومفهوم المسلمين له.

ثانياً ـ اسم الله في الكتاب المقدس والتعليم المسيحي

إنّ إله الكتاب المقدّس وإله الكنيسة، نُذَكِّرُ ونُكَرِّرُ، إلهٌ واحد لا إله غيره، لا شريك له، ولا رب سواه: جوهره جوهر واحد تام الألوهة؛ وذاته ذات واحدة تامة الألوهة.

غير أن أسماءه في الكتاب المقدّس عديدة وفي الكنيسة أيضاً،

فهو يسمّى:

ـ الله

ـ أو إيلوهيم (وهي لفظة أو تعبير عبراني يعني، الله ولكن بصيغة الجمع وكانت تطلق

هذه التسمية على الله، تهيباً وخشية واحتراماً لمقامه وجلالته عند الشعب الكتابي المؤمن. فلقد كان العبرانيون يتهيبون، رهبة ومخافة، أن يتفوهوا باسم ذي الجلالة بصيغة المفرد، لذلك استخدموا في كلامهم عنه صيغة الجمع: إيلوهيم).

ـ إيل (وهي تعبير سامي وكلمة أرامية ـ سريانية وعبرية تعني الله بمعنى الإِلٰه الواحد، في صيغة المفرد).

ـ أدوناي (وهي كلمة وتعبير سامي عبّراني يعني: السيد أو الرّب).

ـ يهوه (وهو تعبير عبراني: يُطلق على الله في الكتاب المقدَّس).

ـ أهيه الذي أهيه (ومعنى ذلك، أنا هو الكائن الذي هو كائن أو: أنا هو الذي هو).

تلك هي بعض أسماء الله الواحد، التي تتكرر في الكتاب المقدس، خاصة في العهد القديم منه. فالإِلٰه الذي يعبده المسيحيون هو ذلك الإِلٰه الواحد: الله، الرب، القدّوس، الكائن الدائم.

يقول كتاب **التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية**، عندما بدأ بعلاجه لموضوع الله، ما ترجمته: «أنا أؤمن بالله».

[إنَّ هذه الشهادة الأولى وهذا الاعتراف المؤكد هو الأساسي والأكثر جذرية.

فأول أعتراف وشهادة يقوم بتلاوتها المؤمن ترتكز وتقوم على اعترافه بوجود الله، إذ أن الله هو البداية والنهاية..

هو الإِلٰه الحي.

هو الإِلٰه الحنون، الرحوم.

هو الحق والحقيقة والمحبة...].

(راجع كتاب **التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية** (مرجع مذكور سابقاً، ص ٢٤ إلى آخر الفصل الأول).

يتبين لنا، إذاً أنَّ إلٰه الكنيسة هو إلٰه واحد، وهو الإِلٰه عينه الذي يعلن عن نفسه في الكتاب المقدس الذي ليس كمثله شيء.

خلاصة القول: إن وحدانية الله الذي لا إلٰه سواه هي عقيدة إيمانية أكيدة في المسيحية، تلك العقيدة التي تعرِّف عن نفسها بأنها ديانة الوحدانية والتوحيد.

ثالثاً ـ الوحدانية والتوحيد في المسيحية

إن مسألة وجود الله والإيمان به، هي قضية شغلت بال الكثيرين من المفكّرين الكبار من عقول الأرض وأدمغة العالم، على مر التاريخ. ولقد اهتم علماء اللاهوت

والفلسفة بمعالجة تلك القضية الشائكة العصية، مسألة وجود الله ووحدانيته.

فبالإضافة إلى المفكرين والباحثين والمعنيين، من شرق الأرض وغربها، شمالها وجنوبها قام الناس ويقومون بالتساؤل والتفكر فماذا كانت النتيجة، حتى لحظة وجودنا هذه؟

النتيجة المحصلة لذلك الاهتمام العالمي بشأن الله هي أن العقل والفكر البشريين أعجز من أن يستطيعا سبر غور الذات العليا: الذات الإلهية. لقد ثبت للجميع، جميع العاملين في هذا الحقل، أن العلوم البشرية كلها، أضعف بكثير وأبعد من أن تصل إلى فهم وشرح وإدراك ماهية الله وجوهره؛ قدمه وأبديته؛ كينونته وذاته وصفاته؛ خلقه وإبداعه وتكوينه للوجود ولكل شيء من العدم واللاشيء واللاوجود.

لقد انكبّ الفكر المسيحي منذ أول نشأته على شأن الله، فخاض غمار البحث في جميع جوانب هذا الموضوع المهم وتفاصيله، فلم يستطع أن يتوصل إلا إلى هذه الحقيقة الدامغة، الحقيقة الركن والحقيقة الأساس:

لو أن الله لم يعلن لنا ذاته عبر كتابه المقدس، ويحسسنا ببعضٍ من عظائم أعماله ومخلوقاته، المتنوعة سواء في العلم والطبيعة التي تحيط بنا؛ أو في أعماق الفطرة الذاتية التي فطرنا عليها، لما توصّل عقلنا المحدود إلى إدراك شيء أو ذرة من ذرات؛ مفهوم الله ووجوده المطلق التام في الكون والحياة؛ ومصنوعاته ومخلوقاته من أنواع الجماد والنبات والحيوان والإنسان.

فأمور الله غير المنظورة بمنظار عقلنا المحدود نسبيًا، وبواسطة حواسنا المحدودة، تُرى وتُعقل ـ أي أمور الله ـ في مخلوقات الكائن الأعلى وعبر صنائعه التي تدل كلها على قدرة لا محدودة؛ وذكاء خارق لامتناهٍ؛ وعناية فائقة بلغت الكمال؛ وأزلية وسرمدية لا تكون إلا في كامل اللاهوت الفريد والألوهة المطلقة.

ولقد أعلن الله لنا عن وجوده ونفسه وفرادته، بأن خلق في الكائن الآدمي ملكتين اثنتين، هما:

ـ ملكة العقل الواعي لذاته، الذي يعقل ويعرف ـ في الآن نفسه ـ أنه يعقل ويعرف، وهو رغم عظمته، عاجز عن إدراك أمور الله وشؤون الخلق. فالعقل لا يستطيع أن يعي مسألة الخالق ـ الديّان ـ الصانع: من هذا وما هو؟

ـ ملكة الفطرة الآدمية والسليقة البشرية اللتين تنبعان من أعماق صَيَاصِيِّهما نعمة الإيمان والإحساس بوجود الله وسلطانه. فالفكر الذي يعي ويعرف جيداً أنه يعي ويفكر ويعرف، لا يستطيع النفاذ إلى غور الله وجوهره. الفائق السمو والبهاء وبالتالي الفائق الإدراك، لولا أن ساعدته الفطرة على ذلك، عبر الحدس الإيماني الكائن في أعماقها

والحس البديهي الداخلي المنتبه لوجود السيد الصانع.

لقد أوصل العقل والفكر، بالإضافة إلى الفطرة وحدسها والجبلة البشرية وأحاسيسها البديهية، الفكر المسيحي إلى عقيدته الإيمانية المحورية الآتية:

ـ الله موجود، وخلائقه تعلن وتثبت وجوده.

ـ الكتاب المقدس هو الدليل والمسار والسبيل الموصِلْ إلى الإيمان بالله الخالق، مكوناً وديّاناً.

إن القناعة السميحية القائمة على المبدأ «الدعامة» الذي فحواه أن العقل والفطرة مجتمعين يوصلان الإنسان إلى حقيقة بديهية وهي أن الإيمان أسمى وأبعد حداً من العقل، وبكثير!

* فالإيمان يدرك ما لا يَدركُ وما لا يُرى، ما لا يسمع ولا يلمس ولا يشم مادياً أو فيزيائياً أو بدنياً! في حين أن العقل إذا ما ترك منفرداً، متكلاً على نفسه، وحيداً مستنداً إلى قدراته المحدودة، لا يستطيع أن يدرك من الكون والحياة سوى المحسوسات والمنظورات؛ المسموعات والماديات التي تحرك حاسّة الشم أو باقي الحواس الجسدية والبشرية.

من هنا واستناداً إلى هذا كله، يقول المسيحيون إن الإيمان لا يسير إطلاقاً ضد قوانين العقل والفكر أو بالمواجهة معهما، بل على العكس فإنه، أي الإيمان، يسير متخطياً العقل والفكر، ذاهباً أبعد مما يستطيعان أن يذهبا، لأنه يجعل من الله ضرورة لازمة وحتمية واجبة، لا يمكن أن يكون دون وجودها أي تكوين أو خلق أو وجود. فالله علّة كل شيء وهو لا يشبه أي شيء، إنه أزلي، سرمدي، وكل ما عداه من العوالم والأكوان خلقه المولى، وبفعل من إرادته. كما يسير متوافقاً مع العقل والفكر، سائراً معهما، متفقاً وإياهما في أكثر القضايا والأمور والموضوعات الباقية الأخرى.

هكذا تقول المسيحية إنَّ الإيمان والعقل عنصران متكاملان، يكمل الأول منهما الثاني ويتكامل وإياه تكاملاً متوافقاً، متزناً وعاقلاً وحيوياً.

يتساءل الكثيرون: بعد كل هذا التمهيد الطويل، علام تستند المسيحية في تأكيدها وجزمها بأن الله موجود؟

تقول المسيحية، كما ورد في بحثنا أعلاه، إنَّ الإيمان النابع من الفطرة والسليقة الناظرة إلى الكون والوجود، هو أساس العقل وأوله وقبله. وإنَّ الإيمان والفكر، يسيران بعد ذلك سوية على السبيل ذاته، علماً بأنَّ ذلك الفارق الأساسي الرئيس، هو أن الإيمان يُدرك اليقينَ ويعرفُ بشكل أعمق أمور الله؛ فذاته الفطرية تقوده إلى الإيمانب أن هناك خالقاً ما، مكوناً عاقلاً وصانعاً بديعاً.

إنه لمن غير الصواب إذاً، ومن العبث واللامنطق أن نتوسل العقل والفكر والحواس وحدها لمعرفة الله والإيمان به، من دون اللجوء إلى:

ـ الوحي والإلهام السماويين الكتابيين.

ـ المعلنات والرسالات النبوية.

والجدير بالذكر أن إعلانات الخالق ليس فيها أي تناقض أو تضارب أو تصادم، بل هي، على العكس من ذلك، منسجمة متكاملة ومتطابقة بعضها مع البعض الآخر. فما أعلنه الله للإنسان وأبناء آدم، وما أوحاه بواسطة أنبيائه ورسله، وما أمر به أن يُدوّن، في كتابه الفريد: الكتاب المقدس، عن الطبيعة والوجود والكون والحياة، ثم عن الضمير القابع في أعماق القلب البشري، حيث ينسجم في هذا الضمير، كل ما علّمه الله، ينسجم انسجاماً كلياً مع حقائق التاريخ وما في التاريخ. وما تعلمه الناس في التاريخ وعن التاريخ يتفق في مجمله بشكل شبه كلّي، مع ما قاله الله وأوحى به عبر الأنبياء والرسل، وعلى صفحات الأسفار المقدسة، تلك الأسفار التي ما فتئت تزودنا تدريجياً وَإلى اليوم، بالنور والمعرفة والحق! ألم نتوصل، عبر ما عرفناه من الأسفار القديمة، إلى حقائق ومعلنات أكّدها العهد الجديد، فيما بعد، إذ تبنّاها الرسل ـ الحواريون وقالوا بها، هم وآباء الكنيسة العلماء الحكماء بالإضافة إلى كبار رجالات اللاهوت، منذ ألفي سنة ونيّف إلى اليوم؟

المسيحية موحدة، يقول المسيحيون، لأنها تقوم على حقيقة إيمانية كبرى وأولى، أعلنها الخالق في الأسفار والتعاليم، وهي أن الله، خالق، ديّان، واحد أحد لا إلٰه آخر سواه، أزلي سرمدي، كائن لا يشبهه شيء مما هو موجود أو غير موجود...!

ويقول المسيحيون المؤمنون: يخطئ من يظن بأن المسيحية تؤمن بأن الله ثالث ثلاثة أو تقول بثلاثة آلهة؛ وبأن الله متزوج، له صاحبة (أو زوجة) وله وَلد!!

إن من ينسب هذا الاعتقاد إلى المسيحية مخطئ ـ يقول المسيحيون ـ وهو على ضلال بعيد، كما أنه غير ضليع بفهمه وإدراكه للاهوت المسيحي ولجوهر المسيحية.

تقول المسيحية عن نفسها وتُعلّم في جميع كتبها، أنها ديانة الإلٰه الواحد، فهي، كما اليهودية والإسلام ديانة توحيدية، تقوم على ما جاء في الكتاب المقدس من حقائق وتقول بأن الله:

ـ واحد أحد قُدّوس.

ـ واحد أحد في صفاته.

ـ واحد أحد في كمالاته.

- واحد أحد في جوهرِهِ

- واحد أحد في مبدئه.

- واحد أحد في مطلقه وكماله.

- واحد أحد في انفراده في ذاته.

- واحد أحد في عدم حاجته لأي حاجة من خارجه.

- واحد أحد في اكتفائه بما هو، وبذاته وحسب.

يبقى أن نشير إلى أن كلَّ المحاولات التي يعرضها المهتمون بالأمر، لفهم مكنون الله، ذاته وكينونته، إن هي إلا محاولات غايتها تقريب جوهر الله المطلق، إلى أذهان الناس وإدراكهم المحدود، والتي من الصعب جداً عليها، لا بل من المستحيل، أن تقدر على الدخول إلى: كنه الخالق؛ جوهره، وذاته.

كذلك، تقضي وحدانية الله، وعدم إمكانية مقارنته بأي موجود أو كائن حي آخر، بعدم الوقوع في المحذور الخطير، الذي يكمن في الافتراض الممكن أن يقوم إذا ما طرحنا على ذواتنا، أو على الآخرين، السؤال الآتي:

- أين هو الله؟!

- أين وكيف يقيم؟

- في السماوات أو على الأرض؟ في هذا العالم أم في عالم ثانٍ من العوالم الأخرى؟ في هذا الوجود وهذه الحياة أم خارجهما؟...

ذلك لأننا لا ندري، ولا نملك ردّاً على كل التساؤلات السابقة من جواب دقيق ومضبوط أو تعليل مقنع مفهوم. فكل ما تقول به المسيحية ومعلموها، هو أن:

الله واحد كامل غير متجزِّئ قُدّوس.

موجود في كل ظاهر الوجود والكون وعالم الحياة.

كائن أعلى، بل الكائن الأعلى.

حيٌّ، كمالٌ، وتمامُ الحياة.

عاقلٌ، كمال، وتمامُ العقل.

موجودٌ، كمالٌ، وتمام الوجود. وموجود أيضاً في اللاوجود.

أزلي الذات والكينونة، سرمدي، خالد.

واحد، كمال، وتمام الوحدانية.

لا يشبه شيئاً مما هو موجود أو غير موجود.

ولا شيء مما هو موجود، يشبهه.

رابعاً ـ نصوص الكتاب المقدَّس في الله وعن الله.

لقد أشارت الأسفار المقدّسة، في العهد القديم، إلى الله، مخيرة المؤمنين عن ورشة الخلق التي أبدعها، في هذه السطور الواضحة:

في اليوم الأول من أيام الخلق؛ ثمَّ إبداع النور:

«. . . أمر الله: ليكن نور. ثم أمر الله: ليكن جلد بين مياه ومياه، فخلق الجلد. . . ثم أمر الله: لتجتمع المياه التي تحت السماء إلى موضع واحد، ولتظهر اليابسة. وهكذا كان. . . ثم أمر الله: لتزخر المياه بشتى الحيوانات الحية. . . وهكذا خلق الله الحيوانات المائية. . .

ثم أمر الله: لتُخرج الأرضُ كائناتٍ حيّةً. . .».

. . . بعد ذلك وفي اليوم السادس: خُلِقَ الإنسان ـ الآدمي!

«ثم قال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا. . . فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله قائلاً لهم: اثمروا وتكاثروا واملأوا الأرض. . .».

«وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنّة عدن. . .».

(راجع سفر التكوين ـ الإصحاح الأول).

أما في سفر التثنية، أو تثنية الاشتراع، الذي هو السفر الخامس من أسفار العهد القديم، فيقول الكتاب المقدَّس:

«. . . فقال الرب: أنا هو الرب إلهك الذي حررك من سجن العبودية في ديار مصر. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. . . لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الله لا يبرئ من ينطق باسمه باطلاً».

(راجع سفر التثنية ـ الإصحاح الخامس).

وتشير نبوءة أشعياء إلى موضوع الله، فيخبرنا النبي عن الرب القدير بما يأتي:

ـ «. . . هذا ما يقوله الرب القدير. . .

. . . أنا هو الأول والآخر، ولا إله غيري».

ـ «. . . لتعرف، إنّي أنا هو الرب (الإله)، إله إسرائيل. . . أنا هو الرب، ولا إله غيري، ليس هناك (إله) آخر. . . أنا مبدع النور وخالق الظلمة، أنا صانع الخير، وخالق الضرر، أنا هو الرب، فاعل كل هذه. . . لقد صنعت الأرض، وخلقت الإنسان عليها. . . حقاً إن الرب معكم، ولا إله سوى إلهكم، هو وحده الإله، لا غيره. . .».

(راجع سفر **أشعياء** ـ الإصحاحين ٤٤ و٤٥).

أما في العهد الجديد، فثمة إشارات كثيرة إلى مسألة وجود الله، المحور الرئيس في بناء المسيحية وعقائد إيمانها:

تقول الأسفار المقدسة في موضوع الله:

«. . . وتقدم إليه واحد من الكتبة كان قد سمعهم يتجادلون، ورأى أنه أحسن الرد عليهم، (الكتبة هم علماء الكتاب المقدس أي التوراة والعهد القديم، والفقهاء في أمور الشريعة من اليهود).

وسأله: أية وصية هي أولى الوصايا جميعاً؟

فأجابه يسوع: أولى الوصايا جميعاً هي: اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد، فأحبب الرب إلهك، بكل قلبك، وبكل نفسك وبكل فكرك، وبكل قوتك».

(**الإنجيل كما دوّنه مرقس التلميذ** ـ الإصحاح ١٢ ـ الأعداد ٢٨، ٢٩، ٣٠).

«. . . ولكم رب واحد، وإيمان واحد، ومعمودية واحدة، وإله وآب واحد للجميع، وهو فوق الجميع، وبالجميع وفي الجميع».

(**رسالة بولس إلى مؤمني مدينة أفسس** ـ الإصحاح الرابع ـ العددان ٥ و٦).

«. . . فإن الله واحد، والوسيط بين الله والناس واحد».

(**رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس ـ العهد الجديد** ـ الإصحاح الثاني ـ العدد ٥).

يبدو جلياً واضحاً من تلك الأمثلة الكتابية، وفي الكثير ـ غيرها ـ من النصوص التي تملأ الأسفار وكتب الوحي الإلهي، تلك التي لم يرد ذكرها في هذا الموقع، نظراً لضرورة الإيجاز الذي تقتضيه دراستنا المختصرة، أن الكتاب المقدس مليء بالشواهد التي تشير بوضوح وجود الله، كائناً حياً، ووحدانية الرب الإله خالق كل شيء.

إن ما يؤمن به المسيحيون، استناداً إلى تعاليم الأسفار المقدسة، القديمة والجديدة؛ وتعاليم الرسل والآباء الذين أتوا مباشرة بعد الرسل والذين هم تلاميذ هؤلاء الرسل ـ الحواريين بالإضافة إلى تعاليم الكنيسة وأحبارها ولاهوتيّيها، قديماً وحديثاً يلتقي تماماً مع تعاليم الإسلام وما يؤمن به المسلمون في قضية التوحيد. فلقد أشار القرآن إلى الله ـ في جملة ما أشار ـ بما أورده الوحي في آي الذكر الحكيم:

«اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا

يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (سورة **النور** ـ ٢٤ ـ الآية ٣٥).

«. . . يَا أَيُّهَا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآيتان ٢١ و٢٢).

«. . . ٱللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآية ٢٥٥).

«. . . لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ. لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَٱنْصُرنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآيات ٢٨٤، ٢٨٥ و٢٨٦).

«الٓمٓ. ٱللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ. . . إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ. هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. . . شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائماً بالقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ» (سورة **آل عمران** ـ ٣ ـ الآيات ١، ٢ و٥، ٦ و١٨).

هكذا، يثبت لدينا ـ حتى هذه المرحلة من الدراسة ـ أن عقيدة وجود الله في الكتاب المقدّس والقرآن، هي ـ من حيث المبدأ العام واحدة ـ عند المسيحيين والمسلمين.

فربُّ العالمين، هو: الواحد، الحيّ، القدّوس!

«. . . فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ. . . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» (سورة **الشورى** ـ ٤٢ ـ الآية ١١).

وهو الذي أشار إليه النبي داود الملك في زبوره بالإخبار المفيد الآتي:

«أمّا الرب فإلى الأبد يملك، ثبّتَ عرشهُ للقضاء. يدينُ العالم بالعدل، ويقضي بين الشعوب بالإنصاف. ويكون الرب ملجأً للمظلوم، حصناً في أزمنة الضيق. ويتّكِلُ عليكَ الذين يعرفون اسمك، لأنكَ يا ربُّ لم تخذل طالبيك».

«زَبور النبي داود أو سفر المزامير في العهد القديم من الكتاب المقدّس ـ المزمور التاسع ـ الأعداد ٧، ٨، ٩ و١٠).

خامساً ـ ثالوث الأقانيم، الواحد القدّوس

يقول المؤلّف، الأخ يوسف في كُتيّب عنوانه: **هل الله واحد أم ثلاثة؟** (الفصل الثالث: الوحدانية في التعدد):

[على ضوء كلمة الله (أي أسفار الكتاب المقدّس) آمل أن نكون قد أدركنا وفهمنا، أن الله واحد وأن وحدانيته ليست وحدانية حرفية جامدة، بل هي وحدانية حية فاعلة. ولفظة: واحد، تشير إلى الوحدة أو الاتحاد بين كينونات عدة.

ولو أن المنطق البشري المحدود والضيق لا يتسع لهذه الفكرة وينفر منها، أي فكرة التعدد في الوحدانية. فلقد كشف الله عن ذاته بهذه الطريقة وأعلنها لنا، في الكتاب المقدّس، لا للتصويت عليها بالموافقة أو عدم الموافقة، بل لقبولها بالإيمان، أي الإيمان بها قلباً وذاتاً وعقلاً أمّا مسألة، هل نؤمن أو لا نؤمن؟ فتلكَ هي المعضلة الإيمانية الكبرى.

صحيح أن تعبير أو كلمة: ثالوث، لم يردا في أسفار الوحي، إلاّ أن عقيدة «سرّ Le Mystère/» الثالوث القدوس واضحة جليّة لكل ذي بصمة روحية أو قلبٍ سليم. هذا لا يعني أن العقيدة ـ السرّ (Le Mystère) ـ هذه سهلة الفهم، هيِّنة. كلاّ وألف كلاّ! والسبب في ذلك، أنها عقيدة فوق مستوى إدراك العقل البشري المحدود، ذلك أن الله هو الكائن الأعلى الذي هو فوق مستوى العقل، ولا يدرك سرّه إلاّ باليقين الداخلي، الذاتي، العميق.

يقول القديس أوغوسطينوس ـ وهو من علماء المسيحية الأحبار والآباء اللاهوتيين الكبار في الكنيسة والذي ولد وعاش في منطقة: بُونَه، من أعمال شمال إفريقيا (الجزائر)، ما بين عامي ٣٥٤ و٤٣٠ للميلاد ـ شارحاً عقيدة الثالوث القدّوس:

إني أحاول وضع الله، الكائن الأزلي الأعلى اللامحدود، في حفرة عقلي المحدود؛ هذا هو عين ما أقوم به وأفعله الآن! نعم، مَن منا يستطيع أن يفهم الله ويدرك ما هو، بطبيعة عقلنا المحدود؟

هناك أسرار أقلُّ شأناً من هذه العقيدة ـ السر، لا قِبَلَ لنا ولا قدرة لنا على فهمها.

من منّا يستطيع ـ مثلاً ـ أن يدرك: ما معنى الحياة؟ أو ما معنى الوعي والإدراك؟ أو معنى النوم؟...

فإنْ كنّا لا نستطيع ـ بجبلتنا البشرية المحدودة ـ أن نفهم هذه الأمور، فكيف لنا أن نفهم عقلياً المعتقد السر، الخارق العجيب.

بوجود إلٰهٍ واحدٍ أحد، في ثلاثة أقانيم،

أو:

بوجود ثلاثة أقانيم، في إلٰهٍ واحد أحد.

إنَّ فكرة التعدد في الوحدانية ليست غريبة عن أسفار الوحي. فالإنسان، نفسه، هو، منذ جبلته الأولى كائن واحد، وثالوث عناصر: نفسٌ وروحٌ وجسدٌ في آنٍ معاً. والذرّة بدورها، مُؤَلَّفة ومكوّنة من كائن واحد يحتوي على ثالوث عناصر هي: البروتون والنيوترون والإلكترون!...

... نذكر هذه الإيضاحات كلها، على سبيل المثال ليس إلاَّ، لأن الجميع يدرك أنها أمثلة نسبية ومحدودة، رمزية وتشبيهية فقط لاغير!

فالله لا يمكن تشبيهه بشيء ممّا هو موجود في هذا الوجود!

ولقد زعم، ويزعم بعض الدارسين المعنيَّيْنَ بهذا الموضوع أنَّ عقيدة الثالوث القدّوس تسلّلت إلى المسيحية وتسرّبت من بعض الديانات غير الكتابية وغير الموحدة. إلاّ أن هذا الزعم هو خطأ بخطأ، وغير صحيح على الإطلاق. صحيح أنّ في بعض الديانات معتقدات وأفكاراً شبيهة وقريبة من عقيدة الثالوث القدّوس، إلاَّ أنها تختلف في مفهومها العام والخاص اختلافاً جذرياً عن مفهوم العقيدة والمسيحية. هذا، ولو افترضنا، أنَّ الديانات التي فيها شيء قريب من عقيدة الثالوث، تؤمن بالعقيدة ـ السرّ التي يقوم عليها التوحيد المسيحي، فإن هذا الافتراض لا يُقلِّل إطلاقاً من شأن العقيدة المسيحية وصحّتها وثباتها. إنه يؤكّد لنا ـ بالحري ـ أنَّ الله أعلن سرّ كينونته هذا للأمم غير الموحدة، والشعوب غير الكتابية، بطريقته الخاصة الفريدة. نقول هذا، جدلاً، ونكرّره أنه بالرغم من كوننا واثقين من أن أوجه الاختلاف بين المفهومين هي أكثر بكثير من أجه الشبه والالتقاء.

إنّكَ تدرك ـ أيها القارئ الكريم، ولا شك ـ أن العقل الإنساني، لا يستطيع وحده ولا يقدر أن يفهم العقيدة ـ السرّ ـ عقيدة الثالوث القدّوس منطقيّاً، ولكنَّ الإنسان الصادق يقبل سرّ الله بالإيمان. فالإنسان الصادق يعتبر دون أي شكٍ أو ريب

أن الخالق هو قِمّةُ الصدق، مُنَزّهٌ عن أي عيب أو مذمةٍ أو إثم كالكذب أو الرياء مثلاً. هكذا، تصبح المُعْضلة بسيطة الحلّ، انطلاقاً من السؤال الآتيّ:

هل تصدّق الله أكثر مما تصدّق الناس، أم على العكس من هذا؟

إن كنت تصدق الله أكثر مما تصدق الناس، فمن الواجب عليك أن تؤمن بكلامه وإعلاناته الصادرة عنه، المخزونة كلها في أسفار كتابه الموحى به. أما إذا كنت تفضّل تصديق الناس فمعنى ذلك أنك تنوي وضع حقائق الإيمان الكتابية، في صفّ المعطيات العلمية. أو الجدل الفلسفي، وهذا خطأ فادح. فيا ليتك تقتدي بالرسول ـ الحواري سمعان بطرس أو سمعان قيفا أو سمعان الصفا (أي سمعان الصخرة) الذي يعلن على الملأ دون أي تردُّدٍ أو خجل:

«ينبغي أن يطاع الله أكثر (مما يطاع) الناس»].

(راجع الفصل الثالث من كتاب: الأخ يوسف، **هل الله واحد أم ثلاثة؟** ـ منصورية المتن ـ لبنان ـ دار النشر المعمدانية ـ ١٩٨٦ ـ ولقد نقلناه إلى هذه الدراسة بتصرف).

سنعود، فيما بعد، إلى تناول موقف الإسلام من عقيدة الثالوث القدّوس، لندرس كيف أنه يرفضها رفضاً تاماً، ولا يقبلُ بها لا جملة ولا تفصيلاً. غير أننا الآن، وقبل ولوج موضوع كل واحد من الأقانيم، ودراسته على حدة، لا يسعنا سوى العودة إلى أسفار الكتاب، لنتابع استعراض ما احتوت من معارف وعلم ومقولات حول الإلٰه الواحد ـ المثلّث الأقانيم.

جاء في البركة الهارونية ما نصّهُ:

«. . . وقال الربّ لموسى: أوصِ هارون وأبناءه قائلاً: هذا ما يباركون به بني إسرائيل قائلين لهم: يباركك الرب ويحرسكَ يضيءُ الربّ بوجهه عليك ويرحمك. يلتفت الرب بوجهه إليك ويمنحك سلاماً وهكذا يجعلون اسمي على بني إسرائيل وأنا أباركهم». فتكرار تلك البركة البهية ثلاث مرّات، توحي وكأن الكتاب المقدّس يريد تمهيد الطريق ـ إلى تلك البركة الثالوثية ـ أمام ما سيدوّنه بولس، بوحي إلهي من الروح القدس، في مقدمات رسائله الشهيرة، متوجهاً في أولها، بالبركة إلى المسيحيين المؤمنين الجدد، في كنائسهم المنتشرة هنا وهناك، في كثير من مدن حوض البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى وبلاد اليونان والإغريق وروما وغيرها من مدن الغرب اللاتيني ـ الأوروبي.

لقد اعتاد الروح القدس، أن يلهم بولس بأن يبدأ رسائله هكذا:

نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبّة الله الآب، وشركة الروح القدس، فلتكن

معكم!...

فماذا يقصد الوحي عندما يخبرنا عن ذلك، عبر ريشة بولس ومن خلال تدوينه لكلمة الله الموحى بها إليه؟

يريد الوحي أن يعلّمنا، بأن الكتاب الموحى به، من أول أسفاره إلى آخرها، يقوم ويعتمد على عقيدة الإله الواحد في الثالوث القدّوس! فالآب والابن والروح القدس هم:

* ثلاثة أقانيم = إله واحد، ليس بمقسوم.
* إله واحد = ثلاثة أقانيم، وليسوا - إطلاقاً - بثلاثة آلهة.

(راجع: **سفر العدد في العهد القديم** - الإصحاح السادس - الأعداد ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥ و٢٦؛ **ورسالة بولس الرسول الثانية إلى المؤمنين من أبناء كنيسة كورنثوس** - الفصل ١٣ - العدد ١٤).

... ونتساءل من جديد:

هل يلتقي ذلك التعليم التوحيدي - الثالوثي وتلك العقيدة - السرّ مع ما يقول به القرآن وما يعلّمه الإسلام في مجال التوحيد؟

في رأينا، المتواضع، إن عقيدة الوحدانية في الثالوث، والثالوث في الوحدانية، تفترق عن مبدأ التوحيد القرآني - الإسلامي ولا تلتقي معه إطلاقاً، لا من قريب ولا من بعيد.

جاء في آي الذكر الحكيم، الآيات البينات التالية:

«بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحيي وَيُميتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيْهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَينَ مَا كُنْتُم وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ. يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (**سورة الحديد** - ٥٧ - الآيات ١ - ٦).

فإله القرآن هو:

- القيّوم الذي لا ينام؛

ـ ليس كمثله شيء؛
ـ خلق العرش وجعله حدّ الاستواء؛
ـ وأنشأ الكرسي وأوسعه الأرض والسماء؛
ـ اخترع اللّوح والقلم الأعلى؛
ـ وأجراه كاتباً في خلقه إلى يوم الفصل والقضاء؛
ـ أبدع العالم كلّه على غير مثالٍ سبق وخلقٍ خَلق؛
ـ وخلق ما خلق. . .
ـ . . . هو الأول والآخر؛
ـ وهو واحد أحد، فرد صمد، لا سرّ فيه ولا أحجية!

أ) الله الآب، الأقنوم الضابط الكل:

يعلن المسيحيون في مطلع قانون الإيمان، كما دوّنّا ذلك قبلاً، اعترافهم وإقرارهم بالله الأقنوم الآب، إذ يشهدون كما يأتي:

«نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكل! . . .».

إن قدرة المخلوق، أي المخلوق البشري، طاقة محدودة، فقيرة ونسبية. هي قدرة أو قدرات تبقى فاعلة حيّة في حدود العقل البشري والمنطق الإنساني. لا تسمح للمخلوق بتسلّق جبل المعرفة، فيصل إلى القمة أي إلى الإدراك الكامل التام والفهم الشامل المطلق لجوهر الله وكنهه وذاته التي لا شبيه لها. . .

ويبقى السؤال الدائم، المستمر والمتجدد.

من يكون البارئ وما هو ذلك المولى العظيم؟

البارئ هو في عرف المسيحية، وفي الحقيقة والواقع الإيماني المسيحي:
ـ كائن أعلى وأسمى بل الأعلى والأسمى.
ـ حيٌّ يخرج عن حدود فهم الأنس وإدراكهم البشري المحدود.
ـ ذات سامية عجيبة، فائقة السمو، خارقة الإعجاز.
ـ سيّدٌ فائق السمات والصفات الربانية. . . الإلهية.

لذا، وجب على كل من يرغب في التعرّف إلى اللامحدود، الفائق العظمة والكمال، الكائن الأعلى والأسمى، أن يتعرّف:

أولاً ـ إلى ما يميّز الله وعزته وشخصه القدوس عن كل ما سواه من الموجودات.

ثانياً ـ على الوجود والكون والحياة التي كونها وخلقها، ذلك الذي كان قبل أي

وجود وقبل أي زمان وقبل أي مكان أو عدم أو لا وجود.

١ ـ الله، الأقنوم الآب، إلٰه تام كامل اللاهوت:

إذا ما أردنا أن نشرح، بالصورة اللاهوتية، حقيقة الأقنوم الآب وكيف لنا أن نتصوّره في أذهاننا وإدراكنا ومفهومنا الفلسفيّ فإننا نستطيع ويمكننا أن نتصوره ـ نسبياً ـ كالآتي:

ـ الله الآب، هو أقنوم إلهي، إلٰه تامٌ، كائن غير محدود، رب مئة بالمئة. هو الرحمٰن الأزلي السرمدي، القديم، الخالد، لا شيء قبله ولا شيء بعده. هو ربّ صمدٌ، لا مكان فيه ولا زمان فيه وله. كامل في ذاته، منفرد بذاته ووجوده، بقدرته وقُدسِيَّته وعدله ومحبته وحقِّهِ، تمامُ الكمال الأعلى الذي لا يُقارن بشيء آخر.

والمخلوق ذو العقل السليم والفكر الراجح والرأي المعافى، يستدلّ بمنطقه ووعيه، بفطرته وسليقته، بجبلته وإدراكه، على أنَّ الله الآب هو:

ـ عِلَّةُ العِلل.

ـ واجب الوجود.

وهو، إذاً، إلٰه واحد، وآب واحد، إذ إنه لا يمكن لأي منطق سليم، التسليم بوجود علتين أو أكثر للوجود، وواجبين للوجود أو أكثر!

يعلم الكتاب المقدَّس وأسفاره بالإعلان والبرهان، أن الربّ الله واحدٌ، آبٌ في كمالاته، وأنه يحدث لنا أن ندعوه ـ تبسيطاً وتسهيلاً، وفي أحيان عديدة ـ باسم أحد تلك الكمالات، فنقول مثلاً إنه: تارة، نور السماوات والأرض وطوراً، الروح القدّوس، وتارة أخرى، الخالق الملك.

وتقضي علينا الأمانة العلمية في البحث ولكي لا نقع في أي محذور خطير ـ أن نجيز لأنفسنا القول إنَّ الأُقنوم الآب، في المعتقد المسيحيّ ـ موجود: في السماء أو السماوات.. أو على الأرض.. أو في هذا الوجود.

فالله الآب مثله مثل الله الابن والله الروح القدس هو:

ـ إلٰه واحد، تام، كامل، غير متجزِّئ، لا ندري كيف!

ـ موجود في كل مكان وزمان وموقع، ولا ندري كيف!

ـ عاقل تمام العقل اللامحدود، اللامتناهي، ولا ندري كيف!

ـ كائن أعلى ليس كمثله شيء، ولا ندري كيف!

٢ ـ الله، الأقنوم الآب، في الأسفار:

في الأسفار المقدسة، ثمة الكثير، الكثير من الإعلانات عن الأقنوم الآب، وسنورد أدناه، بعضاً من المعلنات العائدة لمضمون هذا الشأن الوجيه. لقد ورد مثلاً، ما يأتي:

ـ إله واحد وآب واحد للجميع، وهو فوق الجميع، وبالجميع وفي الجميع.

ـ إله واحد هو الآب، الذي منه كل شيء ونحن له.

ـ إنه الآب الذي خلق الكون، وكل ما فيه. وهو الذي ليس في معابد حجرية بنتها يد البشر، لأنه ربّ السماوات والأرض، وليس بحاجة إلى خدمة يقدمها له الناس. فإنه وهب ويهب جميع خلقه، الروح والنفس والجسد... وقد أخرج شعوب الأرض جميعاً من أصل واحد، ونوع واحد، فأسكنهم بلاد الأرض كلها، وحدّدَ مسبقاً أزمنة وجودهم وحدود أوطانهم.

(راجع: ـ **رسالة بولس إلى المؤمنين من أهالي مدينة أفسس** ـ الإصحاح الرابع ـ العدد ٦؛ **رسالة بولس إلى المؤمنين من أهالي مدينة كورنثوس** ـ الإصحاح الثامن ـ العدد ٦؛ **الرسالة الأولى ـ سفر أعمال الرسل** ـ الإصحاح السابع عشر ـ من العدد ٢٤ إلى العدد ٢٦).

والآن، ختاماً لجولتنا القصيرة هذه، في حضرة الأقنوم الآب، إليك أيها القارئ الكريم، هذه المناجاة، التي تقول:

«... كل أعمالك تُسبِّح بحمدك يا رب، وأتقياؤك يباركونك، يخبرون بمجد ملكك، ويتحدثون عن قدرتك. لكي يطلعوا الناس على أفعالك المقتدرة، وعلى بهاء ملكك المجيد. ملكك ملك سرمدي، وسلطانك من جيل إلى جيل يدوم».

(الزبور وهو الكتاب الذي أنزل على النبي داود الملك ـ أو **سفر المزامير في العهد القديم** ـ المزمور رقم ١٤٥ ـ الأعداد ١٠، ١١، ١٢ و١٣).

ب) الله الابن ـ الكلمة، الأقنوم المتجسد:

الابن هو الابن ـ الكلمة، أي الأقنوم الثاني من الثالوث القدوس وهو «ابن ـ كلمة» لأنه ولد، قبل الأزل وقبل كل الدهور، من الأقنوم الآب. لا نعرف كيف تمّت هذه الولادة العجيبة، ولكنَّ المسيحيين يقولون ويؤمنون بأنها تمّت، في الأزل، قبل الزمان وقبل القِدم. قبل كل ما تتصوره عقولنا وأفكارنا وخيالاتنا وأحلامنا ومشاعرنا وأحاسيسنا وكل ما ينبض فينا. ذلك ما يعتقده المسيحيون ويبنون عليه هرم إيمانهم الديني والروحي واللاهوتي. ولقد سبق لنا وأشرنا إلى قانون الإيمان المسيحي، الوثيقة، الشرعة ومحتوياته، فلنعد إليه في موقعنا هذا، ومن جديد، لندرس عن كثب الموضوع العائد:

* لحقيقة الأقانيم الثلاثة وحقيقة وجودها في قواعد الإيمان عند المؤمنين المسيحيين وفي تعاليم الكنيسة المسيحية.

* ولحقيقة العلاقة بين الأقنوم الآب والأقنوم الابن ـ الكلمة، ضمن عقيدة الله الواحد في ثالوث الأقانيم القدوس.

تقول الوثيقة ـ الشرعة في مطلع نصّها ما يأتي:

«نؤمن بإله واحد، آب ضابط الكلّ، خالق السماوات والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى، و(نؤمن) برب واحد، يسوع المسيح، ابن الله (الآب) الوحيد، المولود من الآب، قبل كل الدهور، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، . . .».

الابن ـ الكلمة إذاً، الأقنوم الثاني من أقانيم الثالوث القدوس، هو إله حق، مولود في الأزل أي: قبل الزمن والزمان، قبل الوقت والأحيان، قبل الساعة واليوم والأسبوع، وقبل الشهر والسنة والقرن. . . وباختصار: قبل أي شكل أو تصور من أشكال وتصورات الوجود والحياة والكون والمكان.

فالأزل هذا ليس بمحدود أو معروف، وليس واقِعاً في نطاق إدراكنا البشري. وهو بُعْدٌ مِنَ الأَبعاد الفلسفية اللاهوتية التي لا يمكن للإنسان أن يدخل في كنهها أو يستكشف اليقين النابع منها. لذلك نستطيع أن نؤكد، نظراً لضرورة الإيضاح، الحقيقة التالية، حول ما هو الأزل: فالأزل هو اللابداية، وهو ما قبل الزمن والزمان.

ولادة الابن ـ الكلمة من الآب هي إذاً، ولادة أقنوم من أقنوم. هي ولادة روحية صرف. إنها سرّ، خارق، عجيب، عملية معجزة، تعرف بلفظة Le Mystère الفرنسية، وهي لا تشبه الولادات الجسمانية، البَدَنية والولادات التناسلية التي نعرفها.

ويتفق علماء المسيحية واللاهوتيون بمن فيهم آباء الكنيسة ومعلموها، على القول:

* إنَّ ولادة الله الآب لله الابن، هي ولادة فعلية، حدثت وجرت فعلاً وحقاً.

* وإنها ولادة ـ حدثٌ يصعُب فهمُ كيفيّة حدوثها.

فالابن الإلهي، كلمة الله الحيّ هو إله مولود من الله الآب. هو إله مولود ولكنه غير مخلوق، إنه إله مساوٍ للآب في جوهر الألوهة وملء اللاهوت.

هو (أي الله الابن ـ الكلمة ـ الأقنوم): نور من نور. وإله حق من إله حق. . .

لقد أشارت الأسفار إلى هويّة الابن ـ الكلمة، معلمةً ومرشدة المسيحيين إلى ما يأتي:

«في البدء كان الكلمة (والكلمة تعبير معناه، كلمة الله، الأقنوم الثاني، الابن! إنها الترجمة العربية المعتمدة للتعبير الفلسفي اليوناني اللاهوتي Logos).

وكان الكلمة مع الله.

وكان الكلمة هو الله.

هوَ كان في البدء مع الله،
به تكوَّن كل شيء
وبغيره لم يتكوّن أي شيء مما تكوّن.
فيه كانت الحياة
والحياة هذه كانت النور للبشر.
والنور يضيء في الظلمة
والظلمة لا ولم تدرك النور».
(**الإنجيل كما دوّنه بوحي الله الحواري يوحنا الرسول** ـ الإصحاح الأول ـ من العدد ١ إلى العدد ٥).

ج) الثالوث القُدُّوس، مرفوض في الإسلام:

الكلّ يعلم، أن الإسلام لا يؤمن بعقيدة الثالوث القدوس ويرفضها رفضاً قاطعاً. ولا يشير القرآن إلى أي ملمح من الملامح التي تذكر بمعتقد الثالوث. فهو لا يعرف ولا يعترف ولا يقر:

* لا بوجود إله آب.
* ولا بوجود إله كلمة ـ ابن.

بل يؤمن ويقول ويعلم مبدأ وجود إله واحد، أحد، دون تعقيد ولا اجتهاد ولا تعليل!

ورد في آي الذكر الحكيم القول الآتي:

ـ «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ. قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ. ٱللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» (سورة **الإخلاص** ـ ١١٢).

ـ «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لاَ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّني بريءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ».

ـ «. . . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلخَبِيرُ» (سورة **الأنعام** ـ ٦ ـ الآيات ١٩ و١٠١، ١٠٢، ١٠٣).

. . . ذلك هو الله الواحد الأحد الذي يدين له الإسلام بكل شيء إنه هو: «الله

الواحد الذي رفع السماوات بغير عمدٍ تَرَونها ثم أستوى على العرش».

ـ وهو: «الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين»...

لقد أطال القرآن في الإشارات واستفاض في الشرح والتوضيح، متناولاً، موضوع ربّ العزّة، هادفاً إلى تركيز المفهوم الدقيق لعقيدة:

ـ الكائن الأعلى، الواحد،

ـ الوحيد، الأوحد الذي لا شريك له،

ـ العظيم الأعظم،

ليقرب مفهوم الربّ الذي ليس كمثله شيء، إلى أذهان الناس، وإدراك البشر بمنطقهم المحدود. فالقرآن يعرف جيداً ويدرك تماماً أنه يتعامل مع مخلوقات محدودة الفكر ذات عقول بليدة لها من البصيرة، قدرٌ محدودٌ ومدى غير كامل ولا تامّ. لقد وعى القرآن وأدرك أن الله لا يمكن أن يرى أو يُدْرَكَ بالحواس أو بالفكر، لأن العقل الآدمي عاجز تماماً عن النفاذ إلى كنه المكوِّن، الصانع. فالذات الإلهية والجوهر الرباني أعظم من أن تدركهما الأبصار؛ لأنَّ المولى كائن أعلى، فائق الإعجاز. فالآية القرآنية التي تعلن أن الله:

«ليس كمثله شيء».

تفهِمُ الناس، كل الناس أن وجود الله ووحدانيته لا يشبهان شيئاً من أشياء الوجود. فالرحمٰن، لا مثيل له في أي تصور ممكن من تصوراتنا؛ أو أي تعريف محدد من تعريفاتنا؛ أو أي مفهوم من مفهوماتنا. أو أي إعلان أو إعلام يمكن أن يخطر ببال بشر. أو أية تشابه أو رموز أو مقارنات.

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوْحَى إِليَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَان يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» (سورة **الكهف** ـ ١٨ ـ الآية ١١٠).

ذلك هو الله، الحق، كما دعا إليه الإسلام، وكما يؤمن به المسلمون، الله الذي يدعو القرآنُ إلى عبادته كلَّ الناس سواءً أكانوا:

ـ يهوداً ـ موسويّين،

ـ نصارى ـ مسيحيين من أتباع الإنجيل،

ـ عرباً جاهليين، مشركين، لا كتاب عندهم ولا شريعة أو دين قويم.

ـ أو غير مؤمنين من الآدميين المنتشرين في أنحاء الأرض والكوكب.

د) الابن ـ الكلمة مرفوض، كأقنوم ـ إله في الإسلام:

عودة إلى الوراء ومراجعة لازمة علينا أن نقوم بها، بعد أن بحثنا وتبيّن لنا موقف الإسلام الرافض لمعتقد الأقانيم، لأنه، في نظر القرآن والمسلمين، معتقد يتنافى مع التوحيد الخالص الذي يبشر به دين محمّد ويدعو إليه الرسول ـ النبي عبر:

ـ الكتاب المنزل، الموحى به.

ـ وأحاديث السنّة النبوية التي تشرح الكثير من معاني الكتاب المجيد بما في ذلك التوحيد الخالص، الذي لا لبس فيه ولا غموض، ولا أقانيم ولا ثالوث، ولا أيّة إشارة أو تلميح إلى ما يمكن أن يوحي:

ـ بالأقنوميّة والثالوثيّة،

ـ بوجود أي شكل من أشكال الألوهة خارج الله الأحد، أو بإمكانية القول بأي لون من ألوان الاعتقاد بأكثر من واحد.

فلا إله إلاّ الله! هي دِعامة الإسلام الأولى، ومنطلق التقدم إلى أي شأن آخر من شؤون الدين. فلا آب إذاً، ولا ابن ـ كلمة ولا روح قُدس... إنما إله واحد أوحد، فرد أحد!

هـ) لاهوت الأقنوم الابن ـ الكلمة:

لقد تولّى الكتاب المقدّس إيضاح كل ما يتعلق بالأقنوم الابن ـ الكلمة ودوره في شؤون الله الخالق ـ الديّان: فَمَنْ هو الأقنوم الابن ـ الكلمة؟ وما هو مركزه في عالم اللاهوت؟

في عودة إلى أسفار الكتاب المقدّس، نلاحظ الشيء الكثير من المعلنات حول هذا الأقنوم أو «الابن ـ الكلمة».

لقد ورد في العهد الجديد، الوحي المعبّر الآتي:

«تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح!... ومع أن الله كان قد عين المسيح لهذا الغرض (أي غرض الكفّارة والفداء والغفران والخلاص من الخطيئة) قبل تأسيس العالم، غير أنه لم يعلنه إلا في هذا الزمن الأخير لفائدتكم أنتم الذين تؤمنون بالله، بالمسيح الذي أقامه (الله) من الموت وأعطاه المجد، حتى يكون الله غاية إيمانكم ورجاءكم،... فأنتم قد ولدتم ولادة ثانية، لا من زرع بشري يفنى، بل مما لا يفنى: بكلمة الله (أي الكلمة ـ الابن، الأقنوم الثاني في الثالوث القدوس، الإله الأوحد، الوحيد، الذي لا إله سواه) الحيّ الباقي إلى الأبد».

«... وإنما تكلمنا باعتبارنا شهود عيان لعظمة المسيح، فإنه قد نال من الله الآب كرامة ومجداً، إذ جاءه من المجد الفائق، صوت يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت كل سرور!».

(رسالتا بطرس الأولى والثانية من العهد الجديد).

ودوّن الحواري يوحنا الرسول بوحي الروح القدس، مشيراً إلى الأقنوم الابن ـ الكلمة وشارحاً من هو وما هو:

«... وأما مشاركتنا نحن فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح».

«... من يعترف بأن يسوع هو ابن الله، فإن الله يثبت فيه، وهو يثبت في الله».

(راجع **رسالة يوحنا الأولى** بكاملها من **العهد الجديد**).

ثم إن هناك إثباتاً ذا شأنٍ، يشرح لاهوت الأقنوم الثاني بشكل واضح صريح، لا شك فيه ولا غموض. فلقد كتب الوحي الإلهي بريشة بولس، تعريفاً دقيقاً للابن ـ الكلمة ورسم لوحة أو صورة واضحة كل الوضوح، ناصعة ومشعة، قال:

«... رافعين الشكر بفرح للآب الذي جعلكم أهلاً للاشتراك في ميراث القدّيسين في (ملكوت) النور، هو الذي أنقذنا من سلطة الظلام، ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته، الذي فيه لنا الفداء، أي غفران الخطايا. هو (أي الابن ـ الكلمة) صورة الله الذي لا يُرى، والبكر على كل ما قد خلق، إذ به خلقت جميع الأشياء. ما في السماوات وما على الأرض، ما يرى وما لا يرى... كل ما في الكون قد خلق به ولأجله. هو كائن قبل كل شيء وبه يدوم كل شيء.. وهو رأس الجسد، أي الكنيسة؛ هو البداءة وبكر القائمين من بين الأموات، ليكون له المقام الأول في كل شيء فإنه فيه سرّ الله إذ يحلّ بكل ملئِه...».

(رسالة بولس الرسول إلى المؤمنين الجُدُد، المسيحيين من أهل مدينة كولوسي ـ الإصحاح الأول).

أمّا الإنجيل، فإنه يخبرنا شارحاً، موضحاً ألوهة الابن ـ الكلمة دون أي تردد وتعثر، قائلاً:

«... والكلمة (أي الابن) صار بشراً، وحلّ بيننا، ونحن رأينا مجده، مجدَ ابنٍ وحيدٍ عند الآب، وهو ممتلئ بالنعمة والحق... ما من أحدٍ رأى الله قط. ولكنَّ الابن الوحيد، الذي في حضن الآب، هو الذي كشف عنه... هذا هو (أي الابن ـ الكلمة) حمد الله الذي يزيل خطيئة العالم...».

(**الإنجيل حسب بشارة يوحنا الرسول** ـ راجع الإصحاحات الأول والثاني والثالث بكاملها).

ما يريد المسيحيون أن يعلنوه ويعلموه هو ـ إذاً ـ مقولة تقوم على المعتقد الإعجازي الآتي:

الابن ـ الكلمة هو، بالروح والألوهة، ابن الله الآب الوحيد، المساوي له (أي للآب) في اللاهوت. والعلاقة اللاهوتية بينهما هي:

ـ علاقة نادرة، فريدة وممتازة لا مثيل لها في الوجود إطلاقاً.

ـ علاقة إعجازية، عجيبة لا شبيه لها في الحياة أبداً.

ـ علاقة حميمة، خارقة للطبيعة، لا يمكن إدراكها بالعقل ويستحيل فهمها بالمنطق البشري العادي:

أما الأبوّة والبنوّة الإلهية هذه، فهي جوهر فائق الوصف يقوم على:

ـ أبوة وبنوّة من نوع إلهي يفوق كل طاقات البشر.

ـ أبوة وبنوّة سامية، تمّت في الأزل، لا يُعرفُ كيف، ولكنْ يؤمن المسيحيون بها ويعتقدون أنها تمّت.

ـ أبوة وبنوة ـ سرّ، يفوق أعلى درجات البهاء. إنه البهاء الإلهي بأعلى وأعظم مظاهره!

فالصلة الجوهرية التي بين الأقنومين، هي صلة ـ كينونة وصلة ذات تمّت قبل بدء الزمان والمكان المنظورين وغير المنظورين وقبل الوجود والحياة والأكوان. والعلاقة الحميمة بين الأقنومين هي علاقة حقّ، فعليّة، لا خيالية أو وهمية؛ علاقة متحركة حية مبدعة لا جامدة، ميتة أو عديمة الفعاليّة.

و) الله، الروح القدس؛ «الناطق بالأنبياء والرسل»:

تبدو الحقيقة المسيحية الأساس ماثلةً لا تغيب عن حنايا بحثنا هذا. فهي في رأسه وأساسه، في عموده الفقري وقلبه الحيّ. فلا مسيحية بدونها ولا بشارة خلاص إذا لم تقم وتُبْنى عليها. إنها حقيقة الثالوث القدوس، التي يؤمن المسيحيون بها وبكونها: إلهاً صانعاً، مكوِّناً، ديّاناً، واحداً أحداً، في ثلاثة أقانيم، مُتَّحِدة فيما بينها اتحاد محبة مطلقة، ومتآلفة تآلف وحدة روحيّة حميمة في اللاهوت والألوهة، اللذين هما فوق أي إدراك بشريّ، وفي الجوهر والذات، اللذين يفوقان أي عقل إنساني، وفي الصفات المطلقة، التي تتخطّى أي منطق محدود، ندور نحن البشر في عالمه وضمن نطاقه غير الكامل.

ولقد استعمل المسيحيّون في تراثهم الدينيّ وأدبهم الروحي وكتاباتهم اللاهوتية، كلمةَ «أقنوم» للدلالة على كل من الآب والابن والروح القدس، الإلٰه الواحد، الوحيد. فما معنى تعبير أو كلمة أقنوم هذه يا ترى؟

تعني كلمة «أقنوم»، وهي تعبير من أصل يوناني - هلّيني - بيزنطي، ومستعملة في اللغة الآرامية - السريانية للدلالة على كلمة أو تعبير «شخص» في العربية. غير أن تعبير أقنوم أوضح وأقرب إلى المعنى الحقيقي لكل شخصٍ من أشخاص الثالوث القدّوس، الذين هم: أقانيم الآب والابن والروح القدس!

وتفيد كلمة أقنوم وتعبِّر عن حقيقة المفهوم الذي يقصده اللاهوت المسيحي، عندما كتب علماء الدين وتكلموا شارحين:

* الألوهة وكل كنهٍ يتعلق بالله أو بمفهوم الربّانية.

* اللاهوت وعلومه، سواء في الوحي الإلهي والأسفار أو التعليم المسيحي والآداب الكنسية.

تجدر الإشارة هنا، ومنعاً لأي التباس أو سوء فهم أو ادّعاء باطل، أن كلمة أقنوم لم ترد إطلاقاً في أي سفر من أسفار الكتاب، إنما استعملت في الأدب الروحي المسيحي اللاحق للعهدين القديم والجديد...

ورد في قانون الإيمان النيقاوي - القسطنطيني، وهو الوثيقة - الشرعة والشهادة - الاعتراف بالإيمان ما يأتي:

«... ونؤمن بالروح القدس، الربّ المحيي، المنبثق من الآب، (والابن) الذي هو مع الآب والابن يُسجد له ويُمَجَّد، الناطق بالأنبياء والرسل».

فمن هو الروح القدس؟ وما هو؟

١ - الروح القدس، إله كامل اللاهوت:

الروح القدس هو ثالث أقنوم إلهي في ثالوث الأقانيم القدّوس. إنه أقنوم إلهي كامل اللاهوت وتام الألوهة، مميّز في شخصه دون أن يكون منفصلاً في جوهره عن:

* الآب الضابط الكل، الرب التام والإله الكامل الحيّ المحيي.

* الابن، الرب الواحد، الرب التام والإله الكامل الحيّ المحيي.

فالروح القدس، إذاً، هو - في وحدة الثالوث القدوس الإلهية، وحدة المحبة الحميمة - أقنوم كامل، تام له مميزاته وصفاته، له إرادته وفعله وله قدرته العجيبية، الخارقة، الإعجازية، كمن ليس كمثله شيء في الوجود.

- متعالٍ فوق الوجود والحيوات والأكوان.

- فريد، منفرد بذاته، لا يشبه أي شيء أو أي كائن آخر لا مِنْ قريب ولا من بعيد.

- محبٌّ، رحيم، رؤوف بالعباد... و«ناطق بالأنبياء والرسل».

ـ ويتمتع الروح القدس، بصفة المعرفة التامة، المطلقة والكاملة، وصفة المعرفة الإلهية الخارقة، اللامتناهية.

«. . . على أن لنا حكمة نتكلّم بها بين البالغين، ولكنها حكمة ليست من هذا العالم ولا من رؤساء هذا العالم الزائلين. بل إننا نتكلّم بحكمة الله المطوّية في سر تلك الحكمة المحجوبة التي سبق لله فأعدها قبل الدهور لأجل مجدنا، وهي حكمة لم يعرفها أحدٌ من رؤساء هذا العالم. فلو عرفوها، لما صَلّبوا رَبَّ المَجْد! ولكن، وفقاً لما كتب: إن ما لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على بال بشر، قد أعده الله لمحبيه! ولكن الله كشف لنا ذلك بالروح (أي بالروح القدس) فإن الروح يتقصّى كل شيء حتى أعماق الله. فمن من الناس يعرف ما في الإنسان، إلاّ روح الإنسان الذي فيه؛ وكذلك فَإِنَّ ما في الله أيضاً لا يعرفه أحد إلا روح الله (أي الروح القدس) وأما نحن فقد نلنا لا روح العالم، بل الروح الذي من الله، لنعرف الأمور التي وهبت لنا من قبل الله».

(العهد الجديد ـ رسالة بولس الأولى إلى المؤمنين الجدد أعضاء كنيسة مدينة كورنثوس ـ الإصحاح الثاني ـ من العدد ٦ إلى العدد ١٢).

وختاماً نستطيع أن نؤكد أنّ المسيحية تساوي، في الجوهر، بين الآب والابن ـ الكلمة والروح القدس، في كل شيء. . . نذكر من هذا «الكل شيء» على سبيل المثال لا الحصر: الإرادة الإلهية، تماماً كما إرادة الآب والابن، المحبة الإلهية والشعور الإلهي والسمع والكلام، القدرة على التدخل في شؤون الحياة اليومية، خاصّة كانت أم جماعية عامّة، الإرشاد والتعليم والتذكير، والإلهام والإعانة والمؤازرة، والتعزية. . . إلخ. . .

٢ ـ أسماء الروح القدس الكتابية:

تُطْلِق، أسفار الكتاب المقدس، على أقنوم الروح القدس، عدة تسميات، سواء في العهد القديم أو في العهد الجديد. ويؤمن المسيحيون بأنّ أسماءً حسنى كثيرة أطلقها الوحي الإلهي على هذا الأقنوم الحي القدوس، مثال ذلك:

ـ الروح أو روح الله،

ـ روح الله الحيّ أو روح الله القدوس،

ـ روح الآب أو روح الرب، الپاراقليط،

ـ روح السيّد أو روح المسيح،

ـ روح الله القدوس أو روح الموعد المقدّس،

ـ روح القداسة أو روح الحق،

ـ روح الفهم أو روح الحياة،
ـ روح النعمة أو روح المجد. . .

هكذا، ينوّع الوحي الإلهي التسميات التي يعطيها للروح القدس، في الكتاب المقدّس، فهي تشير إلى تسميات متنوعة، تُطلَق على ذلك الأقنوم الإله، حسب سياق النصّ الذي يعالج فعلاً من أفعال الروح أو موقفاً أو عقيدة أو مُعْضِلة أو نبأ أو شرحاً أو تحليلاً.

٣ ـ أعمال الروح القدس:

تُؤمن المسيحية ويَعْلَمُ المسيحيون، بأن الروح القدس يعملُ، كالأقنومين الآب والابن ـ الكلمة ـ أعمالاً إلهية لا يستطيع أي نوع من أنواع المخلوقات الكائنات الحية في هذا الوجود أن يقوم بمثلها أو شبهها. فالأكوان والعوالم والحيوات والوجود، وكل ما كوّنه الله في العدم، لا يستطيع ولا يقدر أن يصنع ما يستطيعه الآب الضابط الكل، الابن ـ الكلمة المولود غير المخلوق، أو الروح القدس، الناطق بالأنبياء والرسل.

وتشمل أعمال الروح القدس، كل مجالات الحياة، فهو يتدخل عبر النعم الإلهية التي يسكبها على الأفراد والجماعات، والكنائس المحلية والكنيسة العالمية الجامعة في شؤون عديدة ومجالات متنوعة ومضامين شتى. ولقد ذكر الكتاب المقدس شؤوناً كثيرة وأشار إلى مجالات لا تحصى، كان للروح القدس أثر ودور فعليان فيها، مثل:

ـ شؤون وشجون حياة الأرض المادية والمعنوية والروحية على اختلاف مراميها ومناحيها.
ـ نجدة الناس ومساعدة المؤمنين على الابتعاد عن ارتكاب الآثام وعدم الوقوع في ظلمة الخطايا ومواخير المعاصي ووادي الذنوب.
ـ حثّ الناس على فعل الخير والصلاح وممارسة المعروف ونهي المؤمنين عن الانجراف إلى مطبّات الشر والمنكر.
ـ إلهام الأنبياء والرسل وإيصال الوحي الإلهي إليهم.
ـ توجيه وإرشاد الكنيسة التي هي، في اعتقاد المسيحيين جماعة المؤمنين الواحدة المتماسكة وهيكل الإيمان على الأرض: جسد المسيح الخارق ـ الإعجازي، السرّي ـ العجيب.

إننا، لأجْل كلّ الذي ذكرنا، نرى مفيداً، لا بل ضرورياً، أن نورد هنا، في هذا المعرض، شيئاً مما دُوِّن في العهد القديم وفي العهد الجديد عن عمل الروح القدس وأفعاله النافذة؛ في الأرواح والنفوس والأجساد، في الأفراد والجماعات والأمم، في الأحداث وطوارئ الأمور، وفي مجاري الزمن وأحوال الأمكنة وتقلّبات الأجواء.

□ **في موضوع يوسف الصدّيق:**

هو يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم. وهو، أيضاً، واحدٌ من الأسباط الإثني عشر أبناء يعقوب / إسرائيل، الذي جاء في معرض الأخبار عنه، النبأ الآتي:

«. . . فاستحسن فرعون ورجاله جميعاً هذا الكلام (أي كلام يوسف). وقال فرعون لعبيده: هل نجد نظير هذا رجلاً فيه روح الله (أي الروح القدس)؟».

(**سفر التكوين من العهد القديم ـ الإصحاح ٤١ ـ العددان ٣٧ و٣٨**).

□ **في موضوع يشوع بن نون:**

يشوع بن نون هو القائد الذي خلف النبي موسى في قيادة شعب إسرائيل، عندما كان غارقاً في ترحاله عبر صحراء التيه، في سيناء، يستعدّ ويتحضّر لدخول أرض كنعان.

يخبرنا **الكتاب المقدّس** بالآتي:

«وكان موسى قد بلغ من العمر مئة وعشرين سنة حين مات، لم يكلَّ بصره ولا غارت نضارته. وناح بنو إسرائيل على موسى في سهول مؤآب طوال ثلاثين يوماً. وكان يشوع بن نون قد امتلأ روح حكمةٍ (أي روح قدسٍ) بعد أن وضع موسى يده عليه. . .».

(**سفر تثنية الاشتراع من العهد القديم ـ الإصحاح ٣٤ ـ الأعداد ٧، ٨ و٩**).

□ **في المزامير أو زبور داود:**

كتب الوحي الإلهي بريشة الملك داود النبي، هذه المعلنات التي تعتبرها المسيحية من مبادئ الدين فيها:

«بكلمة من الربّ صُنِعَتِ السماواتُ، وبنَسْمَةِ فَمِهِ كلُّ مجموعات الكواكب. (أي الروح القدس، فنسمة فم الرب تعني روح الرب وروح الرب تعبير من التعابير التي تعني الروح القدس).

(**سفر المزامير من العهد القديم ـ المزمور ٣٣ ـ العدد ٦**).

هذا في العهد القديم، أما في العهد الجديد، فالكتاب مليءُ بأخبار الروح القدس!

من هذه الأخبار، اخترنا عيِّنَةً معبِّرَةً ومثلاً دليلاً:

ـ «. . . فقد ظهر يوحنا المعمدان (أي النبي يحيى) في البرية، ينادي بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا. . . وكان يوحنا يعظ قائلاً: سيأتي بعدي من هو أقدر منّي، من لا أستحق أن أنحني لأحلَّ رباط حذائه. أنا عمدتكم بالماء، أما هو (أي المسيح)، فسوف يعمدكم بالروح القدس».

(**الإنجيل حسب بشارة مرقس التلميذ** ـ الإصحاح الأول ـ الأعداد ٤ و٧ و٨).

ـ «... ولكنّي أقول لكم الحق؛ من الأفضل لكم أن أذهب، لأنّي إن كنت لا أذهب، لا يأتيكم المعين (أي الروح القدس) ولكني إذا ذهبت أرسله لكم. وعندما يجيءُ (الروح القدس) يُبَكِّتُ العالم على الخطيئة».

(**الإنجيل حسب بشارة يوحنا** ـ الإصحاح ١٦ ـ العددان ٧ و٨).

ـ «... ولما جاء اليوم الخمسون، كان الإخوة مجتمعين معاً في مكان واحد، وفجأةً حدث صوت من السماء كأنه دويُّ ريح عاصفة، فملأ البيت الذي كانوا جالسين فيه. ثم ظهرت لهم ألسنة كأنها من نار، وقد توزعت وحلّت على كل واحد منهم، فامتلأوا جميعاً من الروح القدس، وأخذوا يتكلّمون بلغات أخرى، مثلما منحهم الروح (القدس) أن ينطقوا».

(**سفر أعمال الرسل من العهد الجديد** ـ الإصحاح الثاني ـ من العدد ١ إلى العدد ٤).

خُلاصة القول إن الأسفار الموحى بها تشهد للروح القدس، تماماً كما تشهد للابن ـ الكلمة وللآب. ولقد توّجت تلك الشهادة بوصية المسيح لرسله وتلاميذه (أي حوارييه) عندما قال لهم، مودعاً إياهم قبيل صعوده إلى السماوات:

«قد سلّمتُ كل سلطة في السماء وعلى الأرض. فاذهبوا إذاً وتلمذوا جميع الأمم، وعَمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم أن يعملوا بكل ما أوصيكم به. وها أنا معكم كل الأيام، إلى انتهاء الزمان».

(**الإنجيل كما دوّنه متّى** ـ الإصحاح ٢٨ ـ من العدد ١٦ إلى العدد ٢٠).

سادساً ـ الثالوث القدّوس؛ الإله الواحد في الإسلام

في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة القمري، وهو الشهر الثاني عشر والأخير من السنة الهجرية الإسلامية؛ في ذلك اليوم من كل عام، يقف الحجاج المسلمون على أديم جبل عرفات ـ أو جبل عرفة، وهو موقع قريب من مدينة مكة الشهيرة في المملكة العربية السعودية ـ هاتفين، مرددين نداء التلبية المعروف، الآتي نصّه:

«لبيك اللّهم لبّيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحمد والنعمة لك والمُلك. لا شريك لك».

هذا النداء، نداء التلبية، الذي يردّدهُ ويكرّرهُ الحجّاج المسلمون، كل عام في وقفة العيد الكبير: عيد الأضحى، إنما يؤكّد بشكل لا يقبل أي التباس أو تأويل، نَظرة

الإسلام التوحيدية، ومعتقده الأساس في وجود الله وعبادته واحداً أحداً. فيوم الوقوف على جبل عرفة، هو يوم يكرّس فيه الإسلام مرة أخرى من عديد المرات والمناسبات، مبدأ التوحيد الإلهي الذي لا يقبل أي عَوج أو انحراف. توحيد الإسلام والمسلمين هو بالتالي توحيد مطلق، مباشر لا لبس فيه ولا غموض.

وهكذا يرفض الإسلام عقيدة الثالوث القدّوس، الإله الواحد، ولا يقبل بها، بل يعتبرها نوعاً من أنواع الشرك بالله، الذي يدينهُ ويأباه ولا يُقِرّ بهِ، كونه لا ينسجم مع عقيدة التوحيد القرآنية، وكونه يتنافى مع العبادة الوحدانية الخالصة التي تُشدِّد عليها أحاديثُ السنّة النبوية وإجماع الأمة بعلمائها وفقهائها، منذ العهد الرسولي الأوّل وحتى أيامنا هذه. فلا آب في الله ولا ابن ـ كلمة فيه ولا روح قدسٍ. بل خالق، ديّان، صانع، مكوِّن، قديم، خالد: إله واحد، أحد، وحيد، لا شريك له أو مُعادل أو مساعد أو مُعاوِن أو رديف وليس كمثله شيء أبداً وإطلاقاً.

وإذا كان الإسلام يلتقي تمام الالتقاء مع الديانات الموحّدة الكتابية السماوية ومنها المسيحية على حقيقة وجود الله، الخالق، الديّان وعلى ضرورة عبادته والسير حسب شرعه وتعاليمه، فإنه يفترق ويختلف مع المسيحية على النظرة إلى ماهية ذلك الإله الخارق العجيب.

تُشكّل عقيدة الثالوث القدوس في الإله الواحد الأحد، «اللغزاً» لا يتعرّف عليه الإسلام ولا يقبله. و«اللغز» الثالوث هذا، يسبب للمسلمين محور تناقض مع ما جاء به الإسلام، بكل بساطة وبراءة، ودونما أي تعقيد أو ألغاز، إذ إنه كيف يستقيم وجود ثالوث ولو قدّوس مع:

ـ وحدانية، خالصة، صافية، بسيطة وغير مركّبة.

ـ وحدانية قديمة، خالدة، أزلية، سرمدية، جوهرية، ذاتية، لا يمكن لها أن تكون في إطار ثالوث، مهما كان نوع هذا الثالوث، شكله ومضمونه، فلسفته ولاهوته.

وهذا الافتراق العظيم والتمايز الكبير بين المسيحية والإسلام هو محورٌ ـ قاعدة ومبدأ ـ دعامة، على الباحثين والمعنيين الإقرار بهما وقبولهما، دراستهما والبحث فيهما، بدون مواربة أو مجاملة أو تمويه. فالمسايرة لا مكان لها في إطار الدراسة العلمية، والتحبب والتودّد لا دور لهما في خضم البحث والتنقيب. بناء عليه واستناداً إلى ما أشرنا إليه، لا يقبل القرآن ولا تعاليمه: اعتبار الآب إلهاً والابن ـ الكلمة إلهاً والروح القدس إلهاً، ثلاثة في إله واحد، أحد، وحيد كما يعلّم سِرُّ المسيحية أو اعتبار الإله الواحد في ثلاثة أقانيم كل واحد منها مساوٍ للثاني والثالث في جوهر الألوهة واللاهوت. بل يبشّر الإسلام ويدعو إلى الإيمان بإله واحد، هو

الله. لا ثاني له ولا ثالث؛ إله منزه عن أي شبيه له، فهو لا يشبه أي كائن أو شيء آخر، وليس له أي صاحبة أو زوجة أو شريكة، بتاتاً وإطلاقاً، وأي ابن أو ابنة، ولد أو فَرع مهما كان نوع ذلك، شكله أو جوهره، وأية ولادة أو انبثاق، لا روحي ولا نفسي ولا مادي، جسدياً كان أو فيزيائياً.

أ ـ الثالوث القدّوس في القرآن:

يخبرنا القرآن أن الله تكلم، عبر ملائكته، إلى كثير من أنبيائه ورسله. لقد أنزل العديد من الكتب الإلهية وأوحى بكثير من الأسفار: كالصحف الأولى، مثلَ صحف إبراهيم وموسى، والتوراة، والزبور الذي آتاه إلى نَبِيِّهِ داود الملك، والإنجيل فالقرآن.

ويؤمن المسلمون بما يعلّمه الإسلام من أن كلام الله يقوم ويتمّ له دونما أية حاجة إلى دماغ أو عقل أو مخّ، فمّ أو نطق أو نبرَات صوت، لسان أو ما شابه اللسان.

كما أن سمعه يتم ويقوم أيضاً دون عوزٍ إلى أذنين، مثله مثل البصر الذي عنده، فهو يعمل دون أي حاجة أو مرور أو استعانة بأعين. كذلك فإنّ علمه ومعرفته تامّان مِن غير قلب أو جنان، أو حاجة واضطرار، أو ضرورة ومسايرة، أو نظرٍ إلى أي دليل أو إثبات، أو وسيلة إقناع وبرهان.

الله في الإسلام، إذاً، هو الكائن الأعلى، المكوِّن. إنه الذات الإلهية والجوهر الربّاني الذي لا يقبل التقلب أو التغيّر وليس فيه أي لون من ألوان الزيادة والنقصان...

... لنتابع مسيرتنا في ظلال القرآن، لنرى نَفْيَ آي الذكر الحكيم لعقيدة الثالوث القدّوس.

يقول الكتاب المجيد:

«يَا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُم ولاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إلاَّ الحَقَّ إنَّما المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَريَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاها إلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنهُ فآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ ٱنْتَهُوا خَيْراً لَكُم إنَّما ٱللَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِٱللَّهِ وَكِيلاً» (سورة النساء ـ ٤ ـ الآية ١٧١).

ـ «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِن إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ» (سورة **المائدة** ـ ٥ ـ الآية ٧٣).

ـ «قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِن سُلطانٍ بِهَذا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ» (سورة **يونس** ـ ١٠ ـ الآية ٦٨).

ب ـ الافتراق بين الكتاب المقدّس والقرآن المجيد:

لقد اتضح جلياً أن نصوص القرآن المجيد تتعارض، على هذا المحور، مع نصوص الكتاب المقدس ومحتوياته ومع تعاليم الكنيسة واللاهوت المسيحي. كذلك فإن السنّة النبوية بمجموع أحاديثها، بالإضافة إلى شروحات الفقهاء وتعاليم الأئمة والعلماء المختصين، تلتقي كلها لتؤكد المبدأ القرآني القائل بأحدية الخالق وتوحيده، الرافض لعقيدة الثالوث القدّوس فلا بنوّة في الله سواء كانت: بنوة روحية غير مادية أو فيزيائية، بنوة غير تناسلية وبنوّة غير آدمية، لا بشرية، أو بنوة أخرى مهما كان نوعها وفلسفتها، لاهوتها أو روحانيتها.

الإسلام، دون أي شك، ومهما حاولنا شرح معطيات عقيدة الثالوث القدّوس، وأياً كانت البراهين والحجج والمفاهيم التي يقدّمها المسيحيون أو يطرحونها للتوفيق بين: وحدانية الله من جهة وثالوثية الأقانيم في هذه الوحدة، من جهة أخرى.

يرفض الإسلام كل ذلك، معتبراً هذا التعليم الإيماني المسيحي، تعليماً باطلاً، ومعيباً، إذ إنه ينسب إلى عزّة الله:

ـ أنَّ الرحمٰن اتخذ له صاحبة، أي امرأة ـ زوجةً!

ـ وأنه أنجب من هذه الصاحبة، ولداً هو ابن الله! تماماً كما يتم الإنجاب عند البشر والأنس!

إن كل ذلك يُعتبر ـ في الإسلام ـ منافياً لألوهة الله ومعادياً، مُعَارضاً لجوهره وذاته وطبيعته التي ليس كمثلها شيء، لمبدأ التوحيد القرآني الذي ينزّه الله عن أي نوع أو لون من أنواع الشرك وألوان الوثنية والكفر.

«قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ. ٱللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِد وَلَمْ يُولَد. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدُ» (سورة **الإخلاص** ـ ١١٢).

سابعاً ـ محاولة في عالم الالتقاء: وقفة قد تكون مفيدة

لسنا بحاجة إلى التكرار، بأن أي مسعى جدي يهدف إلى تأسيس تيار بحث صادق يتوخى إقامة فهم واعٍ مشترك بين المسيحية والإسلام، عليه بادئ ذي بدء، إذ يأخذ بالحسبان، ذلك التعارُض الجوهري في مسألة التوحيد بين العقيدتين:

فممّا لا شك فيه أن الافتراق الواقع بينهما على هذا المحور الأول يعتبر عقبة كأداء وحجر عثرة ضخم في وجه:

* أي مسار من مسارات الحوار وتبادل الرأي وإجراء الأبحاث والدراسات على صعيد الفكر والعقيدة.

* أي سبيلٍ من سبل الفهم والتفاهم والتعرف إلى الآخر وعليه على صعيد الفهم والفقه والإيمان الواحد.

* أية ورشة بناء لتعاون مستقبلي قريب أو بعيد خاصة في العملِ على توحيد الديانتين.

أ ـ الإسلام؛ أي تثليث يرفض؟

يزعم فريق من المسيحيين، أو على الأقل، عَدَدٌ من علمائهم، أن الإسلام عندما يقف رافضاً عقيدة التثليث، إنما يرفض ـ في الواقع ـ عقيدة غريبة ومستهجنة لا تُقِرُّ بها المسيحية ويرفضها المسيحيون. ويُظهر التاريخ الديني لشبه جزيرة العرب، بأن هذا المعتقد الغريب كان موجوداً ومتداولاً ومعمولاً به في الوسط الجغرافي العربي الذي هو وسط الحجاز ونجد ومُجمل بقاع شبه الجزيرة العربية من أقصى الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى أقصى الغرب. لقد كان هذا المبدأ التثليثي سائداً في بعض المجتمعات العربية والأوساط الحضرية المدنية، وبعض الجماعات القبلية من أبناء شبه الجزيرة البدو، وبعض الفئات من الناس، المنتشرة والمتغلغلة في أوساط المجتمع العربي، وإنْ كانت تتألف من جاليات غريبة تضم عمالاً أجانب وحرفيين ومهرة، قدموا من بلدان أجنبية وأقطار قريبة أو بعيدة، للعمل وكسب العيش والرزق، بين عرب الجاهلية ومعهم.

كانت هذه الجماعات والجاليات تدّعي أنها على دين المسيحية وتزعم أنها تدين بالإيمان الكتابي ـ الإنجيلي. غير أنها كانت تشكل ظاهرة محدودة الأثر والإشعاع، محصورة الانتشار والكرازة، بعيدة كل البعد عن التعليم الكتابي ـ الإنجيلي الحق، وإيمان الكنيسة الجامعة والمسيحيين «المستقيمي الرأي والحسني العبادة» السائرين على نهج الحواريين ـ الرسل والتلاميذ.

١ ـ العقيدة ـ السر، الثالوث القدّوس في الكتاب والإنجيل:

إن التعليم التثليثي الذي أشرنا إلى موضوعه أعلاه، هو تعليم غير كتابي ولا إنجيلي. إنه معتقد يوحي بأنه مخالف لعقيدة الثالوث القدّوس المسيحية الصحيحة.

وهو تعليم يحمل في طياته وثناياه مبدأً بدَعياً يقوم على:

- شركٍ في وحدانية الله والتوحيد الخالص الصحيح، الواضح، الصافي الذي هو توحيد الإسلام والمسلمين، والقرآن والسنة.

- شرك يقوم على القول بوجود ثلاثة آلهة، وهو تعليم وبدعة، تقول كنيسة المسيح الجامعة الرسولية الواحدة، عنه، بأنه انحراف وشذوذ عن خط الإيمان الإنجيلي المستقيم! يقول علماء اللاهوت والآباء بأن معتقد التثليث الذي كان متداولاً في حينه، في الأوساط التي ظهر فيها الإسلام، هو معتقد مناقض ومنافٍ لأبسط أسس الإيمان المسيحي المستقيم. إنه بدعة دينية وهرطقة لاهوتية منافية لعقيدة:

* نؤمن بإله واحد!

* ونؤمن باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد!

فلا شرك ولا إشراك لا بالله ولا مع الله، ولا تعدد ولا إكثار؛ إنما إله واحد لا صنمية فيه أو عنده، ولا أوثان ولا أساطير ولا خرافات.

أما القرآن المجيد، فيقول في محكم الوحي والتنزيل:

«وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ» (سورة المائدة - ٥ - الآية ١١٦).

إن منطوق الآية التي أوردناها أعلاه لا يتناول، إطلاقاً - حسب المسيحيين وأولي الأمر منهم - عقيدة الإيمان المسيحي، الإيمان المنصوص عنه في الإنجيل، وفي الشرعة - الشهادة التي هي ميثاق الإيمان المسيحي، عنينا بها قانون الإيمان النيقاوي - القسطنطيني. ويضيف الباحثون المسيحيون على هذا الشأن قائلين: إن القرآن عندما أورد الآيات التي تنبئ عن وجود ثلاثة آلهة في المسيحية، مستنكراً، مديناً ونافياً ذلك المعتقد، إنما كان يرد على عقيدة غير مسيحية، بدعة تنتحل صفة المسيحية، بينما هي في الواقع:

* بدعة شاذّة غير صحيحة، من تلك البدع التي كانت موجودة في حينه وفي العصر الجاهلي من تاريخ بلاد العرب.

* معتقد خاص، منافٍ للمعتقد الإنجيلي ومنافٍ للتعليم الكتابي الذي يسير عليه - حتى الآن - جميع المسيحيين المستقيمي الرأي.

* دين يؤمن بلاهوت مريم العذراء، أم المسيح، جاعلاً منها إلهاً في مثلث غريب عن المسيحية ومناقض لها...

... ويعلن المسيحيون، في معرض الدفاع عن إيمانهم، الشهادة الإيمانية الآتية:

«نحن (أي المسيحيون) لا نقول ولا نقرّ ولا نؤمن، بل نرفض وندين كل مقولة تقوم على تأليه مريم العذراء. إننا (والقول عائد إلى علماء المسيحية) نطعن جملة وتفصيلاً بكل أو بأي معتقد يجعل من أم المسيح إلهاً أو آلهة أو أقنوماً إلهياً. فما مريم أم يسوع / عيسى سوى مخلوق بشري من لحم ودم وعظم، مثلها مثل سائر المخلوقات من أبناء آدم وحوّاء. إنها امرأةٌ بارّة، قديسة وطاهرة. بل هي امرأة فائقة القداسة والطهارة، بهيّة فائقة البهاء. غير أنها ليست إلهاً. مريم العذراء بشر، يقول المسيحيون، هي بشر من طبيعة الناسوت وليست ربّةً من طبيعة اللاهوت إطلاقاً».

... وتضيف المسيحية عبر أُولي الأمر فيها إن الجماعة التي تتناولها الآية ١١٦ من سورة المائدة، في آي الذكر الحكيم، إنما هي جماعة تتبع ديناً خاصاً بها، وهي تتألف من أُناسٍ يؤمنون بمعتقدات خاصة غريبة. لقد قام هؤلاء وأعلنوا عن أنفسهم أنهم ينتسبون إلى الإيمان المسيحي، فعقائدهم ـ كما يزعمون ـ تدخل ضمن إطار الإيمان الكتابي القويم والتعليم الإنجيلي السويّ. لهذا السبب، نرى أن الكنيسة بجميع مؤسساتها وجماعاتها وعلمها ولاهوتها، والمسيحيين على اختلاف من ربهم وعلمهم ولاهوتهم، يتبرّأون من تلك الجماعة، رافضين نسبتها إلى المسيحية، جملة وتفصيلاً.

٢ ـ البدعة التي يخاطبها القرآن، ما هي؟

هي جماعة أو فرقة شاذة عن المسيحية تقول بالتعليم المنحرف الذي تبنيه على المعتقد الأساس المتمثل في:

ـ الاعتراف بهيئة إلهية تضم ثلاثة آلهة متآلفين، هم الخالقون، الصانعون المكوِّنون، الكليو القدرة! هيئة إلهية، أطرافها وأعضاؤها منسجمون متناغمون فيما بينهم دون أي إشكال أو حرج أو مَضَرَّة.

ـ الإيمان بأن هذه الهيئة الإلهية مؤلفة:

ـ من إله أب، هو الإله الزوج، الوالد، بكل ما في المعنى البشري، الآدمي من محتوى. ولقد ارتضى هذا الإله ـ الأب، الزوج ـ الوالد أن يكون له صاحبة، زوجةٌ، وولدٌ ابن.

ـ وإله واحد ثانٍ، ابن، هو الإله الذي ولد ثمرة لزواج تمّ بين الأب الزوج والأم الزوجة.

إنه إله ولد، ولد من جرّاء وقوع زواج جنسي وعلاقة تناسلية بين الإله الأب،

الزوج، الوالد من جهة، والإِلٰه الأم، الزوجة، الوالدة من جهة أخرى. لذلك ـ وفي زعم تلك الفرقة ـ يعتبر يسوع / عيسى المسيح إلهاً، ابناً، مولوداً بالتناسل من نكاح جدي، لا أحد يدري كيف؟ ومتى؟

ـ إلٰهٍ ثالثٍ أم، هو الإِلٰه الزوجة ـ الوالدة، صاحبة الأب، الذي هو في زعمهم (أي زعم الفرقة أو الجماعة التي نحن بصدد الحديث عنها) إله مؤنث، هو أو هي، مريم أمّ المسيح.

. . . هكذا، بهذا الشكل البسيط، فهمت جماعة تلك الفرقة، أو المذهب عقيدةَ الثالوث القدوس، فهماً خاطئاً لا علاقة له بجوهر الموضوع.

لقد قالت ـ زاعمة ـ بثلاثية خاصة بها. ثلاثية غريبة عن المسيحية الحق. ثلاثية يرفضها جميع علماء اللاهوت. . . وبالإضافة إلى كل ذلك، فلقد قامت الجماعة هذه بإطلاق تسمية: نصارى على نفسها وعلى مؤمنيها، استناداً إلى الصفة الشهيرة التي وصف بها يسوع / عيسى، صفة: الناصري، تيمّناً بها. هكذا، وبسبب كل ذلك، أصبحت تعتبر، في محيطها العربي الجاهلي، تارة، من أهل الكتاب، كالمسيحيين والموسويين اليهود؛ وتارة أخرى من أتباع عيسى بن مريم؛ وتارة ثالثة، من النصارى المريميين مؤلهي مريم العذراء أو مريم بنت عمران وأخت هارون. . .

. . . ويضيف المسيحيون:

لقد استمر «المريميون»، مؤلّهو مريم، في خط الغلو والانحراف الذي اختاروه، حتى انفصلوا عن المسيحية وأصبحوا مذهباً جديداً خاصاً هو مذهب ثلاثيي الآلهة، فقاموا وباشروا بعبادة تنفر المسيحية منها ولا ترضاها وتأبى أن تنسب إليها.

ب ـ بدعة المريميين وأمثالها في المراجع الإسلامية:

ورد ذكر المريميين في كثير من المراجع الإسلامية، التي نشرت في مختلف عصور التاريخ الإسلامي. كما ورد ذكر كثير من الفرق والملل والنحل. ولقد عالج شأنها ومذهبها كثير من الباحثين والدارسين. غير أننا اخترنا، على سبيل المثال لا الحصر، مرجعين اثنين، نذكرهما نظراً لأهميتهما المميزة: أحمد المقريزي في كتابه: **القول الإبريزي**، وابن حزم في: **الملل والأهواء والنحل**.

لذلك، نأمل من المعنيين، المهتمين ببحث مفصل في موضوع البدعة المريمية وما يشبهها من المذاهب والعقائد، أن يرجعوا ليعتمدوا المصادر المختصّة، وبنوع خاص، المرجعين اللذين ذكرناهما أعلاه. . . !

لم تعش فرقة المريميين طويلاً في الوسط العربي والمحيط الشرق أوسطي أو العالمي. فلقد ضعفت رويداً رويداً وتلاشت، إلى أن انعدمتْ وانقرضتْ، فاختفت من

ساحة الوجود، حوالى نهاية القرن السابع الميلادي.

أخيراً وليس آخراً! في عودة ضرورية واجبة إلى آي الذكر الحكيم، لا بد من التوقف أمام الآية الثالثة والسبعين من سورة المائدة التي تشير إلى ما يأتي:

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ».

نتساءل في هذا الموقع: إلى من تتوجه الآية المذكورة أعلاه يا ترى؟ وأية فئة من الناس تتناول؟

١ ـ رأي أول: القرآن يُكفِّر المسيحيين:

هناك فئة كبيرة، وكبيرة جداً، من العلماء المعنيين بالأمر، تقول، على اختلاف مذاهبها الفقهية ومدارسها، بأن التكفير الوارد في الآية الثالثة والسبعين من سورة المائدة، يتوجه إلى:

ـ كل فردٍ أو جماعة، تقول وتؤمن بعقيدة الثالوث القدّوس، الإله الواحد، تلك العقيدة التي يرفضها الإسلام ويأباها لأن مدلولها يؤدّ إلى الشرك والكفر ومَحْوِ التوحيد.

ـ وإلى كل من آمن بالمسيحية التي تضع عقيدة الثالوث القدّوس في صلب إيمانها وأساس معتقداتها إذ تقول: إله واحد في ثلاثة أقانيم!

٢ ـ رأيٌ ثانٍ: القرآن يكفِّرُ فرقةً شاذَّةً خارجة عن المسيحية:

أما في رأي فئة ثانية من المعنيّين، من علماء دين وفقهاء وباحثين، فإن الكتاب، في هذه الآية وآيات أخرى كثيرة تحمل:

ـ المحتوى عينه والمضمون نفسه، أي موضوع التثليث الإلهي.

ـ ذات المعنى وعين التكفير، أي تكفير كل من يقول بوجود ثلاثة آلهة، لم يقصد التوجه إطلاقاً إلى المسيحيين أو إلى عقيدة الثالوث القدوس، بل إلى فرقٍ وجماعات معينة، كانت قائمة في بلاد العرب، عصر ظهور الإسلام وبدء الدعوة المحمّدية.

لقد كانت تلك الفرق والجماعات تتعاطى وتعلّم مُبشِّرةً بعقيدة خاصة بها، ألا وهي وجود ثلاثة آلهة وضرورة الإيمان بهذه الآلهة الثلاثة! ولقد أدان الإسلام هذه العقيدة كما سبق وذكرنا مفصلين باحثين... ومنها فرقة المرقونيين أصحاب العقيدة المثلّثة، إذ كفَّرها وكفّر إيمانها بشكل قاطع، جازم!

٣ ـ المرقونيون والمسيحية:

يعتقد علماء اللاهوت ومعلمو المسيحية بأن المرقونيين هم فرقة تؤمن بوجود ثلاثة آلهة ـ أرباب هم:

ـ الإله العادل أولاً، وهو الذي أنزل التوراة وحياً على موسى كليم الله ونبيه الكبير.

ـ الإله الصالح ثانياً، وهو الذي نسخ التوراة وأبدلها بمبادئ المحبة والتسامح.
ـ الإله الشرير ثالثاً، وهو إبليس ملك المعصية والذنب.

وهذا الإيمان وتلك المعتقدات تنافي الدين المسيحي الذي يرفضها دون أي تردد أو مهادنة.

لأجل كل ذلك، يرفض المسيحيون اعتبار العقيدة المرقونية، وكأنها تُعبِّر عن إيمانهم هم. ولقد أدان علماء المسيحية وأحبارها مذهبَ المرقونيين واعتبروه بدعة تُناقض الكتاب المقدس وتعاليم الرُسُل والآباء.

المحور الثاني ـ من هو المسيح؟
الافتراق الثاني الكبير

مقدّمة: من هو المسيح؟ إلٰه تام وإنسان تام هو، أم نبيٌّ رسول؟

بعد مسألة الثالوث، تنبسط أمامنا وتبرز على بساط البحث والدراسة، المسألة الثانية الهامة التي يؤمن بها ويقوم عليها الفكر الديني المسيحي. إنها عقيدة التجسد، العقيدة ـ السر Le Dogme - Mystére التي تُعلّمنا كيف تم التجسد الإلهي، وكيف تأنّس الابن ـ الكلمة، فصار جسداً وحلّ بين الناس، مولوداً من عذراء قدّيسة... وكما قام السرّ، «الوحدانية ـ الإلهية» في ثالوث الأقانيم القدّوس. كذلك، تقوم العقيدة الثانية التي تقول ـ حسب ما يعتقد المسيحيون، بتجسّد الأقنوم الثاني، الله، الابن ـ الكلمة، وتأنّسه في شخص يسوع المسيح الذي هو: إلٰه تام كامل وإنسان تام كامل ـ بولادة الأقنوم الثاني، الله، الابن ـ الكلمة، من مريم العذراء في ملء الزمان والتاريخ؛ وبظهور المسيح عيسى ٱبن مريم، أقنوماً إلهاً، شخصاً كائناً أزلياً، سرمدياً في طبيعتين اثنتين: طبيعة إلٰهية، مساوياً فيها لطبيعة الآب وطبيعة الروح القدس، وطبيعة بشريّة تامّة من لحم ودم وعظام متساوياً فيها بأيّ إنسان آخر، ما عدا الخطيئة، أي مساوياً فيها لأمّه مريم القديسة.

لقد تجسّد ابن الله وتأنس، فصار إنساناً، مُعَلِّماً، هادياً ومبشراً يأكل ويشرب، يمشي، ويَعِظُ، يُصَلِّي ويصوم، يقوم ويقعد مع الناس وبين الناس: سواء في مدينة بيت لحم من أعمال اليهودية في فلسطين، حيث ولد، أو في مدينة الناصرة من منطقة الجليل حيث نما وكبر وشب وترعرع، أو في بيت المقدس، أورشليم / القدس، حيث بشر ومات وقام من بين الأموات. فكان أن دخل تاريخ البشرية وعاش فيه حوالى ثلاثة وثلاثين عاماً، يعلّم ويدعو إلى الإيمان بملكوت الرب، يبشّر ويصنع العجائب، يغفر الخطايا والذنوب ويكفِّر عن جميع بني البشر.

نتساءل ههنا، ومن جديد عن موقف الإسلام والمسلمين من العقيدة ـ السر، عقيدة التجسّد الإلٰهي Le Mystère de L'incarnation: ما موقف الإسلام منها، وهل يؤمن المسلمون بهذا السرّ؟

نتناول بالدراسة الموجزة، في هذا المحور الثاني، المسائل الآتية:

ـ ماهية عقيدة التجسد الإلٰهي في المسيحية. ما هي؟ وعلامَ تقوم؟ موقعها في الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة.

ـ الإسلام وعقيدة التجسُّد. ماذا يقول الكتاب المجيد، عنها وفيها؟ كيف يراها المسلمون من علماء دين، وفقه وشرع؟
ـ المسيح في المسيحية. ما هو؟ ومن هو؟
ـ المسيح في الإسلام. من هو؟ وما هو؟

أولاً ـ التجسُّد الإلٰهي في المسيحية؛ السرّ الخارق، الاعجازي

يقول علماء المسيحية، ويؤكد قانون الإيمان النيقاوي ـ القسطنطيني، الذي هو ـ كما أشرنا آنفاً.
ـ الشرعة ـ الميثاق لكل عقائد الإيمان المسيحي.
ـ الشهادة التي يجهر بها المؤمنون المسيحيون كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك، أو كلما اقتضت الضرورة.

يقول قانون الإيمان المُلْزِم لكل مؤمن، مُعْلِناً الحقائق المسيحية الآتية:

«. . . (ونؤمن) بربٍ واحدٍ يسوع المسيح،

ابن الله الوحيد،

المولود من (الله) الآب،

قبل كل الدهور!

(أي في الأزل الذي لا بداية له ولا نهاية؛ الأزل الخارج نطاقه عن أي نطاق زمان أو مكان، حتى لو كان نطاق هذا الزمان برهة ما، وهذا المكان نقطة غاية في الصِّغَر).

إلٰه من إلٰه،

نور من نور،

إلٰه حق من إلٰه حق،

مولود غير مخلوق!

(ومعنى الولادة ههنا، أنها ولادة روحية: لا مادية ولا فيزيائية، لا جسدية ولا تناسلية، لا جسْمانية ولا بدنية، لا بدنية ولا جنسية. بل ولادة روحية صرف، تخرج عن نطاق فهمنا البشري المحدود وإدراكنا غير المعصوم. والولادة التي يخبرنا عنها قانون الإيمان هي فوق مستوانا البشري، ولادة ليس كمثلها ولادة أخرى، ولادة لا تشبه أية ولادة نعرِفُها أو نُدركها أو يمكن أن تخطر ببالنا لا من قريب أو بعيد).

مساوٍ للآب في الجوهر؛

(أي أن يسوع / عيسى، المسيح ابن مريم هو الأقنوم الثاني: الابن ـ الكلمة

المساوي للأقنوم الأول (أي الآب) في جوهر اللاهوت ذاتاً وصفات وفعلاً، وحقيقة الألوهة ذاتاً وصفاتٍ وفعلاً).

الذي به كان كل شيء

الذي من أجلنا نحن البشر،

ومن أجل خلاصنا،

نزل من السماء،

وتجسّد.

(من الروح القدس، الأقنوم الثالث، الإله القدّوس) ومن مريم العذراء (وهي مريم بنت عمران من نسل الملك داود ـ النبي، المذكورة بتفصيل في آي الذكر الحكيم).

وصار إنساناً

(أي تجسد وتأنّس)... إلخ...

هكذا، كما نقرأ ونرى، يؤكد قانون الإيمان ما يأتي:

* الله، الابن ـ الكلمة، قد تأنّس، أي صار إنساناً، وتجسّد، بالإضافة إلى كونه منذ الأزل، إلهاً سرمدياً، تام اللاهوت والألوهة.

* الله، الابن ـ الكلمة، قد اكتسب الطبيعة البشرية المؤلفة من نفس ولحم ودم وعظم، فأصبح مثله مثل أي آدمي، بشري، لا يتميز عن نوع الأنس، إلّا بخلوّهِ من الخطيئة الأصليّة أو أي خطيئة أخرى من أي نوع كانت.

أ) المسيح في الكتاب المقدس:

كتب الأخ يوسف في هذا المجال ما يأتي:

[ليس من الصعب على معظم الناس أن يقبلوا المعتقد الأول القائل بأن الآب هو إله. لكن الصعوبة الكبرى، بل العقدَة المستعصية هي في القول بأن أقنوم الابن ـ الكلمة (أي يسوع/عيسى ابن مريم، المسيح) هو إله. كذلك أقنوم الروح القدس... غير أنني سأكتفي في هذا الفصل (من الكتاب) بتقديم بعض الأدلّة التي تثبت لاهوت الابن ـ الكلمة، لاهوت يسوع المسيح المساوي للاهوت الآب، وسأبدأ بألقاب المسيح الكتابية في الكتاب المقدّس:

١ ـ اللقب الأول: هو الله!

يؤكد الكتاب المقدس ويشدد على إطلاق هذه التسمية الإلٰهية على المسيح عيسى اَبن مريم، عندما يشير معلناً:

«... لكن السيد نفسه يعطيكم آية: ها العذراء تحبل وتلد ابناً، وتدعو اسمه

عمانوئيل، وهو تعبير عبراني يعني بالعربية: إلهنا معنا».

(العهد القديم ـ سفر إشعيا ـ الإصحاح السابع ـ عدد ١٤).

وفي نبوءة ثانية أخرى، يدوّن إشعياء، بِوَحْيٍ إلٰهيّ، وإلْهَام من الروح القدس:

«الشعب السالك في الظلمة أبصَرَ نوراً عظيماً، والمقيمون في أرض ظلال الموت أضاء عليهم نور... لأنه يولدُ لنا ولدٌ، ويعطى لنا ابن يحمل الرئاسة على كتفهِ، ويدعى اسمه عجيباً، مشيراً، إلهاً قديراً، أباً أبدياً، رئيس السلام. ولا تكون نهاية لنمو رئاسته وللسلام اللذين يسودان عرش داود ومملكته».

(سفر إشعيا من العهد القديم ـ الفصل التاسع ـ من العدد ٢ إلى العدد ٧).

هذا في العهد القديم! أما في العهد الجديد، فتعالوا معنا لنقرأ ما دوّنه بولس الرسول، معلناً ومبشراً بالمسيح: «الله ظهر في الجسد». وموضحاً، من هو هذا المسيح: «به يحل ملء اللاهوت كله، تامّاً، كاملاً».

فهو الذي دوّن عنه يوحنا الحواري الرسول، أحد الاثني عشر: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان الله، وكان الكلمة هو الله، هو كان في البدء مع الله، به تكوّن كل شيء، وبغيره لم يتكوّن أي شيء مما تكوّن، فيه كانت الحياة، والحياة هذه كانت النور للبشر...».]

(الإنجيل حسب ما دوّنهُ يوحنا ـ الإصحاح الأول ـ الأعداد ١، ٢، ٣ و٤).

٢ ـ اللقب الثاني: هو ابن الله الأزلي، السرمدي:

[يشدد الكتاب المقدس على هذا المضمون الخاص بالمسيح، فيخبرنا كيف تمت عملية البشارة بتجسد المسيح في هذا النص المليء بالمعاني:

«... أُرْسِلَ الملاك جبرائيل من قبل الله إلى مدينة في الجليل (وهي منطقةٌ تقع جغرافياً في شمال فلسطين على خط الحدود مع لبنان) اسمها الناصرة، إلى عذراء مخطوبة إلى رجل اسمه يوسف، من بيت داود، أي من نسل داود الملك ـ النبي، واسم العذراء مريم، فدخل الملاك وقال لها: سلام، أيتها المنعم عليها! (أو: يا ممتلئة نعمة!) الربُّ مَعَكِ، مباركةٌ إنت بين النساء. فاضطربت لكلام الملاك، وسألت نفسها: ما عسى أن تكون هذه التحية؟ فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم، فإنك قد نلت نعمة عند الله! وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسمّينه يسوع. إنه يكون عظيماً وابن العليّ يُدعى، ويمنحه الرب الإله عرش داود أبيه، فيملك على بيت يعقوب إلى الأبد، ولن يكون لملكه انقضاء. فقالت مريم للملاك: كيف يحدث هذا، وأنا لست أعرف رجلاً؟ فأجابها الملاك: الروح القدس يأتي عليك، وقدرة العلي تظُلُّكِ. لذلك، أيضاً فالقدّوس المولود منك يدعى ابن الله».

(**العهد الجديد ـ الإنجيل حسب ما دوّنه التلميذ لوقا** ـ الإصحاح الأول ـ من العدد ٢٦ إلى العدد ٣٥).

«. . . فسألهم (أي إنَّ المسيح سأل الرسل):

وأنتم، من تقولون إني أنا هو؟

فأجاب سمعان بطرس (أحد الرسل ـ الحواريين الاثني عشر): أنت هو المسيح، ابن الله الحيّ».

(**الإنجيل حسب ما دوّنه متّى** ـ الإصحاح ١٦ ـ العددان ١٥ و١٦).

هنا، يطرح سؤال جوهريٌ، مهم ومحرج: لماذا دعي المسيح ابن الله؟

نجيب عن هذا التساؤل بالقول: دُعي المسيح ابن الله، لكي يعرف الناس المصدر الذي جاء منه المسيح ولكي تظهر للناس، العلاقة الحميمة والوثيقة والعميقة التي تربط المسيح الابن ـ الكلمة بالآب.

ولقد أورد الكتاب المقدس أفكاراً وشروحات هامة تتيح لنا فهم تلك العلاقة الخارقة، الإعجازية، الأعجوبة؛ العلاقة السر التي توضح بشكل ملحوظ وجه الشبه بين الآب والابن. فالمسيح هو صورة الله، حسب ما كتب بولس. وهو لم يتردّد بالتعريف عن نفسه عندما أعلن ويعلن: من رآني فلقد رأى الآب! وعندما يجيب عن سؤالِ طرحَهُ الرسولُ فيلبّوس الحواري عليه قائلاً: يا سيّد أرِنا الآب وَكفانا!

فأجابه يسوع: مضت هذه المدة الطويلة وأنا معكم ولم تعرفني يا فيلبوس؟ الذي رآني رأى الآب، فكيف تقول: أرِنا الآب؟ ألا تؤمن أنّي أنا في الآب، وأنَّ الآب فيَّ؟

وكذلك المعرفة المتبادلة بين الآب والابن؛ وإذا كانت الطاعة البشرية التي تربط الأبناء بالآباء والأمهات، طاعة ناقصة غير كاملة أو غير تامة، فإنَّ الطاعة الإلٰهية التي تربط المسيح ـ الابن بالآب، هي طاعة ربّانية كاملة، لا تشوبها شائبة، لا صغيرة ولا كبيرة.

قال المسيح، عندما كان يصلّي صلاته الأخيرة، في بستان الزيتون، على مرتفعات جثمساني الواقعة بالقرب من بيت المقدس في فلسطين، قال متوجهاً إلى الآب الضابط الكل: لتكن لا إرادتي بل إرادتك، ولا مشيئتي بل مشيئتك!

وكذلك المحبة التي تربط الآب بالابن والابن بالآب. فالمسيح هو ابن الآب بالحق والمحبّة والذات ـ الروح.

يقول الإنجيل: «أنا حَفَظْتُ وصايا أبي وَأَثْبُتُ في محبته».

والمحبة هذه هي محبة أزلية بين الآب والابن، لأن الله محبة].

(راجع كتيّب: **هل الله واحد أم ثلاثة**. بقلم الأخ يوسف ـ مرجع مذكور سابقاً، وقد استندنا إلى جميع فصول الكتيب واستشهدنا بها بشيء من التصرف).

ب) المسيح، إله تام في الكنيسة:

استمرت الكنيسة منذ بداية نشأتها يوم عيد العنصرة، وهو يقع في اليوم الخمسين، الذي يلي قيامة المسيح من بين الأموات، في تعليم مبدأها الإيماني الرئيس ومعتقدها الأساس المتعلق بتحديد هُويّة المسيح؟

فلقد علّمت ولا تزال تعلم، استناداً إلى الكتاب المقدس وتعاليم الرسل والآباء والأحبار، أنه (أي يسوع المسيح):

- هو الوحيد الإله الكامل والإنسان الكامل التامّ.
- هو ربٌّ كامل تامّ لمجد الله الآب.
- هو الابن ـ الكلمة الذي هو كائن مع الآب منذ الأزل. فَهُما معاً منذ البدء الذي هو قبل كل الدهور والأزمان، البدء الذي لا بداية له.
- هو لم يخلق من قبل الآب بل ولد مِنهُ في الأزل، ولادة أزلية.

وتقول الكنيسة ـ أيضاً، إنَّ الأقنوم الابن، يسوع المسيح هو ابن الآب الإلهي بالطبيعة والجوهر لا بالتبنّي وهي تعلم كذلك. دون أي تغيير أو تعديل. أن للمسيح ـ الابن طبيعة مساوية لطبيعة الآب، وهو موجود منذ الأزل وحتى اللانهاية في شراكة تامة واتحاد كلّي الانسجام مع جوهر الآب وجوهر الروح القدس.

لقد استلزم هذا التعليم الكنسي المبدئي لكي يصبح واضحاً، جلياً، دونما لبسٍ أو غموض، انعقاد مؤتمر مسيحي كنسي عالمي، هو المجمع الخلقيدوني المسكوني الرابع، الذي بحث وعالج موضوع هُويّة المسيح.

١ ـ مجمع خلقيدونية المسكوني الرابع:

وهو المجمع ـ المؤتمر العالمي الذي قرر في جلسته السادسة والأخيرة إعلان الشهادة الآتية، الواضحة الشفّافة:

- ابن واحد هو يسوع المسيح.
- هو ذاته كامل في اللاهوت، كامل في الألوهة.
- هو ذاته كامل الناسوت، كامل الطبيعة البشرية، الإنسانية.
- هو ذاته إله حقاً وإنسان حقاً.
- صار إنساناً، تأنّس بنفس عاقلة وجسد بشري،
- له وللآب جوهر واحد هو جوهر اللاهوت أو الألوهة.
- له جوهرنا نحن البشر بحسب الناسوت.
- شبيه بنا في كل شيء ما عدا الخطيئة والمعصية والإثم.

ـ مولود من الآب قبل كل الدهور والأزمنة والعصور بصفة لاهوته، أي ألوهته.
ـ لكنه في الأيام الأخيرة، وفي ملء الزمان، ولد، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، من الروح القدس ومن مريم العذراء، بصفة ناسوته أي بشريته أو آدميته.
ـ هو ذاته مسيح واحد، ابن ربٌّ وحيد، ابن آب وحيد.
ـ هو ذاته قائم، حي بطبيعتين إلهية وبشرية، بلا تشويش ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال. إن اختلاف الطبيعتين في المسيح لا ولم يُمْحَ، إطلاقاً، بفعل الاتحاد فيما بينهما، بل على العكس، تبقى خواص تينك الطبيعتين سالمة وتلتقي في أقنوم واحد هو أقنوم الابن ـ الكلمة.

٢ ـ المسيح، ركيزة الإيمان في المسيحية:

تؤكد المسيحية جازمة إيمانها بسر التجسّد الإلهي، تجسُّد الأقنوم الثاني، أقنوم الكلمة ـ الابن بهذا الاعتراف الواضح الصريح النقي: «نحن (أي: المسيحيون)، نؤمن بأنّ إلٰهنا ومخلِّصنا وفادينا يسوع المسيح هو الله المتجسّد، الكامل في لاهوته والكامل في ناسوته. لاهوته لم يُفارق لحظة واحدة ناسوته ولا طرفة عين. لاهوته واحد مع ناسوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا تبديل. ونحن نؤمن ونعتقد ونرى أنّ إلٰهنا يسوع المسيح سرّ وحقيقة خارقة، معجزة ومعين ينبوع لا ينضب».

المسيح إذاً هو، عند المسيحيين، ربٌّ واحدٌ في طبيعتين اثنين:
ـ إلهية كاملة، تامة، قديمة، خالدة، لا بداية لها ولا نهاية؛
ـ وبشريّة كاملة، تامة من نفس وروح ولحم ودم وعظم.

طبيعتان في شخص واحد، كائن أقنوم، بلا اختلاط ولا تغيير، ولا انقسام ولا انفصال، من غير أن ينفي فرق الطبيعتين بسبب الاتّحاد، بل إنَّ خاصّة كلّ واحدة منهما ما زالت محفوظة تامة، دائمة: وتؤلف الطبيعتان المذكورتان إذاً شخصيّة المسيح أي:
ـ كائناً، شخصاً، واحداً وذاتاً كاملة.
ـ وأقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مجزوءاً إلى شخصين، بل هو ابن وحيد وواحد هو نفسه الله ـ الكلمة ـ الرب يسوع المسيح.

تخبرنا الترتيلة الكنسية المعروفة، تلك التي يرنمها المؤمنون في عباداتهم وشعائرهم، بالحقيقة الآتية:

«وحَّدت، يا ربّ، لاهوتَك بناسوتنا،
وناسوتنا بلاهوتك،
حياتك بموتنا،

أخذت مالنا،
ووهبتنا مالك،
لتحيينا وتخلصنا،
لك المجد إلى الأبد».

ج) المسيح مخلّص العالم، في المسيحية:

لقد تم وتيسر لنا استعراض بعضٍ مما ورد في أسفار الكتاب المقدّس عن المسيح. من هو ومن يكون؟ فلنتابع، على هذا المستوى وضمن إطار: النصوص الكتابية، لنكتشف سوية ماذا قال المسيح عن نفسه، وكيف أعلن ذاته:

يخبرنا العهد الجديد بكثير من الحقائق في هذا المجال، منها:

- «... من رآني فلقد رأى الآب».
- «... أنا والآب واحد».
- «... قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن».
- «... أنا القيامة والحياة. من آمن بي وإن مات فسيحيا، وكلُّ من يحيا ويؤمن بي، لن يموت إلى الأبد».
- «... أنا هو الطريق والحقّ والحياة. لا يمضي أحد إلى الآب إلاّ بي».
- «إني قد غلبت العالم».
- «أنا نور العالم، من يتبعني لا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة».
- «أنا خبز الحياة، من يُقبِل إليَّ فلن يجوع ومن يؤمن بي فلن يعطش أبداً».
- ...

ثانياً ـ سرّ التجسُّد الإلهي، مرفوض في الإسلام

الثابت المقرر والمتَّفَق عليه لدى علماء المسلمين ديناً ودنيا، أن عقيدة الإسلام ترفض مقولة التجسد رفضاً تاماً، ومبادئ القرآن تتنافى مع «مفهوم السرّ ـ le mystère» الذي يقول إنَّ عيسى ابن مريم ـ يسوع المسيح هو: إله كامل، تام، فيه ملء اللاهوت؛ وأقنوم ثانٍ من أجل ثلاثة أقانيم: الآب والابن والروح القدس.

وكما كفّر الإسلام كل من يعتقد ويؤمن بالعقيدة الأولى أو السر ـ الأوّل الذي هو «سرّ الإله الواحد في ثالوث قدّوس من الأقانيم»، كذلك يكفّر كل من يؤمن ويعتقد أو يدعو إلى الإيمان بالعقيدة الثانية أو السر الثاني الذي يعلن المسيحَ إلهاً ابن إله.

فالإسلام، وهو دين التوحيد الذي يأبى ويتنافى تعليمه مع أي نوعٍ من أنواع

الشِرْك، يؤمن، إيماناً مباشراً بأن الله هو:
ـ واحد، أحدٌ، كائن أسمى؛
ـ واحد، أحد، لا شريك له.
ـ واحد، أحد لم يتجسد ولم يتأنس أو يتأنسن. إنه لم يصر بشراً ولم يحلّ، في أي وقت من الأوقات أو زمن من الأزمان، أو مكان من الأمكنة أو مطرح من المطارح لا في ذات مادية، أو كائن جسماني، آدمي ـ بشري. ولا في أي كائن أو مخلوق من كائنات هذا الوجود ومخلوقاته، والحيوات والعالم التي هي منه وفيه.
ـ واحد، أحد، ليس كمثله شيء.
ـ واحد، أحد، تعالى بعزّته ومجده وسلطانه عن الوجود الذي كوَّنه والكون الذي أنشأه والحياة التي صَنَعَها، من العدم.

لذلك، حاشا له أن يكون قد تجسّد أو اتخذ له مقاماً بشرياً، أو جسماً أو ما يشبه ذلك من كل ما يمكن أن يخطر ببال ومن كل ما يمكن أن يمرّ في عقل إنسان أو خيال مخلوق. فالله في الإسلام هو رب الكون العظيم، فاطر السماوات والأرض، الخالق القدّوس، له العزة والنعمة والحمد والملك ورب العرش. إنه مُمَيَّزٌ عن جميع مخلوقاته وعن جميع ما سواه، منفرد بذاته، متعال عن جميع صنائعه... لا يحتاج إلى أي كائن آخر أو مخلوق أو عنصر أو شيء...!

أ ـ عقيدة التجسد، «السر» في الكتاب المجيد:

لقد أدان الكتاب المجيد تلك المسألة إدانة مباشرة، تامة، كما أدان، من قبل، المسألة الأولى، مسألة الوحدانية في ثالوث الأقانيم.

ألم يعلن الكتاب تكفير كل من قال بالثالوث؟ عندما قال:

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِن إِلٰهٍ إِلاَّ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ» (سورة **المائدة** ـ ٥ ـ الآية ٧٣).

ثم: «وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآية ١٦٣).

كذلك، فَإِنَّ القرآن يدين عقيدة التجسّد الإلهي وسرَّ ـ المسيح الإلٰه، فيكفّر كل من يؤمن ويقول بهاتين العقيدتين،

«... وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ. ٱتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ ٱللَّهِ وَالمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (سورة **التوبة** ـ ٩ ـ الآيتان ٣٠ و٣١).

ويضيف الذكر الحكيم على إعلاناته تلك تأكيداً، فيه إصْرار على نَفي علاقة الأبوة والبنوة بين الله والمسيح، فينبئ بما يأتي:

«ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» (سورة **مريم** ـ ١٩ ـ الآيتان ٣٤ و٣٥).

نصل بعد الذي ذكرناه إلى بيان خطير جدًّا، فيه تكفير ونذير واضح مبين! فتذكر آي الذكر الحكيم في محكم التنزيل القرآني ما يأتي:

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ المَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ المَسِيحُ يَا بَنِي إِسرائيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» (سورة **المائدة** ـ ٥ ـ الآية ٧٢).

«إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ» (سورة **آل عمران** ـ ٣ ـ الآية ٥٩).

«مَا المَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ» (سورة **المائدة** ـ ٥ ـ الآية ٧٥).

ب) المسيح نبيٌ، رسولٌ وعبد للَّهِ، في الإسلام:

إذا كان قد ثبت من خلال الدرس والبحث، إنه لا عقيدة تجسد إلهي في الإسلام، وأنه ليس هناك من سر ـ يقول بتأنس أقنوم الله الابن ـ الكلمة في شخص المسيح، فمن يكون مسيح الإسلام إذاً؟ من هو؟ وما هو؟

يؤمن الإسلام بأن عيسى ٱبن مريم ـ يسوع المسيح ما هو سوى إنسانٍ عَبْدٍ من عبادِ الله الأبرار الصالحين، خلقه الله الواحد الأحد وصوَّره في رحم أمه مريم بنت عمران أو مريم أخت هارون أو مريم العذراء البتول، كما صوَّر غيره من الناس والبشر الذين ينتسبون إلى النوع الإنسي!

لقد خلق الله الواحد الأحد عيسى / يسوع الإنسان البشري من غير أب، تماماً كما خلق آدم وحواء أبويّ النسل البشري من غير أب ومن غير أم. وما أم عيسى سوى

أمرأةٍ فاضلة، طاهرة اصطفاها الله، تنتهي بنسبها إلى آل عمران المختارين وترقى في سلالتها إلى الملك العظيم نبيُّ الله داود.

يقول الكتاب المجيد في آي الذكر الحكيم:

«بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ.

الٓمٓ. ٱللَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ. نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّورَاةَ وَالإِنجِيلَ... هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ... شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُوْلُو العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ... إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ» (**سورة آل عمران ـ الآيات ١ ـ ٣٣**).

فمريم أم عيسى / يسوع إذاً، هي أمرأة بارّة، صدِّيقة. إنها البتول الطاهرة، العذراء التي نشأت وتربَّت وترعرعت في بيت الفضيلة والمكارم، حيث عاشت حتى ولدت ابنها، في مناخ الطهر وجوّ العفاف والعبادة والتقوى. لقد أعدّها الله وهيّأها وأكرمها لتكون أمّاً لا كالأمّهات، أمّاً لعيسى بن مريم، واحدٍ من كبار أنبياء الإسلام ورسلِهِ. واحدٍ من الخمسة أولي العَزْم، الرسل الذين اختارهم اللّهُ، بمشيئته وإرادته... إلى أن جاء إليها ملاك الله، في يوم من الأيام، وأخبرها مُبَشراً إنَّ الله أصطفاها على نساءِ العالمين واختارها من بين باقي النساء ليطهّرها من جميع أنواع الرذائل والأدناس والشرور فتصبح جاهزة، وأهلاً لأنْ تكون أمّاً لمولود كريم! مولودٍ سيكون له شأن عظيم في عالمي النبوة والرسالة. مولود يحمل ـ من عند الله، خالقه ـ رسالة إلٰهية مجيدة وكتاباً كريماً! ذلك هو عيسى أبن مريم قول الحق، حامل الرسالة التوحيدية المجيدة، الرفيعة، وجيه الدنيا والآخرة. فعيسى أبن مريم، مخلوق ومولود عجيب، مخلوق سيكلّم الناس وهو بعد طفلٌ صغيرٌ لا يزال قابعاً في المهد، ومولود مختار لكي يكون نبياً، رسولاً، صاحب كتاب وحي مهم ووجيهاً من الصالحين.

لقد ورد في السنّة النبوية، نقلاً عن علي بن أبي طالب، الإمام الكبير العلم والتقوى والفقهِ في الدين، أنه قال: «قال رسولُ الله: خيرُ نسائها مريم بنت عمران (أي أمُّ المسيح)، وخير نسائها خديجة بنت خويلد (أي أولى أزواج محمد). (حديث نبوي، رواه مسلم والترمذي والنسائي وأحمد، وهم جميعاً من رواة الأحاديث النبوية الثقاة، المشهود لهم بالدقة والصحّة والمعرفة والثقة».

وورد، أيضاً، في السُنَّة النبوية، حديث صحيح ثانٍ رواه أحمد عن الرسول.

قال: «حسبك، من نساء العالمين بأربع: مريم بنت عمران (والدة عيسى أبن مريم - يسوع المسيح)؛ آسية أمرأة فرعون (مَلك مصر الإمبراطور، في العصر التاريخي القديم)؛ خديجة بنت خويلد... من قريش (زوج الرسول الأولى في مكة وأولى أمهات المؤمنين، أم أولاد النبي بناتاً وصبياناً)؛ وفاطمة بنت محمد بن عبد اللّه... من هاشم، من قريش (وهي فاطمة الزهراء، بنت الرسول الرابعة، زوجة الإمام عليّ بن أبي طالب الهاشمي، القريشي وأم سيّديّ شباب الجنة، الإمام الحسن بن علي والإمام الحسين بن علي). (حديث صحيح، رواه أحمد، وهو كما ذكرنا أعلاه، من الرواة الثقاة).

هكذا، يستفيض التعليم الإسلامي والأدب الديني الغَنِيّ، عند المسلمين، ويكثر البيان، شرحاً وتفصيلاً، ليؤكد ويجزم بأن عيسى أبن مريم: مخلوق، عبد من عباد الله الصالحين؛ مخلوق، مولود - بمشيئة الله الواحد الأوحد - من امرأة فاضلة عذراء هي مريم؛ مخلوق - كلمة من الله الوحيد، ألقاها إلى مريم، وروح من المولى الفريد.

وهو (أي عيسى)، حاشا وكلاّ أن يكون إلٰهاً! إنه بشر مثل آدم وسائر البشر الآخرين، عبدٌ من عِبَادِ الرحمٰن، إنسان ولد بطريقة عجيبة، خارقة، دون أب، ليس له لا والد بشري ولا والد أو آب إلٰهي. لقد أراد الله، بمشيئته الربّانية أن يكون عيسى بهذه الطريقة الفريدة... فكان أن ولد عيسى دون أن يكون هناك زرع رجل وجماع تناسلي مع مريم العذراء... كل ذلك، لأنَّ إرادة الله وقدرته المطلقتين، الكاملتين قد قضتا بذلك، ولأن الله لا يسأل وأنتم (أي جميع بني البشر) تُسألون... فكان أن ولد عيسى من مريم:

- بشراً سوياً دون أَب أو والد!
- كلمة إلٰهي وروح الله ألقاها القادر الأكبر إلى مريم - الأم.
- نبياً، رسولاً، قد خلت من قبله الأنبياء والرسل المختارون المصطفون الأبرار.
- واحداً من الخمسة الذين يدعوهم الإسلام «بأولي العزم» وهم: نوح صاحب الفُلْك، الناجي بأمر الله وإذنه من الطوفان، إبراهيم، خليل الرحمٰن المطيع، الذي كاد أن يضحّي بابنه الوحيد إنفاداً لمشيئة الله وأمره، موسى كليم الله، صاحب التوراة والوصايا العشر، عيسى ابن مريم - يسوع المسيح صاحب الإنجيل، ومحمد بن عبد اللّه الهاشمي، القريشي، المكيّ، العربي، صاحب القرآن والوحي المبين.

يخبرنا الحديث الشهير الذي ورد على لسان الرسول، في مجموع السنّة النبوية بالإعلان الآتي الأساسي:

«من شهد أن لا إلٰه إلاّ الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد اللّه

ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق أدخَله الله الجنَّة على ما كان من العمل». (رواه البخاريّ وهو ـ كما أسلفنا ـ من كبار رواة الأحاديث الثُقاة).

يُستدل من كل ما ورد في بحثنا لهذا المحور المهمّ، أن المسيح نبيٌّ من أنبياء الله، مثله مثل سائر الرسل المصطفين، اختاره الله وأعدّه لكي يدعو الناس إلى الدين الحق وينشر رسالة التوحيد الإسلامية، رسالة إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الرحمٰن لقد دعا عيسى وبشر وأنذر الناس، داعياً إياهم إلى «الدخول في دين الله أفواجاً» لأن الوحي القرآني يجزم ويعلن:

«. . . إِنَّ الدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُر بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ» (سورة آل **عمران ـ ٣ ـ الآية ١٩**).

ولقد بشّر عيسى وتنبأ ـ بإذن الله ومشيئته ـ بمجيء وظهور النبي محمّد، من بعده، رسولاً، داعية باسم أحمد، الذي هو أحد الأسماء القرآنية التي أطلقها الوحي على الرسول المصطفى، القرشي، المكي، والهاشمي العربي.

ج) من أخبار عيسى. . .

زودنا القرآن بالكثير من أخبار النبي عيسى وأمه مريم، في مواقع ومجالات مختلفة. لقد ذكره الكتاب المجيد عدة مرّات في:

* ثلاث عشرة سورة من سور الوحي المئة والأربع عشرة.
* وفي ثلاث وثلاثين آية من آيات التنزيل الحكيم.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على مكانة عيسى النبوية ومقامه الرسولي. كما ذكرته السنة النبوية في كثير من أحاديثها الهامة ذات الشأن والمغزى. لقد ملأ ذكر عيسى كتب الدين الإسلامية وأدب اللغة العربية من قرآنٍ وحديث ومصادر ومراجع شتى مليئة في أكثرها بالأخبار التي تروي:

* ميلاد عيسى، الأعجوبة ـ الخارقة.
* أخباره وأخبار أمه البارّة الصدِّيقة.
* أنباء رسالته الإسلامية الحنيفة الموّحدة وحوارييه.

تقول السُنّة النبوية في حديث شهير من أحاديث الرسول: «الأنبياء أخوة لعلاّت دينهم واحد وأمهاتهم شتّى. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، ليس بيني وبينه نبيّ»

(حديث صحيح، رواه البخاري)، وهو ـ كما ذكرنا سابقاً ـ من رواة الأحاديث الثقاة).

١ ـ ولادة عيسى:

رأينا أن مريم بنت عمران، أم عيسى، كانت أمرأة صدّيقة، بارّة، فاضلة، تقوم بخدمة مسجد من مساجد الله الكثيرة في بلاد فلسطين وأعمال بيت المقدس، وكانت تغادر ذلك المسجد الكريم وتخرج منه، كلّما دعت الضرورة أو كلما أتى زمن حيضها الشهري. وفي يوم من الأيام خرجت مريم مضطرّة من بيت الله وسارت إلى بيت المقدس شرقاً، عندها، شاء الله، فأمر ملاكه المطيع جبريل (وهو نفسه الملاك جبرائيل الوارد ذكره مراراً في الكتاب المقدّس) الروح الأمين ورسول العزة، بأن يذهب ويظهر على مريم، مخاطباً إياها ومبشراً بعيسى! وهكذا كان، فلقد قام جبريل، إنفاذاً للإرادة الربانية، وتراءى لمريم، متمثلاً لها في صورة مخلوق ـ إنسان، شابّ جميل المحيّا، أبيض الوجه، ظريف القامة. فلما رأته مريم، لم تدرِ أنه الملاك الكريم، ففزعت منه وخافت من أمرهِ على نفسها. كذلك فلقد أرتابت في شأن ذلك الشاب الوسيم الذي بدا لها بشكل مفاجئ وعلى حين غرّة، في ذلك المكان. فما كان منها إلاّ أن أخذت بالابتعاد عنه، تحاشياً منها وعفّةً، ورغبة في الانصراف من ذلك الموقف الحرج، نظراً لتقواها، عفافاً وضِعَةً وطُهر نفس... ثم خاطبته قائلة ذلك الكلام الحذر، الذي أورده الوحي لنا على لسان البتول العذراء.

يقول آي الذكر الحكيم في ذلك الموقف الحرج من حياة مريم الصالحة:

«قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيًّا»...

لكنَّ جبريل سرعان ما طيَّب خاطر العذراء وهدّأ من روعها وأزال من نفسها اضطراب الحذر والخيفة قائلاً لها:

«... إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا».

غير أن مريم سارعت بالسؤال، متوجهة إلى الروح الأمين، طارحة أمامه مسألتها الكبرى المقلقة:

«قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا»...

أي أنها ليست متزوجة من رجل ولا هي زانية أو عاهرة.

أجاب جبريل مبدّداً عجب مريم وهواجس نفسها المتفاقمة خوفاً من الفضيحة، وقال لها:

«قَالَ كَذٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا» (سورة مريم ـ ١٩ ـ الآيات ١٨ ـ ٢١).

فليس بأمر صعب أو مستحيل على الله أن يخلق ولداً من غير أب، بل إن شأن

ذلك سهل وهيِّن على الصانع، المكوّن، الذي أراد أن يقيم عيسى علامة للناس ودليلاً على كمال قدرته، وأن يجعل منه وهو ولدٌ صغير:

- رحمة ونعمة لمن اتبع الله رب العالمين وصدّق،
- دليلاً وحجّة لمن آمن وأسلم أمْرَهُ للعزيز الحميد،

وهكذا، فلقد أمر الله جبريل ملاكه المطيع الأمين، أن ينفخ في كيان العذراء مريم البتول، روح عيسى ونفسه الطاهرة، فما كان من أمين الوحي إلا أن أطاع ونفّذ الأمر، فنفخ الروح في أعلى جيب قميص مريم، فوصل الروح بنفخته؛ من فم العذراء إلى رحمها، بقدرة فائقة من الرحمٰن!... وكان أن حملت مريم بعيسى المسيح / يسوع!

يقول القرآن في ذلك:

«وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا آيَةً لِلعَالَمِينَ» (سورة الأنبياء - ٢١ - الآية ٩١).

٢ - اختلاف الناس في أمر مريم والمسيح:

عندما ظهرت آثار الحمل على مريم، كان أول المدركين الفاطنين لذلك، زكريّا النبي أبي يحيى النبي (يوحنا المعمدان) وزوج أليصابات. أما ثاني العارفين، فكان يوسف النجار الذي كان نسيباً لها، ابن خالها، الذي فطن للأمر، وتعجب كثيراً من تلك الحال! كان يوسف من عباد الله الصالحين، ولقد احتار في أمر مريم وضاع إذ رأى العذراء حاملاً، نظراً لما يعرفه ويراه من شدّة تديّنها وطهر عفافها، تقواها وخوفها الله فتوجه إليها بالسؤال قائلاً: يا مريم هل يمكن أن يكون هناك زرعٌ من غير بذار؟

فأجابته مريم قائلة: نعم. ومن خلق الزرع الأول؟

ثم قال لها: هل يكون ولدٌ من غير والدٍ ذكر؟

فقالت له مجيبة: نعم. لقد خلق الله آدم من غير والدٍ ذكر ولا والدةٍ أنثى.

عندئذ قال لها يوسف: أخبريني ما خبركِ؟

فقالت له: إن الله قد بشرني بكلمة منه اسمه المسيح وجيهاً في الدنيا والآخِرة ومن المقربين، يكلِّم الناس في المهدِ وكهلاً ومن الصالحين...

عندما شاع الخبر بين الناس، أن مريم بنت عمران حامل، أساء كثير من الجيران الظنّ بها، واتهمها البعض بأنها حملت سفاحاً من يوسف النجار نسيبها وابن خالها، ذلك الذي كان يتعبد معها لله في المسجد. كذلك فإن بعض الجمع قال فيها إنها ارتكبت الإثم مع زكريا نبيِّ الله المرموق! ولقد حزنت العذراء شديد الحزن بسبب كل

تلك التهم الباطلة. . . فكان أن انتبذت من قومها وأهلها وأسرتها مكاناً بعيداً، قصياً، فراراً من طول الألسن الجانية ومن شدة التعبير بذلك الحبل المعيب؛ حبل من غير زوج ومن دون بعلٍ شرعي! . . .

ولمّا أتمّت أيام حملها، وكان ذلك في مدينة الملك داود النبي، في بيت لحم، اشتدّ المخاض بها فألجأها ألم الوضع ووجع الإنجاب إلى جذع شجرة نخيل يابسة، فاحتضنت ذلك الجذع الذي بقربها. . . وولدت مولودها عيسى النبي. . . ولقد نادها جبريل من مكان، تحتها من أسفل الجبل يطمئنها ويطيب خاطرها، مخبراً إياها بأن الله جعل تحت موضعها نهر ماءٍ صغير، طالباً منها أن تهز جذع النخلة ليتساقط منها عليها البلح الطري والتمر النّدي. وأنْ تأكل وتشرب وتقر عينها بكل ما أعطاها الله من خيرٍ ونعم!

يخبرنا القرآن عن كل ذلك، بأسلوبه الفريد، شارحاً، راوياً ومخبراً، فيقول:

«فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنسِيًّا. فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً» (سورة مريم ـ ١٩ ـ الآيات ٢٣، ٢٤، ٢٥ و٢٦).

لقد أمر الرحمٰنُ مريم ألاّ تكلّم أحداً من الناس وأنها إذا ما رأت إنساناً فلتقل له ـ بالإشارة ـ أنها نذرت صوماً عن الكلام (أي صمتاً)! وأطاعت مريم ربّها فقامت تهزّ جذع الشجرة النخلة، فتساقط عليها الرطب الجنيّ (أي ثمر البلح؛ التمر الشهي) فأكلت منه وشربت من النهر الذي تحتها والذي أوجده الله بقدرته الربّانية. . . كل ذلك إكراماً لها وعناية بها ورحمة منه وحناناً عليها، هي والوليد النبي.

. . . وأتت مريم بعد ذلك أهلها وقومها وهي تحمل الصبيّ وليدها على يديها، فلما رآها الناس من قومها وعشيرتها، أنّبوها قائلين: لقد فعلت، يا مريم، فعلة مشينة نكراء، وارتكبت إثماً سيئاً معيباً، رغم أن أباك لم يكن أبداً رجل سوءٍ ولم تكن أمّكِ امرأة بغياً! لقد وبخوها وأنّبوها وهي صامتة لا ترد ولا تجيب. ولما ضاق ذرعهم واشتدت بهم الحال، أشارت مريم إلى المولود أن كلّموه وهو يجيبكم على ما تسألون.

فقالوا: «كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا» (سورة مريم ـ ١٩ ـ الآية ٢٩).

عندها أنطق الله عيسى المسيحَ الطفل بقدرة منه وحنوٍ ورأفةٍ على ذلك الرضيع الكريم، وقد كان عمره وقتها أربعين يوماً لا غير!

يقول آي الذكر الحكيم، في هذا الموقع وعن تلك الحادثة ما ورد في سورة مريم كالآتي:

«. . . فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنسِيًّا. فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِني عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُباركاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا. وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُون. مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (سورة مريم ـ ١٩ ـ الآيات ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤ و٣٥).

هكذا جعل الله أمنه والسلامة على عبده النبي عيسى الرسول في مواطنه الثلاثة المذكورة في القرآن: يوم الولادة؛ يوم الموت؛ ويوم بعثه عند وقوع القيامة!

. . . وبعد أن تكلّم المسيح وهو رضيع في المهد كما رأينا، طفلاً معترفاً بالعبودية لِلّهِ، دافعاً تهمة الزنى الباطلة عن أمّهِ مريم البتول العذراء، البارة والمصطفاة، أمسك عن النطق والكلام بأمر الله. . . حتى بلغ سنَّ الكلام عندَ الأولاد الصبيان. عندها أنطقه الخالق، من جديد، بالحكمة والموعظة الحسنة وجميل البيان. ذلك هو مسيح الإسلام! إنه كما يقول عنه الوحي: «قول الحق الذي فيه يمترون»!!

المحور الثالث ـ عقيدة الفداء الإلهي؛

الافتراق الثالث الكبير

مقدّمة: عقيدة الفداء: ما هي؟ وماذا تعني؟

قبل أن نهمّ بولوج عالم التنقيب عن ماهية معتقد الفداء أو العقيدة ـ السرّ، علينا التذكير بأنه لا بدّ للقارئ المدقق، لدى غوصه في قراءة آي الذكر الحكيم، من أن يطرح على نفسه، بعض الخواطر التي ترد على البال، والتي تعبر عن نفس الإنسان من مثل ما يأتي:

يبدو لنا، وكأن القرآن ـ عندما يذكر في كلامه، الأخبار الكثيرة عن «الصاحبة والولد» يريد أن ينزّه الخالق تنزيهاً تاماً، لا لبس فيه ولا غموض عن كل ما هو: معنى بشري يمتُّ إلى مجريات الأمور في مجتمعاتنا البشرية ـ المادية؛ وعلاقة زواج وجنس وتناسل يأباها جوهر الله وذاته، كينونته وصفاته، وحدانيته وتجرده:

لهذا نرى القرآن يكرّر النفي، مرات ومرات، شاجباً أن يكون المولى، كائناً شبيهاً بالمخلوقات التي خلقها، يتزوج ويقتني الصاحبة والأولاد. كما يبدو، أيضاً، وكأنه ـ أي القرآن ـ يريد إبعاد الألوهة عن أي نوع أو لون ممكن من أنواع وألوان الشرك والتعددية والوثنية أو أي شائبة من شوائب الأصنام والأنصاب والتماثيل.

من هنا، نشأ في معين الفكر الإسلامي، تيار فسيح من المراجع، تعرض فيها الكثير من علماء المسلمين، لعقيدة التوحيد الخالص، مدافعين عنها باحثين في دقائق مسائلها، شارحين كيف أنها تتعارض مع:

ـ العقيدة/ السرّ التي تقوم على وجود ثالوث من الأقانيم، قدّوس في إلٰه واحد، وإلٰه واحد في ثالوث أقانيم قدّوس.

ـ العقيدة/ السرّ التي تقوم على تجسّد الأقنوم الابن ـ الكلمة في شخص المسيح، الإنسَان التام الكامل والإلٰه التام الكامل.

ـ العقيدة/ السر التي تعلم الإيمان بالفداء. فالفداء هو موت يسوع المسيح/عيسى ابن مريم كفارة عن جميع بني الإنسان.

ورغبة منا في إيضاح مكامن ومفاصل تلك الافتراقات الكبرى الناشئة عن اختلافات في فهم العقائد والمبادئ المسيحية من قبل المسلمين والعقائد أو المبادئ الإسلامية من قبل المسيحيين، رأينا أنه حسنٌ للقارئ ولنا، أن نورد في هذا المعرض

والموقع الهامين، تحليلاً قام به الإمام الكبير، الشهير، أبو حامد الغزالي الذي كتب يعالج بعض العقائد المسيحية الأساس. فطرح على بساط البحث ما يأتي:

«إن ذات البارئ تعالى واحدة في الجوهر ولها اعتبارات عدة:

١ ـ فإن أعتبر وجودها (أي ذات البارئ) غير معلق على غيره. فذلك هو الوجود المطلق، وهو ما يسمّونه (أي المسيحيون) بأُقنوم الآب.

٢ ـ وإن اعتبر معلقاً على وجود آخر كالعلم المعلق على وجود العالم، فذلك هو الوجود المقيد، وهو ما يسمّونه بأقنوم الابن ـ الكلمة.

٣ ـ وإن اعتبر معلقاً على كون عاقليته معقولة منه، فذلك هو الوجود المقيَّد أيضاً، وهو ما يسمّونه الروح القدس لأن ذات الباري معقولة منه.

والحاصل من هذا التعبير الاصطلاحي هو أن الذات الإلهية واحدة في الجوهر وإن كانت منعوتة بصفات الأقانيم».

ويضيف الغزالي شارحاً:

«١ ـ إنَّ الذات الإلهية، من حيث هي مجرّدة لا موصوفة، هي عبارة عن معنى العقل. وهو المسمّى عندهم (أي عند المسيحيين) بأُقنوم الآب.

٢ ـ وإن اعتبرت من حيث إنها عاقلة لذاتها، فهذا الاعتبار هو عبارة عن معنى العاقل، وهو المسمّى عندهم بأُقنوم الابن.

٣ ـ وإن اعتبرت من حيث إن ذاتها معقولة منها، فهذا الاعتبار هو عبارة عن معنى المعقول وهو المسمّى بأقنوم الروح القدس».

فعلى على هذا الاصطلاح يكون:

ـ العقل عبارة عن ذات الله، والآب هو مرادِفٌ له.

ـ العاقل هو عبارة عن ذاته بمعنى أنه عاقل ذاته، والابن مرادف له.

ـ المعقول هو عبارة عن الإله المعقولة ذاته منه، والروح القدس هو المرادف له.

ويختم الإمام الكبير، الفيلسوف الغزالي تحليله هذا بالجملة التالية التي هي المختصر المفيد، لإقفال البحث بعد إنجازه:

«إذا صحت المعاني، فلا مشاحة في الألفاظ ولا في مصطلحات علم الكلام».

(راجع كتاب الإمام الغزالي **الرد الجميل**).

ونحن إذا ما عدنا إلى طرح هذا الموضوع في مقدمة محورنا الثالث هذا، فإن السبب في ذلك، هو ضرورة إيضاح عقيدة الفداء الإلهي المسيحية في حيّزها الصحيح وإطارها الحق. إذ إن مسألة الفداء هذه متصلة ـ لدى المسيحيين ـ عضوياً بالعقيدتين/ السرّين ـ الأُخريين:

ـ سرّ الثالوث القدوس وأهمية وجود الأقنوم الابن ـ الكلمة فيه نظراً للدور الذي لعبه ويلعبه هذا الأقنوم في مسألتي التجسد والفداء.
ـ سرّ تجسّد الأقنوم الابن ـ الكلمة في المسيح، نظراً لدور المسيح عيسى اْبن مريم في مسألة الفداء، عند المسيحيين.

إن سرّ الفداء في المسيحية لازم واجب. فهو، وإن كان معضلة خارقة التصور إعجازية الفهم، ضرورةٌ حتميّة، لا يستقيم بدونه نظام الإيمان المسيحي ويحيا، ويستمرّ. غير أنه يمكن الاستغناء عنه في الإسلام، نظراً لكونه لا ضرورة حتميّة له، فلا لزوم لوجوده حتى يقوم نظام الإيمان الإسلامي لكيّ يحيا جسم الرسالة القرآنية النبوية.

لا يحتاج الإسلام، لكي يكونَ، إلى عقيدة مثل سرِّ الفداء الإلهي. فلقد تم فيه خلاص البشر وفداؤهم عبر:

* الإيمان بالله الذي لا إله إلاّ هو ونبوة ورسالة محمد.
* الغفران الذي يمنحه الله هبةً لمن يشاء من خلفه، دونما حاجة إلى أَسرار خارقةٍ أو اعجازاتٍ.

أولاً ـ عقيدة الفداء الإلهي في المسيحية

في عودة إلى قانون الإيمان النيقاوي ـ القسطنطيني، نصل إلى النص الآتي:

«. . . الذي به (أي بالمسيح يسوع ـ عيسى اْبن مريم) كان كل شيء الذي من أجلنا نحن البشر،
ومن أجل خلاصنا،
نزل من السماء،
وتجسّد من الروح القدس،
ومن مريم العذراء
وصار إنساناً (أي تأنس، أو تجسَّد، آخذاً ناسوت اْبن آدم البشريّ)
وصلب عنا على عهد بيلاطوس البنطي.
تألم ومات وقبر وقام (أي قام من بين الأموات) في اليوم الثالث.
كما جاء في الكتب (أي في الأسفار المقدسة؛ الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد).

وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الله الآب،
وأيضاً يأتي بمجد عظيم،
ليدين الأحياء والأموات،
الذي لا فناءَ لملكهِ. . .».

يُستدل من هذا المقطع الواضح الشفّاف، أن الله قد رتّب بقدرته الكاملة، اللامحدودة، عملية فداءٍ عظمى، قام بها الأقنوم الابن ـ الكلمة، عيسى ابن مريم / المسيح يسوع، دونما أي إكراه أو إجبار. فالفداء الذي تمّمه المسيح عندما قبل مختاراً، الموت على صليب الآلام، هو فداء يهدف إلى تأمين الخلاص لجميع الجنس البشري من آثار الخطيئة الأصلية، ومترتباتها ومضاعفاتها، ومن باقي الآثام كلها والذنوب والمعاصي.

فما هي عملية الفداء هذه؟ وما دور المسيح، «الإله ـ الإنسان»، في المسألة؟

يُعلِّم الكتابُ المقدس ومعه الكنيسة المسيحية الجامعة التي تعتبر نفسها القيّمة الأمينة على وديعة الإيمان الإنجيلي، والعقائد الإيمانية الصحيحة. إنّ سرّ الفداء يقوم على حقائق واضحة هي:

* إعلان الأسفار المقدسة لوجود الله وقولها بضرورة الإيمان به قادراً قوياً، قريباً من الوجود والكون، راعياً مُعْتَنِياً بالإنسان وبسائر الخلائق. فلولا عِنايَةُ الله لانْهارَ كلُّ شيء في الوجود ولتوالت الكوارث والمصائب والفواجع دونما توقّف أو انقطاع.

* تعليم الكتاب بأن الله، أظهر ذاته في أقنوم ابنه الوحيد. وعندما يقول المسيحيّون إنَّ يسوع المسيح هو ابن الله، فإنهم يُعبِّرون بذلك عن حقيقة كتابية أساس وهي أن الله ظهر للناس ضمن إطار علاقة فريدة حتمية، صلة إعجازية، خارقة تربط بين الله الآب والله الابن وتجمعهما في وحدانية السرّ العجيب: ثلاثة أقانيم في إله واحد قدّوس، ذلك هو السرّ الفائق التصوّر.

* الإيمان بأنه كان، لا بد من أنْ تكون الحياة التي عاشها المسيح على الأرض وبين الناس، حياة فريدة، حياة قدّوسٍ بهيٍّ، خالية من الخطيئة والذنب. فحياة المسيح معصومة عن الخطأ، لم تقارب الإثم ولا المعصية وهي حياة منزّهة عن كل الشوائب بأنواعها وعن كل العثرات بألوانها.

* الاعتراف بموت المسيح وقيامته فداء للبشر، يُشكِّلُ لدى المؤمنين المسيحيين ينبوع الإيمان وجوهره ودعامته في آن. فموت المسيح الاختياريّ هو الهدف الأسمى الذي

تقوم عليه تعاليمه والقصد الإلهيّ الذي كان منذ الأزل والذي تمثّل في الزمن بخلاص الإنسان وفداء البشر.

أ) الخطيئة في المسيحية:

يروي لنا سفر التكوين، أول أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس، قصة الخطيئة الأولى مع حوّاء وآدم كالآتي:

«... وكانت الحيّة أمكر وحوش البرية التي صَنَعَها الربُّ الإله،

فسألت المرأة (أي سألت حوّاء):

أحقًّا أمركما الله ألا تأكلا من جميع شجر الجنة؟

فأجابت المرأة:

يمكننا أن نأكل من ثمر الجنّة كلها، ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله: لا تأكُلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا.

فقالت الحيّة للمرأة:

لن تموتا، بل إن الله يعرف أنه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله (أي تصيران مثل الله) قادرين على التمييز بين الخير والشر!

وعندما شاهدت المرأة (أي أم الجنس البشريّ، حواء) أن الشجرة لذيذة للمأكل وشهية للعيون ومثيرة للنظر، قطفت من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها (أي آدم) أيضاً فأكل معها، فانفتحت للحال أعينهما وأدركا أنهما عريانان، فخاطا لأنفسهما مآزر من أوراق التين.

ثم سمع الزوجان صوت الربّ الإله ماشياً في الجنّة عند هبوب ريح النهار، فاختبأا من حضرة الربّ الإله بين شجر الجنّة.

فنادى الربُّ الإلهُ آدمَ: أين أنت؟ فأجاب (آدم): سمعت صوتك في الجنّة فاختبأت خشية منك لأنّي عريان. فسأله (الربّ): من قال لك إنك عريان؟ هل أكَلْتَ من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟

فأجاب آدم: إنها المرأة التي جعلتها رفيقةً لي هي أطعمتني من ثمر الشجرة، فأكلت.

فسأل الربّ الإله المرأة: ماذا فعلتِ؟ فأجابت: أغوتني الحيّة فأكلتُ.

فقال الربّ الإلهُ للحية: لأنّكِ فعلت هذا، ملعونة أنت من بين جميع البهائم... وأثير عداوة دائمة بينك وبين المرأة، وكذلك بين نسليكما. هو يسحق رأسكِ وأنت تلدغين عقبه.

ثم قال للمرأة: أُكثِّر تكثيراً أوجاع مخاضكِ فتنجبين بالآلام أولاداً. . .

وقال لآدم: . . . لأنَّكَ أكلت من الشجرة التي نهيتكَ عنها، فالأرض ملعونة بسببك. . .

. . . بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، فمن تراب أخذت، وإلى تراب تعود. . .».

(راجع الإصحاح الثالث بأكمله من سفر التكوين من العهد القديم).

لقد قام الكتاب المقدس، في هذا الفصل الذي دوَّنَ النص السابق منهُ بشرح معنى الخطيئة بوضوح وجلاء، فهي:

* كل عصيان وعدم الطّاعة لأوامر الله ونواهيه. إنّها المعصية والإثم.

* كل منكر أو سوء أو شرٌ أو أذًى. إنها عكس الخير والمعروف والطيبة.

وعقاب ارتكاب الخطيئة حسب ما يقول الكتاب هو الموت، فإنَّكَ «من تراب أُخِذْتَ وإلى تُرابِ تعود».

لقد عصي الإنسان، أوامر الله بملءِ حرّيته وإرادته ورغبته الواعية، التي وهبهُ الله إياها، عندما صَنَعَهُ وكَوَّنَهُ مخلوقاً حرًّا ذا إرادةٍ وعزم. ولقد أدّى هذا العصيان إلى وقوع الكارثة وحدوث المصيبة الكونية العظمى. فبسبب خطيئة آدم وحوّاء وعصيانهما لوصية الله لهما، سقط النوع البشري وطرد أبواه من الفردوس الذي في جنة عدن! واضح إذاً، من خلال قراءة الأسفار المقدّسة بِتَمَعُّنٍ وفهم أن مخالفة أبينا آدم وأمّنا حواء لأمر الله خالقهما وصانعهما، أوقعتهما في الأزمة الجَسيمة والمشكلة المصيرية والمصيبة الخطيرة. فالخطيئة هي في الواقع فعل عدم طاعة تعاليم الله؛ وعصيان أوامره؛ وارتكاب كلما هو مخالف ومناقض لمشيئته الربّانية؛ وممارسة كل حدثٍ مضادٌ لنواهي المولى وممنوعاته ومحرماته.

باختصار، الخطيئة هي كل تعدٍّ، صغيراً كان أم كبيراً، على شرع الله وناموسه ووصاياه.

ينبئنا التاريخ الإنساني، إثر الاطّلاع السريع عليه، أنَّ الخطيئة تشكّل ظاهرة أخلاقية واجتماعية وواقعاً عملياً مؤلماً. لقد عرفت الخطيئة ونمت فارتكبت في جميع عصور التاريخ، والأجيال والأزمان، منذ بدء الخليقة إلى اليوم. وجميع الأقطار والقارات والأقاليم.

فجميع الناس عصَوا الله وأخطأوا بانحرَافهم عن وحي السماء وتعاليمها. لقد اتّجهوا نحو الشرّ الفاضح والإثم الخفيّ أو المعلن. وَتعلم الكنيسة أن التجارب والاختبارات المتنوّعة المتعدّدة قد أثبتت بشكل لا يقبل الشكّ أنَّ الإنسان العادي لا

يستطيع أن يميّز بشكلٍ دقيق، إذا ما اتكل على ملكات نفسه وقواه الفردية، بين ماهية الخطيئة فعلاً وقولاً وفكراً، ودرجة تأثيرها ومقدار فعلها وشِدّة إساءتها إلى ذات الإنسان وفي أوساط الجماعة وفئات الشعب.

أما الإنسان المؤمن الذي آمن بالله إيماناً قلبياً وعقلياً والذي اختبر فعل الله العميق فيه، فنوى على العيش والتصرف بموجب الشرع الربّاني وناموسه، فإنه يكون، ولا شك في ذلك، أقدر على التمييز بين الخير والشر، وأسرع على إدراك معنى الخطيئة، حجمها الحقيقي وأضرارها. ذلك أن المؤمن الحقّ، يكون قد تأدّب بفعل مثال المؤدِّب الذي دلّه وقادهُ إلى التصرف إلى المسيح الفادي، المخلّص. ولقد أعطاه ذلك المخلص الفادي نعماً عديدة، متنوعة منها معرفة حقيقة المعصية وأثرها في الجنوح بالإنسان إلى ارتكاب المنكر والفساد.

الإنسان المؤمن ـ تقول المسيحية ـ يعيش في حالة توقٍ دائمة إلى الاتصال والاقتراب من الخالق، وهو يشعر شعوراً كينونيًا عميقاً نافذاً بدوام حاجته إلى:

ـ عناية الروح القدس ومعونة النعمة الإلهية للبعد عن نفق الخطيئة المظلم.

ـ دم الكفارة وفداء المخلص لتبريره هو وكل من يؤمن، من آثار الخطيئة والتلوث الذي سببته وتسببه في قلب المؤمن.

يشرح القديس أوغوسطينوس، وهو من كبار علماء اللاهوت ومعلّمي الكنيسة الكبار، تعليمَ الأسفار المقدّسة حول سقوط أبوينا آدم وحوّاء والإرث ـ المشكلة الذي سبَّبه عصيانهما لشريعة السماء، فيقول:

* لقد خلق الصانعُ الإنسانَ حرّاً في الأصل، خلقهُ على صورة الخالق في المعرفة والبرّ والقداسة. خلقه حُرَّ الاختيار، خالداً في الزمن، مخوّلاً إياه سلطاناً على كل الخلائق باختلاف ألوانها، ومانحاً إياه قدرة على اختيار الأشياء والأفعال والمواقف والأفكار خيِّرة كانت أم شرّيرة.

* لقد أخطأ آدم وحوّاء إلى خالقهما الديّان عندما اتّبعا اقتراح إبليس ـ الحيَّة الذي أغراهما بعصيان أمر الرب ومخالفة أمره ومشيئته، فكان أن سقطا في الحال من الوضع الفردوسي الأوّل الذي كانا يتمتّعان برغد الحياة ضمن إطاره في جنة عدن، منذ أن خلقهما الباري إلى وَقت الخطيئة والعقاب؛ إلى الوضع الأرضي المأساوي، المؤلم، الذي يؤدّي إلى الفناء والموت.

* لقد نشأ عن خطيئة آدم وحواء، فقدان الصورة الإلٰهية التي كان أبوانا يرتعان فيها ويسعدان بها. فكان أن فسدت طبيعتهما وأصبحا ميتين روحياً ومصيرهما العودة إلى العدم. وانجرفا عن فعل الخير والمعروف، فأصبحا عاجزين عن كل خير مضادين لكل

فعل طيب بنّاء، مائلين إلى السوء وما يشبه السوء.

لقد أصبح جدّا البشرية، مضادّين لله، كما صارا مائتين جسديًا، عرضةً لكل شرٌ ومرض وألم. . . وموت جسدي أبدي.

* إنَّ علاقة التناسل والنسب بين آدم وحوّاء ونسلهما، هو علّة ما حلّ ويحلّ بهما وبنا. وهو السبب أيضاً، في ما ورثناه من إثم الخطيئة.

لقد أصبح نسل سلالتهما البشرية، يولد، بجميع أعضائه، في حال المعصية، خاضعاً للدينونة، بعيدين كل البعد عن صورة الله ومثاله وشبهه.

* إن الفساد الذاتي الموروث من آدم وحوّاء، والذي دفع كل إنسانٍ وطبعه بطابعه، هو في الحقيقة من فعل الخطيئة والمعصية الأولى الأصلية؛ وطبيعة هذه الخطيئة الخطيرة؛ ونتائجها المرّة التعيسة.

إنه غير متأتٍّ مِنّا شخصياً، أو فينا نحن وعلينا، كما أنّه ليسَ ناشئاً من فعل خطايانا الفِعلية التي نرتكبها نحن شخصياً، إنما من إرث الخطيئة الآدميّة الأصليّة.

* إن فقدان البرّ الأساسي الذي أودعه الله في الإنسان الأول عندما كوّن هذا الإنسان، وفساد الطبيعة البشرية اللذين نتجا من جرّاء سقوط آدم وحوّاء هما العقاب العادل الذي فرضه الديان على كل البشر، قصاصاً لهم على الخطيئة الأُولى الجسيمة.

* إن خلاص النوع البشري من مفاعيل الخطيئة الأُولى يُكتسب من النعمة الإلٰهية الهابطة من لدن الرحمن. إنَّهُ عمل الروح القدس العجيب وفِعْله في قلب كل مخلوق، حيث تكون النفس منفَعِلَة تَتَلقّى النعمة لا فاعلةً، فتلك العطية لا تنحدر إلاّ من رحاب ربِّ العالمين.

د) الخطيئة وأبناء البشر جميعاً:

إذا ما رجعنا إلى الأسفار، نرى أن بولس قد أثار موضوع الخطيئة هذه، عندما كتب الوحي الإلٰهي بريشة الحواري الرسول، ليخبرنا بالحقائق الآتية:

«. . . ولهذا، فكلما دخلت الخطيئة إلى العالم على يد إنسان واحد (وهو آدم) وبدخول الخطيئة دخل الموت، هكذا جاز الموت على جميع البشر، لأنهم جميعاً أخطأوا. فإن الخطيئة كانت منتشرة في العالم قبل مجيء الشريعة. إلاّ أن الخطيئة ما كانت تسجل، لأن الشريعة لم تكن موجودة. أما الموت، فقد ملك منذ آدم إلى موسى، حتى على الذين لم يرتكبوا خطيئة شبيهة بمخالفة آدم، الذي هو رمز للآتي بعده».

(الكتاب المقدس ـ العهد الجديد ـ رسالة القدّيس بولس الرسول الموجهة إلى

المؤمنين أعضاء كنيسة مدينة روما ـ الإصحاح الخامس ـ الأعداد ١٢، ١٣ و١٤).

ولكن كيف نستطيع أن نشرح مقولة بولس التي دوّناها أعلاه وفيها نظرية واضحة تقول بأن هناك علاقة ثلاثية واضحة شفافة بين: خطيئة آدم وحواء الأولى التي اُرتُكِبَتْ في جنّة عدن، والنسل البشري من أبناء آدم وحواء وحتى منتهى الدّهر أو يوم الدينونة أو يوم وقوع القيامة، والموت الذي دخل ساحة الناس.

فما هو المستند النظري والعملي الذي يمكن أن تستند إليه هذه النظرية المهمّة والخطيرة؟

تدلّنا الأبحاث والدراسات، وتؤكّد التجارب والاختبارات التي قام بها أهل الاختصاص، على حقيقة علمية ثابتة ومؤكدة تقول بما يأتي:

لا يمكن لأي كائن حيّ، مخلوق ومصنوع، مهما كان نوعه أن يلِدَ أو ينتج كائناً مغايراً لجنسه أو نوعه البيولوجي. فالثور ـ مثلاً ـ وهو من جنس البقر، لا يمكن له أن يلدَ حملاً أو نعجة؛ إذ إن الحمل أو النعجة هما من جنس الغنم المغاير تماماً للنوع البقري. وكما ورد في التعاليم، على لسان المسيح، ذلك المقطع ـ الحكمة: «لا يجنون من الشوك عنباً».

فإننا نستطيع أن نؤكد ونجزم، استناداً إلى التعليم المنير أعلاه وحسب ما تقول به المسيحيّة، إن هذا القانون الحياتي ينطبق أيضاً على الإنسان. فآدم وحوّاء، اللذان ولدت منهما البشرية جميعها، كانا قد طردا من الفردوس إلى الأرض الوعرة، الموحشة، عقاباً لهما على خطيئتهما المعضلة... ولقد قاما على الأرض، بإنجاب أولادٍ ونسلٍ يشكلون مجموع العائلة البشرية. وهذا النسل كلّه أصبح موسوماً بوسم الخطيئة، مطروداً بسببها من الفردوس، فاقداً ميراث السعادة، وارثاً قصاص الألَم والموت والمَرَض.

خلاصة القول، إنَّهُ قد نتج عن خطيئة الأبوين الأولوين وعلى الساحة الأرضية، حسب التعليم المسيحي، المضاعفات المهمّة الآتية:

ـ فقدان آدم وحواء ونسلهما من بعدهما، النعمة الربّانية السماويّة، فقداناً تامًا.

ـ فساد الطبيعة الآدمية، البشرية فساداً كاملاً ومطلقاً.

ـ دخول الموت الروحي والنفسي والجسدي إلى عالم الإنسان.

ـ دخول الشقاء والتعاسة... والألم والمرض... والقهر... إلى عالم الآدميين جميعاً.

ـ فساد المجتمع البشريّ وقيام النزاعات والحروب والكوارث اللاخلقية المدمّرة غير الصالحة والشرّيرة.

ج) فداء المسيح والكفارة، هو الحل!

لقد أعلن الإنجيل مبدأ عاماً أساساً، لا يجوز لنا نسيانه، إذا ما طرح على بساط البحث موضوع الفداء الإلهي. وقد أشار الإنجيلُ إلى ذلك بعرض السؤال الآتي:

«ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟».

(راجع **الإنجيل حسب ما دوّنه متى** ـ الإصحاح السادس عشر ـ العدد ٥٦).

تجيب المسيحية عن هذا السؤال الوجيه الهام بمبدأين اثنين هما:

ـ كفّارة المسيح.

ـ فداء المسيح.

١ ـ كفّارة المسيح، ما هي؟

تعني كلمة: كفَّارة، في اللغات السامية سواء كانت: الآرامية ـ السريانية. أو العبرانية ـ العبرية، أو العربية القريشية ـ لغة القرآن المجيد ـ تعني: الستر أو التغطية أو الإخفاء. ذلك هو معنى الكلمة لغةً، أما في المفهوم المسيحي فيعني تعبير: الكفّارة، جميع ما قام به المسيح من: بشارة وتعليم؛ أعمال وأفعال؛ معجزات وعجائب؛ صلاةٍ وألم وموت... وقيامة من بين الأموات لأجل خلاص البشر ـ جميع البشر ـ من عقاب الشريعة التي تلقّاها موسى النبيّ الرسول. فالشريعة هي التطبيق العملي لعدل الخالق المطلق، الكامل واللامحدود. ومبدأ الشريعة ـ الأساس يقوم على معادلة منطقية معقولة تقول:

* بالعدل والعقاب في كل حالات الخطيئة والإثم والمنكر والحرام.
* وبالعدل أيضاً والثواب في حالات الصلاح والبر والمعروف والحلال.

لقد أراد المسيح، بفعل طاعته المطلقة، التّامة والكاملة لأبيه: أقنوم الآب الضابط الكل، أن يصالح البشر الخطأة وجميع الآدميين الذين مالوا إلى العصيان والسوء مع الخالق، الصانع، المنزه عن أي لون من ألوان السوء.

وكما أشرنا أعلاه، فالكفّارة تعني أيضاً السِتّار أو السِتّارة. وهي ستار لكل نفس بشرية مذنبة تستحق نيل العقاب على ما ارتكبت من معصية، غير أن رحمة الله ورأفته رفعت عن المذنبين جميع أنواع العقوبات التي يستحقونها بموجب عدل الخالق، الديّان، ووضعَتْ طوعاً واختياراً على عاتق المسيح، الذي تدعوه المسيحية، في جملة ما تدعوه:

«حمل الله الحامل خطايا العالم!

أو حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم!».

ذلك، «... لأن الله محبة!

وقد أظهر الله محبته لنا إذ أرسل ابنه الأوحد إلى العالم لكي نحيا به.
وفي هذا نرى المحبة الحقيقية،
لا محبتنا نحن لله، بل محبة الله لنا.
فبدافع محبته هذه أرسل الله ابنه كفّارة لخطايانا».

(العهد الجديد ـ رسالة الحواري يوحنا الرسول الأولى ـ الإصحاح الرابع ـ الأعداد ٨، ٩ و١٠). وقد استعنّا بذلك بشيء من التصرّف.

لقد فتحت الكفّارةُ باب المصالحة ومهّدت الطريق أمامها لكي تبنى وتقام بين الخالق، المحب، الرؤوف، الرّحوم وبين الناس الخطأة دون أن يتم ذلك على حساب الشريعة ومخالفة أحكام الناموس. وهذا ما عناه، بالضبط، بولس الرسول حين دوّن بوحيٍ من الله، ذلك التفسير المبين والتحليل المفيد! يقول بولس:

«. . . فإنه إذا كان أحد في المسيح، فهو خليقة جديدة: إن الأشياء القديمة قد زالت، وها كل شيء قد صار جديداً. وكل شيء هو من عند الله الذي صالحنا مع نفسه بالمسيح، ثم سلمنا خدمة هذه المصالحة. ذلك أن الله كان في المسيح مصالحاً العالم مع نفسه، غير حاسب عليهم خطاياهم، وقد وضع بين أيدينا رسالة هذه المصالحة. فنحن إذاً سفراء المسيح، وكأن الله يعظ بنا نتوسّلُ بالنيابة عن المسيح منادين: تصالحوا مع الله! فإن الذي لم يعرف خطيئة (أي المسيح)، جعله الله خطيئة لأجلنا، لِنَصير نحن برّ الله فيه».

(رسالة بولس الثانية المرسلة إلى مؤمني مدينة كورنثوس ـ الاصحاح الخامس ـ الأعداد ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠ و٢١).

لقد بحث الفلاسفة كثيراً وكتب العلماء المصنفات والصحف الطوال في طبيعة الله وحول ماهيته وسرّ جوهر وجوده. كما قاموا بالمحاولات الجليلة المتنوعة لفهم كنه العلاقة الحميمة التي تربط رب العالمين الخالق والديان، المحب والغافر من جهة؛ والإنسان المخلوق المحدود، والكائن العاجز من جهة ثانية.

غير أن مجمل هذه الأبحاث والمحاولات لم تؤدِّ إلى أية نتيجة مُقْنِعَة، يقول المسيحيون. . . إلى أنْ جاءت الأسفارُ فأعلنت صراحة وبوضوح:

* أن الله عادل، وعدله مطلق، وهو يقضي بأن يعاقب الخاطئين.
* أن الله قدّوس، منزّهٌ عن الخطيئة. وهو منزهٌ أيضاً عن مصالحة الخطأة من بني البشر دونما فعل تكفير أو ثمن كفارة معادل للخطايا البشرية.
* أن الكفارة بدأت في العهد القديم مع أول سفر من أسفار الكتاب، حين قام الله بتزويد آدم وحواء بأقمِطَةٍ مصنوعة من جلود بعض الحيوانات لِسَتْرِ عورات أبوينا

الأوّلين. . . ولقد استمرّت وتتابعت مظاهر الكفارة، فتجلت في عمل تقديم الذبائح وإيقاد المحرقات، التي كانت تقدَّم تكفيراً عن شرور الإنسان وآثامه، سواء من قبل آدم وحوّاء أو قايين (الذي يدعى في القرآن وعند المسلمين قابيل) وهابيل أو إبراهيم وإسحق ويعقوب أو أيام موسى. . .

إلى أن نَصل إلى خروف الفصح اليهوديّ أو أضحية العبور التي قدمها شعب إسرائيل الخارج من أرض مصر، حيث عاش العبرانيون، عيشة الرقّ والعبودية.

لقد حرّر موسى العبرانيين من ذلك الوضع المزري وقادهم هو ويشوع بن نون من بعده، عبر سيناء، الصحراء، إلى أرض كنعان وبلاد الميعاد؛ ذلك هو فصح اليهود، فصح العبور إلى الحرية، الذي كانوا يحتفلون به بذبح خروف الأضحية مرةً واحدة في كل سنة عبرية.

جرى هذا كله في العهد القديم كما أشرنا ومع العبرانيين. أما في العهد الجديد، فيقول المسيحيون، إنه مع ظهور المسيح وولادته في الجسد، أخذت الكفارة المسيحية شكلاً جديداً ومحتوى أعمق تمثل في فداء عظيم (يتخطّى ويفوق الكبش والشاة والعجل والخروف) ألا وهو فداء المسيح!

٢ ـ فداء المسيح، ما هو؟

تمثلت الكفارة في العهد الجديد بالفداء: فداء المسيح!

فبعد أن كانت تتمثل في عصور العهد القديم بالذبائح والقرابين والمحرقات التي كانت تقدّم تقرّباً إلى الله وطلباً لغفران الخطايا، وبعد أن كانت الكفّارة، كفّارة ندم وتوبة عما فعله شعب العهد القديم من مَعَاصٍ وأرتكبه من ذنوب مخالفاً فيها شريعة الله ونواميسه، أصبحت تلك الكفّارة تقوم علىً شخص المسيح بلاهوته الربّاني وناسوته البشريّ. فالمسيح الإله التامّ والإنسان التامّ حَمَلَ على منكبيهِ، مختاراً، سلطانه العام كمخلص فادٍ، تجسّد ليكفّر عن بني الإنسان، كما تنبأ عن ذلك النبي إشعيا الذي هو من كبار أنبياء الأسفار الموحى بها والكتاب المقدس في عهده القديم حين قال:

«. . . بأنه سيحمل على منكبيه (أي المسيح) سلطانه العام» كفادٍ، مخلّصٍ لجميع الجنس البشري.

لقد أصبح المسيح إذاً، كفّارة العهد الجديد وفداء عَن الأجيال كلّها ومخلص الخليقة بأجمعها!

يؤمن المسيحيون كما رأينا بأنَّ يسوع المسيح ـ عيسى آبن مريم، قد تجسد وصار إنساناً، متأنّساً وآخِذاً طبيعة الإنسان والناسوت، تألم ومات وقبر وقام مِنْ بين الأموات إنساناً وإلهاً ليصبح بملء إرادته كفّارة تامة نهائيّة، وفداء إلٰهياً لخلاص النوع الإنسي.

... سيق المسيح ـ يقول المؤمنون المسيحيون ـ حرّاً، مختاراً إلى مكان تنفيذ حكم الإعدام فيه، بعدما حاكَمَتْهُ السلطة الدينية اليهودية العليا في فلسطين والحاكم الروماني مُمَثّل الإمبراطورية الرومانية في أورشليم / بيت المقدس، بيلاطوس البنطي. سيقَ إلى موضع الجلجثة (وهو تعبير آرامي، عبراني يعني الجمجمة) مع مجرمين محكومين مثلَهُ بالموت صلباً. وعلى تلة الجلجثة قريباً من أسوار المدينة المقدسة وخارجاً عن إطارها، صُلب الفادي، هو والمجرمان اللِصّان، واحد صُلب عن يمينه والثاني صلب عن يساره، في العراء، ويوم الجمعة التي أصبحت تدعى فيما بعد، ومن قبل المسيحيين، الجمعة العَظيمة المقدّسة. تمّت عملية الإعدام أو بالأصحّ بدأت نحو الساعة الثانية عشرة ظهراً... واستمرت آلام المسيح على الصليب حتى الساعة الخامسة عشرة تقريباً (أو الساعة الثالثة بعد الظهر)، حيث أظلمت الشمسُ عندها وخيّمت الظلمة على الجوّ والأرض، كما انشطر عندها ستار الهيكل الكبير ـ هيكل الربّ الذي بناه الملك سليمان النبي في المدينة المقدسة، أورشليم ـ من وسطه وعندما صرخ المسيح بصوت عظيم قائلاً: «يا أبي، في يديك أستودع روحي»...

... وإذ قال هذا أسلم الروح!

يُعتبر موت المسيح على الصليب قمّة الفداء الإلٰهي للإنسان، عند المسيحيين، جميع المسيحيين. فعقيدة كفّارة المسيح الفدائية هي وحدها الجديرة القادرة على تلبية مطالب العدالة الإلهية التي تقضي ـ حسب الشريعة والناموس ـ بأنْ يُعاقَبَ بنو البشر على خطاياهم التي ارتكبوها ويرتكبونها، بالموت الروحي والجسدي الأبديَّين!

ولكي نستطيع أن نغوص في أعماق هذه العقيدة ونلج كنهها ومعناها العميق، علينا بالعودة، ولو قليلاً، إلى الوراء، لنتفحص ما يعلّمه الكتاب وأسفاره المقدسة، حول هذا الموضوع الشائك.

لقد رأينا، فيما سبق، كيف أن المسيحية تتناول مسألة الخطيئة ـ المعصية بالبحث والتحليل، وكيف أنها تعالجها بعد ذلك بفعل الرأفة الإلهية القائمة على محبة الله للإنسان وكفّارة المسيح؛ غفران الربّ القادر وفداء المسيح؛ وتوبة الإنسان وإيمانه بالمسيح...!

قام الربّ الخالق، الديّان، بتطبيق أحكام قانونه وشرعه على آدم وحواء، فاقتصَّ منهما ـ بمقتضى عدله الأمثل الأتمّ ـ فارضاً عليهما العقاب الذي يستحقان، على ما ارتكباه من معصية عندما أكلا من ثمار الشجرة التي حرّم الله أكل ثمارها عليهما.

غير أنه ـ وهو الرؤوف الرحيم المحب في الوقت عينه ـ إيفاءً منه لصفة الرحمة الأكمل التي فيه ـ قام بوعد الجنس البشري بمخلِّصٍ فادٍ هو المسيح، الأقنوم الابن ـ

الكلمة المتأنس، المتجسّد، الذي صار إنساناً مثل جميع الناس، ليموت على الصليب، فادياً، مخلصاً بدمه، مقدماً حياته وآلامه وموته كفّارة وثمناً باهظاً لمعاصي الناس.

في صُلب هذه المعضلة التي تتصدى المسيحية لها محاولة إيجاد الحل المناسب لمضاعفاتها، يبرز أمام علماء اللاهوت والباحثين السؤال الخطير الآتي: كيف يتم التوفيق فيما بين صفة العدل المطلق في الخالق، الديّان وما ينتج عن ذلك من شؤون العقاب وشجون الثواب، وصفة الرحمة والرأفة والمحبة وما ينتج عنها من مسامحة وعفوٍ وغفران...

الجواب عن ذلك السؤال الجوهريّ ليس بالعمل السهل، اليسير والهيِّن، بل هو على عكس ذلك تماماً. ذلك، لأن حلَّ تلك المعضلة الكونية يتطلب موقفاً وجودياً، مصيرياً، كينونياً مُهمًّا، على كل مؤمن مسيحيّ أن يفهه محاولاً فهمه والإجابة عنه.

تجيب المسيحية عن السؤال الخطير أعلاه، دون أي تردد أو ضياع، بأن الحلَّ الوحيد يكمن في الشخص الوحيد، الأقنوم الابن ـ الكلمة لاهوتاً ويسوع المسيح الإنسان ـ الإله ناسوتاً. فهو كونه:

* الإله التام، الكامل، يستطيع أن يقوم بفداء الإنسان أمام الآب والروح القدس.

* الإنسان التام غير الخاطئ، يستطيع أن يقوم بالفداء العظيم، كفارة وغفراناً لكل من يؤمن ويتوب ويندم على معاصيه من بني البشر.

وبالفعل. فلقد رضي المسيح، متطوعاً، مختاراً أن يهب ذاته ونفسه، دمه وجسده فداء لله عن الناس! لقد تطوع وقبل ـ تقول المسيحية ويعتقد المسيحيون ـ بأن يكون:

* حمل الله والكبش الفادي الذي يرفع خطيئة العالم.

* الأضحية التي تألمت وذبحت على الصليب كفارة وفداءً كاملاً، تاماً.

* القربان الأسمى والأكمل الذي حلّ مكان ذبائح العهد القديم الحيوانية الدموية التي ظلّت تُقرَّبُ محرقات على المذابح، استغفاراً لله.

يسوع المسيح، الإنسان ـ الإله، هو إذاً البديل الحيّ الأثمن لكل الذبائح الأخرى. هو المخلص، الفادي الذي «اشترى» عفو الله بدمه، واهباً الإنسانَ المُدان إياهُ، بعدما عفا الله عنه هو وخطاياه، عَفْوَ رحمة وبرٍّ ورأفة ومحبة.

٣ ـ الكتاب المقدس والفداء

يقول العهد الجديد، منبئاً إيّانا عن كفَّارة المسيح ما يأتي:

«فإن المسيح نفسه مات مرّة واحدة لكي يحلَّ مشكلة الخطايا. فمع أنه هو

البارّ، فقد تألم من أجلنا نحن المذنبين، لكي يقرّبنا إلى الله، فمات بجسمه البشري، ثم عاد (أي قام من بين الأموات) بالروح».

(**رسالة بطرس الأولى** - الإصحاح الثالث - العدد ١٨).

لا فداء في المسيحية إذاً، ولا كفّارة أو غفران»، إلا بعمل المسيح العجائبي، الفائق الطبيعة. فعبر موت المسيح الخارق الإعجازي، عندما أقدم طوعاً وبكامل اختياره على الصعود إلى الصليب ليشتري، إكراماً لأبيه، حياة الجنس الإنساني، أقدم، أي المسيح، طوعاً وبحرية تامّة دونما أي إكراه على طاعة الله الآب حتى الموت على خشبة العار عرياناً ليرضي عدل الله ويكون بديلاً للآدميين في تحمّل عقوبة الموت. ولقد أطاع المسيحُ الآبَ حق الطاعة، فمات موتاً مجّانياً اختيارياً بدلاً عن خطايا الناس، مخلّصاً إياهم من لعنة الشريعة وقصاص الناموس، مصالحاً إياهم بدمه مع الخالق، الديّان. . . ثم قام بعد ذلك ممجّداً منتصراً على بيت الموت ودار الفناء.

«أيها الأحبّاء، لِيُحِبَّ بعضنا بعضاً، لأن المحبة تصدر عن الله. إذاً، كل من يحبّ، يكون مولوداً من الله ويعرف الله. أما من لا يحب، فهو لم يتعرّف بالله قط، لأنّ الله محبة! وقد أظهر الله محبته لنا إذ أرسل ابنه الأوحد إلى العالم لكي نحيا به. وفي هذا نرى المحبة الحقيقية، لا محبتنا نحن لله، بل محبّته هو لنا. فبدافع محبته، أرسل ابنه كفّارة لخطايانا».

(**رسالة يوحنا الأولى** - الإصحاح الرابع - الأعداد ٧، ٨، ٩ و١٠).

كما رأينا، يبيّن الحواريّ يوحنا الرسول للمؤمنين معنى الكفّارة في علم اللاهوت المسيحي، إذ يشرح أنها في الحقيقة غطاء وستر لكل نفس عاصية، مذنبة، آمنت وتابَت، فغسلت أدران خطاياها بدم المسيح عيسى ابن مريم / يسوع الذي أُريق على صليب الموت، دون أن تحاكم أو تدان وتسأل أو تطالب بدفع ثمن آثامها ومعاصيها عقاباً وقصاصاً لها هي النفس الآثمة الخاطئة:

لقد أشار بولس إلى سرّ الفداء، مخبراً بما يأتي:

«فإنّ محبة المسيح تسيطر علينا وقد حكمنا بهذا: ما دام واحد قد مات (أي المسيح) عوضاً عن الجميع حتى لا يعيش الأحياء في ما بعد لأنفسهم بل للذي مات عوضاً عنهم ثم قام. إذاً، نحن، منذ الآن، لا نعرف أحداً معرفة بشرية، . . . فإنه إذا كان (هناك) أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة: إنّ الأشياء القديمة قد زالت، وها أن كل شيء قد صار جديداً. وكل شيء هو من عند الله الذي صالحنا مع نفسه في المسيح، ثم سلمنا خدمة هذه المصالحة.

ذلك أن الله (أي الله الآب) كان في المسيح مصالحاً العالم مع نفسه، غير حاسب

عليهم خطاياهم، وقد وضع بين أيدينا رسالة هذه المصالحة. فنحن إذاً سفراء المسيح، وكأن الله يعِظُ بألسنتنا، نتوسل بالنيابة عن المسيح منادين: تصالحوا مع الله! فإنَّ الذي لم يعرف خطيئة (أي عيسى / يسوع) جعله الله خطيئةً لأجلنا، لنصير نحن برَّ الله فيه».

(**رسالة بولس الثانية إلى مؤمني مدينة كورنثوس** ـ الإصحاح الخامس ـ من العدد ١٤ إلى العدد ٢١).

ذلك في العهد الجديد من الأسفار المقدّسة الموحى بها!

أما في العهد القديم، فاسمَحْ لنا أيها القارئ العزيز أنْ نعود وإيّاك إلى نبوءة إشعياء، لنرى معاً ماذا ورد فيها، على لسان الوحي، من أخبار عن الفادي المخلص، الذي سيأتي ـ بالجسد والروح ـ ليصبح الكبش أو الخروف، حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم! لنعد إلى إشعياء إذاً ونقرأ معاً، ماذا كتب الروح القدس بريشة ذلك البارّ، في زمن يفوق على سبع مئة سنة قبل ميلاد الحمل المعني والكبش المقصود: المسيح يسوع.

قال النبيّ وهو يرسم صورة شبه كاملة ولوحة تكاد تكون مطابقة تمام التطابق لشخصية الفادي، المتألم، المصلوب.

«. . . من آمَنَ بكلامنا، ولمن ظهرت يد الرب؟
نما كبرعم أمامهُ كجذرٍ في أرضٍ يابسة.
لا صورة له ولا جمال يسترعيانِ نظرنا، ولا منظر فَنشتهيه.

محتقر ومنبوذ من الناس (ويريد بذلك الوصف، أن يتكلم عن يسوع المسيح المتألم والمعذّب).

رجل آلام من مختبر الحزن،
مخذولٌ كَمَن حجب الناس عنه وجوههم فلم نأبه له.
لكنه حمل أَحْزانَنا وتحمَّلَ أوجاعنا.
ونحن حسبنا أن الربَّ قد أعاقه وأذلّهُ،
إلاّ أنه كان مجروحاً من أجل آثامنا ومسحوقاً من أجل معاصينا،
حل به تأديب سلامنا وبجروحه بُرِّئنا.
كلّنا كغنم شردنا، مِلنا كلٌّ إلى سبيله،
فأثقل الرب كاهله بإثم جميعنا.
ظُلِمَ وأُذلَّ ولكنه لم يفتح فاه،
بل كشاة سيق إلى الذبح،
وكنعجةٍ صامتةٍ أمام جازّيها لم يفتح فاه.

بالضيق والقضاء قبض عليه،
وفي جيله من كان يظنّ أنه استؤصل من أرض الأحياء،
وضُرب من أجل إثم شعبي.
جعلوا قبره مع الأشرار،
ومع ثريٍّ عند موته.
مع أنهُ لم يرتكب جوراً ولم يكن في فمه غشٌّ.
ومع ذلك فقد سَرَّ الله أن يسحقه بالحزن
وحين يقدّم نفسه ذبيحة إثم فإنه يرى نسله وتطول أَيامه،
وتفلح مسيرة الرب على يده.
ويرى ثمار تعب نفسه ويشبع..
... لأنه سكب للموت نفسه، وأُحصي مع أثمةٍ.
وهو حمل خطيئة كثيرين،
وشفع في المذنبين.
كل ذلك كفّارة وفداء لبني الإنسان».
(راجع الإصحاح ٥٣ من **سفر إشعياء من العهد القديم**).
لقد تمثلت الكفارة إذاً في المسيحية:

- بعملية الفداء الربّاني الذي أتمّه المسيح بموته على الصليب وبقيامته من بين الأموات.
- وبإنقاذ النوع الإنسي أو الجنس الآدمي من الموت الأبدي.
- وبغفران خطايا كل من آمن وعمل صالحاً ومعروفاً وخيراً.

ثانياً ـ عقيدة الفداء في الإسلام

سوف نحاول البحث الآن، في المعتقد الإسلامي وموقفه من العقيدة المسيحية الثالثة، ونعني بذلك:

* عقيدة الفداء الإلهي: السر ـ الثالث.
* وموت يسوع المسيح / عيسى أبن مريم على الصليب كفارة وفداءً للناس.

نقولها بصراحة ودون أي تردد، إن الإسلام لا يؤمن إطلاقاً بتلك العقيدة بل يرفضها رفضاً قاطعاً في وجهيها الاثنين: وجهها الأول، الذي يقول بأن عيسى أبن مريم هو الفادي، مخلّص العالم؛ ووجهها الثاني، الذي يقول إن المسيح قد تألّم وصلب ومات وقام من بين الأموات كفارة عن خطايا العالم.

أ) الخطيئة في الإسلام:

الخطيئة في الإسلام هي كل فعل يقوم به الإنسان أو كل عمل يعمله في الحياة، يخالف فيه شرع الله وتعاليمه بما في ذلك حدود الخالق وأوامره ونواهيه الواردة والمنصوص عنها في القرآن المجيد والأحاديث النبوية.

هي الإثم إذاً، الذي يحتوي على السوء والمنكر وما إلى ذلك أو معصية أو قبيحة من القبائح، وكل شرٍّ من الشرور أو مخالفةٍ من المخالفات، يقوم بها ويرتكبها الإنسان في نهاره وليله، مبتعداً في ذلك عن مشيئة الله وإرادته الخيرّة وأمره البهيّ المعصوم.

ولقد وردت في آي الذكر الحكيم ومحكم تنزيله عدة تعابير يعني كل واحد منها الخطيئة، مثال ذلك التسميات القرآنية التي تواجهنا عند قراءتنا القرآن أو تأمّلنا في آياته ودراستنا لتعاليمه:

١ ـ الذنب:

أشار الكتاب في محكم تنزيله إلى الذنب بمعنى الخطيئة والمعصية في العديد من آياته، نذكرها على سبيل المثال لا الحصر:

«إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبيناً. لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً» (سورة **الفتح** ـ ٤٨ ـ الآيتان ١ و٢).

«فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلونِ» (سورة **الذاريات** ـ ٥١ ـ الآية ٥٩).

٢ ـ الفحشاء:

لقد نهى القرآنُ المؤمنين عن ارتكاب الفحشاء التي هي إثمٌ ومعصية وخطيئة، إذ أمر الناس بما يأتي:

«قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (سورة **الأنعام** ـ ٦ ـ الآية ١٥١).

٣ ـ السيئة:

«مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» (سورة **الأنعام** ـ ٦ ـ الآية ١٦٠).

٤ ـ الوزر:

«أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ. ٱلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ...» (سورة **الشرح** ـ ٩٤ ـ الآيات ١، ٢ و٣).

٥ ـ الضلال:

الضلال هو الكفر أو الانحراف عن سبيل الله، وهو أيضاً الضياع وعدم اتّباع الصراط المستقيم.

تؤكد الآيات القرآنية في كلامها على ما يأتي:

«ٱهْدِنَا الصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّالِّينَ» (سورة **الفاتحة** ـ ١ ـ الآيتان ٦ ـ ٧).

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى...» (سورة **الضحى** ـ ٩٣، الآيات ٦، ٧ و٨).

٦ ـ التسميات الباقية الأخرى:

لقد وردت في القرآن تسميات عديدة أخرى تجيب بمعنى واضح وشكل مفصّل عن السؤال الرئيس: ما الذنب أو الإثم أو الخطيئة في الإسلام؟

والجواب هو أنه، بالإضافة إلى ما ذكرنا في الأسطر السابقة، هناك جملة من التعابير منها:

- الفجور والشرّ والحرام.
- الفساد والسوء والأذى.
- الفسق والمُنْكر والبُهتان.

إن جميع هذه التعابير والممارسات الشاذّة هي أعمال ومعاصٍ حرّمها الوحي المجيد ونهت عنها السنّة النبوية. هي الخطايا والذنوب وهي سوء السبيل الذي لا يرضى الله بوجوده وحضوره في الناس وبين الناس.

هكذا نرى، إنَّ اللقاء والاتفاق في هذا الشأن هما شبه تامّ بين الدينين السماويين. فأين هو الافتراق يا ترى؟

ب ـ الكفارة والمغفرة في الإسلام:

يخبرنا الإنجيل، كتاب المسيحية الأول:

وكما علّق موسى الحية في البرية، فكذلك لا بد من أن يعلّق ابن الإنسان (أي المسيح)، لتكون الحياة الأبدية لكلّ مَن يؤمن به. لأنه هكذا أحبَّ الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية. فإن الله لم

يرسل ابنه الوحيد ليدين العالم، بل ليخلّص العالم به، فالذي يؤمن به لا يدان، أمّا الذي لا يؤمن به، فقد صدر عليه حكم الدينونة، لأنه لم يؤمن باسم الله الوحيد».

(**الإنجيل كما دونه الحواري يوحنا الرسول ـ الإصحاح الثالث** ـ من العدد ١٤ إلى العدد ١٨).

ويخبر القرآن، كتاب الإسلام، أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً (راجع سورة النساء ـ ٤ ـ الآية ١٧١).

واضح من نص هذه الآية كل الوضوح، أن مسألة غفران الخطايا في الإسلام، مسألة واردة ومطروحة على بساط البحث والتحليل، وهي ـ كما في المسيحية ـ قضيّة بيد الله. فهو، ربّ العالمين، يهب المغفرة لمن يريد. إنه الديّان الذي يعاقب من يشاء ويثيب من يشاء.

١ ـ معنى الكفارة في الإسلام:

لقد وردت كلمة: كفّارة، أربع عشرة مرّة في أربع عشرة آية من آيات الذكر الحكيم وأوّل هذه المرات العديدة هو ما نطق به المصحف الحكيم عندما أشار إلى المؤمنين بما نصّه:

«إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُمْ مِن سَيِّئَاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (**سورة البقرة** ـ ٢ ـ الآية ٢٧١).

فما هو المقصود، في هذه الآية بتعبير «ويكفّر عنكم» يا ترى؟

يفسّر علماء المسلمين ويقولون إنَّ تعبير الكفّارة هذا، يعني: السِّترَ والغَطاء. ويلتقون في شرحهم هذا مع المعنى الكتابي الذي تقول به المسيحية والذي ذكرناه قبلاً، فأعمال المؤمن الصالحة لَيست إذاً، إلاّ المبرّر الخيّر الكريم الذي يجيز ويتولى التكفير عن الذنوب فهو: يغطّي الموبقات والآثام التي يرتكبها المؤمن خلال ممارساته الخاطئة. ويستر عيب السوء ويُخفيه عنِ الأنظار، فيبعده عن ساحة الفضيلة والإيمان وعمل الخير والصالح، ويمحو العار فيزيل أثر الموبقات تماماً. ويَغسل أدران الإثم والعيب... ولنا في الآية الآتية خيرُ مثال عمليّ على ما ذكرنا ونذكر:

«وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ» (**سورة هود** ـ ١١ ـ الآية ١١٤).

كتب في ذلك، أي في موضوع الكفارة، الكاتب ابن سعد نقلاً عن ابن عبّاس، شارحين لنا تلك المسألة الإلٰهية، قائلَين:

«من أحاطت حسناته بسيئاته، ثقلت موازينه، فأَذْهَبَتْ حسناته سيئاتِه.

وَمَنْ أحاطت سيئاتُه بحسناته، خفَّت موازينُه فأَذْهَبَتْ سيئاتُه حسناتِه».

وللتقوى (أي تقوى الله وخشيته واحترامه) دورٌ مُهِمٌّ مؤثِّر وشأن أساس مُرَجِّح في الكفّارة أو التكفير عن الذنوب.

يذكر القرآن في هذا المعنى الجليل مبدأ تَطمئن له النفس والروح، إذ يدفع بالمؤمن إلى السعي وراء التكفير عن السيئات، عندما يقول:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِر لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ» (سورة **الأنفال** ـ ٨ ـ الآية ٢٩).

ففي تقوى الله خير عميم ونعمة ورضًى رباني يؤدّي إلى كسب المؤمن حالة روحية، نفسية وجسمانية ترتع في ما هو:

* فرقانٌ بين حال التقوى وحال الكفر أو اللامبالاة أو انعدام الرغبة في الوصول إلى معرفة أشياء الكون والدخول في حالة الفهم العميق للحياة والوجود، أي حالة العرفان.
* تكفير (أو كفارة) عن جميع ما هو مضادٌ للصلاح والخير والمعروف.
* غفران للذنوب والإساءات والآثام.

٢ ـ المغفرة أو الغفران في الإسلام:

تنبع المغفرة في الإسلام من جدولين رقيقين اثنين:

أولهما يقوم على أن ننهل من كل ما هو صالح سواء في الأفعال أو الممارسات أو الإجراءات أو الأعمال.

ثانيهما هو القبول والتسليم بإنْعَامات الخالق، الديَّان وأفضالِ ربّ العالمين على ما فيهما من رحمة ورأفة ومحبة وإحسان.

دليلنا على صحة ما ذكرنا وما أسلفنا، في هذا المقام الركن والموقف المنيع، ما تتحفنا به آي الذكر الحكيم، عندما ترسم لنا في محكم تنزيله المبدأ الآتي:

«وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدارِ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ. وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (سورة الرعد ـ ١٣ ـ الآيات ٢٢، ٢٣، ٢٤ و٢٥).

هذا في الكتاب، أما في السيرة النبوية، فلقد ورثنا كثيراً من الأحاديث القيِّمة، الدالّة، التي توضح للمؤمنين الصورة بشكل كامل، تام وتنير معالم الطريق إنارة لا لبس فيها ولا غموض.

رويَ عن النبي، الرسول أنه قال لِمعاذ بن جبل - وهو من كبار وأجلاّء رجال الصحابة الذين كانوا دائم الدوم يحيطون بالرسول، يلازمونه ويستمعون إليه يعلِّم ويُرشد ويُوضح - ما يأتي: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنةً تَمحُها».

وذكر ابن عبّاس عن النبيّ أنه قال: «إن الله تعالى جعل من ثواب المطيع (أي المطيع لله) سروره بحضور أهله معه في الجنة».

فدخول أهل المطيع إلى الجنة معه، هو إكرام من الله وشرف وهبة الخالق إلى المطيع؛ ذلك المؤمن البار الذي أتى بأعمال الصلاح. الجنة إذاً، نعمة من الله عليه وعليهم، وثواب دخول النعيم سواء للمطيع التقيّ أو لأهله هي كرامة من الله ومنّةٌ وفضل عميم. ومختصر القول، الذي نرجوه مفيداً وممتعاً، هو أن كلَّ مؤمن صالح في عمله والأفعال والممارسات، وقوله والآراء والقرارات، ونواياه وما يضمر في القلب والأحشاء والفؤاد، تُغفَرُ له سيئاته ويرعاه الله فيدخله الحياة الآخرة في جنات الخلد والسعادة الأبدية.

٣ - المغفرة والعبادات أو الأركان:

في إيمان الإسلام والمسلمين أنّ مغفرة الخطايا والذنوب مرتبطة عضويًا بممارسة العبادات والقيام بأركان الدين وتنفيذ الشعائر والفرائض. فأركان الدين وما يترتب عليها تؤدي إلى قيام المسلم بكل ما يقتضيه إيمانه من أعمال وأقوال تجعل منه: آمراً وفاعلاً للمعروف؛ ناهياً ومجتنباً للمنكر.

فالعبادات والأركان والشعائر والفرائض هي حتماً في صلب المناعة التي تبعد المؤمنين عن السوء، وتحول بينهم وبين نوازع الشر والإثم وتقوّي مواقعهم في مجابهة الشيطان وألاعيب إبليس ومغرياته.

□ الشهادتّان والمغفرة: ركن الإسلام الأول:

يعرف القارئ الكريم جيداً أن أول ركن من أركان الدين هو النطق الصادق بالشهادتين الآتيتين، شهادتي الإسلام الخالدتين: أشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله، وأشهدُ أنَّ محمداً رسول الله.

ونعرف جميعاً أنه على كل مؤمن مسلم لكي يكون، حقاً، مؤمناً مسلماً أن ينطق، جاذًا وعن إيمان عميق، بالشهادتين؛ فلا كفّارة ولا مغفرة ولا محو للآثام والموبقات بدونهما.

فإن كان المؤمن المتَشهِّدُ عبداً لله، فهو يعلم أن الخالق، الديان، ربَّ العالمين، المولى والباري أرحم بعباده من الأم بطفلها. ذلك أن رحمة الوالدة بولدها محدودة، متناهية، ناقصة؛ أمّا رحمة الله بعباده فهي لا محدودة، لامتناهية وكاملة.

كان النبي يوماً في جمع من أصحابه، يتحدَّثُ وإياهم، فمرَّت أمام الجميع امرأةٌ والدة تُرْضِعُ وليدَها وهي تضمه بحنان ومحبة ورحمة إلى صدرها، فقال النبي لأصحابه الذين معه:

«أترون هذه (أي المرأة الأم) طارحةً ولدها في النار؟ قالوا (أي جمع الصحابة الذين كانوا مع الرسول): لا والله يا رسول الله! فقال (أي الرسول): إن الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

خلاصة القول: مَنْ تشهَّد وتاب توبة صادقة نصوحة، غفرت له مَعَاصيه والسيئات، وغُسِلَتْ ذنوبُه فامَّحت.

□ **الصلاة والمغفرة، الركن الثاني:**

في حديث صحيح، من أحاديث السنّة النبوية، يقول الرسول:

«بُنِيَ الإسلام على خمس (أي خمسة أركان):

شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله وأن محمّداً عبده ورسوله،

إقامة الصلاة،

إيتاء الزكاة،

صيام رمضان،

وحجّ البيت.

يُروى عن عبد اللّه بن مسعود (وهو أحد المميّزين من أصحاب النبي ورجل خيِّرٌ مِنْ أخيار الصحابة) أنه قال:

«سألت النبيَّ: أي العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال (أي الرسول): الصلاة على وقتها».

(أخرج هذا الحديث ورواه، البخاريُّ ومسلم، وهما اثنان من الرواة الثقاة وعلماء السنّة النبوية).

ومعنى كلمة صلاة، لغةً: الدعاء بالخير والحسن والطيّب.

أما معناها في الشرع الديني فهي عبارة عن مجموعة أقوال وسلسلة أفعال خاصة، مخصوصة، تُفْتَتَحُ بالتكبير (أي قول: الله أكبر) وتختتم بالتسليم (أي قول:

السلام عليكم ورحمة الله)، كل ذلك حسب أصول وشروط محدّدة معينة بدقة وإتقان.

والصلاة ركن هام من أركان الدين، وهي «عمود الإسلام»... قال النبي في معنى الصلاة ما يأتي:

«رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة» (حديث صحيح الرواية، أخرجه الترمذي وهو من الرواة الثقاة في البحث عن الأحاديث النبوية وجمعها).

خلاصة القول: الصلاة خير العبادات الإسلامية، وهي فرْضُ عُيْنَ على كل مؤمن مسلم وكل مؤمنة مسلمة عاقلين وبالغين.

لكل هذا الذي سبق، فإنّ كل مسلم تشهَّدَ وتاب توبة نصوحة صادقة وصلّى فرائض الصلاة، غُفِرَتْ له آثامه والذنوب. فالصلاة عبادة يمحو الله بها الخطايا ويكفّر بها السيئات.

قال الرسول: «أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى مِن دَرَنِهِ شيء؟ قالوا: لاَ يَبقى من درَنِهِ شيء. قال (أي الرسول): فذلكَ مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا» (حديث نبوي رواه وأخرجه البخاري ومسلم).

□ الزكاة والغفران: الركن الثالث:

الزكاة في الإسلام هي ضريبة مال شرعية قانونية يزكّي بموجبها كل مسلم أمواله ويدفع عبرها رسماً واجباً فرضه الله عليه، وعلى ممتلكاته. إنها ضريبة مباشرة مفروضة على دخلِ المسلم وواقعة من الله على ثروة المؤمن. وتشكل الزكاة هذه الركن الثالث والعبادة الفريضة التي يُلْزَم بها المؤمن، التقيّ، الوَرِع، الذي يخشى الله ويسعى إلى نيل رضوانه وكسب غفرانه. فالمزكيّ لأمواله يقوم بواجب ديني رئيس، رغبة منه في التكفير عن كل ما هو سيّئ، سلبيّ والتقرّب من أبواب الجنة في الحياة الأخيرة، حياة الأبد والخلود والجنة.

زد على ذلك، أنَّ للزكاة شأناً مُهمًا على الصعيد الاقتصادي، الاجتماعي، فهي الوسيلة الأولى، الفُضْلَى والمُثْلى التي تتيح لكل مسلم أنْ يساهم، هو وسائر المؤمنين، في تمويل كافة المشاريع والخدمات الملقاة عموماً على كاهل الأمة، أمة المؤمنين وعلى عاتق الجماعة، الجماعة الإسلامية التي عليها أن تتضامن جماعياً في إطار الدولة وتحت سقف الحكم والحكومة الإسلاميّة.

يقول القرآن المجيد في ذلك:

«وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآية ٤٣).

ويشير في موقع آخر:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (سورة **المجادلة** ـ ٥٨ ـ الآيتان ١٢ ـ ١٣).

إنَّ المُسْلِمَ الوَرِعَ، هو المؤمنَ الذي يقوم بواجب التضامن مع جميع أفراد الأمة إنفاذاً لأمر الله وتوجيهات رسوله. عندها، وعندها فقط يحق له أن يرجو من الله، مغفرة المعاصي وثواب الأبرار الصالحين:

«إِنْ تُقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّه شَكُورٌ حَلِيمٌ» (سورة **التغابن** ـ ٦٤ ـ الآية ١٧).

يتم تحديد قيمة الزكاة حسب قواعد معينة حدَّدها الشرع الإسلامي تحديداً دقيقاً. ولقد استفاضت المذاهب الإسلاميّة في البحث والتدقيق في شأن ضريبة الزكاة. إنما ما يهم القارئ في هذا الموقع هنا، هو أن الزكاة واجبة على كل فردٍ مالك للسلع المختلفة والبضائع المتنوعة؛ وكل فردٍ مالك لدخلٍ نقدي أو ثروة مالٍ معينة.

وهنا، لا بد لأحدهم أنْ يسأل: من هم المستفيدون من أموال الزكاة؟ يا ترى؟

تكمن الإجابة من هذا التساؤل الحق في آي الذكر الحكيم:

«لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَاليَتَامى والمَسَاكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَآءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ».

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدينِ وَالأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآيتان ١٧٧ و٢١٥).

□ **الصيام والمغفرة:**

يخبرنا محكم التنزيل، شارحاً مفصلاً الركن الرابع من أركان الدين، ذلك الذي فرض فيه الله الصيام على المسلمين، فيقول:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدَىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى وَالفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

«أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوها كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ آيَاتِهِ للنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآيات ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥ و١٨٧).

خلاصة القول: أن كل مؤمن مسلم تشهَّد وصلّى وزكّى أمواله وصام شهر رمضان، استناداً إلى أحكام الشريعة، تاب الله عليه وكفَّر عنه سيئاته وغفر له غفراناً قاطعاً جازماً دون أن يكون محتاجاً لأي فداءٍ أو ذبيحة أو تقدمة من أي نوع كانت.

□ **الحجّ إلى بيت الله الحرام في مكة والمغفرة:**

إنه الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام، والعبادة الأخيرة وليست الآخرة من العبادات التي على المؤمن المسلم أن يقوم بها ويؤديها. هي فريضة على كل عاقل بالغ وعاقلة بالغة، واجبة على من استطاع إليها سبيلاً. فالحج فرض واجب على المسلمين الذين يستطيعون تأمين النفقات اللازمة لمثل ذلك المشروع ورحلته الطويلة الباهظة الثمن.

ولكن، ما فريضة الحج؟ ومِمَّ تتألف؟ وعلامَ تحتوي؟

تشير آي الذكر الحكيم في عدة مواضع إلى موضوع الحج ومنها:

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ (أي بيت عبادة مقدَّس ومسجد مبارك) وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدَىً لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى

النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ» (سورة آل عمران ـ ٣ ـ الآيتان ٩٦ و٩٧).

يعود الحج بالمسلم والمسلمة إلى ينبوع الإسلام وأصوله، ويقودهما إلى الأمكنة التي أنزل فيها وحي الكتاب المجيد. ولقد أتم النبي نفسه فريضة الحج، فغادر المدينة عاصمته وعاصمة المسلمين مع جمهور غفير من المؤمنين والمؤمنات وقام بما يسمى بحجة الوداع عام ٦٣٢م، تلك التي كانت آخر حجة له، قبل أن يتوفاه الله. لذا تعتبر الحجّة الوداعيّة تلك مع ما فيها من شعائر وتنقلات ومحطّات عبادة وتأمل وصلوات وأدعية وسعيّ وأضاحٍ... تعتبر ملزمة لجميع المسلمين في كل العصور والبلدان. أما المكلفون الذين تسري عليهم فريضة الحج فهم كل مسلم ومسلمة بالغين ومتمتّعين بقواهما العقلية التامّة.

وتتم شعائر الفريضة على النحو الآتي الذي رسمه الإسلام:

١ ـ يبدأ المسلم والمسلمة بالطواف سبع مرات حول الكعبة بشكل تكون الكعبة فيه على يسار الطائف أو الطائفة. ويقوم الحاج أو الحاجة خلال ذلك الطواف الإلزامي بما يأتي:

ـ تلاوة أدعيةٍ معيّنة، محدّدة.

ـ تناول شيء مِنْ ماء بئر زمزم.

ـ تقبيل الحجر الأسود الذي هو حجر قابع ومثبت في الركن الجنوبي المسمّى بالركن اليماني من أركان أو جهات الكعبة الأربع وجدرانها.

٢ ـ بعد الطواف حول الكعبة، يقوم الحجاج بالسّعي أو الجري هرولةً بين هضبتي الصفا والمروَة، ثلاث مرّات تامّة كاملة ذهاباً، وإياباً ومرّة واحدة ذهاباً فقط.

٣ ـ ينطلق الحجاج، بعد السّعي بين الصفا والمروَة، من نطاق مدينة مكّة (أو مدينة بكّة) وهضبتي الصفا والمروَة، جماعات وزرافات نحو جبل عرفات (أو جبل عرفة) مروراً ووصولاً إلى موقع مِنى حيثُ يَبيتونَ في ذلك الموقع المقدّس إلى شروق شمس اليوم اللاحق... فيتابعون مسعاهم منطلقين إلى جبل الرحمة في عرفات، حيث يُتمّونَ وقفة العيد في عرفة مرتلين بصوت مرتفع عالٍ، مردّدين نداء التلبية وهذا نصه:

«لبّيكَ اللهم لبيكَ.

لبّيك لا شريكَ لكَ لبّيكَ.

إن الحمد والنعمةَ لكَ والملكَ.

لا شريكَ لكَ».

٤ ـ عند غروب شمسِ ذلك اليوم، يوم الوقوف في عرفات، الذي يسبق عيد الأضحى، يبدأ الحجاج بمغادرة جبل عرفة (أو جبل الرحمة، أو جبل عرفات) والاتجاه نحو موقع مزدلفة حيث يبيتون ليلتهم عند «المشعر الحرام» فيمضون الليل في مزدلفة.

٥ ـ بعد الانتهاء من إقامة الصلوات الشرعية والشعائر الواجبة في المشعر الحرام، يتجه الحجاج، من جديد، إلى منطقة مِنى حيث يقومون برجم الشيطان، بشكل رمزي حسب المسار التالي:

ـ قذف إبليس بالحصى المعدّة خصيصاً لذلك، في موقع ومكان معين خاص.

ـ القيام بهذا الرجم باتجاه ثلاثة أعمدة مخصوصة ترمز إلى الشيطان مسبب كل الشرور والآثام والمعاصي.

بعد ذلك، يقوم الحجاج بذبح الأضاحي من الأنعَام أو الحيوانات الأليفة: إما الجمال أو الثيران، أو الخراف والماعز.

٦ ـ بعد رَمي الجمرات ورجم إبليس، يعود الحجاج إلى مدينة مكّةَ فيطوفون من جديد سبع مراتٍ حول الكعبة القابعة في وسط المسجد الحرام أو ما يسمّى أيضاً بالبيت العتيق... وبهذه المرحلة الأخيرة تنتهي شعائر الحج الرسمية التي تؤلف ما يسمَّى بالفريضة: فريضة الحج الواجبة على جميع المسلمين والمسلمات الذين يستطيعون دفع تكلفتها.

موجز القول: يعود الحاج، بعد أدائه الفريضة ـ الركن، إلى بيته، تقياً، طاهراً، بلا عيب، ولا ذنوب! يعود كالطفل بريئاً كما ولدته أمّه. فالحج يكفِّر عن السيئات ويغفر الخطايا ويمحو الموبقات جميعاً. إنه يغسل المؤمن غسلاً روحيًا، نفسيًا، وجسديًا، فيطهر... ويبقى طاهراً... لائقاً لدخول الجنة ودار النعيم.

ثالثاً ـ صلب المسيح والإسلام

رأينا أن مغفرة الخطايا في الإسلام تتم دون أية حاجة إلى أي نوع من أنواع ما تسمّيه المسيحية بالفداء الإلٰهي. وأن المسيح عيسى ٱبن مريم ما هو في الإسلام سوى نبي، رسول من الأنبياء الملقَّبين بأولي العزم الخمسة. عيسى إذاً هو رسول قد خلت من قبله الأنبياء والرسل، مخلوق بشري وعبد لله. فمغفرة الذنوب ومحو الآثام والتكفير عن السيئات لا تتم إلاّ بنعمة من الخالق، الديّان وعفوٍ منه ومسامحة يعطيها لمن يشاء.

فالمؤمن بالله، المسلم الموحد، الذي يعمل الصالح، آمراً بالمعروف، وناهياً

عن المنكر، هو المرشح الذي يمكن له أن يحظى بالمغفرة والتوبة، والتكفير والمسامحة والعفو والرأفة.

يتّضح لنا عبر ذلك البحث كلّه، أن معتقد آلام المسيح وصلبه وموته على الصليب ثم قيامته من بين الأموات، فداءً للنفوس، هو معتقد لا لزوم له ولا مكان، لا ضرورة ولا موجب لكي يكون حقيقة ومعتقداً إسلاميًا. فالإسلام لا يحتاج إلى صلب المسيح وموته، لا في مبادئه ولا في أركانه أو عباداته، لا في معاملاته أو سلّم القيم الذي يتبناه ولا في شرعة الأخلاق التي يبشر بها. لذا يمكننا القول بأن دين القرآن لا يحتاج إطلاقاً لكي يستقيم ويستوي، لا لوساطة عيسى المسيح أو نيابته بين المكوِّنِ والمكوَّن، ولا لفداء دموي، ثمناً أو كفارةً عن خطايا العالم.

يعلن الكتاب المجيد، قاطعاً وجازماً، المبدأ الإسلامي الآتي:

«إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً» (سورة النساء ـ ٤ ـ الآية ٤٨).

«إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً» (سورة النساء ـ ٤ ـ الآية ١١٦).

خلاصة القول، إنه استناداً إلى آي الذكر الحكيم، فإن الخالق، الصانع يغفر لمن يشاء، ويعاقب من يشاء، يفعل ذلك متى يريد، وكيفما يريد، وحسب ما يريد، دونما أية حاجة إلى مبررٍ أو مسوّغٍ أو واسطةٍ أو مساعدةٍ.

أ) الصلب في الإسلام:

تبدو عقيدة الفداء في الإسلام وكأنها بناء فكري ـ لاهوتي لا يعبّر عن أية حقيقة تاريخية. لا ضرورة لها ولا داعي. ذلك لأن الكفّارة والغفران، بما فيهما من محو للآثام والذنوب، ليسا بحاجة لكي ما يتمّا سوى لمشيئة الله وإرادته، قدرته وأمره. فالمغفرة في الإسلام لا تتطلب لا دماً يُسفك ولا ثمناً أو أجرة سواء كان هذا الدم دم عيسى ابن مريم الرسول، أو أي دم آخر، أو موت المسيح النبي أو موت أي نبيّ آخر أو رسول أو صالح أو بار.

فليس هناك أي شرط مقبول أو أمر أو حافز يمكنه أن يؤثر أو يقود إلى التأثير على قدرة المولى ومشيئته على منح الغفران فعلاً مجّانياً، هبة من عنده لمن يريد وساعة يريد.

في عودة لازمة إلى آي الذكر الحكيم، نستعرض وإيّاكَ ـ أيها القارئ الكريم ـ ما جرى في أمر المغفرة مع أبي النوع الإنسي آدم وأمه حواء.

يقول الكتاب:

«وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (سورة البقرة ـ ٢ ـ الآيات ٣٥ ـ ٣٧).

لقد غفر الله لآدم وحوّاء، دون أن يكون قد لزمته حاجة إلى أي فادٍ أو فداء ومخلّص أو خلاص ودون أن يكون قد استعان بأية كفّارة أو تكفير أو أي دم أو موت.

أمام توبة آدم النصوحة، الصادقة، قام الخالق بما يريد هو أن يقوم به دون حاجة أو دعم أو حافز من أي شيء كان أو أي كائن كان لأن الله لا يسأل عن شيء وأنتم (أي كل مخلوقات الوجود) تسألون.

لقد حسم القرآن مقولة صلب المسيح بأن أبطلها وكفّر كل من يعتقد بها مُعلِناً ذلك دون تردد:

«وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً» (سورة النساء ـ ٤ ـ الآيتان ١٥٧ و١٥٨).

فعيسى لم يصلب ولم يكن هناك أي داع أو حاجة أو مبرر لصلبه، وهو لم يتألم ولم يحتقر أو يهان حسب ما ورد في كتاب المسيحيين الذي يعلن:

«. . . ثم فتح أذهانهم ليفهموا الكتب، وقال لهم: هكذا قد كتب وهكذا كان، لا بدَّ أن يتألّم المسيح (ويموت)، ويقوم من بين الأموات في اليوم الثالث، وأن يبشر باسمه بالتوبة وغفران الخطايا، في جميع الأمم، انطلاقاً من أورشليم (أي القدس). . .».

(**الإنجيل كما دوَّنه لوقا التلميذ** ـ الإصحاح ٢٤ ـ الأعداد ٤٦، ٤٧ و٤٨). . .

عيسى ٱبن مريم، المسيح لم يُصلب ولم يقتل! «بل رفعه الله إليه»! . . .

جاء في نبأ رفع المسيح إلى السماء، أنه قبل أن يأتي اليهود فيدخلوا عليه كان هو مع أصحابه وتلاميذه (أي حوارييّه) في بيت من بيوت أنصاره. فقال لهم:

«إن منكم واحداً سيكفر بي بعد أن آمن. . .

ثم تابع حديثه معهم إلى أن قال لهم: أيكم يقبل أن يلقى عليه شبهي ويقتل مكاني فيكون رفيقي في الجنّة؟

فقام شابٌ صغير السن من أولئك التلاميذ وقال لعيسى: أنا. فقال عيسى: اجلس. ثم أعاد مقالته فعاد نفس الشاب ليقول: أنا... ثم أعاد مقالته، فعاد الشاب عينه للمرّة الثالثة قائلاً: أنا. عندها أجابه عيسى وقال له: أنت هو».

ولقد ألقى الله بإرادة منه وبقدرته الفائقة شبه عيسى على هذا الشاب الذي تطوع للقيام بتلك المهمّة.... فدخل اليهود إلى البيت الذي كان فيه الشابّ، وقاموا بأخذه، ثم صلبه، إلى أن مات على الصليب. أما عيسى، فلقد قام الله، برفعه، بأعجوبة منه، من نافذة كانت منشأة في أعلى أحد جدران البيت، إلى السماء...!

بعد هذه الحادثة المعجزة، الخارقة، افترق المسيحيون إلى ثلاث فرق هي الآتية:

* الفرقة الأولى، قالت إنه هو الله.
* الثانية وقد قالت: هو ابن الله.
* الفرقة الثالثة، التي قالت: هو عبد الله ورسوله، وهي فرقة المؤمنين المسلمين.

ولقد تظاهرت الفرقتان الأولى والثانية، على الفرقة الثالثة، فقام أعضاؤها بقتل المؤمنين من أبناء تلك الثالثة... وكان أن طُمس الإسلام إلى أن بعث النبي محمد رسولاً.

ب) رفع المسيح إلى الله:

يُؤكد القرآن في هذا الشأن المهمّ والمسألة الخطيرة ما يأتي:

«وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ. إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (سورة آل عمران - ٣ - الآيتان ٥٤ و٥٥).

يؤمن المسلمن بأن أكثر أبناء شعب إسرائيل من اليهود، لم يصدّقوا ولم يؤمنوا بنبوءة عيسى... سوى نفرٍ قليل منهم يعدّون على أصابع اليد. هؤلاء آمنوا بالرسالة إيماناً حقّاً فالتحقوا بالمسيح وكانوا له أنصاراً ورسلاً وتلامذة وحواريين. وعندما بدأت دعوة التوحيد المسيحية تعم وتنتشر، قام زعماء اليهود وقادتهم بالتآمر على نبيّ الله عيسى، عازمين على صلبه وقتله والخلاص من أمرهِ. غير أن الله أنقذه من تلك المؤامرة الدنيئة، بإجراء المعجزة التي كتبنا عنها أعلاه. لقد قام إله عيسى بنصرة عيسى والنجاة به، مُخرِجاً إياه من براثن الموت والقتل. نعم! أُنقِذَ عيسى، إذ رفعه الله من بين أظهُرِ القيادة اليهودية إلى السماء، بعد أن ألقى شبهَهُ على شاب من أتباعه، إذ أخذه الجنود الإسرائيليّون إلى محفلهم، فقاموا بمحاكمته وصلبه وقتله وهم يعتقدون

أنهم قاموا بالتخلُّص من عيسى. . . تماماً كما جرى على سطور بحثنا الذي سبق. . .

غير أن هناك، في موضوع رفع عيسى إلى السماء ووفاته الوارد في الآية: «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ. . .» قولينْ اثنين:

- الأول، وهو تفسير ابن عبّاس، الذي يقول فيه: ويجوز هذا القول من باب المقدّم والمؤخر، فكأن السياق: إني رافعك ومطهّرك من الذين كفروا، ومتوفيك أي مميتكَ. فالوفاة هي الموت!

- الثاني، وهو القول بأن معنى «متوفيك» هو: قابضك إلى السماء وأنت حيٌّ يقظان!

«وَٱللَّهُ وَرَسُولَهُ أَعْلَم»!

ج) مغفرة الخطايا والفداء:

تتم مغفرة الذنوب في الإسلام، مهما كانت هذه الآثام والمعاصي والذنوب كبيرة أو صغيرة:

* بتوبة المذنب توبة نَصُوحةً صادقة وندمه العميق على ما ارتكب وفعل من جرائم.
* برضى الله وتوبته على المذنب، رحمة منه ورأفة وحناناً.

فلا شأن إذاً لموت المسيح ولا علاقة لدمه بتلك المغفرة - العطية. لا غافر في الإسلام إذاً إلاّ الله ولا فادي أو مخلِّصَ إلاّ رحمته وتوبته هو. . .

جاء في آي الذكر الحكيم، القول المعبر الآتي:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ. فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى. وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُوا فِيهَا وَلاَ تَضْحَى. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ وَقَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى. فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيهِ وَهَدَى. قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى. وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى» (سورة طه - ٢٠ - من الآية ١١٦ إلى الآية ١٢٤).

على هذا النحو الواضح، المباشر، يدعو الله المسلم قائلاً له بأن شرط المغفرة الوحيد هو: التوبة النصوحة، ورضى الله ورأفته، دون أن يكون للمسيح، موته وقيامته، دمه وآلامه، أي دور في هذا الشأن الإلهي.

مثال كتابيٌ آخر، إثباتاً وتأكيداً لما ذكرنا وعرضنا، وهو الآية الآتية:

«قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ» (سورة **القصص** ـ ٢٨ ـ الآية ١٦).

«ٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ. . .».

«. . . وَظَنَّ دَاوُدُ إِنَّمَا فَتَنَّاهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا الزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ» (سورة ص ـ ٣٨ ـ الآيات ١٧، ٢٤ و٢٥).

«قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. . . وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (سورة **الأعراف** ـ ٧ ـ الآيتان ١٥١ و١٥٣).

«وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً. . . وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً» (سورة النساء ـ ٤ ـ الآيتان ١٠٦ و١١٠).

رابعاً ـ الأمثولة

ليس في الإسلام فداء، بالمعنى المسيحي لعقيدة الفداء الإلٰهي.

عيسى ٱبن مريم / يسوع المسيح لم يُهَن، لم يتألم ولم يُصْلَبْ، بل رفعه الله إليه. فهو نبي الله ورسوله؛ لكنه لَيسَ هو بفادٍ ولا مخلِّصٍ، ولا هو أقنومٌ ولا إلٰه!

لا يقر الإسلام بمقولة: الفداء عن الآخرين ولا يؤمن بها، بل يرفضها رفضاً قاطعاً دونما حرج أو تردد. الله الخالق ـ الديّان هو وحده الغفور الرحيم، يغفر لمن يشاء وما يشاء، عندما يريد وكيفما يريد.

الله لا يُسأل عن شيء يا بني البشر، وأنتم تسألون عن كل شيء!

المحور الرابع ـ عقيدة الخطيئة الأصلية

الافتراق الرابع الكبير

مقدّمة: خروج الأبوين الأوَّلين من الجنَّة

رأينا في ما تقدم من بحث أن المسيحية والإسلام يتفقان على أن سبب السقوط، أو خروجِ الأبوين الأوّلين من جنة عدنٍ، ما هو إلاّ المعصية أو العصيان. لقد خالف آدم وحوّاء أوامر الله ونهيه لهما، عندما طلب منهما بأن لا يقتربا من شجرة معينة تقع في وسط الجنة وأن لا يأكلا إطلاقاً من ثمارها، عندما توجه الخالق إلى آدم وحواء قائلاً لهما: كُلا ما تشاءان من جميع ثمار أشجار الجنة، ولكن إياكما أن تأكلا من ثمار شجرة معرفة الخير والشر لأنكما حين تأكلا منها تموتان حتماً. هذا في الكتاب المقدس.

أما في القرآن المجيد، فلقد توجه الله إلى آدم، بهذا الأمر الواضح الحاسم الآتي: «يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فكُلاَ مِنْهَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (سورة **الأعراف** ـ ٧ ـ الآية ١٩).

ومع أن جنة عدنٍ حيث أسكن الله آدم وزوجته حوّاء، كانت حديقة غنّاءَ ممتعةً وجنة نعيم وخلدٍ، فيها كل ما لَذَّ وطابَ، فلقد كان على آدم وحواء احترام شرع الله والتقيد بوصايا خالقهما العادل الديّان. كانا مخوّلين التمتع بكل ما وهبهما الرحمٰن من متع وملذات ومسرّات ولذائذ، . . كل هذا، إلا شجرة واحدة حرَّمها الله ونهى عن تناول ثمرها وجناها.

لم يَرِدْ في أي من الكتابين الكريمين، تحديدٌ قاطِعٌ لماهية هذه الشجرة المحرّمة. لذلك، فلقد اختلف علماء الدين عند المسلمين، في موضوع تعيين نوع الشجرة المعنية وماهيتها. فلقد قال بعض الاختصاصيين إنها شجرة الحنطة، أما البعض الآخر فقال، إنها شجرة التفاح وقال آخرون، إنها شجرة النخل أو شجرة التين.

هذا في الإسلام؛ أما في المسيحية، فلقد جرى العرف وساد الاعتقاد، في أوساط العلماء والباحثين ورجال اللاهوت بأنها شجرة التفاح، من ذلك النوع النادر الأحمر اللذيذ!

لقد حدثت الكارثة العظمى فخالف أبو البشرية أمر الصانع ـ الناهي. وكان أن

وقع السقوط وحلّت الخطيئة الكبرى. لقد تمّت المعصية ودخل الإثم إلى عالم الإنسان الأوّل وزوجته أم الجنس البشري قاطبة، وكان أن خرج الزوجان الأوّلان من الجنة إلى الكوكب الأرضي عقاباً لهما على فعلتهما. . . وكان أن بدأت حياة الإنسان على الأرض بحلوها ومرّها، بسعادتها وشقائها، بملذاتها وآلامها العديدة والكثيرة.

أولاً ـ الخطيئة الأصلية في المسيحية

تؤمن المسيحية بأن حادثة السقوط، أي خروج آدم وحواء من الجنة شكّلت حدثاً هاماً وكارثة كبرى على الأبوين الأوّلين نفسَيْهما، وعلى جميع أعضاء الجنس البشري وأفراده.

لقد أصبح الجميع خطأة والكلّ أثمة بفعل المخالفة الجسيمة سواء بالتناسل أو بالسلالة. لقد ورث الخلف عن السلف أدران الإثم وعواقب المعصية الكريهة، مما أستدعى فرض العقاب الذي حَتَّمَ قيامة عدل «الصانع» المطلق وكمال الله الدائم التجلّي.

لقد أمر الله، فيما أَمر، بأن يلتزم الإنسان بهذين الإجراءين الرهيبين: الخروج من الجنة والدخول في عالم الأرض المرير وحياة الشقاء مع ما فيها من مكدِّرات ومشقّات، وموت الإنسان الروحي والجسدي، بعد أن كان مخلوقاً خالداً لا يعرف الموت ولا الفناء. كل ذلك، تقول المسيحية، بسبب «الخطيئة الأصلية» ونتيجة لها؛ تلك الخطيئة التي لطّخَت الطبيعة البشرية وجبلة الإنسان بالعار والسوء!

أ) الخطيئة الأصلية طالت جميع الناس:

في تعاليم المسيحية النابعة من الكتاب المقدَّس وتعاليم الرسل والآباء وتفسيرات المجامع العالمية المسكونيّة ومبادئ كتاب التعليم المسيحي، أن الناس قد ورثوا، جميعاً، كأفراد ينتمون إلى الجنس البشري والنوع الإنسي خطيئة آدم وحواء، تلك التي أصبحت تدعى في معجم مفردات اللاهوت المسيحي «الخطيئة الأصلية».

يحتّم علينا البحث في موضوع هذه العقيدة العودة إلى سفر التكوين، أول الأسفار الموحى بها في العهد القديم، الذي يخبرنا بتفصيل، عن بدء الخليقة وكيفيّة صنع الإنسان.

يقول الوحي الإلهي، بصوت الروح القدس:

«. . ثم قال الله: لنصنع الإنسانَ على صورتنا كمثالنا. . . فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه. . . ثم قال الرب الإله: ليس مستحسناً أن يبقى آدم وحيداً. سأصنع له مُعيناً مُشابهاً له. . . غير أنه لم يجد لنفسه مُعِيناً مشابهاً له.

فأوقع الرب الإله آدم في نوم عميق، ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسدَّ مكانها باللحم، وعمل من هذا الضلع امرأة أحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي. فهي تدعى امرأة لأنها من امرِىءٍ أُخِذَتْ. لهذا، فإن الرجل يترك أباه وأمّه ويلتصق بامرأته، ويصيران جسداً واحداً. وكان آدم وامرأته عريانين، وَلم يعترهما الخجل... وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويعتني بها، وأمر الرب الإله آدم قائلاً: كُلْ ما تشاء من جميع أشجار الجنة، ولكن إيّاك أن تأكل من شجرة معرفة الخير والشر، لأنك حين تأكل منها حتماً تموت.

(راجع كامل الإصحاح الثاني من **سفر التكوين**، أول الأسفار المسيحية المقدسة).

«... وكانت الحية أَمْكَرَ وُحُوشِ البريَّة التي صنعها الربّ الإله، فسألت المرأة: أحقاً أَمَرَكما الله ألاّ تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فأجابت المرأة: يمكننا أن نأكل من ثمر الجنّة كلها، ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا. فقالت الحيّة للمرأة: لن تموتا...!

... وعندما شاهدت المرأة أن الشجرة (المحرّمة) لذيذة للمأكل وشهية للعيون ومثيرة للنظر، قطفت من ثمرها وأكلت، ثم أعطت زوجها أيضاً فأكل معها...».

(راجع **سفر التكوين من العهد القديم** وخاصة الإصحاحات الأول والثاني والثالث منه).

لقد سمح الله، خالق الإنسان والصانع الديان، لخليفته في الأرض، بأن يمرّ في امتحانٍ هدفه وغايته طاعة الله والتقيّد بأوامره والسير حسب وصاياه. وكان أن لعبت الحيّة دور الواسطة الإبليسية، الشيطانية في سير هذا الامتحان! فكلُّنا يعلم، أن مجرب آدم وحواء في مسألة العصيان الكبرى، أي الحيَّة اللعينة ما كانت في الحقيقة إلا الشيطان نفسه، عدوّ الخالق وعدو الإنسان وعدوّ كل كائن وموجود حيّ.

لقد تمّت عملية خلق الإنسانين الأوّلين، بشكل بريء، خالٍ من أية شائبة شيطانية أو أية أدران إبليسية شريرة... هذا، إلى أن وقع العصيان وحدثت كارثةُ مُخَالَفَةِ وصيّةِ الله وعدم إطاعتها. فبعد المعصية انتقل أبوانا الأوّلان من حال القداسة إلى حال الذنب، فأصبحا خاطئين، مذنبين، آثمين.

ب) العقوبة الكبرى: الموت!

يعرف القارئ الكريم جيداً أن العقوبة التي فرضَها الكائن الأَعلى المكوِّنُ على آدم وحواء كانت عقوبة: الموت أو الفناء؛ العودة إلى العدم؛ والسقوط في ضدّ الحياة أو اللاحياة.

ويعرف القرّاء الكرام أيضاً أن عقوبة الموت، عقوبة رهيبة لا أعنف ولا أقسى! عقوبة الموت هذه، تسقط الحيَّ العاقل، المفكِّر، العارف، العامل والمتحرك في ثلاثة أشكال من ضروب الفناء العدمي الرهيب هي: ١) الموت الروحي؛ ٢) الموت الجسدي؛ ٣) الموت الأبدي النهائي.

١ ـ الموت الروحي:

هو أقسى أنواع الموت وأمرّها وأقبحها؛ إنَّهُ العدمُ على الإطلاق. إنّه العودة إلى حالة اللاوجود، إذ يودي بالإنسان إلى الذوبان في حقيقة عالم الفناء. والفناء في المسيحية هو وضعية اللاوجود واللاكينونة، حالة اللاحياة واللاحركة، العدم أو اللاشيء أو الجمود التام.

فكأن الإنسان، ذلك الكائن الحيّ السامي، عندما يموت روحياً، يقع في حال اللاوجود وكأنه لم يخلق ولم يكن. يصبح محروماً من التمتع بكل ما تقدمه له الحياة من ميزات وخصائص ونعم وملذات. لقد دخل الموت الروحي إلى عالم الإنسان عن طريق الخطيئة الأصلية. إنه حكم العقاب الذي أصدرته محكمة الخالق، قصاصاً، على الإنسان، ذلك المخلوق الذي عصي وخالف أوامر مولاه.

ولقد فُسدت طبيعة الإنسان بعد الخطيئة وصارت مدموغة بالإثم والسوء! يقول المسيحيون ويؤمنون بأن الإنسان أنتقل بعد الخطيئة من حال السعادة ووضع الغبطة إلى حياة الانطواء على الذات والعزلة والابتعاد عن المكوّن الخالق، فأصبح يحيا في واقع مرير هو واقع الكفر والنكران؛ واقع الكبرياء والغطرسة؛ واقع الشهوة والرغبة في الأخذ والسلب؛ وواقع الاقتتال في سبيل التملّك والاقتناء، والسطو والأنانية.

... وكل هذا أدّى إلى أن يعمّ الشر عالم الإنسان، بعد أن تلوّثت العناصر التي كوّنه الله منها، الروح والنفس والبدن، بإثم المعصية... وكان أن أذنبت روح آدم وحواء ونفساهما كما أذنب جسداهما وضميراهما، الأمر الخطير الذي أدى إلى انفصال المخلوق انفصالاً تامّاً عن الخالق وانقطاعه عن العبودية لله، ودخول نزوات الشر إلى ذات الإنسان وكيانه وسيطرتها على ملكاته وإرادته.

٢ ـ الموت الجسدي:

يمثل موت الإنسان الجسدي ذلك الجانب المنظور أو المظهر المحسوس من عملية الانتقال من الحياة إلى العدم والفناء. فالموت، كما قلنا، هو قمة العقوبة التي فرضها الخالق على المخلوق العاصي. لقد حتّمَ عدل الله المطلق أن يموت أبوانا الأوّلان ليس فقط موتاً روحياً بل موتاً جسدياً أيضاً عقاباً وقصاصاً لهما على فعلتهما. يتم الموت الجسدي:

ـ بانفصال الروح البشرية والنفس الإنسانية عن الجسد المادي المكوّن من لحم ودم وعظام وأعضاء.

ـ بدخول الجسد في حالة اللاحركة وزوال كل أنواع الفكر والشعور ومعالم الحياة سواء كانت معالم مادية أو معنوية أو خلافهما.

ـ ببداية تحلّل الجسم وتفكك أعضائه وتعفنه. . . إلى أن يزول كليًا ككيان حيٍّ، عاقل، متحرك وذي شعور وانفعالات، ليعود، تقول المسيحية وتعلن الأسفار المقدسة، إلى تراب الأرض والأديم الذي خلق وكوّن منهما جسده الفاني.

٣ ـ الموت الأبدي:

أما الموت الأبدي الذي سنعرض له في بضعة سطور موجزة، ههنا، فإنه يمثّل ويشكّل آخر وأقسى درجات الموت! هو الموت الذي لا قيامة بعده. معه وبه تختزن في غياهب الروح وذاكرتها، كل ذكريات ماضي الإنسان المرير، بما في هذه الذكريات من آثار ومعالم وبقايا، تبقى كلها ماثلةً في ذاكرة الروح المائتة.

ولقد سمي الموت الأبدي هذا في أسفار الكتاب المقدّس بالموت الثاني. والسبب في هذه التسمية هو أنه يمثل النهاية الأبدية نسبة إلى الموت الجسدي الذي يعتبر موتاً أولاً، موتاً هو بداية نهاية الحياة والوجود.

تُعتبر حالة الموت الثاني هذه نهاية النهايات لكل كائن بشري حيّ. إنها حالة حقيقة مرعبة مخيفة، حالة عذاب أبدي ومعاناة سرمدية لا نهاية لهما. والموت الأبدي هو نقيض حالة العدم والفناء، فالروح الخالدة الأبدية ترتع مستقرة في أتون الألم الذي لا يزول. تغرق الروح إذاً في بحر العذاب هذا، مقهورة وتعيسة، حزينة ومبتلاة. . . إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين!

ج) انتقال الخطيئة إلى النسل البشري:

لما كان الخالق، الديّان قد وضع ـ في الأزل وقبل كل الأزمان والدهور ـ تصميماً ربّانياً هدفه خلق الوجود والحياة ثم صنع وتكوين الإنسان؛

ولما كان في سابق علم الله الذي لا يحده لا مكان ولا زمان، أن هذا المخلوق المميز سيسقط في المعصية، خارجاً عن مشيئة الله وأوامره، مخالفاً وصيته وناموسه، فيصبح بالتالي مستحقاً للعقاب العادل الذي هو الموت أو الفناء والهلاك أو السقوط في العدم؛

ولما كان الله قد قرّر أيضاً، في خطة علاقته مع مخلوقه الإنسان، أن يقوم بإنقاذ ذلك الساقط العقوق آدم وامرأته الخاطئة معه حوّاء، رحمة منه ورأفة، ومحبة منه وشفقة وحناناً.

ولما كان هناك في ساحة الوجود، واحد وحيد، لا ثاني له ولا ثالث. . . واحد كفوء وقادر وراغب في تولي القيام بمشروع الله الخلاصي وتنفيذه دونما تردد أو فتور أو منّةٍ أو ندم. . .

فإن المسيحية تؤكد وتجزم أن هذا المخلّص الوحيد، الذي لا مخلّص سواه، هو الذي يستطيع، تأكيداً، القيام بفعل الخلاص الربّاني نظراً لكونه في الآن نَفْسِهِ:

- الذات الإلٰهية غير المحدودة الطاقات وغير المتناهية المقدرة؛
- الأقنوم الوحيد الذي يستطيع إيفاء حقوق الله التي له على الإنسانين الأوّلَيْن؛
- الإنسان الخالي من أي عيب كان أو دنس، المنزّه عن أية معصية ممكنة، الذي يمكنه، مختاراً حرّاً، أن يبذل حياته لله «ثمناً» لمعصية آدم وحواء ونسلهما من بعد.

وتؤكد المسيحية أيضاً وتقضي، بثبات وثقة، أن كفّارة الابن الوحيد وفداءه الإلٰهيَّيْنِ هما خشبة الخلاص الوحيدة التي تقوم، نيابة عن الجنس الآدمي، بالتكفير عن ذنوب الإنسان وآثامه أمام الباري، وبوضع الأساس المتين وحرفَ الألف الكبرى لعملية الخلاص الكونية!

فـ «النائب» الفادي الذي تعهّدَ وقام بالتكفير والفداء واحدٌ لا غير. لذلك لزم أن يكون البشر جميعهم أبناء الجنس الآدمي واحداً، أي أن يكونوا ممثلين بشخص واحد، ينوب عنهم جميعاً في امتحان الطاعة لله؛ بحيث أنه لو قدّر لهذا النائب أن يسقط في الامتحان ويضلّ، يعتبر جنسه كله ساقطاً بدوره وضالاً بجميع إفراده وأعضائه. هكذا يصبح ذلك النائب بالتالي ويكون بالتبعية مذنباً يستحق الهلاك مثل جميع أعضاء جنسه. فإذا كان آدم وحواء، وهما نائبا الجنس البشري وممثلا النوع الإنسي، قد أذنبا واستحقا الهلاك، يصبح كل مخلوق مذنباً مستحقاً للهلاك وكأنه هو نفسه آدم وحواء بالذات.

هذا من جهة أولى، أما من الجهة الأخرى، فإنه، نظراً لكون المخلّص الذي يتولى إنقاذ الكل واحداً، وجب أن يكون أبَ البشر الواحد ممثلاً لجميع أبناء جنسه المرشح والمدعو للخلاص فهو، أي الأب، يَنوبُ عن أفراد بشرّيته ويقوم مقامهم.

تقول العلوم الطبيعية وعلوم الحياة إن النسل البشري هو في الأصل موجود وقائم في البذرة البشرية وأن الأصل في النسل - أي نسل كان - يكمن في ثمرة ذلك النسل. انطلاقاً من عناصر هذا المبدأ وعملاً بأحكام القانون الكوني الذي استعرضنا آلية سيره وعمله في الحياة، يعتبر سقوط أبناء آدم وحواء وخطيئتهم جميعاً، دَيْناً مستحِقًّا، واجبَ التسديد إلى الله. ديناً وثمناً للخطيئة التي قام المسيح بدفعها من حساب دمه وموته وقيامته، فداءً وهبةً مجّانية. لأجل ذلك قيل في الأسفار:

«... من أجل ذلك كأنّما بإنسان واحد (أي بآدم) دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت...»...

هكذا طغى الموت على جميع الناس كباراً وصغاراً، أطفالاً وشيوخاً، لأنهم ورثوا عقوبة الفناء من الأصل وعن الأصل. فآدم الأوّل الذي هو آدم الإنسان، زَوجُ حوّاء، وضع في ميزان العدل الإلهي - في كفة تقابل الكفّة الأخرى، أي الكفّة التي وضع فيها آدم الثاني، أو آدم الأخير: الكفّارة والفداء. وآدم الأخير ما هو - تشبيهاً ورمزاً - سوى المسيح يسوع/عيسى ابن مريم، الفادي المخلِّص.

ولقد ورث أبناء الجنس البشري عن أبيهم آدم وأمهم حواء خصائص وملكات ومُمَيزات، نذكرها، بإيجاز:

١ - الطبيعة البشرية وما فيها:

لقد ورث الناس عن أبويهم طبيعة بشرية لها ملكاتها وخصائصها، وفيها ميزاتها وعوراتها، فمن الضمير الكامن فيها إلى نزوة الشر والإثم، مروراً بالميل الدفين المركوز في أعماق القلب البشري، الميّال إلى كل ما هو سيئات وفسوق حقاً؛ تقول المسيحية وتعتقد بأن طبيعة الإنسان طبيعة فاسدة، ملوّثة وساقطة. طبيعة تنزع أكثر ما تنزع إلى فعل الشر وارتكاب المحرّمات واستحسان المنكرات، كل ذلك نظراً:

- لاستيطان الخطيئة الآدمية - الحوّائية الأصلية فيها، وتغلغل تلك المعصية الكبرى في حنايا الجبلة البشرية والفطرة الإنسية، بفعل الانتقال الوراثي والنسب والنسل.

- لاستقواء إغراءات الشر والمحرّمات والمنكرات وقوى المعصية، الناجمة عن فعل إبليس / الشيطان الذي لا هم له ولا هاجس سوى الإيقاع بضمير الإنسان وجبلته، وجرّهما، عبر المغريات، إلى فعل الشر واستطياب الإثم.

فالإنسان قليل الإيمان، راغب في ارتكاب الخطايا، فاتر ومتردد في عمل الخير.

٢ - الشر والسوء الإراديّان:

لقد احتل الشرُّ والسوءُ الإراديّانِ ساحةَ الحياة الإنسانية، منذ زمن آدم، لأن الخطيئة أبعدت الناس عن الحكمة والحق.

يقول سفر الأمثال من الكتاب المقدَّس:

«... فإن مخافة الربّ هي رأس المعرفة، أما الحمقى فيستهينون بالحكمة والتأديب».

(**سفر الأمثال**، الإصحاح الأول - العدد ٧).

رأس الحكمة، إذاً، هو مخافة الله، والإنسان الحكيم هو الإنسان الذي يخشى الله حقًّا ويتقيّد بوصاياه، أوامره ونواهيه! لقد سعى الإنسان، منذ خروجه من جنة عدن

إلى تاريخ ميلاد المسيح، سعى وجدَّ للحصول على النعم الآتية: السعادة الحقّ؛ السلام الحق، ورغد العيش الآمن، المطمئن، بمعزلٍ عن الله. ولكنه أدرك في نهاية المطاف الطويل أنه لن يجد سوى خيبة الأمل وظلام العيش وهموم الأيام. فالحل الوحيد الذي يبعد الإنسان عن شرِّ نفسه وسوء ذاته هو:

ـ اتّقاء الله وخشيته خشية مؤمنة عميقة،

ـ الإيمان بفدائه وكفارته وغفرانه إيماناً تامًّا، كاملاً، شاملاً، إيمان الولادة الجديدة، الولادة من الروح القدس واتّخاذ الابن ـ الكلمة مخلِّصاً شخصياً وفادياً مباشراً فعليًّا.

٣ ـ الضمير الإنساني:

تؤمن المسيحية بأنَّ ضمير ابن الإنسان هو ملكة زرعها الله فيه، مهمتها الرئيسة الأُولى:

ـ مساعدة المخلوق وجعله قادراً تماماً على التمييز بين الخير والشر، المعروف والمنكر، والحلال والحرام في الفعل والقول والفكر والنيَّة.

ـ توبيخ ابن آدم على ما ارتكبه ويرتكبه من خطيئة وإثم ومعصية.

ـ رسم طريق السعادة الحقيقية أمام المخلوق وحثّه على السير عليها واتّباع مراميها.

فالضمير هو المؤشّر الوحيد والميزان الذي يزن أمور الإنسان على أساس مقياس الخير والشر، منبهاً ومحذِّراً، رادعاً ومؤنّباً كلَّ امرىءٍ أو امرأةٍ تُقْدِمُ على ارتكاب القبيح أو الخطأ.

٤ ـ الخصائص والمَلَكات:

إنها تؤلِّف مجموع الطاقات والقدرات، الميزات والمهارات التي حباها الله الإنسان ووضعها في آدم وفي جميع نسله من بعدهِ. ولقد تلطخت تلك الخصائص والملكات بأدران الخطيئة عندما سقط الإثنان الأوّلان، فأهبطهما الخالق من عدنِ الجنان إلى شقاء الأرض.

إن كل ما أعطاه الخالق لآدم وجميع ما لطّخته الخطيئة به، أُعْطِيناهُ نحن أيضاً، لأننا نسله وأبناء نوْعهِ وجنسه. فكلام الله الموجّه إلى آدم هو عينه الكلام الربّاني الموجه إلى كافةِ الناس وجموعهم. فلقد ورثنا عن آدم مثلاً، كل ما حكم الله به عليه من تعب ومتاعب وهموم؛ وشقاء العمر ومشقات السنين والأحمال الثقيلة؛ وحسرة الموت وآلام الأمراض والمعاناة.

. . . وهكذا، برزت التركة المظلمة، القاتمة، السوداء التي نكب بها الجنس البشري، فسادت النزاعات ومادت على سنّة الحياة والعيش، وما زالت سائدة إلى أن بزغ فجر العهد الجديد: عهد مخلِّص المسيحية والعالم، الإله ـ الإنسان يسوع المسيح!

ثانياً ـ خطة الخلاص والإنقاذ

لقد وقعت الطامَّةُ الكبرى، الكارثة الكونية والمصيبة الأعظم! خالف آدم وحواء وصية الله لهما بعدم الأكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر... وكان لا بد للعدل المطلق، العدل الحقّ، من أن يتحرك. فاتّخذ الربُّ الإلٰهُ قراره العادل، الحاسم، المبرم، الذي قضى بمعاقبة الزوجين العاصيين عقوبة مُستحَقَّة.

كتب الرسول بولس، واضعاً النقاط على الحروف كالآتي:

«... إذاً، ما فضلُ اليهوديّ (أي المؤمن بالله الواحد، الأزلي، السرمدي، الصمد، أي غير الوثني)؟ بل ما نفع الختان (والختان هو علامة الانتساب إلى نسل إبراهيم وإلى إيمان إبراهيم التوحيدي، الحيّ... عند العبرانيين، شعب إسرائيل)... فماذا إذاً؟ أنحن اليهود (أي غير الوثنيين) أفضل؟ لا على الإطلاق! فإننا، في ما سبق، قد اتّهمنا اليهود واليونانيين (أي الوثنيين) بكونهم جميعاً تحت الخطيئة، كما قد كتب: ليسَ إنسانٌ بارٌّ، ولا واحدٌ، ليس من يُدْرِك. ليس من يبحث عن الله. جميع الناس قد ضلّوا، وصاروا كلُّهم بلا نفع. ليس من يمارس الصلاح، لا ولا واحد. حناجرهم قبور مفتوحة؛ ألسنتهم أدوات للمكر؛ شفاههم تخفي سمّ الأفاعي القاتلة؛... في طرقهم الخراب والشقاء؛ أمّا طريق السلام فلم يعرفوه؛ ومخافة الله ليست نصب عيونهم... أما الآن، فقد أعلن البرُّ الذي يمنحه الله... ذلك البرّ الذي يمنحه الله على أساس الإيمان بيسوع المسيح لجميع الذين يؤمنون، إذ لا فرق، لأن الجميع قد أخطأوا وهم عاجزون عن بلوغ ما يمجّد الله. فهم يُبَرَّرونَ مجاناً بنعمته (أي بنعمة الله) بالفداء بيسوع المسيح الذي قدّمه الله كفارة، عن طريق الإيمان، وذلك بدمه...».

(**رسالة بولس إلى المؤمنين الأعضاء في كنيسة مدينة روما** ـ الإصحاح الثالث).

أما إذا ما عدنا إلى المقطع الأخير من قانون الإيمان النيقاوي ـ القسطنطيني، فإننا نقرأ ما يأتي:

«... الذي (أي المسيح) من أجلنا نحن البشر،

ومن أجل خلاصنا (أي إنقاذنا بالغفران من خطيئة آدم وحوّاء الأصلية التي ورثناها بالتناسل)،

نزل من السماء،

وتجسَّد من الروح القدس (دونما أية حاجة إلى زرعِ بشري ذكري أو أب إنسان)،

ومن مريم العذراء،

وصار إنساناً (أي أخذ طبيعتنا البشرية كاملة تامة، فتجسَّد أو تأنس)،
وصلب عنا (أي نحن جميع البشر دون أي استثناء) على عهد بيلاطس البنطي (وهو الوالي الروماني الذي كان يحكم فلسطين في ذلك الوقت)،
تألم ومات وقبر وقام في اليوم الثالث
كما جاء في الكتب (أي في أسفار الكتاب المقدس)...».

وكل ذلك، حباً بالبشر وليؤدي عن كل مخلوق بمفرده، إلى عرش الله، عقاب الخطيئة الأصلية، فتغفر هذه مع الذنوب والمعاصي بمجرّد أن يقوم الناس، كل فردٍ من الناس، بالأمور الآتية:

- الإيمان به بأنه إلٰه تام وإنسان تام.
- الاعتراف به هادياً، فادياً ومخلِّصاً.
- الشهادة بأنه حقاً إلٰه حق من إلٰه حق، محب للبشر وغافر مسامح ماحٍ للخطايا.
- الوعي بأنه مات موتاً كفّارياً، موتاً اختيارياً، إرادياً، موتاً حراً، تطوعياً من أجل إنقاذ الناس... وقام قيامة مجيدة من بين الأموات.

أ) كيف تمَّ الخلاص:

يعتبر الأقنوم الابن ـ الكلمة، عند المسيحيين:

- إلهاً قدوساً بلاهوت تام.
- إنساناً بشرياً بناسوت تام، معصوماً وخالياً من أية خطيئة.

وهذا الكائن الخارق، العجيب، هو وحده الكائن الأسمى الذي يستطيع إتمام عملية الخلاص. فبصفته إنساناً لا عيب فيه ولا إثم، هو جدير وقادر على احتمال موت الصليب نيابة عن جميع الخطأة. وبصفته إلهاً تاماً، فهو جدير وقادر على إيفاء متطلبات العدل الإلهي بجميع حقوقه. ذلك العدل غير المحدود الذي هو لله وعند الله.

هكذا، أعاد موت المسيح الخالي من أية خطيئة مجدَ الله إلى الله ومحا الإهانة الرهيبة، الفظيعة التي قام بها الإنسان ضد صانعه ومكوِّنه، عندما عصي أوامر السيِّد، هو وحواء زوجته. لقد فتح الابن ـ المسيح بكفارته وفدائه الطوعي باب عفو الله من جديد أمام الناس، بعد أن كان مقفلاً، منذ سقوط أبوينا في بدء الزمان، وحتى ظهور المسيح وقيامته من بين الأموات. جاء المسيح ليدعو الجنس البشري، إلى الاتصال والرجوع، من جديد، إلى حظيرة الخالق، عن طريق الإيمان الصادق العميق بالابن وفدائه الأوحد.

يقول بولس، في هذا الصدد، شارحاً، محلِّلاً:

«ولهذا، فكما دخلت الخطيئة إلى العالم على يد إنسان واحد، وبدخول الخطيئة دخل الموت، هكذا جاز الموت على جميع البشر، لأنهم أخطأوا... أما الموت، فقد ملك منذ آدم إلى موسى... فإذا كان الكثيرون بمعصية إنسان واحد قد ماتوا، فكم بالأحرى في الإنسان الواحد يسوع المسيح تتوافر للكثيرين نعمة الله والعطية المجانية بالنعمة... إذا كما أن معصية واحدة جلبت الدينونة على جميع البشر، كذلك فإن برّاً واحداً يجلب التبرير المؤدي إلى الحياة لجميع البشر...».

(راجع الإصحاحين الخامس والثاني عشر، من **رسالة بولس إلى المؤمنين في كنيسة مدينة روما من العهد الجديد**).

ب) موت المسيح ودمه هو الخلاص:

وضح لنا أن كفارة المسيح قد أوصلتنا إلى الفداء، وبالتالي لقد أتمت عملية الخلاص الشاقة الهادفة إلى إنقاذ بني الإنسان من نقمة الموت. كفارة المسيح هي - في الإيمان المسيحي - كفارة عامة تطال وتشمل جميع مخلوقات البشر. غير أن فوائد كفارة الابن المتجسد هي فوائد خاصة ينعم بخبراتها وغفرانها المؤمنون.

تقوم فلسفة الغفران في المسيحية كما يقوم لاهوت عقيدة الخلاص على مبدأ مِفْصَلٍ، يبنى، بدوره، ويستند على الحيثيات الآتية:

* محبة الله اللامتناهية وغير المحدودة لجميع مخلوقاته وخاصة بني الإنسان.
* وآلام المسيح ومدته على الصليب كفارة وتعويضاً عن كل مخلوقات الله من أولاد آدم.
* وإرشاد الروح القدس ودوره البشاري سواء في الكنيسة وجماعة المؤمنين أو في العالم أجمع.

فإن هذا المبدأ الدعامة يحتم على علماء اللاهوت وشارحي الكتاب المقدس أن يقرّوا ويعترفوا بأن ما من إنسان يستطيع أن يَحْظى بنعهم الكفّارة المسيحية وفوائدها الروحية والجسدية، مع ما يرافقها من إنعَامات الفداء والخلاص، إلا إذا:

- قَبِلَ بشارة المسيح وآمن بها.
- وُلِدَ ولادة جديدة. ولادة تتم «من فوق»، بفعل الروح القدس.
- قَبِلَ المسيح، الابن - الكلمة مخلِّصاً شخصياً له.

فالذي يؤمن بالابن (أي بالمسيح) له الحياة الأبدية، والذي لا يؤمن بالابن فلن يرى أو يحيا الحياة الأبدية.

لذلك، فإِنَّ مسؤولية حكم الهلاك الذي يطال غير المؤمنين بالمسيح، الابن -

الكلمة، إذا ما وقعت وتمت على كل واحدٍ من الذين لا خلاص لهم، إنما تقع على عاتق غير المخلَّصين، لا بسبب عدم شمول كفّارة المسيح وتغطيتها الجميع، ولا بسبب عدم كفاية هذه الكفّارة أو قلّة فعلها أو ضعفه، بل لعدم إيمان المعنيين بها وبصاحبها. فكلّ إنسان إذاً، مرشّحٌ لكي يصبح من المخلّصين والمفديين، وهو، معدٌّ للتمتّع بالخلاص والحياة الأبدية.

ثالثاً ـ الخطيئة الأصلية في الإسلام

يطرح على بساط البحث، في هذا الجزء الثالث من دراستنا، سؤال جوهري: هل يؤمن الإسلام بالخطيئة الأصلية أم لا؟

نسرع لنؤكّد للجميع، فنقول دون أي تردّد أو حَيرة: ليس في الإسلام أي تعليم يفرض الإيمان بالخطيئة الأصلية، لا من قريب ولا من بعيد. كما أنه لا وجود لأية عقيدة مماثلة للمعتقد المسيحي الذي يدور حول الخطيئة المسماة في الأدب الديني المسيحي بالخطيئة الأصلية.

أ) الخطيئة الأصلية في القرآن المجيد:

لِنعُدْ إلى آدم وحوّاء، إلى بدء الخليقة، عندما قرر الله بكرم منه أن يخلق الجنَّ والإِنس لعبادته وتسبيحه والسجود له وحمده بكرةً وعشياً. لقد خالف أبونا آدم أمر خالقه وأرتكب معصية يلام عليها عندما خالف تعاليم المولى وضَرب عُرض الحائط بنواهيه. هكذا أخطأ الإنسانان الأوّلان وخَرَجا على أمر الآية الواضحة الصريحة:

«وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون»، وليس لأي أمرٍ آخر! معنى هذا، أن الإنسان خلق ـ في الإسلام ـ ليطيع الله لا ليعصي، وليعبد الله لا ليكفر، وليذكر الله لا لينسى ذكره. ويعتبر آدم مسؤولاً شخصياً، بفردِه هو دون أي فرد غيره، عن المعصية التي أرتكبها. لذلك، فإنه ليس من المقبول ولا من المعقول في شيء أن يؤدي ذنب آدم وحوّاء إلى حملِ أي رجل وأية امرأة من نسلهما، وِزْرَ الشر الذي قاما به.

«وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً. إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً. مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً» (سورة **الإسراء ـ ١٧ ـ الآيات ١٣، ١٤ و١٥)**.

فترِكةُ الذنب في القرآن، أيِّ ذنبٍ كانَ، صغُرَ أم كبرَ، لا يحمل وزرها إِلاَّ

الإنسان الذي أرتكب ذلك الذنب، هو وحده المسؤول عما جنت يداه أو لسانه أو عقله وفكره وقلبه من آثام ومنكرات سواء كانت هذه الآثام والمنكرات كبيرة هامة أو صغيرة عرضية. فالمبدأ الشرعي في الإسلام إذاً هو مبدأ المسؤولية الشخصية الفردية التي تقوم عليها عقيدة الثواب والعقاب:

الإنسان البالغ الرشد، العاقل المالك لقواه الفكرية والدفاعيّة، مسؤول عن كل ما يقع على عاتقه من أعمال وأقوال أو أفكار. الإنسان الذي ارتكب الخطيئة هو وحده مسؤول عن خطئهِ دون غيره.

إنه المبدأ الوحيد الذي يُقِرُّه شرع الإسلام ويستنير به المؤمنون المسلمون؛ مبدأ ثواب الذين يأتون المعروف، يأمرون به ويعملونه وعقاب الذين يأتون المنكر، يرتكبونه أو يأمرون به أو يغضّون النظر عن مثوله في المجتمع، حراماً وسوءاً وإثماً ومعصية.

ومبدأ العدالة هذا في شريعة الثواب والعقاب، يدفع بنا إلى النظر والبحث في قانون المسؤولية الفردية، مسؤولية الإنسان التامة الكاملة عن أعماله. لقد أبرز الشرع الإسلامي هذه الحقيقة وعالجها، منطلقاً في ذلك من هاجسين اثنين:

الأول: هاجس دراسة الفعل المعنيّ، أو العمل المعروض على بساط البحث، سواء كان إجراءً عملياً أو قولاً لسانياً أو رأياً مدوّناً أو خطة أو مشروعاً من الخطط والمشاريع، والوصول بالدراسة هذه إلى الإقرار بكون كل ما ذكرنا، يدخل في نطاق المحرّمات أو المنكرات أو الأذى والشرور.

والثاني: وهو هاجس البحث في تحديد مسؤولية مرتكب الحدث المشكو منه والذي هو موضوع النزاع، ووضع هذه المسؤولية على كاهل الشخص مرتكب الحدث أو على أشخاص مرتكبيه. فسوء النية أو حِسْنُها عنصران فاعلان وعاملان مرجّحان في هذا المجال، كذلك حسن النتائج أو سوءها، أحرام هي أم حلال؟ منكرة أم من قضايا المعروف؟ شرّيرة أو خيّرة؟ نافعة أم ضارَّة؟

يشير القرآن في معرض بحثه الدقيق، إلى موضوع الصالح أو الطالح والصحيح أو الخطأ، فينير أبصار المؤمنين، موجّهاً ومحذّراً كما الآتي:

«أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ. أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المَأْوىٰ نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» (سورة **السجدة** ـ ٣٢ ـ الآيات ١٨، ١٩ و٢٠).

يؤكّد القرآن، كما هو واضح وشفاف، في آياته هذه التي بين أيدينا مبدأ هامّاً هو:

ـ المسؤولية الفردية الشخصية عن كل ذنب أو إثم أو سوء، لا المسؤولية الجماعية أو المتأتية من فعل الغير.
ـ عدم جواز المسؤولية الوراثية من جدٍ إلى أبٍ إلى ابن إلى حفيد.
ـ عدم وجود الخطيئة الآدمية الأصلية التي ورثها البشر، ونفيّ قيامها نفياً تامًا مطلقاً لا عودةَ عنه ولا رجوع فيه.

فالخطيئة، أية خطيئة كانت، يقع وزرها على مرتكبها وحده لا غير، أياً كان مرتكب ذلك الإثم ومهما علا شأنه!

وإن ننسَ في الخضم شيئاً من الأشياء، فعلينا أن لا ننسى أبداً ما ورد من وحي إلهيّ في آي الذكر الحكيم، حين قام القرآن وأوضح لنا، بكل بساطةً، المبدأ الآتي:

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (سورة **الزلزلة** ـ ٩٩ ـ الآيتان ٧ و٨).

تؤكد هاتان الآيتان بشكل واضح صريح، وبمنطق لا يقبل الجَدَل أو التأويل أن الإنسان، المخلوق المميز رفْعَةً ومَقَاماً وكرامةً عن جميع كائنات الأرض، هو إنسان مسؤول شخصياً عن معاصيه وآثامه الفردية؛ وغير مسؤول عن أي أمرٍ لم يرتكبه أو يقم به؛ وإنه، بالتالي، لا وجود لترِكةِ خطايا ورثها الآدميّ، على ممر الحقبات والأزمنة، عن أبويه الأوّلَين.

ب) الخطيئة الأصلية في السنّة النبوية:

وكما أنه لا إشارة إلى الخطيئة الأصليّة في القرآن، كذلك لا إشارة إليها في السُنّة النبوية. فالأحاديث المحمَّدية لا تعرف معتقداً كذلك الذي يقول بالخطيئة الأصلية أو يقر بوجودها. فالذنب فردي، شخصي في الإسلام والمسؤولية لا تقع سوى على من يفعل الإثم. وكما كان القرآن شاهداً (ولا يزال) على عدم إقرار الشرع بشيء اسمه الخطيئة الأصلية، كذلك فإن الأحاديثَ شاهد ثانٍ على غياب تلك العقيدة الغريبة عن عالم الإسلام وإطاره الديني!

نذكر من هذه الأحاديث، في سطور هذا البحث وعلى سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ حديث أنس عن النبي ومعاذ بن جبل:

روى أنس، وهو من رواة الأحاديث الثقاة، قال:

«قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، لمعاذ رضي الله عنه، رفيقه على الرحلِ: يا معاذ! قال: لبيك يا رسول الله وسعديكَ. قال: يا معاذ! قال: لبيك يا رسول الله

وسعديك، (قالها ثلاثاً) قال: ما من أحدٍ يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمَّداً رسول الله، صدقاً من قلبه، إلا حرَّمه الله على النار. قال: يا رسول الله! أفلا أخبر به الناس، فيستبشروا؟ قال: إذن يتكلوا».

(حديث متفق عليه ـ راجع كتاب: **مشكاة المصابيح**، حققه محمّد ناصر الدين الألباني ـ حديث رقم ٢٥).

ومعنى الحديث واضح، سهلٌ ومفهوم. وهو أن الإنسان لا خطيئة أصلية فيه، فلا يحتاج إلى أي فداء كان، سواء كان فداء المسيح أم فداء غيره، لكي تمحى من ذاته الخطيئة الأصلية ولكي ينجو من دينونة العقاب ونار جهنم. فخلاص المؤمن لا يمكن إلا في:

ـ احترامه لشرع الله والتقيد بأحكام الدين.

ـ ممارسة العبادات ممارسة كاملة دؤوبة.

ـ القيام بالفرائض وتأديتها على أصولها.

ـ فعل المعروف والابتعاد عن أي لون من ألوان المنكر والمُحَرَّمات.

٢ ـ حديث النبي، حسب رواية أبي ذرٍّ الغفّاري:

روى أبو ذر الغفاري، وهو من كرام رجال الصحابة (أي أصحاب الرسول المقرّبين إليه والمرافِقين له) قال: «أتيت النبيَّ صلّى الله عليه وسلَّم وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فقال: ما من عبدٍ قال: لا إلٰه إلا الله، ثم مات على ذلك، إلاَّ دخلَ الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: (أي الرسول): وإن زنى وإن سرق. قلت (ثانية): وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، على رغم أنفِ أبي ذر».

(راجع كتاب: **مشكاة المصابيح** ـ الحديث رقم ٢٦).

فدخول الجنة قضية بيد الله ورهن مشيئته؛ يجيزها لمن يشاء ويمنعها عمَّن يشاء. إنها منَّةٌ له على الناس وكرم من فضله، يمنحه للزاني إذا شاء وللسارق المتشهِّد القائل: لا إلٰه إلا الله!

فالله وحده هو، إذاً، صاحب القرار الأوّل والأخير يعاقب من يشاء وهو الشديد العقاب، ويغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم... وما على المؤمن إلاَّ أن يقوم بما عليه وما يأمره الله أن يقوم به.

٣ ـ حديث ثالث:

روى الحديث الآتي، عبادة بن الصاحب، الذي هو، أيضاً، من أصحاب الرسول الكرام، المرموقين، فقال:

«قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: من شهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحدَه لا شريك

له، وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، وأن عيسى (أي عيسى ٱبن مريم/ يسوع المسيح) عبده ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، و(أنَّ) الجنّة والنار حق، أدخلَهُ الله الجنّة على ما كان من العمل».

(المرجع نفسه ـ الحديث ٢٧).

٤ ـ حديث رابع:

«روى أبو النعيم نقلاً عن أبي الزبير نقلاً عن جابر، رضي الله عنهم قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: لا يُدخِلُ أحداً منكم الجنة عمله ولا يجيره من النار، ولا أنا (أي الرسول) إلاّ بتوحيد الله تعالى».

(كتاب: ابن قيّم الجوزية، **هادي الأرواح** ـ الفصل التاسع عشر).

٥ ـ حديث عائشة أم المؤمنين:

قالت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر (وهي إحدى أزواج النبي):

«يا رسول الله! ما من أحدٍ يدخل الجنة إلاّ برحمة الله تعالى؟ فقال: ما من أحدٍ يدخل الجنة إلاّ برحمة الله تعالى. (قالها ثلاثاً، أي ثلاث مرّات)، قالت: ولا أنت، يا رسول الله؟ فوضع يده على هامته، وقال: ولا أنا، إلاّ أن يتغمّدني الله برحمته (قالها ثلاث مرّات)».

(راجع كتاب: **مشكاة المصابيح**، مرجع سابق، الحديث ١٣٠).

٦ ـ حديث أبي هريرة:

ورد في كتاب: **صحيح البُخاري**، حديث رواه واحد من أشهر رواة الأحاديث، عنيت به الصحابي المعروف أبو هريرة ويقول فيه:

«قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم حين أنزل عليه: وأنذِر عشيرتكَ الأقربين، يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم من الله شيئاً. يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئاً. يا صفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئاً. يا فاطمة بنت محمّد، سليني ما شئتِ، لا أغني عنك من الله شيئاً».

(راجع: **صحيح البخاري**، للإمام أبي عبد اللّه محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي ـ بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع).

ولقد ورد في القرآن ما يأتي:

«فَلاَ تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ المُعَذَّبِينَ. وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ. وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ» (سورة الشعراء ـ ٢٦ ـ الآيات ٢١٣ ـ ٢١٥).

رابعاً ـ أنواع الخطايا في الإسلام

يعلّمنا الإسلام أن هناك نوعين من الخطايا: الكبائر والصغائر. وإذا ما كان الإسلام يفترق عن المسيحية في موضوع الخطيئة الأصلية، فإنه يلتقي معها في شأن الخطيئة بشكل عام، ذنباً وإثماً ومعصية.

أ ـ الخطايا الكبيرة، أو الكبائر في الإسلام:

تعتبر بمثابة خطيئة كبيرة، كل معصية أو إثم أو ذنب يرتكبه أي إنسان في مجالات السلوك البشري والممارسات الواردة أدناه، بما فيها التصرفات والممارسات.

١ ـ الكفر:

إنه يعني عدم الإيمان بوجود المولى، الباري، الخالق، الديَّان: الله، حسب تعريف الدين الإسلامي له وحسب ما ورد عنه من ذكر وأخبار وشرح.

٢ ـ الشرك:

وهو يختلف عن الكفر، إذ يقوم على:

ـ الإيمان إيماناً «جاهلياً» بوجود الله الذي يعتبره جاهليو العرب، بمن فهم سكان مكة من قبيلة قريش، بأنه رب البيت وإله الكعبة... دونما تدقيق أو تعريف أو تحديد.

ـ والإيمان بآلهة كثيرة أخرى تعبد بالإضافة إلى الرحمٰن، رب العالمين كاللاّت والعزّى ومناة الثالثة الأخرى... هبل ويعوق وسوّاع... إلخ. ولقد كان العرب يعبدون تلك الآلهة مع الله فيتمثلونها بأشكال الأوثان والأنصاب، والأصنام. وهذا النوع من الإيمان والعبادة هو إيمان حرام فظيع في الإسلام لأنه يناقض الإيمان بالله الواحد الأحد ويسير بعكس سبيل التوحيد الحق: يقول الإسلام لَبَّيْكَ اللهم لبَّيْك، لبيكَ لا شريك لك لبيك...! إلى آخر نداء التلبية الشهير.

٣ ـ إنكار النبوة:

إن إنكار الأنبياء والرسل الوارد ذكرهم في القرآن بما في ذلك نبوة محمّد والرسالة الإسلامية التي جاء بها لإثم كبير في المعتقد الإسلامي. وتلك المعصية المقيتة لكبيرة بين كبائر الكبائر وإثم عظيم فادح وخطير.

٤ ـ اليأس:

ويعني اليأس في محورنا هذا، الشك في رحمة الله وقدرتها وإنكار وجودها أو مقدار فعاليتها.

٥ ـ شهادة الزور واليمين الكاذبة:

إنها من أفدح الكبائر وأفظعها، فهي معيبة، ضارّة، تنضح بالسوء والمكر والرياء

وهي قبائح تأباها خُلُق القرآن ومناقب السنة وورع المؤمنين الأتقياء.

ومن تلك الكبائر أيضاً:

٦ ـ القول بسلامة المخلوق من غضب الله عليه.

٧ ـ القدح والذم والقذف بحق المؤمنين المسلمين.

٨ ـ السحر والشعوذة وكل ما يعود إليهما أو يشبههما من ممارسات.

٩ ـ تناول الخمور، وأكل الربا والميسر والتصرف بمال اليتامى بغير حقّ أو دونما مسوّغ شرعي، قانوني.

١٠ ـ ارتكاب الزنى واللواط والسرقة... إلخ.

١١ ـ قتل النفس، أي نفسٍ بشرية بغير حقّ أو مبرر أو سبب شرعيّ تحدده السلطة المُعْتَرف بها.

١٢ ـ عصيان أوامر الوالدين والضرب عرض الحائط بنواهيهما ووصاياهما أو الخروج على سلطانهما.

١٣ ـ الهروب من ساحة الجهاد في الحرب أو ميادين القتال والمعارك وعدم مواجهة الكفّار حيث تجب المواجهة.

ب) الخطايا الصغيرة أو الصغائر في الإسلام:

تحتوي فئة الصغائر من الذنوب والآثام والمعاصي والمنكرات الباقية، غير الماثلة في الجدول المذكور أعلاه، وهي عديدة ومتنوعة جداً...

ويخبرنا القرآن، محذِّراً إيّانا، إذ يذكّر جميع الناس قائلاً:

«وَٱلعَصْرِ. إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ» (سورة العصر ـ ١٠٣).

ج ـ لا خطيئة وراثية في الإسلام:

في ختام هذا الحديث، لزام علينا أن نكرِّرَ فنقول إنَّهُ لا خطيئة أصلية وراثية في الإسلام، وقضية الثواب والعقاب، الكفارة والغفران ما هي إلاّ مسألة من مسائل الله، هو يرعاها وبمشيئته يتولاّها، فهو عدل ورحمة وعقاب ورأفة وحزم وغفران... أما المؤمن، فما عليه إلا أن يتوب توبة نصوحة صادقة إذا ما عَصَى أو أذنب، وأن يطيع أوامر مولاه طاعة مطلقة... وما الباقي إلاّ من شأن الله الذي «لا يُسْأل عن شيء وأنتم تسألون»!

تقول الآية الكريمة:

«إنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ

وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً» (سورة **الأحزاب** ـ ٣٣ ـ الآية ٣٥).

دونما أية حاجة إلى أي نوع من أنواع الفداء، ذلك السر ـ العقيدة الذي يعتقد المسيحيون أن لا بدَّ منه لغسل آثار الخطيئة الأصلية؛ ولمحو مضاعفات ذلك الذنب الكبير.

فلا فداء المسيح لازم وضروري ولا المعمودية واجبة وفريضة، للتطهر من أدران الخطايا.

كتب الدكتور عمر فروخ، في تعليق أخرجه كحاشية هامة من حواشي كتاب شهير هو كتاب: **تاريخ الشعوب الإسلامية**، للمستشرق كارل بروكلمان، كتب يقول:

[الخطيئة الأصلية، أو الخطيئة المميتة، أو الخطيئة بالإطلاق هي "مفهوم مسيحي" ولا صلة له بالإسلام. إن خروج آدم من الجنة مع حوّاء لم يُحمّل الجنس البشري إثماً معيناً. ولقد أخرج آدم من الجنة قصاصاً له هو. أما سائر المسلمين فلا يعذبون عن آدم ولا بسبب آدم. والنبوة في الإسلام ليست نتيجة لخروج آدم من الجنة، بل هي "ظاهرة اجتماعيّة". إذ إن الأمم تحتاج بين عصر وعصر إلى من يهديها ويدلّها على الصراط المستقيم].

(راجع كتاب كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين).

المحور الخامس ـ الفرائض والعبادات في المسيحية والإسلام بعض الافتراقات

مُقدِّمة: الفرائض والعبادات في الدين

يفرض كل دين من الدينين الكبيرين على كل مؤمن ومؤمنة من المنتسبين إليه ممارسة عدد من القضايا الحياتية المعيّنة، كالأمور الآتية:

ـ الشعائر العبادية.

ـ الفرائض الإيمانية.

ـ العبادات والواجبات المحدَّدة المعيَّنة.

فالمسيحية والإسلام يلتقيان على ضرورة اتّباع وممارسة منحى عباديّ، دينيّ وروحيّ معين ومحدَّد، يكون فرضاً على كل مؤمنٍ عابد. إذ لا يكفي أبداً أن يكون المسيحي أو المسلم مؤمناً بمسيحيته أو بإسلامه، بالفكر والمعتقد والعقل، بل عليه أن يحيا إيمانه عملياً وأن يعيش دينه واقعياً، في مختلف مراحل الحياة، ومن المهد إلى اللحد والمثوى الأخير.

ولئن كانت المسيحية تتّفق مع الإسلام، من حيث المبدأ العام على قضية الشعائر والفرائض والعبادات، فإنَّ الدينين يفترقان، إلى حدٍ بعيد، في أصول ممارسة تلك الشعائر والفرائض والواجبات العبادية وطرقها ووسائلها وأساليبها:

ـ سواء في إعلان المؤمن إيمانه، مسيحياً كان أم مسلماً.

ـ أو في الصلوات الواجبة أو المستحبَّة.

ـ أو في ضريبة العشور أو الزكاة مثلاً.

ـ وسواء في فريضة الصيام الفصحية أو الرمضانية.

ـ أو الحجّ والزيارات والتقرب إلى بعض الأعتاب المقدّسة.

هكذا، يضاف إلى محاور الافتراق الأربعة الكبرى التي عالجناها، محور خامس، سنحاول أن نلجه بتأنٍّ، بحثاً ودرساً، في هذا القسم الأخير من كتابنا.

أولاً ـ الأركان العبادية

تلتقي العقائد الدينية في المسيحية والإسلام وتجتمع حول المبادئ الإيمانية

الكبرى ـ الأساس، تلك التي مرّت معنا ودرسنا شؤونها فيما سبق لنا من بحث، مثل:
* الإيمان بالله الكائن، الخالق، الواحد، الديّان.
* الإيمان بالإنسان خليفة لله في الأرض.
* الإيمان بالنبوة والرسالات، والرسل والأنبياء.
* القول بالعدل الإلهي وقضية الثواب والعقاب.
* القول بالرحمة الربّانية والمحبّة وما يتفرع عنها من قضية المغفرة والتكفير والمسامحة.
* القول باليوم الآخر والحياة الثانية الأبدية . . .

غير أن المسيحية تتمايز عن الإسلام، كما يتمايز الإسلام عن المسيحية، في خصوصيات كثيرة وشعائر خاصة، سنحاول تناولها بالجلاء والإيضاح.

أ) العبادات في الإسلام:

يقوم الإسلام على خمس عبادات ـ فرائض، يجوز لنا أن نُصنّفَها كالآتي:
ـ اثنتان منها يشترك فيهما بدن المؤمن أو جسده من جهة، ونفسه من جهة أُخرى وهما الصوم والصلاة.
ـ اثنتان أخريان تقومان على جامع مشترك بين بدن المؤمن وماله وهما الحجُّ والجهاد.
ـ وواحدة أخيرة تقوم على مبدأ مالي ـ اقتصادي هي الزكاة.

وهذه جميعها واجبة على المسلم والمسلمة، لازمة لهما، عليهما أن يؤدياها حسب الأُصول الشرعية التي أمر بها الدين. فالمؤمن والمؤمنة اللذان لا يَلْتَزِمَانِ بإقامة تلك الفرائض والشعائر، يُعْتَبَران مُخِلَّيْنِ بعبادات الإسلام وأركان الدين. وكل مسلم مؤمن أو مسلمةٍ مؤمنة لا يمارس ما أوردنا من فرائض يعتبران شرعاً، في حال المعصية والإثم. . . . طالما لم يكلِّفا نفسيهما الإيفاء بمستلزمات الإيمان وأحكام الدين.

١ ـ الصلاة:

الصلاة، في الإسلام، فريضة تقع على المسلمين في نوعين اثنين هما:
* الصلوات الخمس اليومية، وهي صلاة الفجر أو صلاة الصبح، الظهر، العصر، المغرب والعشاء.
* صلاة يوم الجمعة الأسبوعية وتقام حتماً في المصلّى أو المَسْجِد أو الجامع. ويضاف إلى ذلك صلوات العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى، والصلوات التي تقام في أحوال الكسوف والخسوف شمساً وقمراً، والغائب، والميّت. . . وغيرها.

٢ ـ الصيام:

الصيام أو الصوم، فريضة واجبة على المؤمنين وتقع في مجالين اثنين زمنيّين سنويَّين:

صيام واجب إلزامي بأصل الشرع وبالاستناد إليه:

«يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ. . . وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ. . . فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآيات ١٨٣ ـ ١٨٥).

فالصوم واجب وشعيرة وفريضة في شهر رمضان الذي هو الشهر التاسع من أشهر السنة الإسلامية الهجرية، وصيام واجب إلزامي ثانٍ، بسبب أمر معين، كصيام الكفّارة مثلاً، الذي يحتّم على المؤمن الصيام لعدد معين من الأيام بدلاً من تلك التي لم يصمها في الوقت والزمان المكرّسين لذلك. إنه صيام تعويضٍ وبدل.

٣ ـ الحج:

الحج ركن هام من أركان الإسلام وهو فريضة على كل من «استطاع إليه سبيلاً» من المؤمنين. هو جهاد حقيقي فعليّ يقوم به كل مسلم ومسلمة تقرّباً منهما إلى الله وطاعة لأوامره ونواهيه. إنه واجب، لازم ولو لمرة واحدة، في عمر الإنسان وحياته الأرضيّة الفانية.

لقد كان البيت الحرام في مدينة مكةٍ، مكاناً مقدساً منذ أقدم العصور والأزمنة. ويعتقد المسلمون أن أول من بنى البيت الحرام والكعبة في وسطه هو آدم أبو البشرية. . . إلى أن أعاد بناءه، بعد أن تهدّم بفعل عاديات الزمن، إبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل النبي.

يشير القرآن إلى الحجّ، فيعلن مبشراً بما يأتي:

«وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا البَائِسَ ٱلفَقِيرَ. ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيقِ» (سورة **الحج** ـ ٢٢ ـ الآيات ٢٧ ـ ٢٩).

وورد أيضاً في آي الذكر الحكيم:

«ٱلحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي

الحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِن خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَٱتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ. لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِن عَرَفَاتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ. ثُمَّ أَفِيضُوا مِن حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآيات ١٩٧ ـ ١٩٩).

٤ ـ الجهاد:

ما هو الجهاد؟ وكيف يُعرِّف أو يحدِّد علماء المسلمين وفُقَهاء الإيمان هذا الجهاد الذي نحن بصدد البحث الموجز بشأنه ومعانيه؟

يقول القرآن المجيد:

«وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِم لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ» (سورة **الأنفال** ـ ٨ ـ الآية ٦٠).

[الجهاد عزّ الأمّة، وبابٌ من أبواب الجنة، ودرع الله الحصينة. فالجهاد ـ بمشروعيته ووجوبه وكل مُرَغِّباته ـ هو جهاد الدفع، وسبب الحصانة للدين الإلٰهي الحقّ، وليس أبداً في صلب حقيقة الدعوة إليه.

وعندما ننظر إلى (الجهاد) بأنه جهاد الدعوة بالسيف وإدخال غير المسلمين إلى الإسلام بالقوة ـ كما هو المفهوم الخاطئ الشائع، وعندما نقلب في صفحات التاريخ إلى صفحة القرن الحالي بما حدث فيه من تشكلات القوى وانفتاح المجتمعات... عند ذلك، ستكون أمتنا في أزمة مع (الجهاد) في مشروعيته التي سيفقدها، وفي كل العظمة التي يتربع عليها، والتي سيهوي عنها. والأمر للفطن بغنىً عن الإيضاح.

ولكننا عندما نؤمن بالجهاد برؤية الدفاع والتحصين التي أشرنا إليها ـ وتأتيك بكل أدلّتها ومناقشاتها في هذا الكتاب ـ فسوف يكون (جهاد الأمة) درعها الأبدي الحافظ لها في متقلبات العصور، والعاصم لمبادئها وقيمها عن التبدل مهما تبدل التصميم في «ديكور» المنزل العالمي، وسيكون الإسلام الدين الوحيد الذي يبقى كما نزل من السماء إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

هذا الواقع وتلك النظرة الخاطئة إلى الجهاد بأنه جهاد الدعوة بالسيف، هو الذي أدّى ـ بنظري ـ إلى التراجع الخطير في أبحاث الجهاد في العصور الأخيرة، حتى مرّت فترة اختفت فيها من صفحات المؤلّفات، ومنابر المحاضرات، بل ومناهج التدريس].

(راجع كتاب: **جهاد الأمّة - محاضرات الإمام آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين** - بقلم الشيخ حسن مكيّ - الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ١٩٩٧).

فالجهاد هو بذل الوسع وتحمّل المشقة والعناء في سبيل هدف معين أو غاية محدّدة أو شيء ما، فهو:

- بذل الطاقة والقدرات في سبيل الخير.
- بذلهما في سبيل منع الحرام والمحرمات.

وفي إطار المعنى الأول لتعبير الجهاد، الذي هو البذل في سبيل الخير، استعمل هذا التعبير بمعنى «القتال في سبيل الله والمشاركة في ذلك القتال مالاً ونفساً».

والجهاد في الإسلام نوعان:

- **النوع الأول**، وهو الجهاد الابتدائي، أو جهاد الدعوة:

يعني هذا الجهاد الابتدائي قتال الكفار، غير المؤمنين بعقيدة الإسلام، حتى يتوسع ويعم سلطان الإسلام ودولته؛ فيدخل فيها الكفار والذمّيون (أي أهل الذمة من أصحاب الكتاب وهم: اليهود والنصارى والصائبة) وتسود كلمة الإسلام سيادة تامة لا منازع لها.

- **النوع الثاني**، وهو الجهاد الدفاعي، أو جهاد الدفاع عن دين الإسلام:

يعني هذا الجهاد، بذل جميع الطاقات واستخدام كل القوى والقدرات ثم تنظيم ذلك كله في حملة أو حملات هدفها:

* درء أي عدوان محتمل أو ممكن الوقوع، قبل حدوثه وحماية الأمة الإسلامية ودار الإسلام وطنها الحق بجميع من فيها من حدوث الاعتداء.
* الرد على أي نوع من أنواع الاعتداءات الواقعة على دار الإسلام وأمة المسلمين، مهما كان نوع هذا العدوان، سواء حصل أو وقع أو كان في سبيله وطريقه إلى الحصول والوقوع، وذلك، بجميع أنواع الوسائل والأساليب والمعدات والتجهيزات والأسلحة المتوافرة، حرباً وقتالاً ومعاركَ وغزوات وحملات...

٥ ـ الزكاة:

ما هي الزكاة؟ وما فحواها؟

الزكاة في الإسلام ركن من أركان الدين. إنها فريضة شرعية تتناول الممتلكات والأموال. وهي من العبادات القانونية التي على كل مؤمن مسلم ومؤمنة مسلمة أنْ يؤدياها.

لذلك، يمكن تسمية الزكاة بأنها ضريبة دينية، شرعية، قانونية ملزمة وواجبة.

إن الغاية من فرض الزكاة والهدف الإسلامي من تأسيسها هو:

- إقامة نظام عام وعادل من التكافل الاجتماعي يرعى جميع أفراد الأمة وجماهير

المسلمين دون أي تمييز عنصري أو لغوي أو جغرافي أو طبقي أو مالي ـ اقتصادي.
ـ إرساء قانون العدالة الاجتماعية وقواعد التعاضد بين الفقراء والأغنياء، المعوزين والميسورين، والمحرومين والمنعم عليهم.

والزكاة عبادة وفريضة هامة ـ أساس في جوهر الدين، ومبدأ المساواة بين جميع الناس، فمن «لا زكاة له لا صلاة له».

تُفرض ضريبة الزكاة على الأموال والممتلكات التي يمتلكها كل مؤمن ومؤمنة من أفراد الأمة، مثال ذلك: الأنعام الثلاثة من البهائم والحيوانات: الإبل والبقر والغنم، والغلال الأربع من مواسم الأرض والرزق: الحنطة والشعير والتّمر والزبيب، والنقدان؛ وهما الذهب والفضّةُ. والزكاة مستحبة، اختيارية وحرّة، في مجالات الاقتصاد التالية: الأموال المكتسبة من قطاع التجارة وجميع أنواع البيع والشراء سواء كان ذلك التعامل التجاري والصفقات المتأتية عنه، نقدية، مالية أم تبادلية عينية، الخيل، جياداً وأفراساً، وجميع ما تنبت الأرض من حبوب وثمار.

الزكاة واجبة على كل إنسان قادر مالياً، مؤمن، مسلم، عنده وله من الممتلكات والأموال ما يفيض عن حاجاته وحاجات عياله، غنىً واقتداراً. فجميع البالغين، الساعين والعاملين من أبناء المسلمين مكلّفون، مُلْزَمُونَ بأداءِ فريضة الزكاة، ما عدا الفقراء منهم، والبائسين المُعْوَزين والمعدمين؛ هؤلاء هم جميعاً مُعْفَوْنَ مِن أداء الزكاة.

لم يحدّد أو يبيّن القرآن في محكم التنزيل مقادير الزكاة، إنما تمّ هذا التحديد بإجراء وقرار اتخذه النبيّ شخصياً، في الفترة التي تلت هجرته ـ هو والمسلمين ـ من مكة إلى مدينة يثرب. ويروي البخاري، وهو من كبار رواة الحديث المعروفين، المختصّين بالسيرة النبوية والأحاديث، ما يأتي: أمر النبي، بعد الهجرة، بكتابة أحكام الزكاة ومَا تجب فيه من أصول وفروع وتفصيلات ثم ما يجب فيها من مقادير وما هو واجب أن يُؤَدّى عن كلّ صنفٍ أو نوع. وطلب تدوين كل ذلك في صحيفتين اثنتين حُفِظتا في بيت أبي بكر الصديق وبيت عُمَر بن حزم.

الزكاة إذاً، هي العلاج الإسلامي الأمثل الذي يشفي المجتمع والأمة من أمراض الظلم الاجتماعي والعَوَز والفقر والحرمان.

ب) ملحق للعبادات في الإسلام:

هناك أمران بقي لنا أن نبحث في محتواهما باختصار، لكي تكتمل أمام القارئ الكريم، صورة العبادات والفرائض في الإسلام، فعلينا أن نلج إطاريهما بالبصيرة والفكر والقلب، وهما:

ـ الشهادتان أو التشهُّد الواجب على كل مسلم ومسلمة.
ـ الأمر والقيام بالمعروف والنهي والابتعاد عن المنكر مهما كان نوعه.

ولقد رأينا ضرورة عَرْضِ ما يتيسّرُ لنا في هذه العجالة من فقهِ الدعامتين الأساس، كالآتي:

١ ـ الشهادتان أو تشهّد المسلم:

يعتبر التشهد أو قول الشهادتين والنطق بهما عن إيمانٍ وقناعة وصدق إقراراً علنياً حقًّا واعترافاً إيمانياً عميقاً بالإسلام ديناً ورسالة ونهج حياة. فكل رجل أو امرأة يشهد ويتشهد أن: لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً هو عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، هو مسلم دخل وأصبح عضواً في جماعة المؤمنين أي الأمة الإسلامية.

والتشهد هو الحدث الأول والفعل الرئيس الذي يطلب القيام به من أي رجل أو أية امرأة قرّرا اعتناق الإسلام ديناً، والدخول في أمة القرآن وسنّة النبي بالانتساب إلى الإسلام. لقد كان ولوج الدين المحمّدي والمكوث في عالمه، يتمّ ولا يزال، عندما يقوم صاحب العلاقة بالإعلان صراحة من أعماق القلب والفكر والعقل أنه يريد أن يصبح مسلماً، فيقول عندها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

٢ ـ المعروف والمنكر:

يشير القرآن، في مجال المعروف والمنكر، إلى هذه القاعدة الإسلامية عندما يعلن في الآية الآتية:

«وَلتَكُن مِنكُم أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عَنِ المُنْكَرِ وأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ» (سورة آل عمران ـ ٣ ـ الآية ١٠٤).

فما المعروف؟ وما المنكر؟

ـ المعروف هو كل فعل أو قول أو فكرٍ يحلّه الإسلام ويأمر بإتيانه لأنه يؤدي إلى الخير العام أو الخير الفردي الخاص أو الخيرِ الأسري والجماعي، والصالح العام أو صالح المؤمنين، كصالح الأفراد ونفع الجماعة، والأعمال الحسنة، المستقيمة، النافعة من حلال وأمور وقضايا منصوح بها وهناك في الدين حثٌّ على إيتائها والقيام بها.

فالحسن والخيّر والنافع الصالح والجميل الحسن عند الله هو ما على المسلم والمسلمة أن يقوما به ويأمران بإيتائه، معروفاً عاطراً لدى الله ونبيّه والأمّة المؤمنة.

ـ أما المُنكَر فهو عكس كل معروف وخير وفلاح. ويقوم المنكر على ارتكاب المحرمات من الأفعال والتصرفات والممارسات الشاذة الممنوعة وغير المسموح بها في القرآن وأحاديث السُنَّة النبوية وإجماع الأمة بفقهائها وعلمائها ومؤمنيها، السوء والشر

والأذى والفسوق من معاصٍ وذنوب وخطايا غير حميدة وغير مرغوب فيها، الفعل أو القول أو الفكر أو النوايا الشريرة، المحرّمة التي ينهى عنها دين الإسلام ويأباها.

نعود إلى القرآن مرة أخرى، لنردّد:

«لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللَّهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» (سورة آل عمران ـ ٣ ـ الآيتان ١١٣ و١١٤).

يعتبر الإسلام ويقول علماء المسلمين إذاً إن الأمر بالمعروف وإتيانه والنهي عن المنكر وعدم ارتكابه واجب مقدس يقع على كل مسلم ومسلمة.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو أيضاً، وفي ختام هذا الحديث، باب من أبواب جهاد النفس ودعوة حق إلى ضرْب الباطل ومقاومته أشد مقاومة، ومحو الضلال وإزالته إزالة تامة، والترفع عن السوء والسير على صراط نبيل، مستقيم وخيّر.

ج) العبادات في المسيحية:

تلتقي المسيحية مع الإسلام في كثير من مجالات العبادات والفرائض والأركان والممارسات وتفترق عنه في مجالات أخرى ومسالك مختلفة. لهذا السبب الوجيه، نرى لزاماً علينا أن ننظر إلى ما تحتويه ديانة المسيح من أمور تلزم المؤمن وتجبره أن يمارسها. هذا لكي يكون على انسجام تام مع إيمانه، يمارسه فعلاً وقولاً وفكراً، ويطيع أوامر هذا الإيمان ونواهيه سواء على مستوى الأعمال والمعاملات والأفعال والتصرفات مع الله ومع الناس، أو على مستوى النوايا والأفكار وظروف الحياة الشخصية الحميمة أو مجريات العيش الأُسَرِيّ، العائلي أو مراحل الوجود في المجتمع الأوسع سواء كان هذا مدرسة أو جامعة، مصنعاً أو معملاً، مكتباً أو ندوة، شارعاً أو حياً أو حارة أو قرية.

١ ـ المعمودية أو الاعتماد بالماء:

المعمودية، أو الاعتماد أو التعمد بالماء، هي في المسيحية فعل التكريس الواجب، اللازم للدخول في عالم الإيمان الإنجيلي، المسيحي. يقول المسيحيون وتؤمن المسيحية قاطبة، شرقاً وغرباً بأن المعمودية أو الاعتماد بالماء هي:

* أولى الشعائر ـ الفرائض وأول الأسرار الخارقة Sacrement التي تلازم الحياة المسيحية وعمر المسيحي المؤمن. فأول شيء يقوم به المرشح المعني ليصبح مسيحياً هو الاعتماد.
* أحد الأسرار الإيمانية التي على المسيحيّ أن يمارسها ويمر فيها ليصبح مؤمناً مسيحياً. فهي إذاً أعجوبة خارقة، وحدث إعجازي يحوّل المؤمن المقبل على اعتناق

المسيحية، إلى مسيحي فعلي، حقيقي، ومؤمن، متديّن، عضو في كنيسة المسيح وفرد من أفراد الجماعة المؤمنة.

يتم العماد أو العمودية على طريقة واحدة من اثنين: بِرَشّ الماء على رأس المدعو إلى الدخول في حظيرة المؤمنين، أو بتغطيسه في مكان أو حفرة مملوءة بالماء، أو في بركة أو نهر أو ساقية... حتى يغمر الماء جسمه من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين.

ولا تكتمل المعمودية أو تعمّد المؤمن، سواء في الحالة الأولى أو الحالة الثانية من الحالتين اللتين ذكرناهما، إلاّ عندما ينطق الشخص المخول بالتعميد، والمكلف من قبل السلطة الدينية المعنية المسؤولة، بالعبارة أو الشهادة التالية: «أعمّدك باسم الآب والابن والروح القدس، الإله الواحد. آمين».

بعد تلاوة هذه العبارة يكون سرُّ العماد قد تم ويكون المؤمن قد دخل عضواً في جماعة المؤمنين التي هي الكنيسة.

٢ ـ قانون الإيمان:

لن نعود في هذا المعرض إلى دراسة قانون الإيمان النيقاوي ـ القسطنطيني، الذي هو كما رأينا، ميثاق الإيمان المسيحي والشرعة ـ الشهادة الإيمانية التي يجب تلاوتها في أية مناسبة إيمانية أو شعيرة دينية سواء كانت صلاة عامة جماعية أو صلاة خاصة شخصية. فعلى كل مسيحي ومسيحية مؤمنين إذاً، أن ينطقا بقانون الإيمان هذا، كلما دعت الضرورة، أو قضت شعائر الإيمان بذلك،

وقانون الإيمان، هو بحق، دستور الإيمان الوحداني، وشرعة كل مؤمن بوحدانية الله الخالق، الديّان... إذ يبدأ بالمطلع المعبّر الآتي:

«نؤمن بإله واحد...»...

وينتهي بالعبارة الدالّة الختامية الآتية:

«... (ونؤمن) بكنيسة واحدة، جامعة مقدّسة رسولية، ونترجّى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي. آمين».

٣ ـ الصلاة:

في المسيحية نوعان من أنواع الصلوات، هما:

□ الصلاة الجماعية:

وهي على أشكال متعددة مثل:

ـ صلاة القدّاس التي تعتبر أهم تعابير الصلاة في المسيحية، إذ إنها فريضة أسبوعية لازمة، تقام كل يوم أحد من كل أسبوع، كما تقام أيام الأعياد الدينية على مدار السنة

الميلادية بدءاً من يوم عيد رأس السنة في اليوم الأول من شهر كانون الثاني، . . . إلى يوم عيد الميلاد في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول الذي هو الشهر الثاني عشر والأخير من العام الميلادي المسيحي.

ـ صلاة الزياحات التي هي صلوات جماعية تقام في مناسبات عديدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: زياحات القربان، زياحات الصليب، زياحات العذراء مريم أم المسيح ـ الإله، وصلوات الجماعة أو الرتب الدينيّة الخاصة بمناسبات مسيحية مثل مناسبات الأسبوع المقدس العظيم أو أسبوع الآلام المقدس، وهو الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح أو عيد القيامة المجيدة، قيامة المسيح من بين الأموات وتساعيات عيد الميلاد وعيد انتقال السيدة العذراء وصلوات وتساعيات زمن الصوم الكبير. . . إلخ. . .

□ **الصلاة الفردية:**

وتشتمل على جميع صيغ وأنواع الصلوات الشخصية أو العائلية ـ الأسرية التي تقام سواء في: الكنيسة أو المعبد أو المزار الديني المعين أو أي مكان آخر له صفة القداسة مثل الأديار أو الصوامع أو البيع، البيت أو المسكن الفردي أو الأسري، أو أي مكان لائق آخر، أو أي موقع كريم سواء في حضن الطبيعة، أو في المواقع المبنية على اختلاف مراميها.

فالصلاة في المسيحية كما هي في الإسلام:

* إحدى الشعائر أو الفرائض أو العبادات المهمّة التي يعبِّر فيها المؤمن المسيحي ـ كما يعبّر عبرها المؤمن المسلم وفي صلاته الإسلامية ـ عن إيمانه الحيّ. إنَّ إيمان المؤمن سواء كان مسيحياً أو مسلماً، لا يمكن إلا أن يكون إيماناً حياً. ولكي يكون ويبقى كذلك، طوال أيام عمر المؤمن، فإنّه على هذا الأخير أن يغذّيه بالشعائر والعبادات الروحية كالصلاة أو الصوم أو عمل المعروف والخير بالابتعاد عن السوء والذنب والمعصية.

* إحدى الحاجات الروحية العميقة التي تجنح بالمؤمن إلى الالتقاء والمساهمة مع غيره من باقي المؤمنين، ليتوجّهوا جميعاً إلى خالقهم الديان. فالمسيحي ـ تماماً كالمسلم ـ يشعر بحاجته الذاتية، الكيانية، الجوهرية، إلى التعبير عن إيمانه وطاعته والتزامه بالتعاليم الإلهية التي ينتسب إليها؛ والانفراد والتأمل الشخصي وإقامة الاتصال المباشر بين العابد والمعبود، سواء تمت الصلاة في الكنيسة أو الجامع، في المسجد أو البيعة، وفي المزار أو المصلّى، وسواء أُقيمت هذه الصلاة في المنزل أو في الطبيعة أو في أي مكان نظيف، نقيّ، كريم وطاهر.

* إحدى صيغ التوق إلى الانتقال الروحي من عالم العابدين المادي، المنظور، إلى

عالم الروح، عالم المعبود الذي لم تره عين ولا سمعت به أُذُن ولا خطر على بال بشر! فالإنسان المؤمن مسيحياً كان أم مسلماً هو الإنسان الساعي إلى التعلق والارتباط بالله، والتعبير عن هذا التعلق والارتباط تعبيراً داخِلِّياً مُسْتَدِيماً، وإغناء الحياة الإنسانية، جماعية كانت أم عائلية أم فرْديّة بقيم الروح ومناقب الأسفار الإلهية إنجيلاً وقرآناً، وخُلُقِ الأنبياء والرسل إذ إنهم مُثُلُ الإنسان العليا التي يتوق إلى التشبُّهِ بها كل مؤمنٍ مسيحيًا كان أو مسلماً.

٤ ـ الصيام:

يصوم المسيحيون فترة أربعين يوماً في كل سنة، ويبدأ صيامهم في مرحلة ما قبل عيد الفصح الذي هو عيد القيامة ويختتم يوم ذلك العيد الكبير: عيد القيامة والفصح. وصوم المسيحيين هو صوم يُحيُون فيه ذكرى الصيام الذي قام به يسوع / عيسى آبن مريم في برّيّة الأراضي المقدّسة في فلسطين وبادية نهر الأردن. لقد نفَّذ يسوع آنقطاعه هذا، قبل أن يبدأ ـ بشكل علني ـ دعوته ورسالته التبشيرية، التي دامت ثلاث سنوات... وآنتهت ـ حسب ما يعتقد المسيحيون وما تقول به تعاليم المسيحية ـ بموته على الصليب وقيامته في اليوم الثالث من بين الأموات.

ويقوم الصوم المسيحي ويقضي على المؤمن بأن يتقيد بالقواعد الآتية، التي يقبل المؤمن بها حرّاً مختاراً لا مكرها أو ملزماً أو مضطرّاً:

ـ الانقطاع عن تناول المأكل والمشرب والامتناع على التهام أي شيء أو إدخاله إلى الفم، مهما كان هذا الشيء، ابتداءً من الساعة الثانية عشرة ليلاً وحتى الساعة الثانية عشرة ظهراً من كل يوم.

ـ الامتناع عن تناول وجبات الإفطار، بعد الصيام، المؤلَّفة من المآكل والمشارب الحيوانية، مثل اللحوم والحليب ومشتقاته من ألبان وأجبان والبيض. فلا طيور إذاً ولا لحوم ولا موادّ حيوانيّة وهو ما يعبّر عنه المسيحيون: بأكل الزَّفر. لذلك يكتفي الصائمون عند إفطارهم بتناول المشروبات والمأكولات النباتية أو كل تلك التي تشتقّ من النبات كالخضار والفاكهة وما إليهما من البقول.

وصوم المسيحيين هو ـ كما هو صيام المسلمين ـ جهاد للنفس وجعلها معتادة على الحرمان من ملذات الحياة ولو لفترةٍ قصيرة من سياق السنة. والصوم في جوهره آمتناع عن لذائذ المأكل والمشرب، والمعاصي والآثام والذنوب، والموبقات والسوء وأفكار الشر، والحرام والمحرّمات التي تحيط بالمؤمنين من كل جانب، وعن جميع أنواع المنكرات سواء كانت هذه المنكرات جسدية أم نفسية أم روحية أم معنوية أم فكرية.

يلتقي الإسلام مع المسيحية، إذاً، حول مبدأ الصوم وحاجة الإنسان إلى

ممارسته والقيام به عبادة نبيلة، نافعة، ويفترق عن المسيحية في تفاصيل تلك العبادة العملية وتطبيقاتها على صعيد الواقع الديني اليومي. تتمثل هذه الفروقات في فترة الصيام السنوية وعدد الأيام المكرّسة للصوم، عدد ساعات الصيام اليومية، ترتيبات الإفطار وأنواع المآكل والمشارب التي تقدّم خلاله، وإلزامية الصيام ووجوب القيام به عند المسلمين وعند المسيحيين.

٥ ـ الحجّ:

الحج في المسيحية، مثله مثل الصوم، عبادة من عبادات الدين مستحبّة مقدسة غير أنه ليس فريضة إلزامية واجبة وحتمية. فهو عمل تقوي ورع يقوم به من يرغب من المؤمنين. وفي واقع الحال والأمر، يشبه حج المسيحيين الزيارات الدينية التي يقوم بها المسلمون ـ خارج إطار الحج الشرعي ومناسكه الإجبارية ـ إلى بعض الأماكن المقدسة من جوامع ومقامات وأولياء ومساجد. فمناسك الحج في الإسلام من طواف حول الكعبة. . . إلى الوقوف على جبل عرفات، إلى المشعر الحرام، إلى منى. . وغيرها، لا مثيل لها في المسيحية إطلاقاً ولا إلزام للمؤمنين بأن يقوموا بمثلها أو بما شابهها.

يقوم المسيحيون بالحج عند زيارتهم الأماكن المقدّسة من مواقع ورحاب وأديار وكاتدرائيات وكنائس ومعابد مثل تلك المنتشرة في أنحاء العالم وقاراته الخمس. وأكثر مواسم الحج عند مؤمني المسيحية تقع في فترات الأعياد الدينية الرئيسة، حيث ينتظم الناس في وفود وبعوث وجماعات تتوجه إلى الأماكن المقدّسة في فلسطين والأردن مثل مدن بيت لحم والناصرة وأورشليم / القدس وجبل نبو وأريحا. . . وسواها من الأماكن المقدسة في لبنان وسوريا والعراق ومصر وتركيا. . . والأماكن المقدسة في إيطاليا مثل روما وأسيزي وغيرها من المُدن والمواقع؛ وفي فرنسا والبرتغال وغيرها. . .

هكذا نرى أن الحجّ في الإسلام يختلف ويفترق جملة وتفصيلاً عن زيارات المسيحيين وحجهم إلى الأماكن التي يعتبرونها ـ بموجب إيمانهم ـ مواقع مقدسة وساحات عبادة وصلاة وتقوى.

٦ ـ الجهاد:

يقوم الجهاد في المسيحية ويُبنى ناشئاً مترعرعاً، حسب ما يقول العلماءُ والمؤمنون، على جهاد النفس ومقاومة نزوات الخطيئة الكامنة في أعماق كل واحد مِنّا. إنه صراع تخوضه الروح المؤمنة التقيّة، وجهد هدفهما وغايتهما:

* قمع بُذُورِ الشرّ والفساد، المعاصي والآثام التي تراود الإنسان حاثّةً إياه على الخروج عن خط الطريق المستقيم، وعلى الانحراف نحو عالم المنكرات والمحرمات والرذائل.

* تطهير روح المؤمن من كل الشوائب الممكنة والتي قد تتعرض لها الذات الإنسانية خلال مسار الحياة البشرية الطويل،

* تنقية الإنسان من أدران المادة والمغريات والشهوات الباطلة، وتحويله إلى مخلوق يخشى الله، عابد للخالق ومحبّ للعِزّة الإلهية، فاعلٍ لكل خير وكل جميل.

* صقل الكائن البشريّ لكي يتمكّن من ممارسة الوصيّتين الأساس اللتين هما في صلب الإنجيل واللتين تأمران المؤمن قائلتين: أَحْبِبِ الربَّ إلٰهكَ بكلّ قلبك وكلّ نفسك وكل فكرك؛ واحبب قريبك كنفسكَ.

* ممارسة جهاد الروح والنفس يومياً وبصورة مستديمة، متجددة وفاعلة، دونما تردد أو فتور أو وهنٍ. فالمسيحي المؤمن والمسيحية المؤمنة مدعوّان إلى ولوج الكمال الإنسانيّ. إنهما مرشحانِ للقداسة وما هما سوى كائنين قدّيسَيْنِ بالقوة، وعليهما عبر الإيمان والصلاة والجهاد الذاتي أن يتحوَّلا إلى قِدّيسين بالفعل.

ذلك هو الجهاد في المسيحية، وهو، وإن التقى في كثير من معانيه ومراميه مع ذلك الذي يدعو إليه الإسلام، فإنه يفترق عنه بشأن رئيس: إذ إنه لا عُنْفَ في المسيحية مهما كان نوع ذلك العنف، سواء كان حربياً قتالياً، أو عنف سلاح وسيوف، أو عنفاً معنوياً، نفسيًا وفكرياً روحياً، ولا مجابهة في المسيحية سوى في أحوال الدفاع عن النفس، عند التعرض لخطر الموت وفقدان الحياة أو الفناء. لذلك، يقول لاهوتيو الإنجيل: إن جميع ما ابتكره البشر من فنون الحروب وألوان القتال، يدخل في آلة الحرب الشيطانية الجهنمية، التي تدينها المسيحية إدانة واضحة شفافة، لا لبس فيها ولا غموض.

٧ ـ العُشُور: زكاة المسيحية:

تشكِّلُ العشورُ مساهمةً مالية يدفعها المسيحيون المؤمنون، مشاركة منهم في نفقات كنيستهم والرعية الدينية التي ينتسبون إليها. وهي تتألّف من عُشر ما يجنيه كل مؤمن ومؤمنة سنوياً، من رواتب أو معاشات أو عائدات أو أرباح.

يقوم الكاهن المسؤول عن كنيسة الحيّ أو الحارة أو القرية بجمع العشور من جميع المؤمنين المنتسبين إلى كنيسة، ويودع الأموال المتأتية من مجموع العشور تلك في صندوق خاص لتغطّي أمواله احتياجات الرعية قدر المستطاع.

تعتبر العشور دليلاً على وجود مبدأ التعاضد بين أبناء الكنيسة والرعية المعنيّة وهي حافز من حوافز إشراك المؤمنين، كلٌّ على قدر طاقاته المالية، في نفقات الجماعة المادية. فالأغنياء ومتوسّطو الحال من أبناء الطبقات الثريّة والميسورة وتلك التي تدخل في فئة الطبقة المتوسطة، يبرهنون عبر العشور ويثبتون مدى ارتباطهم

بمبادئ التعاضد والعدالة الاجتماعيين، سواء ببذل عُشر ما يكسبون في سبيل القريب والجار والغير أو بالتبرع وتقديم الأموال في سبيل مشاريع الجماعة المؤمنة، أكان هذا في رعية الكنيسة المحلية أو في إطار الكنيسة الوطنية والجامعة.

العشور هي إذاً، زكاة المسيحين غير الإجبارية ولا المفروضة بل هي الوسيلة المادية الهادفة لخلق مساواة كريمة بين جميع المسيحيين بإقامة تعاضد اجتماعي، عادل وفعّال بين جميع المؤمنين والمؤمنات وعدالة اجتماعية بين جميع فئات الناس والمجتمع بالتساوي والقسط.

٨ ـ المعروف والمنكر:

المعروف والمنكر في المسيحية هما عينُهما مَعروفُ الإسلام ومُنْكَرُه، ذلك أن ما هو خير في المسيحية هو خير في الإسلام، وكل ما هو نافع في المسيحية هو أيضاً نافع في الإسلام. هكذا تلتقي المسيحية مع الإسلام على:

* حث المؤمنين من الفريقين على الأمر بكل ما هو «معروف» والقيام به وتعميمه ونشره بين الناس.

* حثّ المسيحيين والمسلمين على وجوب النهي عن كل ما يدخُل في عالم المنكر، بحيث يجتنب الناس ويبتعدون عن ارتكاب المعيب، السيّئ والشرّير الضارّ.

فلا خلاف بين الدينين على تبنّي عقيدة الأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المُنْكَر ولا افتراقات على مستوى المبدأ العام وأركان الموضوع. وإذا ما صادف وحدثت بعض التمايزات بين موقف العقيدتين الكتابيّتين من بعض الأفعال والأعمال أو الأفكار والأقوال والمدوّنات، فإنه يبقى الالتقاء المتين على جوهر الموضوع وحول لُبِّ الفكرة سيد الموقف وقانون المسار.. فالمعروف هو الصلاح والخير والجميل والمبارك الذي يبشر به الكتاب والقرآن، والمنكر هو الفعل الطالح والعمل الشرير وكل قبائح الأمور المكروهة والملعونة، المحرّمة والمغضوب عليها من قبل الخالق ـ الديان وفي تعاليم الأنبياء والرسل وشروحات علماء الفقه واللاهوت من كلتا الجماعتين الإيمانيتين الكبيرتين.

٩ ـ الحلال والحرام:

تفترق جعبة الحلال والحرام في المسيحية عنها في الإسلام، وتختلف في بعض تفاصيلها، الواحدة عن الأخرى.

فما هو الحلال في المسيحية وما هو الحرام فيها؟

الحلال هو كل ما أُذِنَ بهِ ولم يُنْهَ عَنْهُ الكتاب المقدّس، في العهد الجديد منه وخاصة الإنجيل، فالقيام به فعلاً وعملاً، قولاً أو كتابة، فكراً أو نية هو حلال مُبَاح، والتعليم الرسولي المتوارث، منذ أيام الحواريّين الإثني عشر والتلاميذ السبعين، ما

قالوا به وعلّموه وما بشروا به وكرزوا، استناداً إلى إنجيل المسيح، بأمثاله وعِظاته، وشروح الآباء والدروس التي قاموا بإعطائها، خاصة كتاب التعليم المسيحي، وتعاليم الكنيسة المنبثقة من نصوص الكتاب المقدّس.

فكل ما سمحتْ به وباركتْهُ من تصرفات وممارسات ومعاملات تلك المراجعُ الأربعةُ التي دوّنّاها سابقاً هو حلال، يمكن لكل مؤمن ومؤمنة أن يتولاه دونما أي خوف أو خشية أو حرج.

أما الحرام، فهو كل ما يخالف الحلال ويعاكسه، يُضَادُّهُ ويعاكس مجرياته، خاصة تلك القضايا التي وردت في وصايا الله العشر ووصايا الكنيسة.

ولا تفترق المسيحية عن الإسلام أو تختلف وإياه إلا في أمور معدودة مثل: أكل لحم الخنزير، فهو ليس حراماً في المسيحية. أو شرب الخمر، فهو مسموح وحلال، شرط تناوله باعتدال وعدم الذهاب في شربه إلى حدود السكر والعربدة وفقدان الوعي. واللحم المذبوح، فهو لا يستهلك لدى المسلمين ويعتبر حراماً أكله إذا لم يكن مذبوحاً على الطريقة الإسلامية، المعروفة بالذبح الحلال، بينما المسيحية، تقول بأنه لا موقف معين فيها من هذه المسألة.. وإنْ نصحت بأكل اللحم المذبوح ذبحاً.

ثانياً ـ سُلَّمُ القِيَم والمناقب والأخلاق

إنَّهُ هو هو، سواء في المسيحية أو في الإسلام! في الحقيقة يعتبر سلّم القيم والمناقب والأخلاق، في أكثرِهِ، واحداً في المسيحية والإسلام، أو يكاد يكون واحداً، متشابهاً، ومتقارباً كثيراً. وعندما نبحث في أمر ذلك السلم الراقي، سواء في الكتاب المقدس والإنجيل، أو في القرآن المجيد وأحاديث السُنَّة، يمكننا، بل نستطيع أن نؤكد، دون أن نقع في أية مخالفة للموضوعيّة العلمية، أن مكارم الأخلاق ونبل المناقب ورقيَّ القيم هي واحدة عند المسيح ومحمّد وتقوم أول ما تقوم وتُبنَى:

ـ على خير الإنسان وخير قريبِهِ من أسرة أو عائلة بما فيها من زوجة وأولاد وأقارب، إلى جار وصديق ورفيق.

ـ وعلى خير الناس والمجتمع، كل المجتمع الذي يعيش فيه ذلك الإنسان المسيحي أو المسلم.

فالمكارم والصالحات والنافع والمحق هي من دعائم السلَّم المعني سواء عند مؤمني الإنجيل أو مؤمني القرآن؛ سلّم القيم والمناقب والأخلاق، السماوية الكتابية والموحى بها.

يشير القرآن في آي الذكر الحكيم إلى ما نحن بصدده فيقول:

«إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً. . . لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً. وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً. رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً. وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً. إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً. وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً. وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً. إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً. وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً. وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِي القَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً. وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِي أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا بِالعَهْدِ إِنَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً. وَأَوْفُوا الكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً. وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً. وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً. . . وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلْطَاناً نَصِيراً. وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً» (سورة **الإسراء** ـ ١٧ ـ الآيات ٩، ٢٢ ـ ٣٨، ٨٠ و٨١).

هذا وَشَلٌ مِن فيض القرآن في سُلّم القيم والمناقب ومكارم الأخلاق، نُدَوِّنُهُ هٰهنا على سبيل المثال لا الحصر، نموذجاً لما يزخر به الكتاب المجيد من طَيِّبِ المُثُل والسلوك.

أما الكتاب المقدّس فله ـ في هذا الباب النيِّر ـ صولات وجولات:

«. . . يا أبني إِصْغِ إلى كلمات حكمتي وارهِف أذنكَ إلى أقوالي: . . . الرجل المغتاب، الرجل الأثيم هو من يسعى بنميمة الفم الكاذبة. ويغمز بعينيه، ويشير

برجليه، ويكشف عن نواياه بحركات أصابعه. يخترع الشرَّ بقلب مخادع ويثير الخصومات دائماً لذلك تغشاه البلايا فجأةً، وفي لحظة يتحطّمُ ويستعصي شفاؤه.

ستة أمور يمقتها الرب، وسبعة مكروهة لديه: عينان متعجرفتان، ولسان كاذب، ويدان تسفكان دماً بريئاً، وقلب يتآمر بالشر، وقدمان تسرعان بصاحبهما لارتكاب الإثم، وشاهد زور ينفث كذباً، ورجلٌ يزرع خصومات بين الإخوة».

(**العهد القديم، سفر الأمثال** ـ الفصل السادس ـ من العدد ١٢ إلى العدد ١٩).

كذلك فهذا شيءٌ قليل من فَيْضٍ غزير، ندوِّنه ههنا على سبيل المثال لا الحصر، ودون أي تعليق!

في ختام هذا المحور الخامس، دعونا ننهلُ المزيد سوية من معين الكتابين المميزين، لنرى كيف أن الوحي الإلٰهي، سواء في الأسفار لدى المسيحيين أو في المصحف لدى المسلمين، يبشر بِسُلَّمَيْ أخلاق وقيم ومناقب متشابهين، متقاربين، يلتقيان في كثير من حناياهما وعلى العديد من محاورهما. فالأساس يبدو واحداً، كذلك الدعامة ـ الجسر، حتى وإن اختلف البناءان في كمٍّ لا بأس به من التفاصيل والجزئيات.

تقول أسفار المسيحيين وتشير إلى أهميّة سلّم القيم والمناقب والأخلاق وضرورة التقيد بأوامره والتمسك بنواهيه في حياة المؤمنين اليومية، لأنه ـ أي ذلك السلم ـ غذاء مقوٍّ في صلب الإيمان.

«... يا إخوتي، هل ينفع أحدٌ يدّعي أنّه مؤمن، وليس له أعمال تثبت ذلك، هل يقدر إيمانٌ مثل هذا أن يخلِّصهُ (أي يخلّص المؤمن)؟

لِنَفرض أنّ أخاً وأختاً كانا بحاجة إلى الثياب والطعام اليوميّ، وقال لهما أحدُكم: أتمنّى لكما كل خير إلبسا ثياباً دافئة وكلا طعاماً جيداً، دون أن يقدِّم لهما ما يحتاجان إليه من ثياب وطعام، فأيُّ نفع في ذلك؟ هكذا نرى أن الإيمان وحده ميّت ما لم تنتج عنه أعمال. وربما قال أحدكُم: أنت لكَ إيمان وأنا لي أعمال. أرِني كيف يكون إيمانكَ من غير أعمالٍ، وأنا أريك كيف يكون إيماني بأعمالي. أنت تؤمن أن الله واحد؟ حسناً تفعل! والشياطين أيضاً تؤمن بهذه الحقيقة ولكنّها ترتعد خوفاً. وهذا يؤكد لك، أيها الإنسان الغبي، أن الإيمان الذي لا تنتج عنه أعمال صالحة، حسنة وخيِّرة هو إيمان ميت!».

(**العهد الجديد ـ رسالة الحواري يعقوب الرسول** ـ الإصحاح ٢ ـ الأعداد ١٤ حتى ٢٠).

أمّا المصحف، فقد أشار إلى موضوع التصرف الطيب والسلوك النبيل في كثير من معارض سوره وآياته... من بدء الكتاب وفاتحته حتى ختامه:

«ٱهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ ٱلضَّالِّينَ» (سورة **الفاتحة** ـ ١ ـ الآيتان ٦ و٧).

«وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ. يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ. فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَ يَشْعُرُونَ. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَ يَعْلَمُونَ. وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ. . . أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِٱلهُدَى فَمَا رَبِحَت تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ. . . وَلاَ تَلْبِسُوا ٱلحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ. وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ. أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلبِرِ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلونَ. وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ. ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (سورة **البقرة** ـ ٢ ـ الآيات ٨ ـ ١٤، ١٦، ٤٢ ـ ٤٥).

نختم لنقول إن حسنَ الأعمال من جوهر الإيمان وصلب الدين:

«أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ. فَذَلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ. وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ. . .» (سورة **الماعون** ـ ١٠٧ ـ الآيات ١ ـ ٣).

. . . أما نقطة بحثنا التي تؤشّر للانتهاء، فلقد أردناها مسكَ ختام ودليل هدى، سبيل خُلُقٍ ومنارة مناقب ومسلكٍ كَريم:

«إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى. وَصَدَّقَ بِٱلحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِٱلحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى. إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى. وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَٱلأُولَى. فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى. لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى. ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى. وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى. ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى. وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِعْمَةٍ تُجزَى. إِلاَّ ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى» (سورة **الليل** ـ ٩٢ ـ الآيات ٤ ـ ٢١).

فصل ختامي

التقارب المسيحي ـ الإسلامي

مقدمة: المفاجأة الكبرى ـ محاولة فهم جديدة

مما لا شك فيه أن أكبر حدث ـ مفاجأة في مجال التقارب المسيحي ـ الإسلامي هو «الندوة الفكرية الحوارية الإسلامية المسيحية» التي نظمتها دار الحقّ للطباعة والنشر ـ بيروت، لبنان عام ١٩٩٧م والتي اشترك فيها السادة:

العلامة الإيراني الشيخ محمد علي التسخيري كمحاضر ومحور أساس؛ المطران كيرلّوس بسترس، مطران بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك؛ بالإضافة إلى السادة الدكتور بطرس ديب، رئيس الجامعة اللبنانية، وزير سابق وسفير؛ الدكتور شوقي ريا، أمين عام المنبر الحر؛ الأباتي بولس نعمان، مؤرخ ورئيس الرهبانية اللبنانية المارونية سابقاً؛ الأستاذ إبراهيم عطوي، صحافي من العاملين في جريدة «النهار» البيروتية؛ الأب الدكتور يوسف مونس، أستاذ جامعي، إعلامي ورئيس جامعة الروح القدس ـ الكسليك للرهبانية اللبنانية المارونية، سابقاً؛ والوزير السابق خاتشيك بابيكيان.

ولقد تحاور هؤلاء وبحثوا وتناظروا حول موضوعين اثنين:

ـ الموضوع الرئيس الأول، يدور حول الحوار المسيحي ـ الإسلامي.

ـ الموضوع الثاني، ويتناول بعض شؤون الحكم ونظام الدولة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

إن الحدث، ولو بقي على مستوى البحث الفكري الأكاديمي بين مثقفين ورجال دين ينتسبون إلى النخبة، يبقى حدثاً هاماً، إذ يكوّن محطة على طريق المسار الحواري ـ التقاربي فهو محور ذو شأنٍ ولقاء ذو شجون:

أولاً ـ الندوة الحوارية المسيحية ـ الإسلامية

تعتبر محاضرة الشيخ محمد علي التسخيري من الجمهورية الإسلامية الإيرانية

نقطة المركز في دائرة المحاولة المشكورة هذه، لأنها، ولأول مرة، تُسمعنا صوتاً يدعو إلى التقارب الواضح الشفاف، بين المسيحيين والمسلمين، صوتاً آتياً من أطراف الشرق الأوسط، من إيران وبلاد فارس «الأعجمية»، صوتاً يدعو إلى موضوعين خطيرين:

* التقارب المسيحي ـ الإسلامي.

* محاولة للفهم المتبادل المشترك بين المسيحيين والمسلمين؛ محاولة فهم جديدة، حديثة وعصرية، محبّة ومنفتحة.

يقول العلامة الإيراني، الشيخ التسخيري في شرحه للموضوع:

أ ـ القاعدة القرآنية للتقارب:

«لا أريد أن أتحدث (إليكم) عن تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية، والكثير منكم أعلم مني في هذا المجال، وربما كنتم جميعاً أعلم مني في ذلك. ولا أريد أن أتحدث عن الاحترام الخاصّ الذي يقيمه القرآن لتعليم الأنبياء، وبالأخصّ تعاليم السيد المسيح، وعندنا هنا علماء يعلمون أن الكثير من النصوص الإسلامية تستعين بالنص القرآنيّ لتقول لاتباعها أن هذه التعاليم هي تعاليم سماوية، وأن الإسلام جاء ليعمّق هذه التعاليم، وحبّذا لو نهض المفكرون لاستخراج هذه النصوص لندرك جميعاً عمق تأثير تلك التعاليم التي جاءت من منبع واحد في ثقافتنا الإسلامية.

إذاً لا أريد أن أستعرض، وإنما أذكر لأستنتج. أيضاً أريد أنْ أنسى الماضي الطويل لحالات التداول في الصراع بين المسلمين كدول والمسيحيين كدول: هناك تاريخ طويل، تارة تتقدم (فيه) القوة الإسلامية إلى قلب العالم المسيحي، و(تارة) أخرى تتقدم القوة المسيحية إلى قلب العالم الإسلامي، وتزهق نفوس ونفوس وتغمر حضارات وحضارات ـ مع الأسف الشديد ـ باسم الإسلام وباسم المسيحية، وكم كان حريٌّ بنا أن نجلس جميعنا إلى القاعدة القرآنية الكبرى: (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله).

وإذْ أعبر كل هذه الحوادث: أعبر حوادث الأندلس، وأعبر الحروب الصليبية، وحتى إني أعبر ـ أحياناً ـ الصراع على السواحل الإفريقية والجنوب آسيوية لأصل إلى واقعنا الحاضر، وأعبر كل الكتابات التي ـ مع الأسف ـ انطلقت من منطلق تعصب أو من منطلق حقد، ولا أفرّق فيها بين الكتابات المسيحية والإسلامية، فكل من ينطلقون خلاف الحقيقة مدانون، وكل من يكتبون من منطلق الحقد والتعصب مرفوضون. أما المقبولون فقط فهم الذين ينطلقون من منطلقات الحقيقة وخدمة القضية الإنسانية...».

ب) نقاط الوَهَنْ في مسيرة الفهم المتبادل:

بعد هذه المقدمة ـ الحدث، يتابع الشيخ التسخيري فكره، فيتطرق إلى محتوى الحوار ومسيرته ـ منذ نشأ إلى يومنا هذا ـ مركزاً على نقاط الضعف في تلك المسيرة، مدوّناً ما يأتي:

«الحوار بين الإسلام والمسيحية ليس قديماً، وإن كان التماسّ قديماً، ولكن الحوار بشكله الحاضر يكاد يكون مستحدثاً، إلا أن أكثر محاولات الحوار ـ كما أعتقد، ويمكنكم أن توضّحوا لي خطأي إذا كنت قد أخطأت ـ قد ابتليت بنقاط ضعف كثيرة، واسمحوا لي أن أذكر بعض النقاط الإسلامية» منها:

١ ـ التركيز على العنصر العقائدي:

«إن الحوار قد رَكّز ـ أولاً ـ على العُنصر العقائدي. . . على الحوار اللاهوتي فقط، حتى دون أن يدرك مدى التوصل إلى قناعة في ذلك الجانب على الحياة العملية، ومن الطبيعي أن تبقى الاستغلالات قوية لدى الجانبين، نسيان الحديث عن الجوانب الفكرية أو الجوانب الإيديولوجية المبنية على تلك الأسس والأصول المشتركة، نسيان الحديث عن القيم الأخلاقية التي يؤمن بها الطرفان أفشل كل محاولات الحوار».

٢ ـ الادعاء والزعم بامتلاك الحقيقة:

إنها لحقيقة مفصلية هي تلك التي أشار إليها، وبجرأة، الشيخ التسخيري، عندما فضح، دون تردد أو وجل، مزاعم المتحاورين، إذ أشار إلى:

«أن كل فريق كان يدخل ساحة الحوار وكأنه يدخل ساحة معركة ليحسم الموقف لنفسه، يقول للآخر أنت على باطل وأنا على حق، ويجب أن يحذف الباطل ويحق الحق وأنا الحق. إذا كانت هذه الروح الموضوعية هي المحور فلن نتوقع نتيجة. اسمحوا لي أن أنقل لكم آية قرآنية تقول، لمحمّد وهو المؤمن برسالته تمام الإيمان، تقول له يجب أن تدخل إلى الحوار مع المشركين بروح حذف المسبقات الذهنية كلها، تدخل بهذه الروح وتقول لمحاوريك: (وإنّا وإياكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبين).

قد تكون أنت على الحق وأنا على الباطل، وقد أكون أنا على الحق وأنت على الباطل، وقد يحمل كل منا جزءاً من الحقيقة فإذا تكاملنا تكاملت الحقيقة.

٣ ـ مسألة الاعتراف بالآخر:

إنه لمن البديهي المنطقي أن لا يتم سبيل الحوار إلاً إذا ما اعترف المتحاورون بعضهم بالبعض الآخر اعترافاً فيه قبول ورغبة، وإقرارٌ مبنيٌّ على احترام المتحاورين

الآخرين. يقول في هذا الشأن ويحلل العلامة التسخيري ذلك الطرح، عندما يشير بإيجاز إلى المبدأ، عارضاً إياه بوضوح:

«. . . كل إنسان يريد أن يتحاور يطلب من الآخر أن يعترف به أولاً. المسلم يقول للمسيحي: اعترف بي أولاً حتى أحاورك، والمسيحي يقول للمسلم: اعترف بي أولاً حتى أحاورَك. هناك بعض الموانع، هناك نصوص لدى المسيحي تمنعه من أن يعبر (السبيل إلى) خاتمة الأديان التي قد توصف بها المسيحية، وهناك نصوص تقول للمسلم أن الإسلام نَسَخَ المسيحية. . . وحينئذٍ يبقى المسلم سجين ذاته ويبقى المسيحي سجين نصوصه، ويكون الحوار عقيماً. . .».

٤ ـ قضية الثقة المتبادلة بين المتحاورين:

يلاحظ أكثر المعنيين بالأمر من الدارسين والباحثين من ذوي الشأن والخبرة والاختصاص أن الثقة المتبادلة بين أطراف التقارب والحوار كانت مفقودة في الماضي ولا تزال حتى يومنا هذا. ويشير الشيخ محمد علي التسخيري، بإيجاز، إلى ذلك، فيدوّن قائلاً:

«إن الحوار كان يجري بين شخصين أو بين طرفين كل منهما يشك بالآخر. يدخل المسلم الحوار ويقول للمسيحي: أنت تحاورني لتحقق أهدافاً سياسية! ويدخل المسيحي الحوار ويقول للمسلم: أنت تحاورني لتحقق أهدافاً سياسية أيضاً! . . .».

لا يمكن إذاً، نظراً لفقدان الثقة المتبادلة هذه، والحذر والريبة بالإضافة إلى الشك والخشية من عدم نيل المرامي والأهداف، أن يؤدي الحوار ـ بأي شكل من الأشكال ـ إلى أن يثمر ويغني لا غذاءً ولا ارتواءً.

٥ ـ غياب الانتظامية في الحوار:

لم تصبح هواجس الحوار، برنامجاً مؤسسياً إلا في الكنيسة الكاثوليكية قبل أية مرجعية دينية أخرى، مسيحية كانت أم إسلامية، وذلك في المؤتمر المسيحي العالمي أو المجمع الفاتيكاني الثاني المسكوني الذي انعقد في مدينة روما وحاضرة الفاتيكان منها، حيث تمّ إصدار «بيان مجمعي في علاقة الكنيسة (الكاثوليكية) بالأديان غير المسيحية» وصِيرَ إلى تأسيس إدارة هامة كبرى ومؤسسة متخصصة عالمية سميت «أمانة سر المجمع الفاتيكاني الثاني للعلاقات بغير المسيحيين». ولقد أناطت الكنيسة الكاثوليكية بها شؤون الحوار المسيحي ـ الإسلامي.

ويعلق على هذا الغياب المؤلم، الشيخ التسْخيري فيقول:

«. . . الحوار كان يجري بشكل عفوي، لا تنظّمه مؤسسة، ولا يبدأهُ الآخرون من حيث انتهى الأولون. (كان) يجري بشكل متقطع متجزئ لا يعبر عن مسيرة،

ولا يستفيد من السوابق، على الأقل، أنا أشهد أمامكم على كل ذلك من ناحية الجانب الإسلامي. وأودُّ الإشارة (إلى أن) كلا الجانبين كان يفتقد إلى المرجعية الرئيسية في الحوار. لنفترض أنني أقنعتك أو أنك أقنعتني، أو أننا اتفقنا على خطة، فمن ذا الذي يقبل بهذه الخطة؟ ألم يكن بالأحرى أن تكون هناك مرجعية دينية تتصدى نيابة عن هذا الجانب، وأخرى عن ذاك الجانب حتى إذا ما اتفقنا على شيء عاد قاعدةً للجميع».

ثانياً ـ الندوة الحوارية والمساحات المشتركة للتقارب

قد يكون من الأجدى لنجاح أي تقارب وفهم مشترك محب حميم، أن لا يقتصر الحوار على محوري علم اللاهوت المسيحي وهو علم الإلهيات والعقائد، بما في ذلك المبادئ والتعاليم وكل معرفة تتعلق بالله؛ وعلم الكلام الإسلامي وهو العلم الديني الذي يعتمد على دعائم وينابيع الإسلام من كتاب وسُنّة نبوية وإجماع فقهاء... بل من الأفعل، في رأينا، أن يشتمل أيضاً على حوار فكري علمي، ثقافي وحضاري، بالإضافة إلى شؤون علم اللاهوت وعلم الكلام. فما أكثر القضايا والمعضلات التي يمكن أن يبنى عليها أو يتمحور حولها كل لقاء مسيحي! وما أعظم الأمور التي تبرز على ساحة الحياة وهي بحاجة إلى درس وبحث يقوم به المسيحيون والمسلمون سوياً من مثل صراع الحضارات، وحروب البشر فيما بين شعوب الأرض والأمم، والمساحات المشتركة في التعامل الحضاري بين المسيحية والإسلام! أليس هذا الشأن جديراً بأن يكون من مواضيع الساعة؟

أ) شرعة حقوق الإنسان، جامع مشترك:

إن قضية حقوق الإنسان، أطروحة ضخمة هامة، واجب أن تدرس ويبحث محتواها بشكل هادئ رصين، استناداً إلى سلم المناقب والأخلاق والقيم، ذلك السفر المشترك بين دين الكتاب وبين القرآن. فهل صحيح ما يقال هنا وهناك من أن الدين يقف حاجزاً حائلاً أمام حقوق الإنسان أو بعض هذه الحقوق مثلاً؟

يجيب التسخيري عن هذا السؤال الخطير: «نعم! أنا أعتقد ذلك، وانطلق من هذا من منطلق إسلامي مسيحي. لأنني أؤمن بأن الدين وحده يؤمن بشيء اسمه الفطرة، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم... وأؤمن بأن الفطرة تعني أن التركيبة الإنسانية صاغها الله لتسير بشكل طبيعي نحو المحبة والخير. أرأيتم هذا النص الذي قرأه علينا أستاذنا الكبير رئيس الجامعة، من أنّكَ لو

حملت كل معاني العلم والمعرفة والإيمان وفقدت المحبة فإنك لا تساوي شيئاً.

الفطرة هي منبع المحبة! الفطرة هي مجموع النوازع والطاقات التي يملكها الإنسان وتقوده نحو كماله. إذا جرّدنا الإنسان من فطرته جرّدناه من إنسانيته».

هنا، اسمح لنا أيها القارئ الكريم، أن نطرح السؤال الضروري الآتي:

ترى، ما هي المعايير والمحتويات والمقاييس التي تميز بين السلوك الإنساني والسلوك غير الإنساني؟

أليس محتوى الوجدان البشري وطاقة ذلك الوجدان المنبّه اليقظان، الرادع أو المحفّز هي المعيار؟ فالوجدان هو عضو متحرك فاعل من الأعضاء التي تشكّل الفطرة الآدمية، وكلنا يعلم أنه على مداميك تلك الفطرة وحدها يقوم نظام الحقوق بين الناس وتقوم شرعة حقوق الإنسان الحقيقية.

فالفطرة إذاً، هي المساحة التي يمكن أن يتم التحاور في رحاب مساحتها وعلى أساس معطياتها. إنها الميدان المعدّ لنقاش كل مجموعات القيم والمناقب والأخلاق التي تضبط حركة الحياة في أي مجتمع مسيحي أو في أي وسط مسلم.

ب) تعاون وتقارب في المؤتمر الدولي للسكان والإنماء (٥ ـ ١٣ أيلول) ١٩٩٤م:

عقد في مدينة القاهرة عام ١٩٩٤م مؤتمر عالمي هام هو: المؤتمر الدولي لهيئة الأمم المتحدة حول السكان والإنماء. وفي خلال جلسات البحث والمناقشة التي دارت خلال أيام المؤتمر، برز تقارب والتقاء وتشابه بين سلم القيم والأخلاق والمناقب المسيحي والسلم الإسلامي الذي يعاجل الغرض عينه والمحتوى ذاته، خاصة عندما طرحت على بساط البحث مشاريع وثائق عالمية عرضت على جميع الوفود المشاركة لإقرارها والموافقة عليها، لتغدو شرعة دولية ـ عالمية تقوم على حقوق فردية شخصية إباحية وخلاعية، حقوق تحطم كل الروابط العائلية والمجتمعية، وحقوق تضرب عرض الحائط بتعاليم الأديان... وقيمها.

... أمام هذا الخطر الداهم الذي جاء كالإعصار لينسف قيم الدينين، تعاون الوفد الممثل لدولة الفاتيكان مع وفود الدول الإسلامية ومنها وفد الجمهورية الإسلامية في إيران... وحالوا دون الموافقة على مشروع وثيقة إباحية اقترحها وقدّمها للمؤتمرين بعضُ الوفود القادمة من دول أوروبية شمالية، اسكاندينافية. لقد وقف المسيحيون والمسلمون جنباً إلى جنب ويداً بيد، فحالوا هكذا، دون إقرار تلك المشاريع المنافية لتعاليم الأديان السماوية، الكتابية، الموحّدة.

ثالثاً ـ حوار مع كل الأديان

لقد فتحت محاولة الفهم الجديدة التي تجسدت في المؤتمر العالمي المسيحي الكاثوليكي أو المجمع الڤاتيكاني الثاني المسكوني في الجانب المسيحي من أصحاب الحوار والفهم والتقارب؛ والندوة الإسلامية التي نظمتها ودعمتها السفارة الإيرانية في بيروت في الجانب الثاني الإسلامي من أصحاب الانفتاح، الأبواب عريضة مشرّعة ليس فقط بين المسيحيين والمسلمين بل بين الديانتين وباقي أديان العالم.

يقول الشيخ محمّد علي التسخيري: «ولكنني أريد أن أقول إننا (أي في إيران الإسلامية) بدأنا وأصررنا على أن نفتح باب الحوار مع كل الأديان: المسيحية واليهودية، الزرادشتية والمجوس، نحن نعتبرهم أهل كتاب وبالتالي فتحنا معهم حواراً، بل حتى الأديان غير الإلهية مثل البوذية والهندية دخلنا معها في حوار لأننا نعتقد أن لها جذوراً إلٰهية».

أ ـ حوار إيران الإسلامية مع العالم أجمع:

لقد بادرت جمهورية إيران الإسلامية إلى طلب فتح حوار مع المسيحية الغربية المتمثلة بالمرجعيات والمؤسسات الآتية: أحبار الكنيسة الكاثوليكية وعلماؤُها، رؤساء الكنائس الأورثوذكسية، مجلس الكنائس العالمي الذي مَقَرُّهُ مدينة جنيف في سويسرا، الكنيسة الإنجيلية، كنيسة إيرلندا، رئيس الكنيسة الكرواتية، وبعض الكنائس الأميركية، ذلك، ضمن إطار لقاءات مشتركة وندوات متصلة ومتابعة وحوارات مختلفة.

ب ـ النتائج: فاترة ومتواضعة:

كل هذه المساعي الخيرة، الحميدة بحد ذاتها لم تعط النتائج المتوخّاة، لا بل كانت ثمار تلك المجهودات فاترة جدًا ومتواضعة ومحدودة:

فاترة: لأنَّ العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، ليست بعد على ما يرام سواء كانت العلاقات في لبنان مثلاً، حيث إن التوتر والحذر والتشنج هي السمات الغالبة على علاقات المسيحيين بالمسلمين، والريبة والرياء والخوف المتبادل هي معايير الواقع الحياتي الذي يسمى بالعيش المشترك، أو في مصر حيث إن الأقباط والمسلمين ليسوا أفضل حالاً إطلاقاً، ولا أحسن أو أجود وضعاً، أو في الفليبين وأندونيسيا والصرب والبوسنة والصين، أو في نيجيريا والسودان وكثير غيرها من المجتمعات والبلدان.

متواضعة: لأنَّ الحوار والتقارب والتعاون بين الدينين الكبيرين لا يكاد يتعدّى نطاقات محدودة من مثل الجامعات ومراكز البحث الأكاديمي والمعاهد، والمؤسسات وبعض قلاع البحث الروحي، والجمعيات غير الحكومية وجماعات محدودة من الأفراد

المستنيرين، الذين يعملون وينشطون عبر الكلمة والزيارات واللقاءات ووسائل المجاملات الصادقة المتبادلة.

كل ذلك ومعظم ما نراه من مجهودات وأنشطة يبقى على مستوى محدود وضمن إطار ضيّق لم يقدّم، حتى الآن، ولم يؤخر في قيام أي إنجاز ملموس ومحسوس، على الأرض وعلى الطبيعة.

خاتمة: الفاتيكان وإيران، أملٌ جنينيٌ سريع العطب

عندما سمع المطران كيرلّوس سليم بسترس، مطران أبرشية بعلبك للروم الملكيين الكاثوليك، كلام الشيخ محمّد علي التسخيري، رأى أن يدليَ بالمداخلة العميقة المغزى الآتية: «عندما سمعنا سماحتكم في هذا الفكر، شعرنا بأنكم تعبُرون عن فكرنا أيضاً، ونشكر لكم هذا الانفتاح والتقارب، ونتمنى أن يكون الجميع من مسلمين ومسيحيين على هذا القدر من الانفتاح والتفاعل.

لقد كنت رئيساً للجنة المكلّفة من قبل مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان بالحوار المسحي ـ الإسلامي، وبدأنا نوعاً من التعاون بين المسيحيين والمسلمين. نعدّ لمؤتمر مسيحي ـ إسلامي لنشر هذا الفكر (التقاربي، التعاوني، الحواري)، وسنبدأ، إن شاء الله، السنة القادمة بمؤتمر نوجز فيه ما توصل إليه الفكر المسيحي، وبنوع خاص الفكر الكاثوليكي (في هذا المجال، خاصة) من بعد انتهاء المجمع الفاتيكاني الثاني. سررت أن أرى في محاضرتكم القيمة موجزاً ومطابقة لكل ما نعدّ له... أريد أن أطرح ـ بكل بساطة ـ عليكم، السؤال الآتي: هل تطور الفقه الإسلامي إلى ما يفسح في المجال لهذا التعاون؟ مثلاً، حقوق الإنسان، أصبحت أمراً معترفاً به في جميع دول (العالم) ومنها الحريات الدينية...».

(راجع كتاب: الشيخ محمد علي التسخيري، **التقارب الإسلامي ـ المسيحي: محاولة فهم جديدة**، بيروت، منشورات دار الحق، ط١: ١٩٩٧، الصفحة ٢٩ و٣٠).

يبقى أن نؤكد السؤال الآتي، فنقول: هل أصبحت جميع المؤسسات الدينية العالمية سواء في المسيحية أو الإسلام تعترف اعترافاً فعلياً عملياً بشرعة حقوق الإنسان، الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة أم لا؟

لقد آن الأوان وحان الوقت والموعد، لكي تبحث المسيحية والإسلام ولو طويلاً، ويستنبطا ولو بعد مدة، صيغة قابلة للحياة تؤمّن لهما حواراً وتفاهماً مشتركاً، تقارباً وتعاوناً مستقبليًا في سائر مجالات الحياة! الجميع يعرف أن ذلك المشروع ليس

بالشأن السهل البسيط القابل للتحقيق دون وهنٍ أو عثرات ودون عراقيل أو صعوبات.
لا وألف لا! فالمطلوب شاق وطويل العناء، صعب وكثير العسر... غير أنه واجب لازم لسبب بسيط واضح وجليّ وهو أن المسيحيين والمسلمين محكومون اضطراراً بأن يعيشوا على الكوكب نفسه: أرض الناس كلهم! كل البشر!

ثبت المصادر والمراجع

(حسب ترتيب ورودها في سياق النص)

- **الكتاب المقدّس ـ كتاب الحياة**، ترجمة تفسيرية، القاهرة، ب. ن، ط ٤ : ١٩٩٢.
- **كنيسة مدينة الله إنطاكية العظمى**، الجزء الأول، تأليف: الدكتور أسد رستم مؤرخ الكرسي الإنطاكي، بيروت، منشورات النور، ب. ت.
- **تاريخ المجامع المسكونية**، الجزء الثاني، تأليف: ب. ث. كاملو.
- **القرآن المجيد**.
- **سُنَنُ الترمذي**.
- **بحثك عن الله**، تأليف ريتشارد تبيت.
- **التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية**، الطبعة الفرنسية، فتا ـ نوار ١٩٩٤ ـ بيروت ـ لبنان.
- **قصص الأنبياء**، إعداد قسم الأبحاث والدراسات الإسلامية في جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية، بيروت، دار المشاريع للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧.
- **كتاب مرداد**، تأليف مخائيل نعيمة، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع.
- **أتباع المسيح**، تأليف: وليام م. ماير، ترجمة الدكتور يوسف متّى إسحاق، منصورية المتن، منشورات دار منهل الحياة، ١٩٨٦.
- **شبهة الغلوّ عند الشيعة**، تأليف الدكتور عبد الرسول الغفار، بيروت، دار المحجة البيضاء / دار الرسول الأكرم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- **هل الله واحد أم ثلاثة؟** تأليف الأخ يوسف، منصورية المتن، منشورات دار النشر المعمدانية، ١٩٨٦.
- **القول الإبريزي**، للعلامة أحمد المقريزي.
- **الملل والأهواء والنحل**، للعلامة إبن حزم.
- **الردّ الجميل**، للإمام أبي حامد الغزالي.
- **هادي الأرواح**، للعلامة الإمام إبن قيّم الجوزية.
- **صحيح البُخاري**، للعلامة الإمام أبي عبد الله البخاري، بيروت، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- **مشكاة المصابيح**، تأليف العلامة محمّد ناصر الدين الألباني.
- **تاريخ الشعوب الإسلامية**، تأليف كارل بروكلمان، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، بيروت، منشورات دار العلم للملايين، ط ٤ : ١٩٦٥.

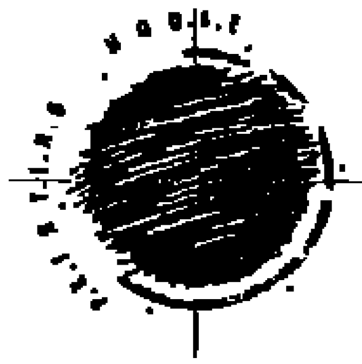
- **جهاد الأمّة، محاضرات الإمام الشيخ محمّد مهدي شمس الدين**، بقلم الشيخ حسن مكي، ١٩٩٧.
- **الكامل في التاريخ**، لإبن الأثير.
- **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، تأليف الدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فرّوخ، بيروت - صيدا، منشورات المكتبة العصرية، ط ٥، ١٩٧٣.
- **كلمة السواء، الإمام الصدر والحوار**، بيروت، منشورات مركز الإمام الصدر للأبحاث والدراسات / شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط ١: ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

محتويات الكتاب

الباب الثالث

محاور الافتراق

فصل ختامي



دار الكتب ش.م.ل.

بئر حسن، شارع عدنان الحكيم

مقابل BHV، مبنى بارادايز

هاتف/فاكس. ٠١.٨٥٣٧٥٣ (٥ خطوط)

بريد الكتروني darkotob@cyberia net.lb

رأس المال ٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ ل.ل.

س.ت. ٧٢٧٠٥. بيروت لبنـــان

ترخيص إستثمار رقم ٤٠٨

١٥٠٠/٠٤/١٣٦٥

محاور الالتقاء ومحاور الافتراق

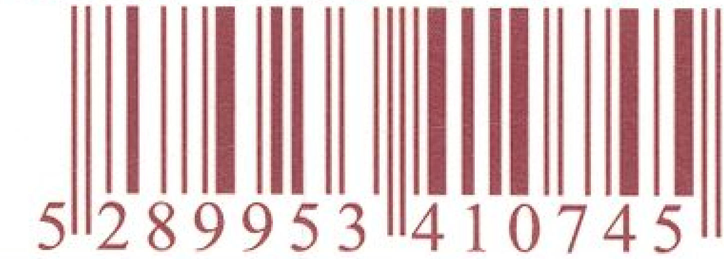
بين

المسيحية والإسلام

□ لا شك في أن أي إسهامٍ في عملية التغذية وحركة الدعم لتيار الفهم والتفهّم بين سائر المؤمنين بالله، يُعتبر عملاً إيجابياً خيِّراً، وجهداً بنّاءً مباركاً. فكل جهد أو مسعى هدفه ومآله التمهيد لمسار التعاون والتفاهم بين المؤمنين، كل المؤمنين، في سبيل الوصول إلى إحياء تلك «الورقة القديمة ـ الحديثة»، وتنشيطها، ورشة المشاركة والحوار، ورشة الفهم المشترك والتسامح.

□ دراستنا الصغيرة هذه، تسعى إلى أن تكون بمثابة حرف الألف في مشروع المسار الطويل، الذي لا بد من اجتيازه بتأنٍّ ووعي وحذر، كي ما نصل إلى تمام حرف الياء، خاتمة المطاف وقمّة المسعى، في عملية التعرُّف والفهم المشترك لماهية المسيحية والإسلام... ما يجمعهما وما يفرقهما: فالمساهمة لازمة وضرورية، حتى ولو كانت موجزة مقتضبة. والبحث مفيد وممتع، حتى ولو كان ناقصاً بعيداً عن الكمال.




ISBN 9953-410-74-7
5 289953 410745

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت